أَدَبُ صَدْرِ الإسْلام

الدكتور
مُحَمَّد خضُر
أستاذ الأدَب وَفِقهِ اللغة في الجامِعَة اللبنانية

طبعة خاصة
١٤٠١هـ - ١٩٨١م

أدب صدر الاسلام

تعــريف

أدب **صدر الاسلام** . . مجموعة كتب في كتاب واحد . . .

يعالج موضوع : القرآن الكريم : نزوله ، جمعه ، تفسيره ، أهم علومه .

الحديث النبوي : روايته ورواته ، أهم مصطلحاته .

الشعر والنثر : المظاهر والأغراض

وثمة مختارات وشواهد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ونماذج في الخطابة والكتابة وشخصيات شاعرة نظير : عبد الله بن رواحه ، كعب بن زهير ، النابغة الجعدي ، الحطيئة ، لبيد بن ربيعة ودراسة مميزة للشاعر حسان بن ثابت . . ومن أهم مصادر ومراجع هذا الكتاب :

- القرآن (مع نماذج من تفسيره) ـ كتب الحديث النبوي .
- سيرة النبي لابن هشام .
- كتاب الطبقات الكبير لابن سعد .
- كتاب المغازي للواقدي .
- أدب وأدباء للأستاذين ابراهيم الصباغ وحسن جاد .

ـ من عبير الأدب للدكتور محمد سرحان .
ـ العصر الاسلامي . د . شوقي ضيف .
ـ الخطابة العربية في عصرها الذهبي د . احسان النص .
ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة .
ـ المفضليات والاصمعيات وطبقات فحول الشعراء .
ـ مذكرة في الأدب الاسلامي د. صبحي الصالح .
ـ مباحث علوم القرآن د . صبحي الصالح .
ـ علوم الحديث ومصطلحه د . صبحي الصالح .
ـ نصوص مختارة من الأدب الاسلامي والأموي . د. وهيب طنوس .
ـ حسان بن ثابت للأستاذ محمد لطفي جمعة .
ـ التعبير الفني في القرآن . د. بكري شيخ أمين .
ـ دراسات في النقد الأدبي . د. بدوي طبانة .
ـ شعر المخضرمين وأثر الاسلام فيه . د. يحيى الجبوري .
ـ مباحث في علوم القرآن د . مناع القطان .
ـ التبيان في علوم القرآن د . محمد علي الصابوني .

علوم القرآن الكريم

التعريف ـ نزول القرآن الكريم ـ الوحي ومعناه جمع وكتابة القرآن ـ حكمة نزوله منجماً مفرقاً .

الأحرف السبعة .

مباحث علوم القرآن ـ المكي والمدني ـ الناسخ والمنسوخ ـ المطلق والمقيد ـ المفهوم والمنطوق ـ نزول القرآن على سبعة أحرف .

ـ أهم كتب المفسرين .

نماذج وشواهد لآيات مع أسباب النزول .

* * *

في « أدب صدر الإسلام »
مباحث القرآن الكريم
نزوله ـ جمعه وتدوينه ـ علومه

التعريف ـ

القرآن الكريم « هو كلام الله المعجز ، المنزَّل على خاتم الأنبياء والمرسلين ، بوساطة الأمين جبريل عليه السلام ، المكتوب في المصاحف ، المحفوظ في الصدور ، المنقول إليه بالتواتر ، المتعبَّد بتلاوته ، المبدوءُ بسورة الفاتحة ، المختتم بسورة الناس » هذا التعريف متفق عليه بين العلماء والأصوليين .

ـ القرآن الكريم هو كتاب الله تعالى ، أنزله على الرسول العربي صلى الله عليه وسلم لهداية الناس إلى طريق الرشد ، وإيقافهم على معالم الحق والخير .

ولقد كان القرآن المعجزة الكبرى للنبي صلى الله عليه وسلم والآية الدالة على أنه موحى به من الله تعالى لما فيه من جزالة ، وحسن السبك ، وقوة التشريع ، وأحكام الدعوة مما عجز عن مجاراته الفصحاء والبلغاء ، والمشرعون والحكماء .

ـ القرآن الكريم هو أصح وثيقة تاريخية تشريعية أدبية عرفتها الحضارة الإنسانية وما من ريب في أن كتاباً سواه لم يُحط بمثل العناية التي أحيط بها

ولم يصل كاملاً ـ كما وصل ـ بتواتر سوره وآياته ، وألفاظه ، وحروفه ، وقراءاته ووجوهه .

أما معنى لفظ « قرآن » فهو مرادف لمعنى القراءة . ذلك أن « قرأ » تأتي بمعنى « جمع » والقراءة ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل » والقرآن في الأصل كالقراءة ، مصدر قرأ قراءة وقرآنا . قال تعالى ﴿ **إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه** ﴾ أي قراءته .

ولقد اختار الله لوحيه أسماء جديدة مخالفة لما سمي به العرب كلامهم جملة وتفصيلاً ، وروعيت في تلك الألقاب أسرار التسمية وموارد الإشتقاق ، واشتهر منها لقبان : الكتاب والقرآن .

ولكتاب الله أسماء عدة : منها القرآن ، والفرقان ، والكتاب ، والذكر والتنزيل .

ـ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً (الفرقان ١) .

ـ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين (البقرة ٢) .

ـ إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون (الحجر ٩) .

ـ وإنه لتنزيل رب العالمين (الشعراء ٩٢) .

وقد وصفه الله بأوصاف كثيرة منها : أنه نور ، وهدى ، ورحمة ، وشفاء ، وكريم ، ومبين ، وموعظة ، وبشرى .

وفي تسميةِ بالكتاب إشارة إلى جمعه في السطور ، لأن الكتابة جمع للحروف ، ورسم للألفاظ ، كما أن في تسميته بالقرآن إيماءة إلى حفظه في الصدور .

وقد كان لجمع القرآن في عصر النبوة المعنيان معاً : الجمع في الصدور ، عن طريق الحفظ والإستظهار . والجمع في السطور عن طريق

الكتابة والنقش فكلمة « جمع » تطلق أحياناً ويراد منها الحفظ والاستظهار في صدور الرجال ، وتطلق تارة ويراد منها الكتابة والتسجيل في الصحائف والأوراق .

معنى الوحي :

الإلهام والفهم والإستنتاج . **والوحي** : هو خطاب الله أنبياءه ورسله ، أولئك النفر الذين هيئوا تهيئة خاصة ، وربّوا تربية معينة ، ليستطيعوا قيادة الأمم والشعوب والملايين من بني الإنسان . ولقد خاطب الله رسله جميعاً ، وأوحى إليهم ، وكلمهم ، دون استثناء . . وقد كتب الله لهذا الوحي المبين من العناية ما كفل صيانته في حرز حريز .

ومن **أنواع الوحي** على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم واشكاله وصوره .

١ ـ إن جبريل كان يأتيه بصورة رجل إعرابي ، فيكلمه ، ويسأله ، ويلقي إليه ما يريد إلقاءه بكلام واضح مفهوم ، ويرى الصحابة ذلك الرجل الإعرابي .

٢ ـ يأتي في مثل صلصلة الجرس أو على هيئة (أي جبريل) التي خلقه الله بها وهي صورة ملك له أجنحة .

٣ ـ النفث في الروع وذلك يعني إلقاء المعنى في خاطر الرسول الذي قال « إن روح القدس نفث في روعي ، لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » .

٤ ـ تكليم الله إياه بلا وساطة ، ولقد كان ذلك حين عرج إلى السماء في حادثة الإسراء والمعراج ، وأوحى الله إليه بالصلاة .

« الوحي القرآني هو استقبال من الرسول لحقيقة ذاتية مستقلة خارجة عن كيانه وشعوره الداخلي ، وبعيدة عن كسبه أو سلوكه الفكري أو العملي

فالرسول أمي لم يقرأ كتاباً ولم يخط بيمينه ، ولم يدرس ثقافة باجماع المؤرخين العلماء .

يقول د . صبحي الصالح في « مذكرة في الأدب الإسلامي » « ولقد راع القرآن الكريم خيال العرب بصوره الحية ، ومشاهده الشاخصة ، وألفاظه الموحية ، وفواصله الشافية ، وألحانه العذاب ، فقالوا : شاعر نتربص به ريب المنون ولا شك أن الفصحاء فيهم عرفوا أن ليس في القرآن شيء من الشعر ، وإن أسلوبه يعلو ولا يُعلى ، وما هو بقول بشر ، حتى قال قائلهم : » إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمغدق ، وإن أسفله لمتمر ، وما هو بقول بشر » .

إلا أن القرآن ظل يتحداهم بمعارضته ، ويطاولهم في المعارضة ، حتى إلا أن يقولوا شعر أو سحر مبين .

تحداهم أول الأمر أن يأتوا بمثل هذا القرآن وهو جميعه كلام الله ومن أصدق من الله قولا؟ فقال لهم في سورة الطور : **﴿ أم يقولون تقوّله؟ بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾** . ثم تنازل لهم عن التحدي بجميع القرآن الصادق الذي لا يخالف الواقع في شيء إلى التحدي بعشر سور مثله .

ولو كانت مفتريات لا أصل لها ولا سند ، فقال في سورة هود :

﴿ أم يقولون افتراه ؟ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إنْ كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو ، فهل أنتم مسلمون ﴾ ؟ .

فلما عجزوا حتى عن السور العشر المفتريات تنازل إلى تحديهم بسورة واحدة من مثله فقال في سورة البقرة : **﴿ وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم**

صادقين . **فإن لم تفعلوا ـ ولن تفعلوا ـ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين** ﴾ . حتى إذا عجزوا عن معارضة سورة واحدة من سوره ـ وهم أمة الفصاحة والبلاغة ـ جلجل صوته في الآفاق ، وتحدى أمم العالم قائلاً في ثقة ويقين ﴿ **قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾ .

بالأسلوب المعجز الساحر مسّ القرآن إذا قلوب العرب منذ الفترة المكية ، قبل أن تنزل آياته التشريعية ، ونبوءاته الغيبية ، ونظرته الكلية الكبرى إلى الكون والحياة والإنسان . ولو أتيح لمعاصري الوحي القرآن أن يطلعوا منه على الجانب العلمي والجانب الفلسفي اللذين أتيح لبعضنا أن يطلعوا عليهما ، وكان لهم من الثقافة مما يمكنهم من الحكم على حقائق التاريخ لأدركوا مثل جميع المنصفين عجز الزمان عن ابطال شيء منه ولأيقنوا أن علوم الكون ستظل جميعاً في خدمته للكشف عن آيات الله في الآفاق والأنفس ، كما قال تعالى : ﴿ **سَنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد** ﴾ .

وشاءت الحكمة الإلهية أن يظل الوحي متجاوباً مع الرسول الكريم يعلمه كل يوم شيئاً جديداً ، ويرشده ويهديه ، ويثبته ويزيده اطمئناناً ، ، ومتجاوباً مع الصحابة يربيهم ويصلح عاداتهم ويجيب عن وقائعهم ولا يفاجئهم بتعاليمه وتشريعاته . وعلى هذا ظل القرآن ينزل نجوماً ليقرأه النبي صلى الله عليه وسلم على مكث ويقرأه الصحابة شيئاً بعد شيء يتدرج مع الأحداث والوقائع والمناسبات الفردية والإجتماعية التي تعاقبت في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم خلال ثلاثة وعشرين عاماً على الأصح ، تبعاً للقول بأن مدة إقامته عليه السلام في مكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة ، وأن إقامته بالمدينة هي عشر سنين باتفاق العلماء .

وبدأ نزول القرآن في ليلة القدر ، التي هي إحدى الليالي العشر

الأواخر من رمضان ، كما قال تعالى : ﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان** ﴾ ، ثم استمر نزوله بعد ذلك متدرجاً ـ مع الوقائع والأحداث .

وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في المسجد ، والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته ، فلما فطن النبي لاستماعه أعاد قراءة الآية فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم . فقال : « والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الأنس ولا من كلام الجن ، والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وأنه يعلو ولا يعلى » .

أعجز القرآن المعاندين عن الاتيان ولو بسورة من مثله ، وقد اتفقت كلمة العلماء على أن القرآن لم يعجز الناس عن أن يأتوا بمثله من ناحية واحدة معينة وإنما أعجزهم من نواح متعددة لفظية ومعنوية وروحية ومن وجوه .

اعجاز القرآن .

١ ـ فصاحة الفاظة وبلاغة عباراته (كُتُب : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للجرجاني ، إعجاز القرآن للرافعي . في ظلال القرآن لقطب) .

٢ ـ الإخبار عن المغيبات ووقوعها كما أخبر (قصص الأمم السابقة وغلبة الروم على الفرس « غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين » .

٣ ـ الوفاء بكل ما وعد الله (فتح مكة المكرمة) .

٤ ـ سمو التشريع وشموله (أحكام الأسرة والميراث والجنايات والمعاملات) .

٥ ـ كونه لا يتعارض مع العلم اليقيني (كروية الأرض) .

٦ ـ النظم البديع الذي سحر الفصحاء وأعجز البلغاء « الرحمن ، علّم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ، والأرض وضعها للأنام ، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

٧ ـ اتساق أحكام القرآن ونظرياته (في القرآن حوالي ستة آلاف آية طرقت موضوعات متعددة اعتقادية وخلقية وتشريعية وقررت نظريات كثيرة كونية واجتماعية ووجدانية اتسقت معانيها كما اتسقت عبارتها .

٨ ـ فضل القرآن على العرب واللغة العربية (حفظ كيانهم ، ووحّد لهجاتهم ، وزاد اللغة غنى ومدّ سلطانها على أوسع مناطق الدنيا وأوجد علوماً كثيرة .

ومن مقاصد القرآن : العقائد ، العبادات ، التشريع ، الأخلاق .

ومن العقائد والعبادات الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر وقيام الصلاة وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .

ومن المسائل المدنية « الدين (المداينة) والإجارة والرهن . ومن الأمور الجنائية أحكام السرقة والزنى والقتل وقطع الطريق (قانون عقوبات) و « قانون أحوال شخصية (نظام الأسرة والزواج والطلاق والميراث) وقانون دولي (السلام والحرب والأسرى والمعاهدات) .

والأخلاق من ثمرات العبادة لإصلاح الفرد والمجتمع والأمة .

وهكذا مَسَّ القرآن قلوب مستمعيه وقارئيه بأسلوبه المعجز الساحر ومعانيه السامية فآمنوا به وصدقوا . . .

بدأ نزول القرآن على محمد في غار حراء قرب مكة المكرمة بقوله تعالى ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ واستمر نزوله ثلاثا وعشرين سنة ومن أسباب نزول القرآن منجماً مقسماً حسب المناسبات ومقتضيات الأحوال .

١ - التلطف بالنبي ، والتخفيف فيما يلقاه من شدة عند نزول الوحي وتلقيه كلام الله عز وجل .

٢ - تثبيت فؤاد النبي أمام ما كان يتعرض له من أذى المشركين وعنتهم بها دفعة واحدة (قصة تحريم الخمر في ثلاث مراحل) .

٤ - رسوخ الأحكام والدقة في فهمها .

٥ - تسهيل حفظ القرآن لانتشار الأمية بين العرب والرسول أميّ .

٦ - تقديم الحلول للمشاكل الطارئة في وقتها المناسب (حادثة الظهار وأسرى بدر ويوم غزوة حنين) .

٧ - جواباً عن سؤال ، أو حلاً لإشكال .

وهكذا قضت حكمة الله أن يظل الوحي متجاوباً مع الرسول يعلمه كل يوم شيئاً جديداً ، ويرشد الصحابة إلى ما فيه الخير في الدنيا والأخرة وآخر ما نزل من القرآن ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم . . .** ﴾ أو ﴿ **واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ .

وهناك قسم من الآيات ينزل دون حصول مناسبة تستدعي بيان حكم الله فيها ، فلا يكون نزوله مسبوقاً بسؤال من أحد ، أو وقوع حادثة ما ، إنما ينزل ابتداء ، غير مبني على سبب من الأسباب كنزول كثير من الآيات المتضمنة لقصص الأنبياء السابقين .

وكان الرسول عليه السلام يحفظ كل ما ينزل عليه كما يأمر كتاب

الوحي بكتابتها فور نزولها كما كان يقرأ الآيات في صلاته ويشترك مع جبريل في عرضه في شهر رمضان وقد جمع النبي الصحابة قبل وفاته فعرض عليهم القرآن كله عرضته الأخيرة ومن حفاظ القرآن وكتابه : الخلفاء الراشدون والصحابة وأمثال زيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وعبد الله بن مسعود ، وسعد بن أبي وقاص وأبو هريرة وأبو موسى الأشعري وأنس بن مالك ومعاوية بن أبي سفيان « **والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب** » كما يقول العلماء كتب القرآن على العسب واللخاف والرقاع والكرانيف والاقتاب وقطع الأديم وعظام الأكتاف .

والعسب جمع عسيب وهو جريد النخل واللخاف جمع لخفة وهو صفائح الحجارة ، والرقاع جمع رقعة وهو الجلد أو الورق والكرانيف جمع كرنافة وهو أصول سعف النخل ، والأقتاب جمع قتب وهو خشب يوضع على ظهر البعير .

لما استشهد عدد كبير من حفاظ وكتاب القرآن جمع أبو بكر القرآن في مصحف واحد انتقل إلى عمر ثم إلى ابنته حفصة زوجة الرسول ثم جاء عثمان ونسخ المصحف في عدة نسخ وزعها على الأمصار واشتهر بالمصحف الإمام أو مصحف عثمان والأمصار (مكة والبصرة والكوفة والشام واليمن والبحرين) .

والفرق بين جمع أبي بكر وعثمان .

إن الجمع الأول كان جمعاً للصحف المتفرقة عند الصحابة ثم جعلت مصحفاً واحداً وأما الجمع الثاني فكتابة نسخ من المصحف المجموع في عهد أبي بكر وأول من تنبه إلى الجمع الأول هو عمر بن الخطاب والسبب الثاني في الجمع هو الإختلاف في تلاوة القرآن .

أما الشكل والنقط فقد تمَّ على يد « أبي الأسود الدؤلي الذي وضع النقط على الحروف ووصل إلينا القرآن عن طريق الكتابة على الرسم

العثماني والمشافهة والتلقين « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

ومن مزايا مصحف أبي بكر الصديق .

- التحري الدقيق وإجماع الأمة عليه واشتماله على الأحرف السبعة ومن علوم القرآن : المكي والمدني ، والناسخ والمنسوخ ، المحكم والمتشابه والتفسير ، والأحرف السبعة ورسم القرآن وأحكام التجويد .

إن السليقة العربية الأصيلة التي كان يتمتع بها العرب ، والأصالة اللغوية التي فطروا عليها تمنعان من تسرب اللحن إلى ألسنتهم وهناك أسلوب التلقي والمشافهة .

ومن الثابت المؤكد أن ابن كثير - وهو من علماء القرن الثامن الهجري ، قد رأى مصحف الشام فهو يقول في كتابه « فضائل القرآن » : « أما المصاحف العثمانية فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق عند الركن الشرقي المقصورة ، وكان قديماً بمدينة طبرية ثم نقل منها إلى دمشق سنة ١٨ هجرية (أي في القرن السادس الهجري) وقد رأيته عظيماً ضخماً بخط حسن في رق أظنه من جلود الإبل » .

ويبدو كذلك أن ابن الجزري صاحب « النشر في القراءات العشر » وابن فضل العمري صاحب « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » قد رأيا كلاهما هذا المصحف الشامي نفسه ويميل بعض الباحثين إلى أن هذا المصحف أمسى زمناً ما في حوزة قياصرة الروس في دار الكتب في لينينجراد ثم نقل إلى انكلترا وقد ظهر القرآن مطبوعاً للمرة الأولى في البندقية سنة ١٥٣٠ م ولكن أمراً باتلافه أصدر حال ظهوره ثم تعددت الطبعات في مدينة هانبورغ عام ١٦٩٤ وفي بادو سنة ١٦٩٨ وفي سانت برسبورغ سنة ١٧٨٧ وهذه الأخيرة هي التي قام بها مولاي عثمان وظهر مثلها في قازان وفي إيران ظهره طبعتان عامي ١٨٢٨ و١٨٣٣ وهناك طبعة للمستشرق فلوجل عام

١٨٣٤ في ليبزيغ كما ظهرت طبعات في الهند والأستانة والقاهرة عام ١٩٢٣ تحت إشراف مشيخة الأزهر .

الأحرف السبعة .

صرح الرسول عليه السلام بنزول القرآن على سبعة أحرف « أنزل القرآن على سبعة حروف كلها شاف كاف » والأحرف السبعة تعني سبع لغات أو لهجات من لغات العرب وهي لغة قريش وهذيل وثقيف وهوازن وكنانة وتميم واليمن وفي الأحرف السبعة تخفيف وتيسير على القارىء من قبائل شتى تعرف الترقيق والتفخيم والإمالة وكسر حرف المضارعة وقلب بعض الحروف والأحرف السبعة لا تعني القراءات السبع المشهورة لأن هؤلاء القراء لم يكونوا قد خلقوا حين نطق الرسول بتلك الأحاديث ومن الممهدين لعلوم القرآن .

الخلفاء الأربعة وابن عباس وابن مسعود ومالك بن أنس وغيرهم وعلم القراءة مذهب من مذاهب النطق في القرآن يذهب به إمام من أئمة القرّاء مخالفاً به غيره .

أما الإيقاع والتلحين والترعيد والتطريب والترنيم فهي أمور مبتدعة .

وكتاب « البرهان في علوم القرآن » للحوفي قد اشتمل على بعض علوم القرآن وهناك « فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن » لابن الجوزي و « الإتقان في علوم القرآن » للسيوطي و « محاسن التأويل » للقاسمي و « مناهل العرفان في علوم القرآن » للزرقاني و « تفسير القرآن الحكيم » لمحمد رشيد رضا .

ولمعرفة أسباب النزول يجب معرفة الرواية الصحيحة أما نص في بيان هذا السبب وأما محتمله له ولسواه .

لقد عكف العلماء على معرفة أسباب نزول كل آية معرفة دقيقة موثوقة

ليتمكنوا من تفسيرها التفسير الصحيح ، ولينطلقوا إلى استخلاص الأحكام الشرعية على أساس ثابت مكين ومن الكتب « أسباب النزول » للواحدي و « أسباب النزول » للعسقلاني و « لُباب النقول في أسباب النزول » للسيوطي ولا يمكن أن ندرك أسباب النزول إلا من الرواية الصحيحة والسماع ممن شاهدوا التنزيل ، أو وقفوا على الأسباب وبحثوا فيها من الصحابة والتابعين وغيرهم ممن اكتسبوا علومهم على أيدي العلماء الموثوقين وإذا أردنا معرفة المقاييس التي أطلقت ، فسمي هذا مكياً وسمي هذا مدنياً وجدنا **ثلاثة آراء هي اعتبار زمن النزول ، واعتبار مكان النزول ، واعتبار الخاطب /** مثلاً .

نزلت هذه الآية قبل الهجرة .. في مكة المكرمة ، مخاطبة كفار قريش .. وفي دراسة الآيات المكية والمدنية فوائد بمعرفة أسباب النزول **والناسخ والمنسوخ ومن خصائص الآيات المكية .**

١ ـ الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده ، واثبات الرسالة والبعث وذكر القيامة والجنة والجحيم ومجادلة الكفار .

٢ ـ وضع الأسس العامة للفضائل والتشريع وفضح آكلي أموال اليتامى .

٣ ـ ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة للعظة .

٤ ـ قصر الفواصل مع قوة الألفاظ وإيجاز العبارة .

٥ ـ وجود سجدة في بعض السور المكية ولفظة « كلاّ » و « يا أيها الناس » وحروف « ألم ، الر » وقسم .

٦ ـ وجود قصة آدم وحواء وإبليس .

ومن ميزات الآيات المدنية .

ذكر الجهاد وتفاصيل الأحكام الشرعية وذكر المنافقين اليهود وطول السور والآيات وبيان العبادات كالصلاة والزكاة والصوم .

الناسخ والمنسوخ

إن الباحث في تفسير القرآن من جهة ، **وتقعيد** الأحكام الشرعية من جهة ثانية . **والقضاء والفتوى** من جهة ثالثة يحتاج إلى معرفة الناسخ والمنسوخ . **وللنسخ معاني** الإزالة والنقل والمحاكاة أنسخت الشمس الظل . . . نسخت الكتاب . تناسخت الأرواح والنسخ في الإصطلاح)٧

رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي قطعي الدلالة ومتأخر عنه والمقصود بالحكم الشرعي خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين ، والخطاب الشرعي هو وحي الله مطلقاً .

والمنسوخ هو الحكم المرتفع فالآية القرآنية ﴿ **كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً** الوصية **للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين** ﴾ منسوخة بالحديث « ألا لا وصية لوارث ويشترط في النسخ :

١ ـ أن يكون الحكم المنسوخ شرعياً .

٢ ـ أن يكون الناسخ دليلاً شرعياً متراخياً عن المنسوخ ، غير متصل به .

٣ ـ ألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيداً بوقت معين ، وإلا فالحكم ينتهي بانتهاء وقته ، ولا يعد هذا نسخاً .

فالنسخ في الأحكام الفرعية العملية من أمر أو نهي لا في أصول العقائد ، وأمهات الفضائل والأخبار (الإيمان باليوم الآخر ـ الأمانة) » .

وشرائع السماء جميعاً متفقة في هذه الأصول لقوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك ، وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه ﴾ .

ومن طرق معرفة الناسخ والمنسوخ : الإجماع ومعرفة المتقدم من المتأخر في التاريخ وهناك نسخ القرآن بالقرآن ونسخ القرآن بالسنة (توجه

المصلين إلى بيت المقدس بفلسطين ثم التحول إلى مكة) . ﴿ **ما ننسخ من آية أو ننسها نأتِ بخير منها أو مثلها** ﴾

وهناك الاعتداد للأرملة بحول أي سنة ونسخها بأربعة أشهر وعشرة أيام **والإحكام** يعني الإتقان والمنع عن الفساد والحكمة معروفة والتشابه والمشاركة والمماثلة والشبهة ﴿ **إن البقر تشابه علينا** ﴾ ﴿ **وأوتوا به متشابهاً** ﴾ .

والقرآن كله محكم ﴿ **كتاب أحكمت آياته** ﴾ وهو متشابه بتماثل آياته في البلاغة والإيجاز « منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأُخر متشابهات . . . وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم » .

فالمحكم ما عرف المراد منه إما بالظهور وإما بالتأويل ، **والمتشابه** ما استأثر الله بعلمه ، كقيام الساعة وقيل **المحكم** ما وضح معناه ، **والمتشابه** نقيضه **ومن الشروط التي يجب توافرها في الإنسان ليكون قادراً على التفسير** اللغة والنحو والتصريف والإشتقاق والبلاغة وعلم القراءات وأصول الدين والفقه والناسخ والمنسوخ والحديث النبوي بالإضافة إلى الثقافة والذكاء ومن أنواع التفسير : التفسير بالمأثور وبالرأي والتفسير الصوفي والفلسفي والإجتماعي والعلمي والأدبي ومن أشهر كتب التفسير .

- جامع البيان في تفسير القرآن للطبري .
- تفسير ابن كثير .
- تفسير القرآن العظيم للإمام أبي الفداء .
- لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن .
- البحر المحيط لابن حيان .
- تفسير الجلالين لجلال والجلال السيوطي .
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي .
- مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للرازي .

ـ عرائس البيان في حقائق القرآن للشيرازي .
ـ في ظلال القرآن لسيد قطب ـ أضواء البيان للشنقيطي .
ـ المنار لرشيد رضا .

وهناك تفسير القرآن بغير لغته أو ترجمة القرآن ترجمة حرفية أو تفسيرية إلى لغات غير عربية .

إن أسلوب القرآن هو الطريقة التي انفرد بها في تأليف كلامه ، واختيار ألفاظه فهو أسلوب خاص معجز .

المُطـلق وَالمقيَّـد

بعض الأحكام التشريعية يرد تارة مطلقاً في فرد شائع لا يتقيد بصفة أو شرط ، ويرد تارة أخرى متناولاً له مع أمر زائد على حقيقته الشاملة لجنسه من صفة أو شرط ، وإطلاق اللفظ مرة وتقييده أخرى من البيان العربي ، وهو ما يعرف في كتاب الله المعجز « بمطلق القرآن ومقيده » .

تعريف المطلق والمقيد

المطلق : هو ما دل على الحقيقة بلا قيد ، فهو يتناول واحداً لا بعينه من الحقيقة ، وأكثر مواضعه النكرة في الإثبات كلفظ (رقبة) في مثل (فتحرير رقبة) فإنه يتناول عتق إنسان مملوك - وهو شائع في جنس العبيد مؤمنهم وكافرهم على السواء - وهو نكرة في الإثبات ، لأن المعنى : فعليه تحرير رقبة ، وكقوله على السواء - وهو نكرة في الإثبات ، لأن المعنى : فعليه تحرير رقبة ، وكقوله عليه الصلاة والسلام « لا نكاح إلا بولي » رواه أحمد والأربعة . وهو مطلق في جنس الأولياء سواء كان رشيداً أو غير رشيد . ولهذا عرفه بعض الأصوليين بأنه عبارة عن الفكرة في سياق الإثبات ، فقولنا « نكرة » احتراز عن أسماء المعارف وما مدلوله واحد معين ، وقولنا « في

(١) أنظر الإتقان صفحة ٣١ ج ٢ .

سياق الإثبات » احتراز عن النكرة في سياق النفي فإنها تعمّ جميع ما هو من جنسها .

والمقيد : **هو ما دلَّ على الحقيقة بقيد ، كالرقبة المقيدة بالإيمان في قوله ﴿ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ .**

أقسام المطلق والمقيد وحكم كل منها

وللمطلق والمقيد صور عقلية نذكر منها الأقسام الواقعية فيما يلي :

١ ـ **أن يتحد السبب والحكم** : كالصيام في كفارة اليمين : جاء مطلقاً القراءة المتواترة بالمصحف ﴿ **فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم** ﴾ (٨٩ ـ المائدة) ومقيداً بالتتابع في قراءة ابن مسعود « فصيام ثلاثة أيام متتابعات » ـ فمثل هذا يحمل المطلق فيه على المقيد لأن السبب الواحد لا يوجب المتنافيين ـ ولهذا قال قوم بالتتابع[1] ، وخالفهم من يرى أن القراءة غير المتواترة ـ وإن كانت مشهورة ـ ليست حجة ، فليس هنا مقيد حتى يحمل عليه المطلق .

٢ ـ **أن يتحد السبب ويختلف الحكم** : كالأيدي في الوضوء والتيمم . قيد غسل الأيدي في الوضوء بأنه إلى المرافق ، قال تعالى ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق** ﴾ (٦ ـ المائدة) وأطلق المسح في التيمم قال تعالى ﴿ **فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه** ﴾ (٦ ـ المائدة) فقيل لا يحمل المطلق على المقيد لاختلاف الحكم . ونقل الغزالي عن أكثر الشافعية حمل المطلق على المقيد هنا لإتحاد السبب وإن إختلف الحكم .

٣ ـ **أن يختلف السبب ويتحد الحكم** : وفي هذا صورتان :

أ ـ **الأولى** : أن يكون التقييد واحداً . كعتق الرقبة في الكفارة ، ورد

---

(١) وبه قال أبو حنيفة والثوري ، وهو أحد قولي الشافعي .

اشتراط الإيمان في الرقبة بتقييدها بالرقبة المؤمنة في كفارة القتل الخطأ ، قال تعالى ﴿ **وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة** ﴾ (٩٢ ـ النساء) وأطلقت في كفارة الظهار ، قال تعالى ﴿ **والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا** ﴾ (٣ ـ المجادلة) وفي كفارة اليمين ، قال تعالى ﴿ **لا يؤاخذكم الله باللغو في إيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة** ﴾ (٨٩ ـ المائدة) فقال جماعة منهم المالكية وكثير من الشافعية يحمل المطلق على المقيد من غير دليل ، فلا تجزىء الرقبة الكافرة في كفارة الظهار واليمين ، وقال آخرون ـ وهو مذهب الأحناف ـ لا يحمل المطلق على المقيد إلا بدليل ، فيجوز إعتاق الكافرة في كفارة الظهار واليمين .

وحجة أصحاب الرأي الأول أن كلام الله تعالى متحد في ذاته ، لا تعدد فيه ، فإذا نص على اشتراط الإيمان في كفارة القتل ، كان ذلك تنصيصاً على اشتراطه في كفارة الظهار ، ولهذا حمل قوله تعالى : ﴿ **والذاكرات** ﴾ على قوله في أول الآية ﴿ **والذاكرين الله كثيراً** ﴾ (٣٥ ـ الأحزاب) من غير دليل خارج ، أي والذاكرات الله كثيراً ، والعرب من مذهبها استحباب الإطلاق اكتفاء بالقيد وطلباً للإيجاز والإختصار . وقد قال تعالى : ﴿ **عن اليمين وعن الشمال قعيد** ﴾ (١٧ ـ ق) والمراد : « عن اليمين قعيد » ، ولكن حذف لدلالة الثاني عليه[1] .

وأما حجة أصحاب أبي حنيفة فإنهم قالوا : إن حمل (والذاكرات) على (والذاكرين الله كثيراً) جاء بدليل . ودليله أن قوله : (والذاكرات) معطوف على قوله (والذاكرين الله كثيراً) ولا استقلال له بنفسه ، فوجب رده إلى ما هو معطوف عليه ومشارك له في حكمه ، ومثله العطف في قوله تعالى

(١) أنظر « الإحكام » للآمدي صفحة ٥ ج ٣ ، و« البرهان » للزركشي . صفحة (١٦) ج ٢ .

(عن اليمين وعن الشمال قعيد) وإذا امتنع التقيد من غير دليل ، فلا بد من دليل ، ولا نص من كتاب أو سنة يدل على ذلك . والقياس يلزم منه رفع ما اقتضاه المطلق من الخروج عن العهدة بأي شيء كان ، مما هو داخل تحت اللفظ المطلق ، فيكون نسخاً ، ونسخ النص لا يكون بالقياس .

ويجاب عن ذلك من أصحاب الرأي الأول بأننا لا نسلم أنه يلزم من قياس المطلق على المقيد نسخ النص المطلق ، بل تقييده ببعض مسمياته ، فتقيد « الرقبة » بأن تكون مؤمنة ، فيكون الإيمان شرطاً في الخروج عن العهدة . كما أنكم تشترطون فيها صفة السلامة ولم يدل على ذلك نص من كتاب أو سنة .

ب ـ **الثانية** : أن يكون التقييد مختلفاً ، كالكفارة بالصوم ، قيد الصوم بالتتابع في كفارة القتل ، قال تعالى ﴿ **فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله** ﴾ (٩٢ ـ النساء) وفي كفارة الظهار ، قال تعالى ﴿ **فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا** ﴾ (٣ ـ المجادلة) وجاء تقييده بالتفريق في صوم المتمتع بالحج . قال تعالى ﴿ **فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم** ﴾ (١٩٦ ـ البقرة) ثم جاء الصوم مطلقاً دون تقييد بالتتابع أو التفريق في كفارة اليمين قال تعالى ﴿ **فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام** ﴾ (٨٩ ـ المائدة) وفي قضاء رمضان قال تعالى ﴿ **فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر** ﴾ (١٨٤ ـ البقرة) فالمطلق في هذا لا يحمل على المقيد . لأن القيد مختلف . فحمل المطلق على أحدهما ترجيح بلا مرجح .

٤ ـ **أن يختلف السبب ويختلف الحكم** : ـ كاليد في الوضوء . والسرقة . قيدت في الوضوء إلى المرافق ، وأطلقت في السرقة . قال تعالى ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما** ﴾ (٣٨ ـ المائدة) فلا يحمل المطلق على المقيد للإختلاف سبباً وحكماً ، وليس في هذا شيء من التعارض .

قال صاحب البرهان[1] : « إن وجد دليلاً على تقييد المطلق صير إليه ، وإلا فلا والمطلق على إطلاقه ، والمقيد على تقييده ، لأن الله تعالى خاطبنا بلغة العرب ، والضابط أن الله تعالى إذا حكم في شيء بصفة أو شرط ثم ورد حكم آخر مطلقاً نُظر ، فإن لم يكن له أصل يُرد إليه إلا ذلك الحكم المقيد وجب تقييده به ، وإن كان له أصل غيره لم يكن رده إلى أحدهما بأولى من الآخر .

---

(١) صفحة ١٥ ج ٢ .

المنطوق[1] والمفهوم

دلالة الألفاظ على المعاني قد يكون مأخذها من منطوق الكلام الملفوظ به نصاً أو احتمالاً بتقدير أو غير تقدير ، وقد يكون مأخذها من مفهوم الكرم سواء وافق حكمها حكم المنطوق أو خالفه ـ وهذا هو ما يسمى : بالمنطوق والمفهوم .

تعريف المنطوق وأقسامه

المنطوق : هو ما دل عليه اللفظ في محل النطق ـ أي أن دلالته تكون من مادة الحروف التي ينطق بها .

ومنه : **النص ، والظاهر ، والمؤول :**

فالنص : هو ما يفيد بنفسه معنى صريحاً لا يحتمل غيره . كقوله تعالى ﴿ **فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة** ﴾ (١٩٦ ـ البقرة) فإن وصف عشرة بكاملة قطع احتمال العشرة لما دونها مجازاً . وهذا هو الغرض من النص ـ وقد نقل عن قوم أنهم قالوا بندرة النص جداً في الكتاب والسنة ، وبالغ إمام الحرمين في الرد عليهم فقال : « لأن الغرض من

(١) أنظر الإتقان صفحة ٣١ ج ٢ .

النص الإستقلال بإفادة المعنى على القطع مع انحسام جهات التأويل والإحتمال ، وهذا وإن عز حصوله بوضع الصيغ رداً إلى اللغة ، فما أكثره مع القرائن الحالية والمقاليّة » .

والظاهر : هو ما يسبق إلى الفهم منه عند الإطلاق معنى مع احتمال غيره إحتمالاً مرجوحاً ، فهو يشترك مع النص في أن دلالته في محل النطق ، ويختلف عنه في أن النص يفيد معنى لا يحتمل غيره ، والظاهر يفيد معنى عند الإطلاق مع احتمال غيره احتمالاً مرجوحاً كقوله تعالى ﴿ **فمن اضطر غير باغ ولا عاد** ﴾ (١٧٣ ـ البقرة) فإن الباغي يطلق على الجاهل . ويطلق على الظالم ، ولكن إطلاقه على الظالم أظهر وأغلب فهو إطلاق راجح ، والأول مرجوح ، وكقوله ﴿ **ولا تقربوهن حتى يطهرن** ﴾ (٢٢٢ ـ البقرة) فانقطاع الحيض يقال فيه طهر ، والوضوء والغسل يقال فيهما طهر ، ودلالة الطهر على الثاني أظهر ، فهي دلالة راجحة ، والأول مرجوحة .

والمؤول : هو ما حمل لفظه على المعنى المرجوح لدليل يمنع من إرادة المعنى الراجح ، فهو يخالف الظاهر في أن الظاهر يحمل على المعنى الراجح حيث لا دليل يصرفه إلى المعنى المرجوح ، أما المؤول فإنه يحمل على المعنى المرجوح لوجود الدليل الصارف عن إرادة المعنى الراجح . وإن كان كل منهما يدل عليه اللفظ في محل النطق ، كقوله تعالى ﴿ **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة** ﴾ (٢٤ ـ الإسراء) فإنه محمول على الخضوع والتواضع وحسن معاملة الوالدين . لاستحالة أن يكون للإنسان أجنحة .

دلالة الإقتضاء ودلالة الإشارة

قد تتوقف صحة دلالة اللفظ على إضمار ، وتسمى **بدلالة الإقتضاء** ، وقد لا تتوقف على إضمار ويدل اللفظ على ما لم يقصد به قصداً أولياً ، وتسمى **دلالة الإشارة** :

فالأول : كقوله تعالى ﴿ **فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من**

أيام أخر ﴾ (١٨٤ ـ البقرة) . أي فأفطر فعدة . لأن قضاء الصوم على المسافر إنما يجب إذا أفطر في سفره ، أما إذا صام في سفره فلا موجب للقضاء خلافاً للظاهرية ، وكقوله تعالى ﴿ **حرمت عليكم أمهاتكم** ﴾ (٢٣ ـ النساء) . فإنه يتضمن إضمار الوطء ويقتضيه ، أي وطء أمهاتكم ، لأن التحريم لا يضاف إلى الأعيان ، فوجب لذلك إضمار فعل يتعلق به التحريم وهو الوطء ، وهذا النوع يقرب من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وهو من باب إيجاز القصر في البلاغة ـ وسمي اقتضاء لاقتضاء الكلام شيئاً زائداً على اللفظ .

والثاني : وهو دلالة الإشارة ـ كقوله تعالى ﴿ **أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر** ﴾ (١٨٧ ـ البقرة) فإنه يدل على صحة صوم من أصبح جنباً ـ لأنه يبيح الوطء إلى طلوع الفجر بحيث لا يتسع الوقت للغسل ، وهذا يستلزم الإصباح على جنابة ، وإباحة سبب الشيء نفسه ، فإباحة الجماع إلى آخر جزء من الليل لا يتسع معه الغسل قبل الفجر إباحة للإصباح على جنابة .

وهاتان الدلالتان ـ الإقتضاء والإشارة ـ أخذا من المنطوق أيضاً ، فهما من أقسام المنطوق ، فالمنطوق على هذا يشمل ١ ـ النص ، ٢ ـ والظاهر ، ٣ ـ والمؤول ، ٤ ـ والإقتضاء ، ٥ ـ والإشارة .

تعريف المفهوم وأقسامه

المفهوم : ـ **هو ما دل عليه اللفظ لا في محل النطق** ـ وهو قسمان ١ ـ مفهوم موافقة ٢ ـ مفهوم مخالفة .

١ ـ **فمفهوم الموافقة** : هو ما يوافق حكمه المنطوق ـ وهو نوعان :

أ ـ **النوع الأول** : **فحوى الخطاب** : ـ وهو ما كان المفهوم فيه أولى

بالحكم من المنطوق ، كفهم تحريم الشتم والضرب من قوله تعالى ﴿ **فلاتقل لهم أف** ﴾ (٢٣ ـ الإسراء) لأن منطوق الآية تحريم التأفيف ، فيكون تحريم الشتم والضرب أولى لأنهما أشد .

ب ـ **النوع الثاني : لحن الخطاب** : وهو ما ثبت الحكم فيه للمفهوم كثبوته للمنطوق على السواء ـ كدلالة قوله تعالى ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً** ﴾ (١٠ ـ النساء) على تحريم إحراق أموال اليتامى أو إضاعتها بأي نوع من أنواع التلف لأن هذا مساو للأكل في الإتلاف .

وتسمية هذين بمفهوم الموافقة لأن المسكوت عنه يوافق المنطوق به في الحكم وإن زاد عليه في النوع الأول ، وساواه في الثاني والدلالة فيه من قبيل التنبيه .

بالأدنى على الأعلى ، أو بالأعلى على الأدنى ، وقد اجتمعا في قوله تعالى : ﴿ **ومن أهل الكتاب مَنْ إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم مَنْ إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك** ﴾ (٧٥ ـ آل عمران) فالجملة الأولى (ومن أهل الكتاب مَنْ إن تأمنه بقنطار يؤده إليك) من التنبيه على أنه يؤدي إليك الدينار وما تحته ، والجملة الثانية (ومنهم مَنْ إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك) من التنبيه على أنك لا تأمنه بقنطار .

٢ ـ **مفهوم المخالفة** : هو ما يخالف حكمه المنطوق ـ وهو أنواع : ـ

أ ـ **مفهوم صفة** : والمراد بها الصفة المعنوية : **كالمشتق** : في قوله تعالى ﴿ **إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** ﴾ (٦ ـ الحجرات) فمفهوم التعبير بفاسق أن غير الفاسق لا يجب التثبت في خبره ، ومعنى هذا أنه يجب قبول خبر الواحد العدل . **وكالحال** : ـ في قوله ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم** ﴾ (٩٥ ـ المائدة) فهو يدل على انتفاء الحكم في المخطىء ، لأن تخصيص العمد

بوجوب الجزاء به يدل على نفي وجوب الجزاء في قتل الصيد خطأ .
وكالعدد : ـ في قوله ﴿ **الحج أشهر معلومات** ﴾ (١٩٧ ـ البقرة) مفهومه أن الإحرام بالحج في غير أشهره لا يصح ، وقوله ﴿ **فاجلدوهم ثمانين جلدة** ﴾ (٤ ـ النور) مفهومه ألا يجلد أقل أو أكثر .

ب ـ **مفهوم شرط** : ـ كقوله تعالى ﴿ **وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن** ﴾ (٦ ـ الطلاق) فمعناه أن غير الحوامل لا يجب الإنفاق عليهن .

جـ ـ **مفهوم غاية** : ـ كقوله تعالى ﴿ **فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره** ﴾ (٢٣٠ ـ البقرة) فمفهوم هذا أنها تحلِ للأول إذا نكحت غيره بشروط النكاح .

د ـ **مفهوم حصر** : ـ كقوله تعالى ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ (٥ ـ الفاتحة) مفهومه أن غيره سبحانه لا يعبد ولا يستعان به ، ولذلك كانت دالة على إفراده تعالى بالعبادة والإستعانة .

الإختلاف في الإحتجاج به

إختلف في الإحتجاج بهذه المفاهيم ، والأصح في ذلك أنها حجة بشروط ، منها : ـ

١ ـ ألا يكون المذكور خرج مخرج الغالب ـ فلا مفهوم للحجور في قوله تعالى ﴿ **وربائبكم اللاتي في حجوركم** ﴾ (٢٣ ـ النساء) ، لأن الغالب كون الربائب في حجور الأزواج .

ب ـ ومنها ألا يكون المذكور لبيان الواقع ـ فلا مفهوم لقوله ﴿ **ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به** ﴾ (١١٧ ـ المؤمنون) لأن الواقع أن أي إله لا برهان عليه ، وقوله ﴿ **لا برهان له به** ﴾ صفة لازمة جيء بها للتوكيد والتهكم بمدعيّ إله مع الله لا أن يكون في الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان ـ ومثله قوله ﴿ **ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً** ﴾ (٣٣ ـ النور) فلا مفهوم له يدل على إباحة إكراه السيد لأمته على البغاء إن لم ترد

التحصن ، وإنما قال (إن أردن تحصناً) لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن . وعن جابر بن عبدالله قال : « كان عبدالله بن أبي يقول لجارية له : إذهبي فابغينا شيئاً ، وكانت كارهة ، فأنزل الله ﴿ **وَلا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم** ﴾ » وعن جابر أيضاً : « أن جارية لعبدالله بن أبي ، يقال لها مسيكة ، وأخرى يقال لها أميمة . فكان يريدهما على الزنى . فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ . فأنزل الله ﴿ **ولا تكرهوا فتياتكم** ﴾ الآية[1] .

والأمر في الإحتجاج بمفهوم الموافقة أيسر ، فقد اتفق العلماء على صحة الإحتجاج به سوى الظاهرية . أما الإحتجاج بمفهوم المخالفة فقد أثبته مالك والشافعي وأحمد ، ونفاه أبو حنيفة وأصحابه .

واحتج المثبتون بحجج نقلية وعقلية .

فمن الحجج النقلية : ما روي أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ **استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** ﴾ (٨٠ ـ التوبة) قال النبي ﷺ : قد خيّرني ربي ، فوالله لأزيدَنّه على السبعين . . ففهم النبي ﷺ أن ما زاد على السبعين بخلاف السبعين[2] .

ومنها : ما ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما من منع توريث الأخت مع البنت[3] استدلالاً بقوله تعالى ﴿ **إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك** ﴾ (١٧٦ ـ النساء) جيث أنه فهم من توريث الأخت مع عدم الولد امتناع توريثها مع البنت ، لأنها ولد ، وهو من فصحاء العرب ، وترجمان القرآن .

ومنها : ما روي « أن يعلى بن أمية « قال لعمر : ما بالنا نقصر وقد

---

(١) أخرجها مسلم وغيره .

(٢) نقله ابن جرير بأسانيد كثيرة .

(٣) نقله ابن جرير وغيره عن ابن عباس .

أمِنًّا . وقد قال الله تعالى ﴿ **فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم** ﴾ (١٠١ ـ النساء) ووجه الإحتجاج به أنه فهم من تخصيص القصر عند الخوف عدم القصر عند الأمن ، ولم ينكر عليه عمر ، بل قال : « لقد

---

(١) رواه الإمام أحمد ، ورواه مسلم وأهل السنن .

نزول القرآن عَلى سَبْعة أحْرفْ

لقد كان للعرب لهجات شتى تنبع من طبيعة فطرتهم في جرسها وأصواتها وحروفها تعرضت لها كتب الأدب بالبيان والمقارنة ، فكل قبيلة لها من اللحن في كثير من الكلمات ما ليس للآخرين ، إلا أن قريشاً من بين العرب قد تهيأت لها عوامل جعلت للغتها الصدارة بين فروع العربية الأخرى من جوار البيت وسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام والإشراف على التجارة ، فأنزلها العرب جميعاً لهذه الخصائص وغيرها منزلة الأب للغاتهم ، فكان طبيعياً أن يتنزل القرآن بلغة قريش على الرسول القرشي تأليفاً للعرب وتحقيقاً لإعجاز القرآن حين يسقط في أيديهم أن يأتوا بمثله أو بسورة منه .

وإذا كان العرب تتفاوت لهجاتهم في المعنى الواحد بوجه من وجوه التفاوت فالقرآن الذي أوحى الله به لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم يكمل له معنى الإعجاز إذا كان مستجمعاً لحروفه وأوجه قراءته للخالص منها ، وذلك مما ييسر عليهم القراءة والحفظ والفهم .

ونصوص السنة قد تواترت بأحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف . ومن ذلك : ـ

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : أقرأني جبريل على حرف فراجعته ، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف »[1] .

وعن أبي بن كعب : « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عند أضاة[2] بني غفار ، قال : فأتاه جبريل فقال : إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرف . فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وأن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرفين ـ فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وأم أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاء الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وأن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاء الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على سبعة أحرف ، فأنما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا »[3] .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستمعت لقراءته ، فإذا هو يقرؤ ها على حروف كثيرة لم يُقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكدت أساوره في الصلاة ، فانتظرته حتى سلم ، ثم لبّبْته بردائه فقلت : من أقرأك هذه السورة ؟ قال : أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت له : كذبت ، فوالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤ ها ، فانطلقت أقوده إلى رسول الله ، فقلت : يا رسول الله ، إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، وأنت أقرأتني سورة الفرقان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسله يا عمر ، اقرأ يا هشام ، فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرؤ ها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ يا عمر ، فقرأت القراءة التي أقرأني

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .
(٢) الأضاة : الغدير .
(٣) رواه مسلم .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرأوا ما تيسر منها »[1] .

والأحاديث في ذلك مستفيضة استقرأ معظمها ابن جرير في مقدمة تفسيره ، وذكر السيوطي أنها رويت عن واحد وعشرين صحابياً ، وقد نص أبو عبيد القاسم بن سلام على تواتر حديث نزول القرآن على سبعة أحرف[2] .

واختلف العلماء في تفسير هذه الأحرف اختلافاً كثيراً . حتى قال ابن حيان : « اختلف أهل العلم في معنى الأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً[3] وأكثر هذه الآراء متداخل ، ونحن نورد هنا ما هو ذو بال منها : ـ

أ ـ ذهب أكثر العلماء إلى أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد ، على معنى أنه حيث تختلف لغات العرب في التعبير عن معنى من المعاني يأتي القرآن منزلاً بألفاظ على قدر هذه اللغات لهذا المعنى الواحد ، وحيث لا يكون هناك اختلاف فإنه يأتي لفظ واحد أو أكثر .

واختلفوا في تحديد اللغات السبع .

فقيل : هي لغات : قريش ، وهذيل ، وثقيف ، وهوازن ، وكنانة ، وتميم ، واليمن .

وقال أبو حاتم السجستاني : نزل بلغة قريش ، وهذيل ، وتميم ، والأزد ، وربيعة ، وهوازن ، وسعد بن بكر .

وروي غير ذلك[4] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وأحمد وابن جرير .
(٢) أنظر الإتقان ، صفحة ٤١ ج ١ .
(٣) وقال السيوطي : اختلف في معنى هذا الحديث على نحو أربعين قولاً ، صفحة ٤٥ ج ١ .
(٤) أنظر الإتقان ، صفحة ٤٧ ج ١ .

ب ـ وقال قوم : إن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب نزل عليها القرآن ، على معنى أنه في جملته لا يخرج في كلماته عن سبع لغات هي أفصح لغاتهم ، فأكثره بلغة قريش . ومنه ما هو بلغة هذيل ، أو ثقيف ، أو هوازن ، أو كنانة ، أو تميم ، أو اليمن . فهو يشتمل في مجموعه على اللغات السبع .

وهذا الرأي يختلف عن سابقه . لأنه يعني أن الأحرف السبعة إنما هي أحرف سبعة متفرقة في سور القرآن ، لا أنها لغات مختلفة في كلمة واحدة باتفاق المعاني .

قال أبو عبيد : « ليس المراد أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات ، بل اللغات السبع مفرقة فيه ، فبعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن ، وبعضه بلغة اليمن . وغيرهم ، قال : وبعض اللغات أسعد به من بعض وأكثر نصيباً »(١) .

جـ ـ وذكر بعضهم أن المراد بالأحرف السبعة أوجه سبعة : من الأمر ، والنهي ، والوعد ، والوعيد ، والجدل ، والقصص ، والمثل . أو من : الأمر ، والنهي ، والحلال ، والحرام . والمحكم ، والمتشابه ، والأمثال :

عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد ، وعلى حرف واحد ، ونزل القرآن من سبعة أبواب ، على سبعة أحرف : زجر ، وأمر ، وحلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال »(٢) .

د ـ وذهب جماعة إلى أن المراد بالأحرف السبعة ، وجوه التغاير السبعة التي يقع فيها الإختلاف : وهي : ـ

---

(١) الإتقان ، صفحة ٤٧ ج ١ .
(٢) أخرجه الحاكم والبيهقي .

١ ـ **اختلاف الأسماء بالإفراد والتذكير وفروعهما** « التثنية ، والجمع ، والتأنيث » كقوله تعالى : ﴿ **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ٨ ـ المؤمنون** ﴾ قرىء « لأماناتهم » بالجمع ، وقرىء « لأمانتهم » بالإفراد . ورسمها في المصحف « لأمنتهم » يحتمل القراءتين ، لخلوها من الألف الساكنة ، ومآل الوجهين في المعنى واحد ، فيراد بالجمع الإستغراق الدال على الجنسية ، ويراد بالإفراد الجنس الدال على معنى الكثرة ، أي جنس الأمانة ، وتحت هذا جزئيات كثيرة .

٢ ـ **الإختلاف في وجوه الإعراب** ، كقوله تعالى : ﴿ **ما هذا بشراً ، ٣١ ـ يوسف** ﴾ قرأ الجمهور بالنصب ، على أن « ما » عاملة عمل « ليس » وهي لغة أهل الحجاز وبها نزل القرآن ، وقرأ ابن مسعود (ما هذا بشرٌ) بالرفع ، على لغة بني تميم ، فإنهم لا يعملون « ما » عمل « ليس » وكقوله ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلماتٍ** ﴾ (٣٧ ـ البقرة) وقرىء بنصب « آدمَ » ورفع « كلماتٌ » (فتلقى آدمَ من ربه كلماتٌ) .

٣ ـ **الإختلاف في التصريف** : كقوله تعالى : ﴿ **فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا** ﴾ (١٩ ـ سبأ) قرىء بنصب « ربَّنا » على أنه منادي مضاف ، و « باعِدْ » بصيغة الأمر ، وقرىء « ربُّنا » بالرفع ، و « باعَدَ » بفتح العين ، على أنه فعل ماض ، وقرىء « بَعَّدَ » بفتح العين مشدَّدة مع رفع « ربُّنا » أيضاً .

ومن ذلك ما يكون بتغيير حرف ، مثل « يعلمون ، وتعلمون » بالياء والتاء ، و « الصراط » و « السراط » في قوله تعالى : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم ٦ ـ الفاتحة** ﴾ .

٤ ـ **الإختلاف بالتقديم والتأخير** ، إما في الحرف ، كقوله تعالى : ﴿ **أفلم ييأس** ﴾ (٣١ ـ الرعد) وقرىء (أفلم يأيس) وإما في الكلمة كقوله تعالى : ﴿ **فيقتلوُن ويُقْتَلُون** ﴾ (١١١ ـ التوبة) بالبناء للفاعل في الأول ،

وللمفعول في الثاني ، وقرىء بالعكس ، أي بالبناء للمفعول في الأول ، وللفاعل في الثاني .

أما قراءة ﴿ **وجاءت سكرة الحق بالموت** ﴾ (١٩ ـ ق) بدلاً من قوله تعالى : ﴿ **وجاءت سكرة الموت بالحق** ﴾ فقراءة أحادية أو شاذة ، لم تبلغ درجة التواتر .

٥ ـ الإختلاف بالإبدال، سواء كان إبدال حرف بحرف ، كقوله تعالى : ﴿ **وانظر إلى العظام كيف ننشزها** ﴾ (٢٥٩ ـ البقرة) قرىء بالزاي المعجمة مع ضم النون ، وقرىء بالراء المهملة مع فتح النون ، أو إبدال لفظ بلفظ ، كقوله تعالى : ﴿ **كالعهن المنفوش** ﴾ (٥ ـ القارعة) قرأ ابن مسعود وغيره (كالصوف المنفوش) وقد يكون هذا الإبدال مع التفاوت في المخارج كقوله تعالى ﴿ **طلح منضود** ﴾ (٢٩ ـ الواقعة) قرىء « طلع » ومخرج الحاء والعين واحد ، فهما من حروف الحلق .

٦ ـ الإختلاف بالزيادة والنقص ، فالزيادة كقوله تعالى : ﴿ **وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار** ﴾ (١٠٠ ـ التوبة) قرىء (من تحتها الأنهار) بزيادة « من » وهما قراءتان متواترتان ، والنقصان كقوله تعالى : ﴿ **قالوا اتخذ الله ولداً** ﴾ (١١٦ ـ البقرة) بدون واو ، وقراءة الجمهور ، (وقالوا اتخذ الله ولداً) بالواو ، وقد يمثل للزيادة في قراءة الآحاد ، بقراءة ابن عباس ﴿ **وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً** ﴾ (٧٩ ـ الكهف) بزيادة « صالحة » وإبدال كلمة « أمام » بكلمة « وراء » وقراءة الجمهور (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً) كما يمثل للنقصان بقراءة (والذكر والأنثى) بدلاً من قوله تعالى : ﴿ **وما خلق الذكر والأنثى** ﴾ (٣ ـ الليل) .

٧ ـ اختلاف اللهجات بالتفخيم والترقيق ، والفتح والإمالة . والإظهار والإدغام ، والهمز والتسهيل . والإشمام ونحو ذلك ، كالإمالة وعدمها في مثل قوله تعالى : ﴿ **هل أتاك حديث موسى** ﴾ (٩ ـ طه) قرىء بإمالة « أتى »

و « موسى » وترقيق الراء في قوله : ﴿ خبيراً بصيراً ﴾ وتفخيم اللام في (الطلاق) وتسهيل الهمزة في قوله : ﴿ قد أفلح ﴾ (١ ـ المؤمنون) وإشمام الغين ضمة مع الكسر في قوله تعالى : ﴿ وغيض الماء ﴾ (٤٤ ـ هود) وهكذا .

هـ ـ **وذهب بعضهم إلى أن العدد سبعة لا مفهوم له** . وإنما هو رمز إلى ما ألفه العرب من معنى الكمال في هذا العدد ، فهو إشارة إلى القرآن في لغته وتركيبه كأنه حدود وأبواب لكلام العرب كله مع بلوغه الذروة في الكمال ، فلفظ السبعة يطلق على إرادة الكثرة والكمال في الآحاد ، كما يطلق السبعون في العشرات ، والسبعمائة في المئين ، ولا يراد العدد المعين[١] .

و ـ **وقال جماعة : إن المراد بالأحرف السبعة ، القراءات السبع .**

والراجح من هذه الآراء جميعاً هو الرأي الأول . وأن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد . نحو أقبل ، وتعالى ، وهلم ، وعجل ، وأسرع ، فهي ألفاظ مختلفة لمعنى واحد ، وإليه ذهب سفيان بن عيينه ، وابن جرير ، وابن وهب ، وخلائق ، ونسبه ابن عبد البر لأكثر العلماء ويدل له ما جاء في حديث أبي بكرة : « أن جبريل قال : يا محمد ، اقرأ القرآن على حرف ، فقال ميكائيل : استزده ، فقال ! على حرفين ، حتى بلغ ستة أو سبعة أحرف ، فقال : كلها شافٍ كاف ، ما لم يختم آية عذاب بآية رحمة ، أو آية رحمة بآية عذاب ، كقولك : هلم وتعال وأقبل واذهب وأسرع وعجل »[٢] قال ابن عبد البر : « إنما أراد بهذا ضرب المثل للحروف التي نزل القرآن عليها ، وأنها معان متفق مفهومها ، مختلف مسموعها ، لا يكون في شيء منها معنى وضدّه ، ولا وجه يخالف معنى وجه

---

(١) أنظر الإتقان ، صفحة ٤٥ ج ١ .
(٢) أخرجه أحمد والطبراني ، بإسناد جيد ، وهذا اللفظ لأحمد .

خلافاً ينفيه ويضاده ، كالرحمة التي هي خلاف العذاب »[1] .

ويؤيده أحاديث كثيرة :

« قرأ رجل عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه فغيّر عليه ، فقال : لقد قرأت على رسول الله ﷺ فلم يغيّر عليّ ، قال : فاختصما عند النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ؛ ألم تقرئني آية كذا وكذا ؟ قال : بلى ! قال : فوقع في صدر عمر شيء ، فعرف النبي ﷺ ذلك في وجهه ، قال : فضرب صدره وقال : ابعَدْ شيطاناً ـ قالها ثلاثاً ـ ثم قال : يا عمر ، إن القرآن كله صواب ما لم تجعل رحمة عذاباً أو عذاباً رحمة »[2] .

وعن بُسر بن سعيد : « أن أبا جُهيْم الأنصاري أخبره : أن رجلين اختلفا في آية من القرآن ، فقال هذا : تلقيتها من رسول الله ﷺ ، وقال الآخر : تلقيتها من رسول الله ﷺ ، فسألا رسول الله ﷺ عنها ، فقال رسول الله ﷺ : إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فلا تمارَوْا في القرآن ، فإن المراء فيه كفر »[3] .

وعن الأعمش قال : « قرأ أنس هذه الآية : ﴿ **إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأصوب قيلا** ﴾ (٦ ـ المزمل) فقال له بعض القوم : يا أبا حمزة ، إنما هي « وأقوم » فقال : أقوم وأصوب وأهيأ واحد »[4] .

وعن محمد بن سيرين قال : نبئت أن جبرائيل وميكائيل أتيا النبي ﷺ ، فقال له جبرائيل : اقرأ القرآن على حرفين ، فقال له ميكائيل : استزده ، قال : حتى بلغ سبعة أحرف ، قال محمد : لا تختلف في حلال ولا حرام ، ولا أمر ولا نهي ، هو كقولك : تعال ، وهلم وأقبل ، قال : وفي

---

(١) أنظر الإتقان صفحة ٤٧ ـ ج ١ .
(٢) أخرجه أحمد بإسناد رجاله ثقات ، وأخرجه الطبري .
(٣) رواه أحمد في المسند ، ورواه الطبري ، ونقله ابن كثير في الفضائل ، والهيثمي في مجمع الزوائد . وقال رجاله رجال الصحيح .
(٤) رواه الطبري ، وأبو يعلي ، والبزار ، ورجاله رجال الصحيح .

قراءتنا ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة** ﴾ (**٢٩ ، ٥٣ ـ يونس**) في قراءة ابن مسعود (إن كانت إلا زقية واحدة)[١] .

ويجاب عن الرأي الثاني (ب) الذي يرى أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب نزل عليها القرآن ، على معنى أنه في جملته لا يخرج في كلماته عنها فهو يشتمل في مجموعه عليها ـ بأن لغات العرب أكثر من سبع ، وبأن عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم كلاهما قرشي من لغة واحدة ، وقبيلة واحدة ، وقد اختلفت قراءتهما . ومحال أن ينكر عليه عمر لغته ، فدل ذلك على أن المراد بالأحرف السبعة غير ما يصدونه ، ولا يكون هذا إلا باختلاف الألفاظ في معنى واحد ، وهو ما نرجحه .

قال ابن جرير الطبري بعد أن ساق الأدلة ، مبطلاً هذا الرأي : « بل الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ، هن لغات سبع في حرف واحد ، وكلمة واحدة ، باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني ، كقول القائل : هلم ، وأقبل ، وتعال ، وإليّ ، وقصدي ، ونحوي ، وقربي ، ونحو ذلك ، مما تختلف فيه الألفاظ بضروب من المنطق وتتفق فيه المعاني ، وإن اختلفت بالبيان به الألسن ، كالذي روينا آنفاً عن رسول الله ﷺ ، وعمن روينا ذلك عنه من الصحابة ، أن ذلك بمنزلة قولك : « هلم وتعال وأقبل » وقوله : « ما ينظرون إلا زقية » و « إلا صيحة » » .

وأجاب الطبري عن تساؤل مفترض : ففي أي كتاب الله نجد حرفاً واحداً مقروءاً بلغات سبع مختلفات الألفاظ متفقات المعنى ؟ ـ أجاب : بأننا لم ندّع أن ذلك موجود اليوم ـ وعن تساؤل مفترض أخر : فما بال الأحرف الأخر الستة غير موجودة ؟ ـ بأن الأمة أمرت بحفظ القرآن ، وخيرت في قراءته وحفظه بأي تلك الأحرف السبعة شاءت كما أمرت ، ثم دعت الحاجة إلى التزام القراءة بحرف واحد مخافة الفتنة في زمن عثمان ، ثم اجتمع أمر الأمة

---

(١) رواه الطبري ، ومحمد ـ هو ابن سيرين التابعي ـ فالحديث مرسل .

على ذلك ، وهي معصومة من الضلالة[1] .

ويجاب عن الرأي الثالث (جـ) الذي يرى أن المراد بالأحرف السبعة سبعة أوجه : من الأمر ، والنهي . والحلال ، والحرام ، والمحكم ، والمتشابه ، والأمثال ـ بأن ظاهر الأحاديث يدل على أن المراد بالأحرف السبعة أن الكلمة تقرأ على وجهين أو ثلاثة إلى سبعة توسعة للأمة ، والشيء الواحد لا يكون حلالاً وحراماً في آية واحدة ، والتوسعة لم تقع في تحريم حلال ، ولا تحليل حرام ، ولا في تغيير شيء من المعاني المذكورة .

والذي ثبت في الأحاديث السابقة أن الصحابة الذين اختلفوا في القراءة احتكموا إلى النبي ﷺ ، فاستقرأ كل رجل منهم ،ثم صوب جميعهم في قراءتهم على اختلافها ، حتى ارتاب بعضهم لتصويبه إياهم ، فقال ﷺ للذي ارتاب منهم عند تصويبه جميعهم « إن الله أمرني أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف» .

« ومعلوم أن تماريهم فيما تماروا فيه من ذلك ، لو كان تمارياً واختلافاً فيما دلت عليه تلاواتهم من التحليل والتحريم والوعد والوعيد وما أشبه ذلك ، لكان مستحيلاً أن يصوب جميعهم ، ويأمر كل قارىء منهم أن يلزم قراءته في ذلك على النحو الذي هو عليه ، لأن ذلك لو جاز أن يكون صحيحاً وجب أن يكون الله جل ثناؤه قد أمر بفعل شيء بعينه وفرضه ، ـ في تلاوة من دلت تلاوته على فرضه ـ ونهى عن فعل ذلك الشيء بعينه وزجر عنه ـ في تلاوة الذي دلت تلاوته على النهي والزجر عنه ـ وأباح وأطلق فعل ذلك الشيء بعينه ، وجعل لمن شاء من عباده أن يفعله فعله . ولمن شاء منهم أن يتركه تركه ، في تلاوة من دلت تلاوته على التخيير .

وذلك من قائله إن قاله إثبات ما قد نفى الله جل ثناؤه عن تنزيله وحكم كتابه فقال : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾ (٨٢ ـ النساء) ـ

---

(١) أنظر تفسير الطبري صفحة ٥٧ وما بعدها ، ج ١ .

وفي نفي الله جل ثناؤه ذلك عن محكم كتابه أوضح الدليل على أنه لم ينزل كتابه على لسان محمد ﷺ إلا بحكم واحد متفق في جميع خلقه لا بأحكام فيهم مختلفة »[1] .

ويجاب عن الرأي الرابع (د) الذي يرى أن المراد بالأحرف السبعة وجوه التغاير التي يقع فيها الإختلاف[2] - بأن هذا وإن كان شائعاً مقبولاً لكنه لا ينهض أمام أدلة الرأي الأول التي جاء التصريح فيها باختلاف الألفاظ مع اتفاق المعنى ، وبعض وجوه التغاير والإختلاف التي يذكرونها ورد بقراءات الآحاد ، ولا خلاف في أن كل ما هو قرآن يجب أن يكون متواتراً ، وأكثرها يرجع إلى شكل الكلمة أو كيفية الأداء مما لا يقع به التغاير في اللفظ ، كالإختلاف في الإعراب ، أو التصريف ، أو التفخيم والترقيق والفتح والإمالة والإظهار والإدغام والإشمام فهذا ليس من الإختلاف الذي يتنوع في اللفظ والمعنى ، لأن هذه الصفات المتنوعة في أدائه لا تخرجه عن أن يكون لفظاً واحداً .

وأصحاب هذا الرأي يرون أن المصاحف العثمانية قد اشتملت على الأحرف السبعة كلها ، بمعنى أنها مشتملة على ما يحتمله رسمها من هذه الأحرف ، فآية ﴿ **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** ﴾ (٨ - المؤمنون) التي تقرأ بصيغة الجمع وتقرأ بصيغة الإفراد جاءت في الرسم العثماني (لأمـٰنتهم) موصولة وعليها ألف صغيرة ، وآية ﴿ **فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا** ﴾ (١٩ - سبأ) جاءت في الرسم العثماني (بـٰعد) موصولة كذلك وعليها ألف صغيرة ، وهكذا . . .

وهذا لا يسلم لهم في كل وجه من وجوه الإختلاف التي يذكرونها .

كالإختلاف بالزيادة والنقص ، في مثل قوله تعالى ﴿ **وأعدَّ لهم جنات**

---

(١) تفسير الطبري ، صفحة ٤٨ ، ٤٩ ج ١ .

(٢) هذا الرأي هو أقوى الآراء بعد الرأي الذي اخترناه ، وإليه ذهب « الرازي » وانتصر له من المتأخرين الشيخ محمد بخيت المطيعي ، والشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني .

تجري تحتها الأنهار ﴾ (١٠٠ ـ التوبة) وقرىء (من تحتها الأنهار) بزيادة « من » وقوله **﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾** (٣ ـ الليل) وقرىء (والذكر والأنثى) بنقص « ما خلق » .

والإختلاف بالتقديم والتأخير في مثل قوله تعالى : **﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ﴾** (١٩ ـ ق) وقرىء (وجاءت سكرة الحق بالموت) .
والإختلاف بالإبدال في مثل قوله تعالى : **﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾** (٥ ـ القارعة) وقرىء (وتكون الجبال كالصوف المنفوش) .

ولو كانت هذه الأحرف تشتمل عليها المصاحف العثمانية لما كان مصحف عثمان حاسماً للنزاع في اختلاف القراءات ، إنما كان حسم هذا النزاع بجمع الناس على حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ، ولولا هذا لظل الإختلاف في القراءة قائماً ، ولما كان هناك فرق بين جمع عثمان وجمع أبي بكر . والذي دلت عليه الآثار أن جمع عثمان رضي الله عنه للقرآن كان نسخاً له على حرف واحد من الحروف السبعة حتى يجمع المسلمين على مصحف واحد ، حيث رأى أن القراءة بالأحرف السبعة كانت لرفع الحرج والمشقة في بداية الأمر . وقد انتهت الحاجة إلى ذلك ، وترجح عليها حسم مادة الإختلاف في القراءة ، بجمع الناس على حرف واحد ، ووافقه الصحابة على ذلك . فكان إجماعاً . ولم يحتج الصحابة في أيام أبي بكر وعمر إلى جمع القرآن على وجه ما جَمَعَه عثمان ، لأنه لم يحدث في أيامهما من الخلاف فيه ما حدث في زمن عثمان ، وبهذا يكون عثمان قد وفق لأمر عظيم . رفع الإختلاف ، وجمع الكلمة ، وأراح الأمة .

ويجاب عن الرأي الخامس (هـ) الذي يرى أن العدد سبعة لا مفهوم له ـ بأن الأحاديث تدل بنصها على حقيقة العدد وانحصاره « أقرأني جبريل على حرف ، فراجعته ، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة

أحرف »[1] « وإن ربي أرسل إليّ أن أقرأ القرآن على حرف ، فرددت عليه أن هوّن على أمتي ـ فأرسل إلي أن أقرأ على سبعة أحرف[2] فهذا يدل على حقيقة العدد المعين المحصور في سبعة .

ويجاب عن الرأي السادس (و) الذي يرى أن المراد بالأحرف السبعة القراءات السبع ـ بأن القرآن غير القراءات ، فالقرآن : هو الوحي المنزل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز ، والقراءات : هي اختلاف في كيفية النطق بألفاظ الوحي ، ومن تخفيف أو تثقيل أو مد أو نحو ذلك ، قال أبو شامة : « ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث ، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة ، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل »[3] .

وقال الطبري : « وأما ما كان من اختلاف القراءة في رفع حرف وجره ونصبه وتسكين حرف وتحريكه ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق الصورة ، فمن معنى قول النبي ﷺ : « أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف » بمعزل ، لأنه معلوم أنه لا حرف من حروف القرآن ـ مما اختلفت القراءة في قراءته بهذا المعنى يوجب المراد به كفر المماري به في قول أحد من علماء الأمة ، وقد أوجب عليه الصلاة والسلام بالمراء فيه الكفر ، من الوجه الذي تنازع فيه المتنازعون إليه ، وتظاهرت عنه بذلك الرواية »[1] .

ولعل الذي أوقعهم في هذا الخطأ الإتفاق في العدد سبعة ، فالتبس عليهم الأمر . قال ابن عمار : « لقد فعل مسبع هذه السبعة ما لا ينبغي له ، وأشكل الأمر على العامة بإيهامه كل من قل نظره أن هذه القراءات هي المذكورة في الخبر ، وليته إذ اقتصر نقص على السبعة أو زاد ليزيل الشبهة » .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

(٢) أخرجه مسلم .

(٣) أنظر الإتقان ، صفحة ٨٠ ج ١

وبهذه المناقشة يتبين لنا أن الرأي الأول (أ) الذي يرى أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد هو الذي يتفق مع ظاهر النصوص ، وتسانده الأدلة الصحيحة .

عن أبي بن كعب قال : « قال لي رسول الله ﷺ : إن الله أمرني أن أقرأ القرآن على حرف واحد ، فقلت : رب خفف عن أمتي ، فأمرني ، قال : اقرأه على حرفين ، فقلت : رب خفف عن أمتي ، فأمرني أن أقرأه على سبعة أحرف من سبعة أبواب الجنة ، كلها شافٍ كاف »(٢) .

قال الطبري : « والسبعة الأخرى : هو ما قلنا من أنه الألسن السبعة ، والأبواب السبعة من الجنة هي المعاني التي فيها ، من الأمر والنهي والترغيب والترهيب والقصص والمثل ، التي إذا عمل بها العامل ، وانتهى إلى حدودها المنتهي ، استوجب به الجنة ، وليس والحمد لله في قول من قال ذلك من المتقدمين خلاف لشيء مما قلناه » ومعنى « كلها شاف كاف » كما قال جل ثناؤه في صفة القرآن : ﴿ **يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين** ﴾ (٥٧ ـ يونس) جعله الله للمؤمنين شفاء ، يستشفون بمواعظه من الأدواء العارضة لصدورهم من وساوس الشيطان وخطراته ، فيكفيهم ويغنيهم عن كل ما عداه من المواعظ ببيان آياته »(١) .

حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف .

تتلخص حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف في أمور : ـ

١ ـ **تيسير القراءة والحفظ على قوم أميين** ، لكل قبيل منهم لسان ولا عهد لهم بحفظ الشرائع ، فضلاً عن أن يكون ذلك مما ألفوه ـ وهذه الحكمة نصت عليها الأحاديث في عبارات :

---

(٢) رواه مسلم والطبري .

(١) تفسير الطبري ، صفحة ٦٥ ، ج ١ .

عن أبي قال : « لقي رسول الله ﷺ جبريل عند أحجار المراء فقال إني بعثت إلى أمة أميين ، منهم الغلام والخادم والشيخ العاس والعجوز ، فقال جبريل : فليقرأوا القرآن على سبعة أحرف »(٢) « إن الله أمرني أن أقرأ القرآن على حرف ، فقلت : « اللهم رب خفف عن أمتي » « إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرف ، قال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك » .

٢ ـ **إعجاز القرآن للفطرة اللغوية عند العرب** ـ فتعدد مناحي التأليف الصوتي للقرآن تعدداً يكافىء الفروع اللسانية التي عليها فطرة اللغة في العرب حتى يستطيع كل عربي أن يوقع بأحرفه وكلماته على لحنه الفطري ولهجة قومه مع بقاء الإعجاز الذي تحدى به الرسول العرب ومع اليأس من معارضته لا يكون إعجازاً للسان دون آخر ، وإنما يكون إعجازاً للفطرة اللغوية نفسها عند العرب .

٣ ـ **إعجاز القرآن في معانيه وأحكامه** ـ فإن تقلب الصور اللفظية في بعض الأحرف والكلمات يتهيأ معه استنباط الأحكام التي تجعل القرآن ملائماً لكل عصر ـ ولهذا احتج الفقهاء في الإتنباط والإجتهاد بقراءات الأحرف السبعة .

---

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والطبري بإسناد صحيح ، وأحجار المراء : موضع بقباء ، وعسا الشيخ : كبر وأسن وضعف .

القِراءات وَالقراء

القراءات : جمع قراءة ، مصدر قرأ في اللغة ، ولكنها في الإصطلاح العلمي : مذهب من مذاهب النطق في القرآن يذهب به إمام من الأئمة القراء مذهباً يخالف غيره .

وهي ثابتة بأسانيدها إلى رسول الله ﷺ ، ويرجع عهد القراء الذين أقاموا الناس على طرائقهم في التلاوة إلى عهد الصحابة ، فقد اشتهر بالإقراء منهم : أبي ، وعلي ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وأبو موسى الأشعري ، وغيرهم ، وعنهم أخذ كثير من الصحابة والتابعين في الأمصار . وكلهم يسند إلى رسول الله ﷺ .

وقد ذكر الذهبي في « طبقات القراء » أن المشتهرين بإقراء القرآن من الصحابة سبعة : عثمان ، وعلي ، وأبي ، وزيد بن ثابت ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعري ، قال : وقد قرأ على « أبي » جماعة من الصحابة ، منهم : أبو هريرة وابن عباس وعبد الله بن السائب ، وأخذ ابن عباس عن زيد أيضاً .

وأخذ عن هؤلاء الصحابة خلق كثير من التابعين في كل مصر من الأمصار . وفي كتاب « مناهج المفسرين » للدكتور منيع عبد الحليم محمود

كشف واضح للمصادر التي استقى منها المفسرون وطريقة منهجهم لفهم كتاب الله في محاولة للتعرف على فهم دقائقه ، ومن هذه المصادر ـ ١ ـ ما

فعن ابن عباس قال : سأل رجل رسول الله . قال : « الذين جعلوا القرآن عضين . ما عضين . قال : آمنوا ببعض وكفروا ببعض . ولقد عرف هذا النوع الذي برز في تفسير بعض المفسرين **بالتفسير المأثور** . **ومن أهم مصادره** « الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي . ثم نشأ « **التفسير بالرأي** » القائم على التدبر والفهم لكتاب الله والإستعانة في ذلك بالعلوم الخادمة لهذا الغرض ومنها علوم العربية وما روي عن الرسول قولاً وعملاً وغير ذلك من العلوم الكثيرة .

واختلفت مناهج المفسرين تبعاً لاختلاف مشاربهم الفكرية والفقهية ومن المفسرين :

الإمام سفيان الثوري وتفسيره	معاني القرآن للفراء
الإمام القشيري وتفسيره	تفسير الطبري
الإمام أبو الحسن الشاذلي وتفسيره	أسباب النزول للنيسابوري
أحكام القرآن لابن عربي	تفسير ابن الجوزي
المفردات في غريب القرآن للأصفهاني	البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن لابن الزملكاني
التسهيل لابن جزي	تفسير ابن كثير
تفسير البيضاوي	السراج المنير للشربيني
فتح القدير للشوكاني	تفسير الإمام محمد عبده
تفسير المنار لرشيد رضا	تفسير ابن باديس
تفسير الشيخ المراغي	التحرير والتنوير لابن عاشور
تفسير محمد فريد وجدي	التفسير الواضح لحجازي

وقد بذل الرسول والصحابة والتابعون عناية فائقة في حفظ القرآن أثناء

الوحي وكان جبريل يراجع للرسول القرآن في كل عام . كما كان الرسول يمليه على كتاب الوحي ويعلم أصحابه كل ما ينزل من الآيات ويستحفظهم إياها ويأمرهم أن يعلّم بعضهم بعضاً وقد منحهم الله قوة العنصر الكفري والصفاء وحدة الذاكرة ، والعنصر الروحي والإيماني علاوة على تمهل الرسول في تلاوته ونزوله القرآن مفرقاً مع تكرار الرسول النازل منه في أكثر من مناسبة وفي الصلوات .

وكان لجمع أبي بكر للقرآن تحت إشراف جمهرة من حفّاظه ثم استنساخ القرآن في عهد عثمان صاحب « المصحف الإمام » أو « مصحف عثمان » وتشكيل القرآن وتنقيطه على يد أبي الأسود الدؤلي ونصر بن عاصم . . كل هذا أثّرَ في حفظ كتاب الله فبقي كتاب الله كما كان ، وكما أنزل ، لم ينقص منه حرف ، ولم يزد عليه حرف . ولم يداخله خطأ فالجميع متفقون على قراءته . وهكذا تحققت معجزة الوحي الإلهي ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ .

تفسير القرآن بغير لغته
أو
ترجمة القرآن

الترجمة تطلق على معنيين :

١ ـ الترجمة الحرفية :

وهي نقل ألفاظ من لغة إلى نظائرها من لغة أخرى ، بحيث يكون النظم موافقاً للنظم ، والترتيب موافقاً للترتيب .

٢ ـ الترجمة المعنوية :

وتسمى بالترجمة « التفسيرية » . وهي بيان معنى الكلام بلغة أخرى من غير تقييد بترتيب كلمات الأصل ، أو مراعاة لنظمه .

والذين على علم باللغات يعرفون أن الترجمة الحرفية ـ بالمعنى المذكور ـ لا يمكن حصولها مع المحافظة على سياق الأصل ، والإحاطة بجميع معناه . فإن خواص كل لغة تختلف عن الأخرى في ترتيب أجزاء الجملة . فالجملة الفعلية في اللغة العربية تبدأ بالفعل فالفاعل في الإستفهام وغيره ، والمضاف مقدَّم على المضاف إليه . والموصوف على الصفة ـ إلا إذا أريد الإضافة على وجه التشبيه مثلاً كلجين الماء ، أو كان الكلام من إضافة الصفة إلى معمولها كعظيم الأمل ـ وليس الشأن كذلك في سائر اللغات .

والتعبير العربي يحمل في طياته من أسرار اللغة ما لا يمكن أن يحل محله تعبير آخر بلغة أخرى ، فإن الألفاظ في الترجمة لا تكون متساوية المعنى من كل وجه فضلاً عن التراكيب[1] .

ونتساءل : أمِنَ الممكن أن يُترجَم القرآن إلى لغة أخرى ترجمة حرفية ؟

وللجواب عن ذلك نقول : إن القرآن يتبع منهجاً فريداً في التعبير عن المعاني ، وهو منهج تجسيد المعاني وتصويرها أمام مخيلة القارىء . وهو منهج مُطَّرد يظهر في كل أبحاثه وموضوعاته ، وإنه يعَبِّر عن المعاني المتعددة المختلفة بلفظة واحدة .

وطبيعي أن منهجاً تعبيرياً بهذا الشكل ، يستعصي على الترجمة . ولنأخذ على ذلك مثلاً : القرآن الكريم يقول : ﴿ **ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ ، ولا تبْسُطْها كلَّ البَسْط ، فتقعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً** ﴾[1] ، ليس شيء من الألفاظ هنا يدل على المعنى المقصود بطريق الدلالة اللغوية الأصلية ، وإنما هي تكشف عن المعنى المراد بواساطة التصوير والتخييل ، والأداة المستعملة لذلك جملة من المجازات والتشبيهات والإستعارات المختلفة . فكيف يمكن أن تترجم هذه الآية ترجمة حرفية سليمة ، لا تفسد المعنى أو تشوهه ؟[2] .

في الحقيقة ، إن ترجمة القرآن ترجمة « حرفية » أمر مستحيل ، وإذا وقع ما قد يسمى ترجمة من حيث الصورة ، فهو في الحقيقة ليس إلاّ تشويهاً لمعاني القرآن ، وتلبيساً للمقصود بغيره ، وتمزيقاً لأحكامه وحججه .

مستحيل ، لأن القرآن معْجِزٌ بألفاظه ومعانيه ، على الصورة التي نزل

(١) مناع القطان ، مباحث في علوم القرآن ص ١٥٨ . ويراجع : « التعبير الفني في القرآن » للدكتور بكري شيخ أمين .

(١) الإسراء .

(٢) البوطي ، من روائع القرآن ص ٢٢١ .

بها ، وبالعربية التي أعجزت العرب وفصحاءهم وليست الترجمة الحرفية قرآناً ، بل إنها حرام شرعاً .

أما الترجمة المعنوية ، ويدعوها كثير من الدارسين باسم **الترجمة التفسيرية** ، فهي التي تنقل معاني الكلام المترجَم إلى اللغة الثانية غير متقيدة بالألفاظ ، وترتيبها ، وخواصها ، وقواعدها . وهي جائزة شرعاً بشرط أن يكون المترجم ضليعاً بالعربية من جهة ، وباللغة التي يترجم إليها من جهة ثانية . بل هي مطلوبة . وذلك لأن محمداً ﷺ بُعث برسالة الإسلام إلى البشرية عامة على اختلاف أجناسها وألوانها ، وبما أن هذه الأمم قد لا تحسن إلا لغتها ، فقد وجب أن تترجم الدعوة بكل ما فيها من أصول إلى ألسنة الأمم ، حتى تبلغهم الدعوة ، وتلزمهم الحجة ، ولكن ما يترجم من قرآن إلى تلك اللغات لا يُعَدُّ قرآناً وإنما هو بعض معانيه ، كذلك لا يجوز التعبد بتلاوته ولا الصلاة به .

وبعد ، فإن الظاهرة التي نلمحها في ترجمة القرآن وضرورتها لتُومِىءُ إلى ضَعْف الأمة العربية ، وتقهقرها عما كانت عليه في الماضي . ذلك أن القرآن في أيام عز العرب لم يترجم إلى لغات الناس المختلفة ، بل كانوا يتعلمون العربية ، ثم يُقْبِلون بعدئذ على دراسة القرآن بلغته الأصيلة ، لأن لغته هي اللغة السائدة في العالم ، وأصحابها هم الحاكمون للعالم .

وحين بدأ العرب يضعُفون ، ويتفرقون ، ويحطم بعضهم بعضاً ، ويستعينون بالأغراب على تحطيم بعضهم ، ذلوا ، وضعفوا ، وأهينوا ، وتكالبت عليهم أمم الأرض زاحفين من الغرب والشرق . ومن ثَمَّ ضعفت لغتهم ، وصاروا يبحثون في ضرورة ترجمة روائعهم ونقلها إلى لغات الناس ، وكان المفروض أن يتعلم الناس لغتهم الأصيلة ، ويفهموا روائعهم وهي على أصولها لا عن طريق المترجمين .

نماذج وشواهد
من « القرآن الكريم »
من سورة الحُجُرات

يا أيُّها الذين آمنوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً منهم ، ولا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ ، عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً منهنَّ . ولا تَلْمِزُوا أنفسَكُم ، ولاَ تَنَابَزُوا بالألْقَابِ ، بِئْسَ الاسم الفسوقُ بعدَ الإِيمَانِ ، وَمَنْ لم يَتُبْ ، فأولَئِكَ هُمُ الظالمون .

يا أيها الذينَ آمنوا اجتنبوا كثيراً مِنَ الظنِّ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثمٌ ، ولا تجسَّسُوا ، ولا يَغْتَبْ بعضُكُمْ بَعْضاً ، أيُحِبُّ أحدكُمْ أنْ يأكُلَ لَحْمَ أخيه مَيْتاً فكرِهْتُموه ، واتقوا الله إن الله تَوّابٌ رحيم .

يا أيها الناسُ إنا خلقناكم من ذَكَر وأُنثى ، وجعلْنَاكم شُعوباً وقبائلَ لِتَعَارَفُوا ، إنَّ أكرمَكم عندَ اللّهِ أتقاكُمْ . إنَّ اللَّهَ عليمٌ خَبيرٌ .

الآيات : ١١ ـ ١٣

استقر المسلمون بعد هجرة رسول الله ـ ﷺ ـ وجاء النصر والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وكان لا بد بعدئذ لهذا المجتمع الجديد من تنظيم ، وربط ، وتشريع يكفل السعادة للمجتمع ، ويرسم طريق

المستقبل ، ويبني هذه المجموعات بناء جديداً ، يحميها غوائل الحاضر والمستقبل .

وتكفلت الآيات المدنية بمتطلبات الحقبة الجديدة ، والمجتمع الوليد ، وراحت تتنزل تباعاً موقرة بهذه الحاجات . وكان من جملتها : سورة الحجرات التي اقتطفنا منها هذه الآيات .

ابتدأ الخالق العزيز بنداء الذين آمنوا ، وكانت السور المكية في الماضي تنادي الناس عامة ، وتكثر من قولها : يا أيها الناس . ولقد سبق في الباب الثاني من هذا الكتاب ، وفي بحث علم المكي والمدني بصورة خاصة أن بينا الفوارق المختلفة بين ما نزل بمكة ، وما نزل بالمدينة ، وذكرنا هذا الفرق في النداء ، واستدركنا بأن ذلك لا يعني كونه قاعدة عامة ، ولا يعني أن كل نداء بـ : « يا أيها الناس » هو مكي ، وكل نداء بـ : « يا أيها الذين آمنوا » هو مدني ؛ وإنما قلنا : ذلك هو الأعمّ الأغلب ، لأنه قد يكون في المدني نداء بـ « يا أيها الناس » . وها نحن أولاء اليوم نستشهد بسورة الحجرات ، وهي مدنية بأجمعها . وقد ورد فيها النداءان معاً . نداء الذين آمنوا ، ونداء الناس .

ويخيل إلينا أن النداء بـ « يا أيها الذين آمنوا » يحمل صورة من العطف ، ويزخم بجو من المحبة ، ويوحي بتعاطف كبير ، فكأن الذين آمنوا هم الأهل ، والأحبة ، والمقربون . بخلاف النداء بـ « يا أيها الناس » ففيها صورة مختلفة كل الإختلاف عن الصورة الأخرى .

المقربون ، والأحبة ، والمؤمنون يجب أن يرتاحوا ، ويتفقوا ، ويتعاونوا ، ويكونوا كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً ، يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه ليبقوا في مركز القوة ، والتحابّ ، وقد جاءت هذه الآيات تعلمهم كيف يكونون كذلك .

« لا يسخر قوم من قوم » وهل هناك أشد إيلاماً في حياة الإنسان من أن

يسخر منه الآخرون ؟ وما السخرية في حقيقتها إلا حط من الكرامة ، وامتهان للإنسانية ، وابتذال للشخصية ، ومهانة ما بعدها مهانة . ولو تساءل الرجل عن الدواعي التي تدفع إلى السخرية لرأى أن منها ما قد يكون ناشئاً عن فقر الإنسان ، أو مرضه ، أو ضعفه ؛ أو أمر حلّ به ، وجعله موطن الهوان ، سواء أكان مظهراً جسمياً أم عقلياً أم نفسياً .

وكثيراً ما يكون هذا السبب مفروضاً على الإنسان ، لا طاقة له برده ، ولا قدرة له على إزالته ، ولا مشيئة له بصنعه وإنما كتب عليه كالقدر ، وطبع به طبعة لا يستطيع منها فكاكاً .

هذه النواقص في الإنسان ، لا تعني أن صاحبها على هامش الإنسانية ، ولا تعني أنها توجب أو تحل للآخرين أن يستغلوها للمهانة ، والتنقص ، والإذلال .

كم من هؤلاء المشوهين ، أو الضعفاء ، أو المرضى ، أو الفقراء ، أو المصابين بالمصائب من يحمل العقل الكبير ، وكم منهم من يملك القلب الرحيب ، وكم منهم من يساوي آلاف آلاف الأصحاء والأقوياء !

إن واقع الحياة ليثبت أنه ليس كل صحيح وقوي وغني هو الإنسان الصالح ، وأن كل مريض وضعيف وفقير هو الإنسان الطالح .

﴿ عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهن ﴾ .

وما يُدري الساخر أن من يسخر منه أرفع مكانة عند الله ، وأكثر نفعاً للناس . وأطهر قلباً من الكثيرين ؟ وما تدري المرأة التي تسخر بغيرها من النساء أن تكون تلك أعلى منها مقاماً ، وأطهر جسداً . وأكبر عقلاً ، وأطيب قلباً . بل هو في الواقع كذلك ، لأن السخرية بحد ذاتها ، وهي تصدر من مخلوق ، لَتَدُلُّ على ضعف ارتباطه بالمجتمع ، وهوان مكانته بين الناس ، وتفاهة نظرته إلى المجتمع ، وضعف عقله الذي يعيش به .

كذلك أمر الله ألا يلمز المرء أخاه ، واللمز لون من ألوان السخرية ، يكون بإشارة من العين ، أو حركة من اليد ، أو همسة من اللسان أو بغير ذلك من وسائل ؛ إنما هو في تعدد مظاهره شيء واحد يقصد به السخرية ، والإستهانة بالآخرين .

وتلقيب الناس بألقاب بذيئة ، أو غير بذيئة أمر حرام إذا كان المقصود بها حطاً من القيم ، وانتقاصاً من الكرامة . تلك أمور حرمها الله ، ومرتكبها آثم ، عليه التوبة والإستغفار ، لا إلى الله وحده ، بل عن الذنب ، وطلب الصفح من الإنسان . وأن من يحجم ، ويأبى ، فإنه ظالم نفسه . وللظالمين مصير معروف .

عودة من جديد إلى نداء الذين آمنوا ، ونصيحة أخرى جديدة ، ونظرة ثانية إلى الإنسان ، لا من ظاهره ، وإنما من ضميره . إن النصيحة الآن تتوجه إلى الأعماق في الإنسان .

كم من الناس الذين زينت لهم نفوسهم وشهواتهم الظن بالآخرين ظن السوء ، وكم من الناس الذين ذهبوا ضحية هذا الظن الآثم . ألا نجد نحن ـ وقد بعدنا عن زمن نزول الآية أربعة عشر قرناً من عمر الزمان ـ أن كثيراً من الأحكام يحكم بها حاكمون على أفراد من المواطنين لمجرد أنهم ساروا في طريق معينة ، أو رافقوا إنساناً له سمته الخاصة ، أو تحدثوا بحديث فاشتمُّوا منه بفعل حاسة شمهم الرهيبة رائحة ولاء أو عداء ، فأنزلوا ما شاء لهم شيطانهم أن ينزلوا به من مصائب ؟

كم من الناس قتلوا لأن الظن بهم كان آثماً ، ثم تبين لهم أنهم كانوا على خطأ فيما ظنوا ؟

كم من النساء مزقت أعراضهن لمجرد نظرة لمحها لامح ، أو لمجرد بسمة ، أو خطرة ، أو كلمة توهمها ظان ؟

إن من يدخل السجون يجد العجب العجاب ، ذلك أن كثيراً من

المجرمين ، ارتكبوا جريمتهم لظنّة وشبهة ، ثم تبين لهم أنهم كانوا متوهمين ، ومخطئين ، ولكن سبق السيف العذل .

كذلك التجسس على الناس . والتجسس صور وألوان ، وفي حقيقته واحد . وإذا كان في الماضي يقوم على وسائل مادية ، فهو اليوم ألف ألف شكل ولون . هو اليوم آلات تصوير بالغة الدقة ، وطائرات لا يبلغها المدفع بله النظر ، وآلات تسجيل توضع في الظلام ، أو في عروة سترة ، وهاتف وراءه ألف أذن وأذن ، وعيون تتفتح في الظلام ، ولا تتقي الله في نظرة . . هو اليوم أكثر من أن يحصيه عدّ ، أو يخطر في بال إنسان حكيم . .

وإذا كان التجسس على أعداء الوطن ، والعقيدة ، وكرامة الناس واجباً ، فإن التجسس على حياة الأفراد ، وإحصاء حركاتهم ، وسكناتهم ، وتصرفاتهم الإنسانية خيانة للوطن ، وتهديم للعقيدة ، وإهدار للكرامة ، وتمزيق لوحدة الأمة ، ودفع إلى الهزيمة في كل ميدان ، سواء كان ميدان حرب ، أم ميدان سلام .

ولا تقلُّ مغيبة الناس عن التجسس ، وظن السوء واللمز ، والتنابز بالألقاب . فالمغيبة هي ذكر الإنسان في غيبته بما يكره ، والطعن به ، ونهش عرضه وكل ما فيه ، سواء أكان ما يقوله المغتاب حقاً أو باطلاً . إن المغيبة واضحة المعالم ، بينة الحدود ، إنها تسمى مغيبة إذا ذكرت أخاك بأمر يكره أن يذكر به ، ولو كان حقاً . فإذا قلت في غيبته : إنه أعرج ، وهو في الواقع أعرج ، وهو يكره أن يقال عنه هذا في حضوره فذكرك هذه الصفة مغيبة ، فكيف إذا كان المغتاب يكيل التهم والإفتراءات كيلاً ؟

إن من يغتاب الآخرين كمن يأتي إلى ميت خَنِزَتْ روائحه ، وامتلأ بالدود لحمه ، وسالت منه الأقذار من كل ثغرة وفتحة في جسده ، فاقتعد منه جانباً ، وراح يقتطع من لحمه قطعاً ، فينهشها ، ثم يعلكها . وطبيعي أن حيواناً يأنف من هذه القاذورات ، فكيف بالإنسان الذي كرمه الله ، وأعلى

مكانه ؟ وما المغتاب إلا كناهش لحوم الموتى ، الذين لا يستطيعون دفاعاً عن أنفسهم ، لأنهم موتى .

اتقوا الله أيها الذين آمنوا ، اتقوه بإخوانكم . ومن فعل ذلك وجبت عليه التوبة إلى من لا يرد توبة تائب .

وتنتقل الآيات من الجو الخاص إلى العام ، ومن بيئة الذين آمنوا إلى الناس جميعاً في كل صقع ، وزمان ، فتخاطبهم الخطاب العام ، وتخبرهم أنهم من جنس واحد ، وأنهم ليسوا إلا ذكراً وأنثى ، يكمل بعضهم بعضاً ، وأنهم أسر وقبائل ، ومنهم تتكون الشعوب والأمم . إن أصلهم واحد ، وإن حقيقتهم واحدة ، وغايتهم واحدة . لهذا وجب عليهم أن يتعارفوا ، وإذا تعارفوا تحابوا ، وإذا تحابوا نشروا السلام ، والتعاون ، والإخاء بينهم . وحينئذ ، وحينئذ فقط يتساوون ، فلا يكون بين إنسان وإنسان من فرق ، في اللون ؛ أو في الجنس ، أو في المكان ، أو في الزمان ، أو في القوة ، أو في الضعف ، أو في الغنى ، أو في الفقر . . إنما الفرق الوحيد هو في تقى الإنسان وطاعة ربه .

وإن الله هو الذي خلق هذا كله ، وهو الذي يعلم خائنة الأعين ، وما تخفي الصدور .

* * *

إن تأملاً بسيطاً في هذه الآيات المحدودات يدفعنا إلى أن نقول : إن عنوانها « كيف يجب أن يكون الحب » .

ويبدو أن الحب وحده أساس الخير في الدنيا . والذي نريده بالحب كل ما يدخل تحت نطاق هذه الكلمة . حب الشاب للفتاة ، وحب الأخ للأخ ، وحب الأخت للأخت ، وحب الوالد للولد ، وحب الصغير للكبير ، وحب التلميذ للأستاذ ، وحب المعلم للمتعلم ، وحب المواطن للوطن ،

وحب الحاكم للمحكوم ، وحب البلد للبلد ، وبصورة مختصرة : حب الإنسان للإنسان .

هذا الحب هو شعار الإسلام ، وأساس التقدم ، وركن النهضة الحقة ، وبدونه فلا سلام ، ولا حضارة ، ولا نصر ، ولا تعاون .

* * *

ولو فتشنا عن سبب تخلف المجتمعات في عصرنا ، وبحثنا عن مركز العلة ، وعمقنا النظرة ، أدركنا أن التخلف وليد فقدان الحب بين الإنسان وأخيه الإنسان .

ولا نريد أن نسهب في تحليل ما نقول ، ونثبت صحة ما ندّعي ، فالواقع ، بل كل شيء في الحياة يسخِّر نفسه ليكون برهاناً على ما نذهب إليه .

والآيات الكريمة تعلم كيف يكون الحب بين الإنسان والإنسان ، والمجتمع والمجتمع ، وتبني بهذا الحب المجتمع الجديد الوليد وتهديه إلى طريق الحياة ، متخذة الهدوء في التعبير ، والبرهان في الحجة ، واللين في القول . وذلك شأن السور المدنية .

أما الأسلوب فإنه يختلف عن أسلوب السور المكية ، فلقد ذهبت الحدة ، وغابت الحماسة ، وتدنى عنصر الإنفعال ، وحل محلّها السَّكينة والوقار ، والنظرة البعيدة ، والأسلوب الهادىء .

لقد طالت الفِقَرُ ، وامتدت التعابير ، ولانت اللهجة ، وغابت عناصر كثيرة من الموسيقية الصاخبة الشديدة .

كذلك غابت ألفاظ النعيم والجحيم إلى حد كبير ، وحلّ محلها ألفاظ الحياة ، ومفردات الواقع .

وإن هذا لا يعني غياب السحر الحلال ، وروعة الأداء ، وإعجار التعبير .

ولو تأملنا طريقة استعمال المفردات من تعريف وتنكير ، ودقة وبيان لوقفنا على بعض سر الجمال : إن استخدام لفظة « قوم » منكَّرة تؤدي من وقع موسيقي ، وأداء معنوي ما لا تؤديه لو كانت معرفة .

إن « قوم » في حالة التنكير رسمت جواً رحيباً ، وابتعدت بالمعنى إلى آفاق لا تبلغها لو كانت في حالة التعريف . وكذلك استخدام « عسى » في المرتين وتحمل من الشحنة العاطفية ما لا تحمله أي كلمة أخرى في العربية كلها .

وهذا « الكثير من الظن » فيه من الإنطلاق إلى أجواء مترامية ، ومسافات متنائية حتى تكاد تغيب ويغيب معها كل ظن . وفي استخدام الكلمة على هذه الصورة « كثيراً من الظن » نجد شيئين ، هو أن أكثر الظنون خاطئة ، ولكن ليس كل الظنون خاطئة . وهذا الإدماج والفصل في آن واحد أدته كلمة « كثيراً » على صورتها المنكرة .

كذلك تقول الشيء نفسه في « إثم ، وبعضاً ، ولحم أخيه ، وذكر ، وأنثى ، وشعوباً ، وقبائل » فتنكيرها أوحى بالجنس أولاً ، وبالمعنى الدال على الكثرة ثانياً ، وبالتعميم المطلق ثالثاً .

أما المفردات المعرفة فقد كان لها طعم آخر : لقد أضيفت « أنفس » إلى « كم » فكأنه يحدد اللمز بحدود اللامزين ، وأنهم وحدهم الذين يصابون به ، ويعانون من أذاه . ومثلها « بعضكم » . ولقد عرفت « الألقاب » ، و« الإسم » و« الفسوق » ، و« الإيمان » ، و« الظن باللام الجنسية لتدل على الماهية والحقيقة التي لا يختلف فيها إثنان .

وفي التعابير روعة من حيث التلوين بين الخبر والإنشاء . فالنداء في مطلع كل آية ، ثم تلوين هذا النداء وتعميمه بعد تخصيصه . والنهي المتكرر في « لا يسخر ، ولا تلمزوا ، ولا تنابزوا ، ولا يغتب . والأمر في اجتنبوا ، واتقوا الله . والإستفهام في « أيحب » . ثم الخبر في « فأولئك هم

الظالمون » ، و« إن بعض الظن إثم » و« إنا خلقناكم في ذكر وأنثى » ، وفي « حعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » « وإن أكرمكم عند الله أتقاكم » و« إن الله تواب رحيم » و« إن الله عليم خبير » . هذا التلوين في الإنشاء ، والخبر ، ثم هذا التأكيد اللطيف في الجمل الخبرية ذاتها أدت بالنص إلى حركة ، وحياة ، وسهولة أداء ، ويسر حفظ ، ما له نظير .

* * *

أما الكناية في الآية الثانية : ﴿ **أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه** ﴾ ، ففيها صورة من الإيحاء بعيدة المدى . وإن المقصود من هذه الصورة ليس حقيقتها الظاهرة ، وإنما ما وراء تلك الحقيقة من تقزز ، وعمل ما لا يجب عمله . وكذلك أمر الكناية في علم البيان ففيها معنيان : قريب لا نريده ، ولازم من المعنى القريب هو الذي نسعى إليه .

* * *

وإذا بحثنا عن الإيقاع الموسيقي في الآيات وجدناه ، ولكنه دون وقع السور المكية بدون جدال .

السينات المتكاثرة في الآية الأولى : يسخر ، عسى ، نساءٌ ، نساءٌ ، عسى ، بئس ، الإسم ، الفسوق . وما يتبع السينات من حروف صفير كالزاي في تلمزوا ، وتنابزوا . . كلها توحي بجو الصفير الذي يكون في الغالب مرافقاً لحالات السخرية والإستهزاء .

والنونات في الآية الثانية : الذين ، آمنوا ، اجتنبوا ، الظن ، إنّ ، وما يتبع هذه النونات من حركات تنوين توحي بالجيشان النفسي ، وما الظن إلا عارض نفسي باطني . وأولى أن يعبر عن هذه الحالة النفسية بما يتفق معها من حروف تعبر عن النفس والضمير أكثر مما تعبر عن المظهر والعوارض الخارجية .

والمدود في الآية ، يا أيها الناس ، إنا ، خلقناكم ، وأنثى ، وجعلناكم

شعوباً ، وقبائل ، لتعارفوا ، أتقاكم ، ، » تصبغ الجو بانطلاقة بعيدة المدى ، أفلا تشبه هذه المدات امتداد الآفاق التي يجب أن يلفها الحب في أرجاء العالم ؟ .

* * *

وبعد ، فهذا كتاب الله المعجز . وآياته البينات ، وأسلوبه الذي وقف الناس أمامه حيارى ذاهلين لأنهم عجزوا أن يأتوا ولو بآية من مثله معارضين .

يراجع كتاب « التعبير الفني في القرآن » للدكتور بكري شيخ أمين .

الإيمان باليوم الآخر وتحريم الطاعة العمياء للكبراء

١ ـ كان اليهود يسألون رسول الله ﷺ عن موعد الساعة امتحاناً له لأن الله أخفى علمها في التوراة وسائر الكتب ، كما أن العرب كانوا يسألونه عنها استهزاء بها، فنزل قوله تعالى : يسألك الناس عن الساعة . . .

٢ ـ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : لا يبلغني أحدٌ عن أحدٍ من أصحابي شيئاً ، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر ، فأتى رسولَ الله ﷺ مالٌ فقسمه قال : فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه : والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة ، قال فثبت حتى سمعت ما قالا ، ثم أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله إنك قلت لنا لا يبلغني أحدٌ عن أصحابي شيئاً ، وإني مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا ، فاحمرّ وجه رسول الله ﷺ وشقّ عليه ثم قال : دعنا منك لقد أُوذي موسى بأكثر من هذا فصبر[١] . وهذا النص الذي بين أيدينا يبين موضوع الدار الآخرة وعدم إيذاء النبي ﷺ :

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذيّ وغيرهم . ويراجع كتاب « التربية الإسلامية » .

النص:

يَسْئَلُكَ النّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إنَّما عِلْمُهَا عِنْدَ ٱللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً إِنَّ ٱللهَ لَعَنَ الكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱالنّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا ٱللهَ وَأَطَعْنَا ٱلرّسُولاَ وَقَالُوا رَبّنَا إِنّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسّبِيلاَ رَبّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً يَا ءَيُّهَا ٱلّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً يَا ءَيُّهَا ٱلّذِينَ آمَنُوا ٱتّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً .

المفردات :

لعن الكافرين : طردهم وأبعدهم عن رحمته .
سادتنا : أشرافنا .
كبراءنا : رؤساءنا .
ضعفين : مثلين .
وجيهاً : ذا جاه وقدر .
سديداً : صواباً .

التفسير :

الإيمان بالآخرة وجزاء منكرها :

أنذر رسول الله ﷺ المشركين بعذاب شديد يوم القيامة ، فأرادوا امتحانه به ، فسألوه عن موعدها ، فإن أخبرهم بموعدها نظروا في أمر الإيمان بها ، وإن لم يخبرهم كان ذلك دليلاً على عدم وجودها ، وكان

جواب رسول الله ﷺ لهم : إن الله سبحانه هو الذي اختص بعلم موعدها ، وربما كانت قريبة ، وربما كانت بعيدة ، فأنكروها وأصبحوا يرددون : «إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ،» ، وقد نسي هؤلاء أن الله عادل لا بدّ أن ينتصف للمظلوم من الظالم ، وأن الله حكيم فلا بدّ أن يكافىء المحسن ويعاقب المسيء ، وأن هذه الدنيا دار اختبار وابتلاء ، فلا بدّ من دار أخرى يجعلها الله للجزاء ، فيحاسب الناس فيها على أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وإن إنكار اليوم الآخر بما فيه من حساب وجزاء ، إنكار لقدرة الله تعالى وعدله . ولا يقدم على ذلك منصف ، وسيتحقق هؤلاء الجاحدون من ذلك عندما يطردهم الله تعالى من رحمته ويقذفهم في النار وفي ذرك السعير منها في ذلك اليوم ، حيث يستغيثون ولا مغيث لهم إلا بعذاب أشد ، ويستجيرون ولا مجير لهم إلا بالنار ، فهم لا يجدون ولياً يحفظهم منها ولا نصيراً يدفعها عنهم ، يبقون هكذا يتقلبون في النار أبد الآبدين .

ندم الكافرين على طاعتهم الكبراء وعصيانهم الله ورسوله :

ويتمنى هؤلاء المنكرون لليوم الآخر لو كانوا ممن آمن وأطاع الله ورسوله في الدنيا ولكن لم يعد ينفعهم التمني ، فيقدمون العذر الذي دفعهم إلى عدم الإيمان والطاعة وهو : أنهم أطاعوا زعماءهم فلم ينصح لهم هؤلاء الزعماء ، بل ألقوهم في الضلال ، ولكن من البيِّن أن هذا العذر هو أقبح من الذنب الذي ارتكبوه ، لأنهم ما كان لهم أن يطيعوا هؤلاء وقد أرسل الله تعالى الرسل وأيدهم بالدلائل الدالة على صدق رسالتهم ، ولما شعروا بعدم قبول عذرهم رجوا الله تعالى أن يطرد من رحمته هؤلاء الفارين المجرمين من الرؤساء والزعماء ، وأن يضاعف لهم العقوبة لأنهم كانوا هم في الضلال كما كانوا سبباً لإضلال غيرهم من البسطاء ، ويلقي الله تعالى الضالين والمضلين في النار ويسقط بأيدي الجميع و«ويعضّ الظالم على يديه يقول : يا ليتني

اتخذت مع الرسول سبيلاً ، يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ، لقد أضلّني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً » .

وهذه هي نتيجة التبعية العمياء ، ولذلك فإن الإسلام لا يرضى من أتباعه الاقتداء بالآخرين إلا على أساس من الهدى والنور ، ويقول لهم رسول الله : «لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنّا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساؤوا فلا تظلموا»(١) .

فأنت ترى أن كل ذي ولاية على غيره من أب أو مدير أو رئيس . . . وكل ذي تأثير في غيره من أخ أو صديق أو مدرس أو جار . . . ترى كل واحد من هؤلاء مسؤولاً عن الذين يتأثرون به ، عن هدايتهم وإضلالهم ، وتتسع مسؤوليته على قدر سعة تأثيره . فإذا غدوتَ واحداً من هؤلاء فاعلمْ أنّ مسؤوليتك عمن يتأثرون بك مسؤولية مضاعفة جسيمة ، فكنْ قدوةً لهم داعياً إلى الإيمان والهدى والإحسان ، ولا تكن داعية إلى الضلالة والشهوة المحرمة والفساد ، فإن الله سيوقفك بين يديه ويجزيك بالخير خيراً كثيراً وبالشرّ لعناً كبيراً . فابْتغ ثواب الله ورضاه .

طاعة الله ورسوله سبيل النجاة :

كان بنو إسرائيل لا يقيمون حرمة للأنبياء ، فقتلوا بعضاً منهم ، وكالوا الاتهامات للبعض الآخر كما فعلوا مع موسى عليه السلام حين اتّهموه بقتل هارون ، واتهموه بالزنى ، واتهموه بأن في جسده عيباً ، وكان موسى عليه السلام أكرم على الله تعالى من ذلك كله ، ولذلك استحقوا عذاب الله تعالى ، وجدير بالمسلمين ألّا يتبعوا سبيل بني إسرائيل في ذلك ، وعليهم أن يحيطوا رسول الله ﷺ بالرعاية والحب ويدافعوا عنه ، وعليهم أن يذكروا دائماً أن هذا رسول الله ، طاعته طاعة لله ، وإغضابه إغضاب لله ، فعليهم ألّا

---

(١) رواه الترمذي . ومعنى (إمعة) : منقادين لغيركم دون تفكير .

يذكروه إلا بخير ، وإنهم إن فعلوا ذلك كانوا مكان رعاية الله ورحمته حيث يوفقهم إلى صالح العمل الذي ينالون به رضوانه ، ويغفر لهم تلك الهفوات والهنات التي تصدر عنهم ، وذلك هو الفوز العظيم الذي يجب أن يبتغيه كل مؤمن .

الارشاد والتوجيه :

١ ـ الاتباع الأعمى للكبراء انتقاص من قيمة الإنسان وتعطيل لعقله وتفكيره .

٢ ـ من دعا إلى ضلالة كان عليه إثمان : إثم لضلالته هو ، وإثم لأنه أضل غيره .

٣ ـ وجوب محبة رسول الله ﷺ وتوقيره . وعدم إيذائه بانتقاص قدره أو إهمال تعاليمه .

مِن صِفاتِ المؤمِنين

في هذا النص الكريم بيان لصفات المؤمنين حتى يتحلّى بها المسلم ، ولا يتخلى عنها ابداً ، ففي ذلك صلاحه ونجاحه في الدنيا والآخرة وإليك النص :

النص:

اَفَمَنْ يَعْلَمُ اَنَّمَا اُنْزِلَ اِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ اَعْمٰى اِنَّمَا يَتَذَكَّرُ اُولُوا ٱلاَلْبَابِ اَلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ آللهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَا اَمَرَ ٱللهُ بِهِ اَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَاَقَامُوا آلصَّلٰوةَ وَاَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ آلسَّيِّئَةَ اُولٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى آلدَّار جَنّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ اٰبَائِهِمْ وَاَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيّاتِهِمْ وَالْمَلٰئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقبَى ٱلدّارِ وَٱلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ آللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا اَمَرَ ٱللهُ بِهِ اَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلاَرْضِ اُلٰئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ ٱلدَّارِ اَللهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيٰوةِ آلدُّنْيَا وَمَا ٱلحَيٰوةُ آلدُّنْيَا فِى الاٰخِرَةِ اِلاّ مَتَاعٌ

المفردات :

ولا ينقضون الميثاق : ولا يتركون العهد .

ويدرؤ ون : ويدفعون .

عقبى الدار : عاقبتها المحمودة وهي الجنات .

جنات عدن : جنات إقامة دائمة .

سوء الدار : عاقبتها السيئة وهي النار .

يبسط الرزق : يوسعه .

ويقدر : يضيقه على من يشاء .

متاع : شيء قليل ذاهب .

التفسير :

فرق كبير بين أولئك الذين فتحوا عيونهم للنور ، وقلوبهم للإيمان ، واتّصفوا بأعلى الصفات ، وبين الذين آثروا العيش في الظلام ، وحجبوا القلب لئلا ينفذ إليه نور الإيمان ، واتّصفوا بأدنى الصفات .

فمن صفات المؤمنين :

١ ـ **الوفاء بالعهد** : والعهد هو ما عقده الإنسان بينه وبين ربه ، أو بينه وبين نفسه ، أو بينه وبين الناس ، ومن صفات المؤمنين أنهم لا ينقضون العهد ، وهذه الصفة هي من الصفات التي تفرّق بين المسلم والمنافق ، فقد ورد في صفات المنافق عن رسول الله ﷺ أنه : «إذ عاهد غدر» .

٢ ـ **صلة ما أمر الله به أن يوصل** : كصلة الله بالعبادة والإخلاص ، وصلة شريعته بالنصرة والنشر ، وصلة الأرحام والفقراء والجيران بالزيارة والمساعدة ، فقد جاء في الحديث : «من أراد أن يُبْسَطَ له في رزقه وأن يُنْسأ له في أجله فلْيصلْ رحمه» ومن صلة الرحم أن يصل الإنسان من قطعه وقد

جاء في الحديث الشريف : «ليس الواصل بالمكافىء ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»[1] .

٣ ـ **خشية الله** : والخشية من الله مرتبة العلماء وسمة المقربين الأتقياء : «إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ» والخشية صفة تحملهم على فعل كل ما أمروا به واجتناب كل ما نهوا عنه .

٤ ـ **الخوف من الحساب في الآخرة** : فهم يحاسبون انفسهم قبل أن يحاسَبوا ، ويَزِنون أعمالهم قبل أن توزن عليهم ، لأنهم يخافون الحساب الذي يستقصي كل الأعمال مع المناقشة في الصغير والكبير .

ـ **الصبر ابتغاء ما عند الله من الأجر** : والصبر حبس النفس على ما تكره ، وذلك بفعل الطاعات والتكاليف ، واجتناب المنهيات والمنكرات ، وصبرهم هذا ابتغاء وجه ربهم لا رياءً ولا طلباً للسمعة .

٦ ـ **اداء الصلاة** : لأن الصلاة الركن الأول من أركان الإسلام وهي التي تفرّق بين المسلم وغيره ، وهي رمز الخشوع والطاعة لله سبحانه .

٧ ـ **الإنفاق في وجوه الخير** : وما أكثر هذه الوجوه ، منها إنفاق الإنسان على عياله ، وإنفاقه على الفقراء والمساكين ، وبناء المساجد ، والمستشفيات الخيرية وغير ذلك .

٨ ـ **المعاملة الحسنة** : لأنها تأسر القلوب ، وتمحو العداوة ، وتزرع التعاون قال تعالى : «ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم» .

السعادة الأبدية للمؤمنين :

الجنة ليست على درجة واحدة ، بل هي مائة دجة وأعلى هذه

---

(١) أخرجه البخاريّ .

الدرجات درجة الفردوس ، فهي إذاً ليست جنة واحدة بل هي جنات باعتبار درجاتها ، يسكن كل فريق من المؤمنين درجة من هذه الدرجات على حسب تحقيقهم لصفات المؤمنين ، فمن حققها قريبة من الكمال كان في الفردوس الأعلى من الجنة ومن لم يقم بها كان في الدرجات الأدنى ، فإذا دخلوها كانوا في أمان من الخروج منها حيث الخلود فيها ، قال ﷺ : «ثم ينادي المنادي يا أهل الجنة لا موت ، ويا أهل النار لا موت» ويكون بجوار هؤلاء المؤمنين من صلح لدخول الجنة من آبائهم وأزواجهم وأبنائهم ، فيا لها من عاقبة صار إليها المؤمنون الصادقون ، وأكرم بالجنة من دار إقامة دائمة لهم

مآل الكافرين إلى جحيم مقيم :

ثم ذكر الله الأشقياء وجزاءهم ، وقرن العاصي بالطائع ، حتى يظهر الفرق جلياً بينهما ، فيكون ذلك أدعى للامتثال والعمل الصالح . فقال : فالذين ينقضون عهد الله الذي ألزمه عباده ، وأمر به في كتابه ، مما يشمل عهد الله وعهد الناس ويقطعون ما بينهم من صلة للأرحام والفقراء ، ويفسدون في الأرض بأعمالهم الخبيثة . هؤلاء الجاحدون الناقضون للعهد القاطعون للرحم المفسدون في الأرض ، ليس لهم جزاء إلا الطرد من رحمة الله ، والزج في النار ، يتلقون فيها عذاباً يتناسب مع جرائمهم التي ارتكبوها في الدنيا . ولما وصفهم الله بقوله : ولهم سوء الدار ، كأن سائلاً سأل : كيف هذا ؟ مع أننا نرى هؤلاء الأشقياء منعمين في الدنيا !؟

والجواب : إن الله سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء بقطع النظر عن كونه مؤمناً أو كافراً ، فالدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ، فقد يضيق الله الرزق على المؤمنين ابتلاء واختباراً ، فبسط الرزق للكافر لا يدل على الكرامة ، والتقتير على المؤمنين لا يدل على الإهانة ، فإن كان الكافرون قد فرحوا بدنياهم ، واطمأنوا بها ولم يذكروا الآخرة ولم يعملوا لها ، فما الحياة الدنيا بالنسبة الى الآخرة إلا متاع زائل ، وعرض فانٍ حائل ، يزول فلا يبقى منه أثر . ثم يلقى الإنسان ما يستحق ، وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً .

الارشاد والتوجيه :

١ ـ اليوم الآخر مظهر من مظاهر عدل الله تعالى .
٢ ـ الرزق بيد الله لا تدل كثرته على الكرامة ولا قلته على المهانة .
٣ ـ متاع الدنيا قليل زائل ومتاع الآخرة كثير دائم .

تحريم المفاسد

لقد كان من أهداف الإسلام إصلاح العقيدة . ثم إصلاح المجتمع بتحريم المفاسد الاجتماعية ، وفي هذه الآيات نجد تحريم القرآن لبعض هذه المفاسد .

قال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمنُوا إنَّما الْخمْرُ وَالْميْسِرُ وَ الأَنْصَابُ وَالأَزلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوةَ وَٱلْبَغْضَاءَ في الْخمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ

شرح الكلمات :

الخمر : كل مشروب يذهب العقل مهما كانت المادة المأخوذة منه .

الميسر : القمار .

الأنصاب : مفردها نَصبَ ، وتجمع أيضاً على (نُصُب) والمراد بها هنا الحجارة التي كان المشركون يذبحون عليها .

الأزلام : مفردها (زلم) وهي قداح ـ سهام بلا ريش ـ مكتوب على

بعضها افعل ، وعلى بعضها لا تفعل ، فمن أراد نكاحاً أو سفراً أو نحوه أخرج واحداً منها لا بعينه ، فإن كان (افعل) ، مضى لما أراده وإن كان (لا تفعل) أمسك عنه .

الرجز : القذر ، وقد يكون الشيء مستقذراً حساً كالخمر والنجاسات أو غيرها ، وقد يكون مستقذراً معنى كالميسر ونحوه .

اسباب النزول :

كان عمر بن الخطاب يكره الخمر ويقول دائماً : اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً ، فأنزل الله تعالى (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً ، فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى . . .) فدعي عمر فقرئت عليه فقال اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً فأنزل الله هذه الآيات (إنمّا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه . . .) فدعي عمر فقرئت عليه فقال : انتهينا يا رب .

التفسير :

إن سلامة المجتمع بسلامة أفراده وسلامة العلاقة بين هؤلاء الأفراد ، فإذا ما فسد الفرد ، أو فسدت العلاقة بين الأفراد فسد المجتمع ، وسلامة الفرد تكون بسلامة جسمه ، وسلامة روحه وخلقه ، وقد اتخذ الإسلام كل الاحتياطات التي تكفل سلامة الفرد ، وسلامة العلاقة بين الأفراد ، ومع ذلك ما ورد في هذه الآيات .

١ ـ تحريم الخمر والميسر :

فقد حرم الله على المؤمنين الخمر والميسر لما فيهما من الأضرار الجسمية والروحية للفرد ، ولأنهما يفسدان العلاقة بين الأفراد .

أما أضرارهما الجسمية : فإن الأطباء قد تحدثوا عنها كثيراً ، ولو لم يكن للخمر إلا ضرر إضعاف مقاومة الجسم للأمراض لكان ذلك كافياً لتحريمه ، وقد قرر معهد الإحصاء القومي الفرنسي أن ما تقتله الخمر من الفرنسيين أكثر مما يقتله مرض السل .

وإن التوتر الدائم لأعصاب المقامر ، وقلقه ، وسهره يتلف جسمه ويضعف بنيته ويضعف مقاومته .

أما اضرارهما الروحية : فانهما يشغلان المرء عن قيامه بواجباته الدينية كالصلاة وغيرها ، فينسى نفسه ، وينسى ربه ، ولذلك فإنه يقترب من الموبقات مالا يقدم عليه من راقب الله تعالى .

وأما إفسادهما العلاقة بين الأفراد : فان التصرفات الشائنة التي يقدم عليها السكران من غير وعي ، والحقد الذي يحمله المقامر على من استلب منه ماله بغير تعب تكون سبباً في تفريق الكلمة ، وتشتيت الشمل ، وإضعاف الرابطة الاجتماعية ، وتلك هي العداوة والبغضاء التي عناها القرآن الكريم في هذه الآيات .

٢ ـ تحريم الأنصاب :

وقد حرم الإسلام تعظيم وعبادة غير الله تعالى : سواء كان جماداً أو حيواناً أو إنساناً ، لأن تعظيم وعبادة الإنسان لغير الله تعالى احتقار لشخصه ، وامتهان لذاته ، والإنسان الذي يحتقر ذاته لا يمكن أن يفلح ابداً .

٣ ـ تحريم الأزلام :

وهي عيدان يتعرفون بها الوجه فيما يفعلونه أهو خير أم شر ، وكانوا يقومون بهذا عند أصنامهم طالبين منها أن تختار لهم ما هو الأفضل .

ولقد حرّم الإسلام ذلك وجعله شركاً لأنه استعانة بالأصنام ، وعلّم

الإنسان أن يلتجىء الى الله وحده في تعرف الخير والشرّ ، وقد علّم رسول الله ﷺ أصحابه الاستخارة .

روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول : إذا همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره لي ، ثم بارك لي فيه وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني ، واصرفني عنه ، وأقدر لي الخير حيث كان ، ثم رضني به ، قال : ويسمي حاجته .

هذه هي الصورة التي علّمها رسول الله لأصحابه ، وأما ما يعتاده بعض الجهال من استخارة بالمصحف او بالمسبحة أو غير ذلك فليس من الإسلام في شيء .

فإذا ما فكر الإنسان بالخروج عن جادة الصواب ، وسلوك طريق الشر بشرب الخمر أو اللعب بالميسر ، أو عبادة غير الله ، فليعلم أن هذا الطريق هو الطريق الذي رسمه له الشيطان فليبتعد عنه ما استطاع ، ليقدر على القيام بحمل الأمانة التي حمله الله تعالى إياها ، وليكون محلاً صالحاً لرحمة الله التي تنقذه من عذاب يوم القيامة .

ما يستفاد من الآيات :

١ ـ على المسلم الابتعاد عن كل ما يضر جسمه وروحه .

٢ ـ حرصُ الإسلام على سلامة المجتمع وقوته .

٣ ـ الوحدانية أساس العقيدة الإسلامية وعليها ترتكز فلسفته .

فقه الآيات :

١ ـ رجس : فهم بعض الفقهاء من قوله تعالى في الآيات (رجس) أن الخمر نجسة ، وقال فريق آخر من الفقهاء : إن الخمر لا تنجس البدن والثوب ، وإن المراد بالرجس هنا الرجس المعنوي لا المادي .

٢ ـ فاجتنبوه : المراد بالاجتناب الابتعاد عنه ، وعلى هذا لا يجوز الانتفاع بشيء من الخمر بوجه من الوجوه ، لا بشرب ، ولا تحليل ولا مداواة ولا ادّهان ولا غير ذلك ، ولا يجوز بيعه ، ولا حمله إلا لإراقته ولا حضور مجالس شربه . . .

٣ ـ تدل الآية على تحريم جميع أنواع اللعب واللهو قماراً أو غير قمار ، إذا كان القليل من ذلك يؤدي إلى الكثير من غير ما فائدة ظاهرة ، أو كان ذلك يوقع العداوة والبغضاء بين العاكفين عليه ، أو كان يصد عن ذكر الله وعن الصلاة .

النص الخامس

توجيهات إلهية في بناء المجتمع السليم

الإسلام دين شامل ، يتناول بالإصلاح الإنسان من جميع جوانبه فرداً ومجتمعاً ، وعقيدة وسلوكاً ، وجسمياً ونفسياً «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» .

والنص القرآني الذي بين أيدينا يقدم لنا أوامر وتوجيهات إلهية كل واحد منها لا غنى عنه في بناء المجتمع السليم المتكامل ، وإليك هذا النص :

وَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبذِّرْ تَبْذِيراً إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ منْ رَبِّكَ تَرْجوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً إنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَة إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كانَ فَاحِشةً وَسَاءَ سَبِيلاً وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالحقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِفْ في ٱلْقتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً .

شرح الألفاظ :

المسكين : هو الذي لا يجد من الدخل ما يكفيه .

ابن السبيل : المسافر المنقطع الذي لا يجد ما يوصله إلى أهله .

المبذر : هو الذي ينفق ماله فيما حرَّم الله .

مغلولة إلى عنقك: مضمومة إلى رقبتك ، وهو كناية عن البخل والشح .

ولا تبسطها : البسط هو مدّ اليد وعدم قبضها وهو كناية عن الإسراف .

محسوراً : نادماً أو منقطعاً لا شيء عندك .

يبسط الرزق : يوسعه .

يقدر : يقلل الرزق ويضيقه .

خشية إملاق : خوف الفقر .

خطأ كبيراً : إثماً عظيماً.

وليه : وارثه.

سلطاناً : تسلطاً على القاتل .

لا يسرف في القتل لا يتجاوز الحد الذي وضعناه له .

التفسير :

يتضمن هذا النص الأمور التالية :

أ ـ الأمر باداء الحقوق : لأن الفرد جزء من مجتمعه يسعده ما يسعدهم ويشقيه ما يشقيهم فقد فرض الله على المسلمين نظاماً تكافلياً يجب عليهم تطبيقه ، ومن هذا النظام التكافلي :

١ ـ أداء الحق لذوي القربى : ويكون ذلك بالإنفاق عليهم ومساعدتهم عند الحاجة ، وذوو القربى يشمل كل من له قرابة .

٢ ـ إعانة المسكين : وهذا يأخذ حقه من الزكاة ، قال تعالى : «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل[١]» .

---

(١) التوبة (٦٠) .

٣ ـ إعانة ابن السبيل : ويأخذ حقه من الزكاة كما مرّ في الآية السابقة .

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنه إذا لم تكف الزكاة لأداء الحقوق كان على الحاكم المسلم أن يفرض على الأغنياء ما يقوم بحاجة المحتاجين ، أخذاً من قوله عليه الصلاة والسلام : «إن في المال لحقاً سوى الزكاة[١]» .

ب ـ **النهي عن التبذير** : المال في نظر الإسلام مال الله وللمجتمع حق فيه ، فلا يجوز أن يتصرف الإنسان في هذا المال إلا على الطريقة التي أمره الله بها ، وأما صرف المال فيما لا فائدة فيه فهو إضاعة لثروة الأمة من غير فائدة وهو حرام ، وقد جعل الله المبذرين إخواناً للشياطين يسيرون على طريقتهم التي تؤدي إلى عقاب الله في نار جهنم .

حـ ـ **الأمر بلين القول لأصحاب الحقوق** : فإذا لم يجد الإنسان مالاً يؤديه لأقربائه وللمساكين وابن السبيل وهو يطمع أن يحصل المال في وقت قريب فما عليه في هذه الحالة إلا أن يحسن لهم القول يعدهم وعداً جميلاً .

د ـ **التوسط في الإنفاق** : الاعتدال في الأمور والتوسط فيها من الأمور المحمودة فعلى الإنسان أن ينفق في سبيل الله ولكن عليه في الوقت نفسه أن يتوسط فيه فلا يبخل ويمتنع من بذل المال ولا ينفق جميع ماله حتى لا يبقى معه شيء ويصبح بحاجة الى أن يمدّ يده إلى الناس ، قال تعالى في وصف المؤمنين : «والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما[٢]» .

هـ ـ **الرزق بيد الله** : إن الرزق بيد الله إذا وسّعه وإذا أراد ضيّقه ، فما على الإنسان إلا أن يسلك السبل المشروعة ويلجأ إلى الله في أن يجعل رزقه واسعاً .

---

(١) رواه الترمذي .
(٢) الفرقان ٦٧ .

و ـ النهي عن قتل الأولاد : وما دام الرزق بيد الله فلا يجوز أن تقتل ولدك سواء أكان ذكراً أم أنثى خشية الوقوع في الفقر ، فقد تكفل الله برزقك ورزقهم ، قال تعالى : «وفي السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون[٣]» .

ولقد كانت عادة الوأد معروفة في الجاهلية إما لخوف الفقر وإما لخوف العار وقد حرم الإسلام الوأد .

ومن قتل الأولاد المحرم في الإسلام ما يتعاطاه الحوامل من استعمال أدوية لإسقاط الحمل أو إجراء عملية ، فهذا محرم في الإسلام وهو من قتل النفس بغير حق ، اللهم إلا إذا كان الجنين يؤدي بقاؤه في بطنها إلى إتلاف حياتها فيجوز عند ذاك إسقاطه للضرورة .

ز ـ النهي عن الزنى : والزنى اعتداء على الأعراض ، وتخريب للأسرة وللمجتمع ، وتهرب من المسؤولية ، ووسيلة لهلاك الأمة ، لذلك حرمه الله وجعله من الذنوب الكبائر التي يستحق الفاعل لها عقوبة شديدة في الآخرة .

ولقد وضع الإسلام لصيانة المجتمع عقوبة على الزاني وهي الجلد مائة جلدة إذا كان الزاني غير متزوج ، والرجم بالحجارة حتى الموت إذا كان الزاني متزوجاً ، وتشمل هذه العقوبة الرجل والمرأة على حدّ سواء قال تعالى :

ولقد وضع الإسلام لصيانة المجتمع عقوبة على الزاني وهي الجلد مائة جلدة إذا كان الزاني غير متزوج ، والرجم بالحجارة حتى الموت إذا كان الزاني متزوجاً ، وتشمل هذه العقوبة الرجل والمرأة على حدّ سواء قال تعالى : «الزانية والزاني فاجلدوا كل واحدٍ منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين[١]» .

---

(٣) الذاريات ٢٢ ـ ٢٣ .
(١) النور ٢ .

ح - **النهي عن قتل النفس إلا بحق** : الدماء في الإسلام مصونة فلا يجوز إراقتها بغير سبب ، فمن قتل عامداً متعمداً منه إلا إذا عفا أولياء القتيل .

● والذي يباشر القصاص في الإسلام هم ورثة المقتول تحت إشراف القاضي . ومن بعد قضائه باستحقاق القصاص ، وعلى أولياء القتيل أن يترفقوا فيمن يقتصون منه ، ولا يتجاوزوا الحدود التي وضعها الله ، وليقتلوا القاتل بما قتل به من غير تجاوز .

● أما إذا كانت النفس مستحقة للقتل حلّ دمها وذلك كما ورد في الحديث :

«لا يحلّ دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة[٢]» .

---

(٢) رواه البخاري ومسلم .

توجيهات إلهية في بناء المجتمع السليم

لقد مرّ بك في النص السابق توجيهات إلهية يكون في تحقيقها تكوين مجتمع سليم ، وفي النص التالي تتمة لهذه التوجيهات الربانية :

النص :

ولا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إذا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ولاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وٱلْفُؤادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْئُولاً وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً كُلُّ ذٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً .

شرح الألفاظ:

اليتيم : من فقد أباه ولم يبلغ الحلم من بني الإنسان ، أما الحيوان فاليتيم منه هو الذي يفقد أمه .

يبلغ أشده : حتى يبلغ سن الرشد والقدرة على إدارة المال .

القسطاس المستقيم : الميزان السويّ .

أحسن تأويلاً : أحسن عاقبة .
ولا تقف : لا تتبع .
مرحاً : متلبساً بالخيلاء والكبر.
لن تخرق الأرض لن تثقبها مهما شددت وطأك عليها .

التفسير :

يتضمن هذا النص الأمور التالية :

أ ـ **النهي عن أكل مال اليتيم** : لقد جعل الإسلام أكل مال اليتيم من الذنوب الكبائر ، ولقد ذكر القرآن أن مال اليتيم ينقلب في بطن آكله ناراً تحرقه ، قال تعالى : «إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً[(١)]» وجعل من اواجب على المسلمين حمايته ورعايته وتنمية من غير مقابل . اللهم إلا إذا كان القائم على شؤون اليتيم وليا فقيراً جاز له أن يأكل من مال اليتيم على مقدار الحاجة ، قال الله تعالى في شأن مال اليتيم : «ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف[(٢)]» .

ب ـ **الأمر بالوفاء بالعهد** : والوفاء بالعهد من خلق المسلم ، والغدر من أخلاق المنافق ، قال عليه الصلاة والسلام : «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر[(٣)]» .

جـ ـ **الوزن بالعدل** : من أكل أموال الناس بالباطل التلاعب بالموازين والمكاييل وإعطاء الإنسان دون ما يستحقه ، ولقد أعد الله عقوبة عظيمة في الآخرة لمن يفعل ذلك قال تعالى : «ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم

(١) النساء (١٠) .
(٢) النساء (٦) .
(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

مبعوثون . ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين[٤]» .

د ـ النهي عن التقليد من غير برهان : في الأمور العقائدية لا يجوز أن يكون الإنسان مقلداً فيها ، بل من الواجب عليه أن يفكر ليهتدي إلى الحق عن وعي وبرهان ، ولقد أنعم الله على الإنسان بوسائل التفكير ، وهي الحواس الظاهرة ـ وفي رأسها السمع والبصر ـ والعقل المفكر الذي يكتسب صور الأشياء عن طريق الحواس . والإنسان مسؤول عن عقله وحواسه إذا أهملها أو إذا وجهها الوجهة الضارة .

هـ ـ النهي عن الكبر والخيلاء : ومن أخلاق المؤمن التواضع وعدم الكبر . والكبر من أعظم الأمور التي تمنع الإنسان من قبول الحق والانصياع إليه . قال تعالى : • «سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا[١]» .

ولقد كان من خلق رسول الله ﷺ التواضع في حديثه وملبسه ومسكنه ومجلسه فلا يتميز في مجلسه عن أحدٍ من جلسائه حتى إن الرجل إذا دخل مجلساً فيه رسول الله ولا يعرفه سأل أيكم محمد ؟ لأنه كان لا يتخذ مكاناً معيناً في المجلس ويجلس حيث ينتهي به المجلس .

---

(٤) المطففين (١ ـ ٦) .

الناس سواسية

اسباب النزول :

أعلن رسول الله ﷺ دعوته ، وبيّن أنه مرسل للناس كافة بشيرا ونذيرا ، فاستجاب لدعوته جماعات من الناس ، وكان أكثر من استجاب لدعوته من الفقراء والمستضعفين من أمثال صهيب الرومي وسلمان الفارسي وبلال الحبشي . وعمار بن ياسر ، وخباب بن الأرت ، وعبد الله بن مسعود .

وذات يوم مرّ جماعة من زعماء المشركين برسول الله ﷺ فوجدوه قاعدا في ناس من ضعفاء المؤمنين كعمار وصهيب وبلال ، فلما رأوهم حول الرسول حقروهم ، فأتوه فخلوا به وقالوا : لو أبعدت عنك هؤلاء لجالسناك وأخذنا عنك ، فقال النبي ﷺ: وما أنا بطارد المؤمنين ، قالوا : إنّا نحب أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا ، فان وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد ، فإذا نحن جئناك فأقمهمْ عنك ، فاذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت ، فأنزل الله في ذلك هذا النص :

وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا

أَهَؤلاَءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ وإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

التفسير :

أ ـ تقرير مبدأ المساواة : المساواة في القيمة الإنسانية مبدأ أعلنه الإسلام وقام على أساسه منذ نشأ وأكده أكثر من مرة فلا فضل لإنسان على آخر بعرق أو بمال أو بسلطان ، والناس يتفاضلون فيما بينهم عند الله بالتقوى والعمل الصالح قال الله تعالى : «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» وقال عليه الصلاة والسلام في خطبة حجة الوداع : «يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى «» .

فانطلاقا من هذا المبدأ نبه الله رسوله إلى أنه لا يجوز أن يفرد لهؤلاء الزعماء مجلسا يختصهم به ويحرم من حضوره هؤلاء الفقراء الضعفاء ولا سيما أن لهؤلاء ميزة يفضلون بها أولئك وهي الإيمان بالله ودوام ذكره ، والإخلاص له والمسارعة لإجابة داعي الحخق .

ب ـ مبدأ المسؤولية : لقد قرّر القرآن في هذا النص أن مسؤولية كل إنسان تقع على عاتقه ، ولا يحاسب إنسان على عمل قد عمله غيره قال تعالى : «ولا تزر وازرة وزر أخرى» فالرسول عليه الصلاة والسلام لا يحاسب على ما يعمله هؤلاء الناس ، وهم أيضا ليسوا بمحاسبين على ما يعمله الرسول عليه الصلاة والسلام وانطلاقا من هذا المبدأ لا يحق للرسول أن يطرد هؤلاء من مجلسه ولا أن يفرد لهؤلاء المشركين مجلسا رغبة في إيمانهم ، فإن طرد المؤمنين كان تجاوزا للحد الذي وضعه الله له .

جـ ـ **الحياة ابتلاء واختبار** : إن الحياة بما فيها من متناقضات هي مجال اختيار وامتحان لهذا الإنسان ، فوجود الغني اختبار للفقير ، ووجود الفقير اختبار للغني ، والغني اختبار للفقير : هل يحسده على ما آتاه الله من فضله ، وينسى ما أنعم الله به عليه من صحة وسلامة ، والفقير اختبار للغني ، هل يعطف عليه ويؤدي حق الله له ، ويشكر النعمة التي أنعم الله بها عليه . أو هل يشعر بترفع وتعالٍ عليه ؟

وكذلك الشرف والضعة ، والصحة والمرض ، والسعة والضيق ، قال تعالى : «وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم[1]» وقال تعالى : «ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون[2]» .

د ـ **كرامة الإنسان فيما يحمل من مبادىء سامية** : فالإنسان لا يكرم لفقره ولا لغناه ولا لنسبه ولا لجاهه ، وإنما يكرم لما يحوي في نفسه من مبادىء وقيم ، ومن هنا كان المؤمنون أهلاً للتكريم ، لأن الإيمان الصحيح بالله هو أسمى ما يعتقده الإنسان ، ومن هنا أمر الله نبيه إذا جاءه المؤمنون أن يتلقاهم بالبشاشة والتحية ، ويبشرهم برحمة الله إياهم .

هـ ـ **قبول التوبة** : إذا أقدم الإنسان المؤمن على خطيئة وهو جاهل ما يترتب عليها من المضار ، ثم رجع إلى الله وتاب واستغفر وعمل الصالحات ، فإن الله سبحانه سوف يغفر له خطيئته ، ولا يؤاخذه عليها ، قال تعالى : «وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى[3]» .

ولقد ذكر العلماء شروطا لصحة التوبة وهي :

١ ـ الإقلاع عن الذنب .

---

(١) الأنعام .
(٢) الأنبياء ٣٥ .
(٣) طه ٨٢ .

مِن عَناوين (السُّنّة وَعُلوم الحَديث)

تعريف السنة ـ حقيقة السنة ـ منزلتها ووظيفتها ـ حفظ السنة وكتابتها .

ـ ظهور الوضع في الحديث ـ الضوابط العلمية للسنة ـ مصطلح علوم الحديث ـ التجريح والتبديل ـ أقسام الحديث ـ البحث في المتون ـ أسباب الطعن في الراوي ـ سماع الحديث وضبطه وأداؤه وكتابته .

تدوين الحديث وبعض القاب المحدثين .

الفرق بين الحديث القدسي والقرآن . وبين الحديث القدسي والحديث النبوي ـ التعريف بأهم كتب الرواية والمسانيد .

ودراسة أدبية ولغوية لبعض الأحاديث .

٢ ـ الندم على ما فعل .

٣ ـ العزم على أن لا يعود .

هذا إذا كانت المعصية تتعلق بحق من حقوق الله ، أما إذا كانت المعصنية تتعلق بحق من حقوق العباد فلا بدّ من إضافة شرط رابع وهو أداء الحق لصاحبه أو مسامحة صاحبه به .

الإرشاد والتوجيه :

١ ـ الفقراء عادة أكثر من غيرهم إيمانا ودينا .

٢ ـ يجب تقدير الصالحين واجتناب ما يغضبهم ويؤذيهم، وإن في إيذائهم وإغضابهم غضب الله .

٣ ـ يجب التواضع إلى الفقراء المؤمنين .

٤ ـ يجب أن يكون إجلال الناس لدينهم وإيمانهم وأخلاقهم لا لمالهم وجاههم .

٥ ـ الله تعالى يغفر الذنوب بالتوبة النصوح .

السُّنّة وعلوم الحديث

١ ـ تعريف السنَّة :

وهي في اصطلاح الأصوليين : ما صدر عن رسول الله ﷺ من قول لم يقصد به الإعجاز أو فعل أو تقرير .

مثال القول : ما أخرجه البخاريّ ومسلم عن النبيِّ ﷺ قال : « سبابُ المسلم فُسُوقٌ ، وقتالُه كفرٌ » ، وقلنا إنه لم يقصد به الإعجاز ، لأنه لو قصد به الإعجاز لكان قرآناً وليس بسنَّة .

ومثال الفعل : ما رواه البخاريّ في صحيحه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ : أنها سُئلت ما كان يصنع النبيّ ﷺ في بيته ؟ قالت : « كان يكون في مهنة أهله (أي مساعدتهم) فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة » .

والتقرير : معناه أن يرى النبيُّ ﷺ فعلاً ، أو يسمع قولاً فلا ينكره ، مثاله : ما رواه أبو داود : « رأى رسول الله رجلاً يصلِّي بعد صلاة الصبح ركعتين ، فقال : صلاة الصبح ركعتان . فقال الرجل : إني لم أكن صلَّيت الركعتين اللتين قبلهما ، فصلّيتهما الآن ، فسكت رسول الله ﷺ .

٢ ـ حقيقة السنَّة :

من السنَّة ما أوحى الله تعالى معناه إلى رسوله ابتداء ، ولكنَّ لفظه من

عند الرسول ﷺ ، ومن السنة الأحاديث القدسية التي يرويها الرسول عن ربّه عزّ وجلّ ؛ كقوله ﷺ فيما يرويه عن ربّه : « وما زال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنّوافل حتى أحبه »(١) .

ومن السنَّة ما هي من عند رسول الله ابتداء ولكنَّ الله أقرَّه عليها فيكون لها حكم الوحي . ومن هذا النوع اجتهادات الرسول ﷺ كلُّها .

فحقيقة السنَّة إذاً أنها وحي من الله تعالى رغم صدورها عن رسول الله ﷺ

٣ - حجية السنَّة :

وبما أن السنّة وحي من الله تعالى من حيث معناها فهي إذاً حجَّة يجب العمل بها متى ثبتت من طريق صحيح ، وقد تضافرت الأدلَّة على حجّيتها ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **من يُطعِ الرسول فقد أطاع الله** ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ **فليحذرِ الذين يخالفون عن أمرِه أن تصيبَهم فتنةٌ أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾ . وقوله ﷺ : « وإنَّ ما حرَّمَ رسول الله كما حرَّمه الله » . وقد أجمع العلماء على أن من أنكر حجّية السنّة فهو كافر مرتدٌ عن الإسلام .

٤ - منزلة السنَّة :

تعدّ السنَّة المصدر التشريعي الثاني بعد القرآن ، وإنما قُدِّم القرآن الكريم عليها لأن القرآن ثبت بالطرق القطعية التي لا يداخلها شكٌ أبداً ، أما السنّة فقد ثبت غالبها بالطرق الظنّية ، فهي إذاً في المرتبة الثانية بعد القرآن من حيث الثبوت . أما من حيث الأخذ بها فإنها بدرجة القرآن الكريم ، لأنه لا فرق بين حكم ثبت في القرآن ، وحكم ثبت في السنَّة ، طالما أن الله تعالى يقول : ﴿ **من يُطعِ الرسول فقد أطاع الله** ﴾ .

٥ - وظيفة السنَّة :

آ) القرآن الكريم دستور الإسلام ، وأصول تشريعه ومبادئه الأساسية ،

(١) أخرجه الإمام أحمد .

ولمّا كان من الصعب الوقوف منه على مراد الله عزّ وجلّ بطريق الوضوح ؛ فقد أوكل إلى نبيِّه محمد ﷺ أن يبلّغ القرآن للناس ، وأن يبيِّن لهم بقوله وفعله ما يحتاج إلى البيان والتوضيح . قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الذِّكرَ لتبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم** ﴾ .

فالعبادات : ـ الصوم ، والصلاة ، والحج ، والزكاة ـ والمعاملات ونظام الأسرة وغيرها قد جاءت في القرآن بشكل مجمل ، تولّى النبيّ بيانها وتحديد جزئياتها ، مثال ذلك قال تعالى : ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ ، فجاءت السنة تبيِّن أوقات الصلاة وشروطها وعدد ركعاتها بفعل النبيّ ﷺ وقوله : « صلّوا كما رأيتموني أُصلِّي » .

وكذا الزكاة ، فقد بيَّنت السنَّة من تجب عليه الزكاة ، والمال الذي تجب فيه ، والمقدار الذي يجب دفعه ومتى يستحق ، وإلى من يُدفع ، وهكذا . . . إلخ .

ب) تشريع حكم زائد لم ينصّ عليه القرآن ، بل نصَّت عليه السنَّة إبتداء ؛ كتحريم لبس الذهب والحرير الطبيعي على الرجال دون النساء ، وإيجاب صدقة الفِطر ، وغير هذا كثير .

والأحكام التي استقلّت بها السنّة موافقة لروح القرآن ، وقواعده ، وهي مؤكدة لمقاصد الكتاب الكريم .

٦ ـ حفظ الصحابة للسنّة :

تلقى الصحابة دعوة النبيّ ﷺ كما يتلقى الظمآن الماء الزلال ، فما كان يتلو عليهم شيئاً من القرآن أو الأحاديث الشريفة إلا وينطبع في قلوبهم وتعيه ذاكرتهم ، فحفظوا الأحاديث أتمَّ حفظ ، ثم أدّوها أحسن أداء ، وقد ساعدهم على حفظ الحديث عوامل ، منها :

١ ـ أن العرب كانوا مضرب المثل في الذكاء والحفظ كما سبق في بحث حفظ القرآن .

٢ ـ أن صدق حديث النبيّ ﷺ وروعة بيانه وصلته بتنظيم الحياة جعلهم يحرصون على حفظه .

٣ ـ أن حبّهم للرسول ﷺ ، ذلك الحب الذي وصل إلى حدّ التفاني في طاعته ؛ جعل كلامه ينطبع على صفحات قلوبهم .

٤ ـ أن طريق النبي ﷺ ، في الإلقاء كانت مساعدة جداً على الحفظ ، فقد كان لا يسرع في الكلام ، وكان إذا قال الكلمات أعادها ثلاثاً لتعقل عنه .

لذلك حفظ الصحابة الحديث الشريف أكمل حفظ وأدّوه كما سمعوه منه ﷺ .

٧ ـ كتابة الصحابة للسنّة :

في بدء الإسلام حاول بعض الصحابة كتابة ما يتلفّظ به الرسول ﷺ من الأحاديث ، فنهاهم الرسول عن ذلك ، وأمرهم أن يمحوا كلّ ما كتبوه من السنّة ، فقال : ولا تكتبوا عنّي شيئاً إلاّ القرآن ومن كتبَ عنّي غير القرآن فليمحه » لأن الناس لم يميّزوا بعد بين أسلوب القرآن وأسلوب السنّة ، فخاف رسول الله أن يختلط لديهم كلامه بكلام الله تعالى ، فقصَرَ الكتابة على القرآن ، ولكنْ بعد أن تمكّن الناس من التمييز بين القرآن والسنّة ؛ سمح لهم النبيّ بكتابة السنّة . وقد اشتهر جماعة من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بكتابة السنّة . منهم :

رافع بن خديج ، وجابر بن عبد الله ، وسمرة بن جندب ، وعليّ بن أبي طالب ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن أبي أوفى ، وعبد الله بن عمرو بن العاص . ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ .

وكان عبد الله بن عمرو يكتب كلَّ شيء سمعه من رسول الله ﷺ . روى البخاريّ في صحيحه عن أبي هريرة ـ وهو أكثر الصحابة رواية

للحديث ـ رضي الله عنه ـ قال : « ما مِنْ أحَدٍ مِنْ أصحابِ النبيّ أكثرَ حَديثاً عنهُ منّي إلَّا ما كانَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بن عمرو فإنهُ كانَ يَكتُبُ وَلا أكتب » .

وكان رسول الله ﷺ يأمر بكتابة رسائل إلى عمّاله في البلاد البعيدة ، يبيّن لهم ما يحتاجون إليه من أمور الدِّين ، كما كان يأمر بكتابة رسائله إلى الملوك والرؤساء ، وبكتابة الوثائق والمعاهدات . وكل ذلك من حديثه ﷺ . وما زال بعض كتبه محفوظة إلى الآن . مثل كتابه إلى المقوقس[1] ، وكتابه إلى المنذر بن ساوي ، وكتابه إلى النجاشيّ ، وبذلك شملت الكتابة قسطاً عظيماً من الحديث الشريف .

٨ ـ صيانة الأمة للسنَّة بعد عهد الصحابة :

١ ـ مضى عصر الصحابة رضوان الله عليهم والسنّة تتناقلها الألسن محفوظة في الصدور ، ومدوّنة تدويناً مفرَّقاً عند كثير من الناس ، منهم من دوَّن عشرة أحاديث ، ومنهم من دوَّن مائة حديث ، ومنهم من دوَّن أكثر من ذلك ، ولكنها لم تكن مجموعة في سفرٍ واحد مستقل ، وفكّر عمر بن الخطاب بجمعها في كتاب ، ولكنه عدل عن رأيه هذا ، خوفاً من أن يشتغل الناس بالسنّة عن القرآن ، وخوفاً من أن يختلط شيء منها بالقرآن ، وخاصة عند الداخلين مجدّداً في الإسلام ، وكان هذا رأياً من عمر يتناسب وحالة الناس في ذلك الوقت .

ولمّا ولّي الخلافة عمر بن عبد العزيز ؛ وجد أن الواجب يدعو إلى

---

(١) عثر عليه في كنيسة قرب « أخميم » واشتراه السلطان عبد الحميد وحفظه مع الآثار النبوية في استانبول . وأما كتابه إلى المنذر بن ساوي فعثر عليه في دمشق ، ونشر صورته كليجر في كتابه « إسلاميك ، ص ٢٩ » . وأما كتابه إلى النجاشي فقد ظفر به المسيو « د . م . دنلوب » ونشر في « مجلة الجمعية الملكية الآسيوية » . وتجد صور الكتب الثلاث في « مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة » ـ تأليف الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي ـ طبع القاهرة سنة ١٩٥٨ (ص ٤٥ ، ٨١) وتجد صوراً في « مجلة الجامعة الإسلامية » التي أصدرها بحلب الأستاذ محمد علي الكحال رحمه الله ، العدد رقم ٣٨٥ رمضان سنة ١٣٧٠ الموافق حزيران ١٩٥١ .

جمع السنّة كما جمع القرآن ، لئلًّا تضيع السنّة أو تُحرَّف على مرِّ الأزمنة ، فأصدر أمره إلى علماء الآفاق بجمع الحديث وتدوينه ، وكان أسبق الناس لجمع الحديث الإمام محمد بن مسلم بن شهاب الزهريّ .

٢ ـ وكان العلماء لا يقبلون حديثاً من أحد إلًّا إذا ذكر سنده ، حتى قال عبد الله بن المبارك : « الإسناد من الدِّين ، لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء » . وقال الإمام سفيان بن عيينة : « حدّث الزهري يوماً بحديث فقلت : هاته بلا إسناد ، فقال : « أترقى السطح بلا سلّم ؟ » .

والغاية من ذكر الإسناد : أن يعرف من يسمع هذا الحديث حال الرجال الذين نقلوه ، ومدى صدقهم وحفظهم ، وعلى ضوء ذلك إمّا أن يقبل هذا الحديث وإمّا أن يردّه .

٣ ـ ونقل الحديث والأخبار بالسند لم يكن معروفاً عند الأمم السابقة ، وإنما هو شيء اختصّت به هذه الأمة الإسلامية دون سائر الأمم ، وهو أدقّ أسلوب عرفته البشرية لمعرفة صدق الأخبار أو كذبها ، فقد هدى الله المسلمين إليه ؛ ليحفظ هذا الدين غضّاً طريّاً خالياً من كلّ تحريف ، وقد برع المحدِّثون المسلمون في حفظ الأحاديث الشريفة بأسانيدها ، حتى كانوا أعجوبة الدنيا في ذلك ، فقد كان الواحد منهم يحفظ عشرات الآلاف من الأحاديث بأسانيدها ، ويميّز بين صحيحها وسقيمها .

٩ ـ ظهور الوضع في الحديث :

لقد راعَ علماء الحديث تناقل الناس أحاديث عن رسول الله لم يقلها رسول الله ﷺ قطّ ، وكان الذي يدعو إلى وضع هذه الأحاديث على لسان رسول الله ﷺ ما يلي :

١ ـ الزندقة وعداء الإسلام : فلقد أدرك أعداء الإسلام أنه يستحيل عليهم هدم الإسلام بواسطة المهاجمة للقرآن أو محاولة التبديل فيه ، فتظاهروا بالإسلام ، وعمدوا لوضع الحديث على رسول الله ﷺ كذباً

وزوراً ، كقول بعضهم : لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه .

٢ ـ مسايرة الأهواء : كما صنع غياث بن إبراهيم في الحديث الصحيح : « لَا سَبَقَ إلّا في خُفٍّ أو حافرٍ أو نصلٍ » ، فقد رأى المهديّ يلعب بالحمام فروى هذا الحديث وزاد فيه « أو جَناح » ، فأدرك الخليفة المهديّ كذبه ، وسقط من عينه ، ولمّا انصرف غياث قال المهدي : « أشهد أن قفاك قفا كذَّاب على رسول الله » ، وأمر بذبح الحمام .

٣ ـ الترغيب في الخير والترهيب من الشر : فعل ذلك بعض الجهلة بقصد وعظ الناس وإرشادهم ، وجهلوا أنهم بذلك ارتكبوا إثماً عظيماً ، فقد قال رسول الله ﷺ : « مَنْ كَذَبَ عَليَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » .

٤ ـ العصبية المذهبية والعرقية والإقليمية ، كأحاديث تفضيل أبي حنيفة على الشافعيّ ، وتفضيل الفرس على العرب ، وتفضيل خراسان على سائر البلاد ، ونحو ذلك .

١٠ ـ ظهور الضوابط العلمية للسنّة :

لمّا رأى العلماء الأتقياء أن أحاديث رسول الله أصبحت على كلِّ لسان ، ينقلها الصادق والكاذب ، وجيّد الحفظ وضعيف الحفظ ، خافوا أن يدخل السنّةَ التحريفُ ، والوضع ، بل قد ظهر ذلك فعلاً ، ولذلك فكّروا بوضع ضوابط علمية تنفي الخبث عن السنّة ، وتحفظ صفوها وبهاءها ، فوضعوا هذه الضوابط وأسموها : « علم مصطلح الحديث » ، وهذا العلم يتناول بالبحث سند الحديث ومتنه .

وقد وجد الباحثون في التاريخ في العصر الحديث أن قواعد علم مصطلح الحديث خير وسيلة للتثبّت من الوثائق التاريخية ومعرفة صحتها . والحقّ يقال إن وضع هذا العلم يعدّ مفخرة من مفاخر هذه الأمة .

ويراد « بعلوم الحديث » مجموعة المسائل المدونة التي يتبين بها

المقبول والمردود من متون الأحاديث وأسانيدها « وعلم » التجريح والتعديل « يبحث عن الرواة ، من حيث ما ورد في شأنهم مما يشينهم أو يزكيهم بألفاظ مخصوصة . وعلم « رجال الحديث » يعرف به رواة الحديث من حيث أنهم رواة للحديث . وعلم « تلفيق الحديث » يبحث عن الأحاديث التي ظاهرها التناقض من حيث امكان الجمع بينها ، أما بتقييد مطلقها ، أو بتخصيص عامها ، أو حملها على تعدد الحادثة أو غير ذلك ويطلق عليه علم مختلف الحديث .

أ ـ البحث في سند الحديث :

السند : هو ذِكر الراوي الرجال الذين وصل إليها الحديث من طريقهم من رسول الله ﷺ إليه ، كقوله : حدَّثنا مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ . . . .

وأهمّ ما يجب بحثه في السند :

١) **اتصال السند** : بأن يكون كلّ راوٍ قد سمع ممن فوقه إلى رسول الله ﷺ . فإذا انقطع السند كان الحديث مردوداً .

٢) **معرفة حال الرواة أنهم ثقات أم لا** : وقد وضعوا قواعد ذلك في علم هامٍّ جداً سمّوه : (علم الجرح والتعديل) .

ف « الجرح » : هو الحكم على راوٍ بردّ حديثه لوجود صفة تضعفه كسوء الحفظ ، وقلة الضبط ، والفسق .

و « التعديل » : هو الحكم على الراوي بقبول حديثه لاستيفائه شروط القبول وهي العدالة والضبط .

وقد أجمعوا بعد البحث على أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كلّهم عدول يُقبل حديثهم بدون توقف .

ويقسم الحديث بالنظر إلى تعدد سنده إلي :

١) **المتواتر** : وهو الحديث الذي يرويه جمعٌ عظيم يستحيل اتفاقهم على الكذب ، عن جمعٍ مثلهم إلى النبيّ ﷺ . وهذا النوع يفيد علم اليقين ، ويجب الإيمان به ويكفر جاحده ، وهو أقل الأنواع وجوداً . مثاله حديث : « مَنْ كَذَبَ عليَّ مُتَعَمِّداً فَليتبوَّأ مقعدَه من النار » .

٢) **المشهور عند علماء الحديث** : هو الذي يرويه ثلاثة من الرواة فأكثر عن مثلهم بحيث لا تقل كل طبقة عن ثلاثة إلى النبيّ ﷺ ، ولم يبلغ عددهم مبلغ التواتر .

٣) **الآحاد** : وهو الذي يرويه إثنان أو واحد فقط ، وهو أكثر الأنواع وجوداً .

وحكم الحديث المشهور وحديث الآحاد أنه يقبل ويجب العمل به إذا استوفى شروط القبول؛ بأنْ كان صحيحاً أو حسناً، وإلاَّ لم يجب العمل به .

ب ـ البحث في المتون :

يبحث علم المصطلح أيضاً في متن الحديث وهو لفظ الحديث ، ومن أهمّ ما يبحثه في المتن :

١ ـ خلوّه من معارضة حديث أقوى منه . فإذا كان معارضاً لحديث أقوى منه سمّي « شاذّاً » .

٢ ـ خلوّه من معارضة القرآن أو القواعد العامة ، فإذا عارض شيئاً من ذلك كان مردوداً كقولهم : « ولد الزنى لا يدخل الجنّة إلى سبعة أبناء » فإنه مخالف لقوله تعالى : ﴿ **ولا تزرُ وازرة وزر أخرى** ﴾ .

٣ ـ خلوّه من الركاكة ومخالفة قواعد اللغة ، لأن رسول الله ﷺ كان مشهوراً بالفصاحة .

٤ ـ خلوّه من مخالفة العقل والمنطق السليم ، كقولهم : « جور الترك ولا عدل العرب » .

٥ ـ خلوّه من مخالفات مسلّمات التاريخ ، كقول أحدهم : « دخلت الحمام فوجدت رسول الله وعليه المئزر » ، فإن من المعروف أن رسول الله ﷺ لم يدخل حمّاماً عامّاً قطّ .

٦ ـ خلوّه من المبالغات الكبيرة التي لا يعرف ورودها عن رسول الله ﷺ ، كقولهم : « من اغتسل من الجنابة حلالاً أعطاه الله قصراً من درة بيضاء وكتب له بكل قطرة ثواب ألف شهيد » .

١١ ـ جهود العلماء في تمييز الأحاديث الصحيحة من غيرها :

وعلى ضوء ما ذكرناه من دراسة السند والمتن فقد قام العلماء بجهود لا نظير لها في التاريخ ، حيث درسوا أسانيد ومتون جميع الأحاديث التي وقعوا عليها ، وصنّفوها إلى أصناف عديدة حسب صحتها وصنفها، وأهمّ هذه الأصناف :

آ ـ الأحاديث الصحيحة :

وهي ما اتّصل إسنادها بنقل العدل الضابط عن مثله إلى أن ينتهي إلى رسول الله ﷺ ولم تكن شاذة ولا معلّة بعلة قادحة .

من هذا التعريف نرى أن الحديث لا يكون صحيحاً إلاّ إذا توفرت فيه خمسة شروط هي :

١) **اتصال السند** : وهو أن يكون كلّ رجل من رجال الحديث قد تلقّى ذلك الحديث عن شيخه من أول السند إلى منتهاه ، فإذا قال : حدَّثني مالك عن نافع عن ابن عمر ، فإن مالكاً قد أخذ الحديث عن نافع فعلاً ، ونافع أخذه عن ابن عمر فعلاً ، فإذا أخذ مالك الحديث عن رجل لم يذكره لنا وهذا الرجل أخذه عن نافع ، اعتبر السند منقطعاً وغير متصل ، وبذلك لا يكون الحديث صحيحاً .

٢) **عدالة الراوي** : ولا يكون الراوي عدلاً إلاّ إذا كان مسلماً بالغاً عاقلاً سالماً من ارتكاب الكبائر ، والإصرار على الصغائر .

٣) **الضبط في الراوي** : أي أن يكون حافظاً ذكيّاً ، يستطيع استحضار الحديث متى شاء .

ذ(**السلامة من الشذوذ** : والشذوذ هو أن يخالف الراوي في الحديث الذي يرويه من هو أحفظ منه من الرواة في ذلك الحديث .

٥) **السلامة من العلّة القادحة** : والعلّة القادحة هي مرض خفيّ في الحديث لا يطّلع عليه إلاّ علماء الحديث ، ويتوصلون إلى معرفتها بجمع طرق الحديث ، ودراسة رجاله ، كرواية حديث منقطع بشكل حديث متصل أو تدليس في اسم الراوي . وعلم « غريب الحديث » يبحث عن بيان ما خفي على كثير من الناس معرفته من حديث رسول الله ﷺ بعد أن تطرق الفساد إلى اللسان العربي وعلم « ناسخ الحديث ومنسوخه » يبحث عن الأحاديث المتعارضة التي لا يمكن التوفيق بينها من حيث الحكم على بعضها بأنه ناسخ . وعلى البعض الآخر بأنه منسوخ فما ثبت تقدمه يقال له منسوخ ، وما ثبت تأخره يقال له ناسخ .

ب ـ الأحاديث الحسنة :

ويكون الحديث حسناً إذا توفّرت فيه نفس الشروط التي ذكرناها في الحديث الصحيح ، إلاّ أن أحد رجال السند هو دون رجال الحديث الصحيح في الحفظ والإتقان .

وكلٌّ من الحديث الصحيح والحديث الحسن يصحّ الإحتجاج به في الدِّين .

ج ـ الأحاديث الضعيفة :

ويكون الحديث ضعيفاً إذا فَقَدَ أحد الشروط الخمسة التي ذكرناها في الحديث الصحيح ، ولا يصحّ الإحتجاج به في الدِّين .

د ـ الأحاديث الموضوعة :

وهي الأحاديث التي لم يقلها رسول الله ﷺ ، وهي مختلقة على لسانه وهو منها بريء ، وهذا النوع من الأحاديث لا تصحّ روايته إلاّ للتنبيه على أنه موضوع على لسان الرسول وأنه منه بريء .

ويعرف الحديث الموضوع ممّا يلي :

١) أن يعترف واضعه أنه وضعه على لسان الرسول ﷺ .

٢) أن يكون ركيك الأسلوب ، أو مخالفاً لقواعد اللغة .

٣) أن يخالف أصول التفكير السليم ، كقولهم : « جور الترك ولا عدل العرب » .

٤) أن يخالف حقائق التاريخ . كما مرَّ من حديث دخول الرسول ﷺ الحمّام .

٥) أن يكون مخالفاً لصريح القرآن مثل « ولد الزنا لا لا يدخل الجنة إلى سبعة أبناء » فإنه مخالف لصريح قوله تعالى : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ .

أسباب الطعن في الراوي

يحسن أن نتبع بحث الخبر الموضوع المكذوب بهذا الباب إذ به يعرف الحديث ودرجته :

وأسباب الطعن في الراوي عشرة ، بعضها أشد من بعض قدحاً ، فخمسة منها ترجع إلى عدالة الراوي وهي : الكذب ، والتهمة بالكذب ، والفسق ، والبدعة ، والجهالة .

وخمسة تعود إلى ضبط الراوي وهي : فحش الغلط ، وكثرة الغفلة ، والوهم ، ومخالفة الثقات ، وظهور الفسق ، وقد مر بك هذا .

مراتب التذكية والتجريح

لكل من ألفاظ الجرح والتعديل ، ست مراتب ، كما ذكر ذلك السخاوي .

مراتب التعديل

الأولى : وهي أعلاها ، الوصف بالمبالغة ، نحو : فلان أوثق الناس ، أو أثبت الناس ، أو إليه المنتهى في الضبط ، أو لا أعرف له نظيراً .

ثم الثانية : وهي فلان لا يسأل عنه .

ثم الثالثة : وهي ما تؤكد بصفة من الصفات الدالة على التوثيق ، نحو : ثقة ثقة ، أو ثبت حجة ، أو ثقة ضابط ، وأكثر ما وجد من ذلك قول سفيان[1] بن عيينة : حدثنا عمرو بن دينار[2] ، وكان ثقة ثقة ثقة ، حتى قالها تسع مرات .

ثم الرابعة : وهي ما عبّر عنه بصيغة دالة على التوثيق من غير توكيد ، نحو : ثقة ، أو ثبت ، أو حجة ، ونحو ذلك . والحجة أقوى من الثبت .

ثم الخامسة نحو : فلان صدوق ، أو مأمون ، أو ليس به يأس ، أو بأس به غير ابن معين . قال البدر بن جماعة[3] في مختصره : إذا قلت في الراوي لا بأس فيه ، أو ليس به بأس ، فهو ثقة .

ثم السادسة : وهي ما أشعر بالقرب من التجريح ، وهي أدنى المرتب ، نحو : فلان ليس ببعيد عن الصواب ، أو شيخ يعتبر به ، أو شيخ وسط ، أو روى عنه الناس ، أو صالح الحديث ، أو يكتب حديثه ، أو مقارب الحديث ، أو صويلح ، أو صدوق إن شاء الله ، أو أرجو أن لا بأس به ، أو نحو ذلك .

وهذه الطبقة السادسة بل والخامسة ، فإنه لا يحتج بأحد من أهلها ، وإنما يكتب حديثه للإعتبار والإعتضاد ، لا للإعتماد .

---

(١) من كتاب « الإيضاح في تاريخ الحديث وعلم الإصطلاح » للشيخ سعدي ياسين .

(٢) هو عالم أهل مكة ، أبو محمد عمرو بن دينار الحجبي مولاهم . قال ابن أبي نجيح : ما رأين أفقه منه قط . سمع ابن عباس وجابراً وطائفة . وهو فارسي الأصل من الأبناء . قال ابن المديني : له خمسمائة حديث ، وتوفي سنة ١٢٦ هـ .

(٣) هو محمد بن إبراهيم بن سعدالله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي بدر الدين أبو عبدالله ، قاض من العلماء بالحديث وسائر علوم الدين . ولد بحماة سنة ٦٣٩ ، وولي الحكم والخطابة في القدس ، ثم القضاء بمصر ، إلى أن شاخ وعمي ، وكان من خيار القضاة . له : « المنهل المروي في الحديث النبوي » ، و« مختصر السيرة النبوية » ، و« كشف المعاني في المتشابه من المعاني » ، و« تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم » ، و« غرة التبيان لمن لم يسم في القرآن » ، وغير ذلك .

مراتب الجرح

وللجرح مراتب بعضها أسوأ من بعض :

فالأولى : وهي أسوؤها ، ما دل على المبالغة ، نحو : فلان أكذب ، أو إليه المنتهى في الكذب ، أو هو ركن الكذب ، أو معدنه ، أو نحو ذلك .

ثم الثانية : وهي دون ذلك ، وإن اشتملت على المبالغة ، نحو : فلان دجّال ، أو وضّاع ، وكذا يضع الحديث ، أو يكذب .

ثم الثالثة نحو : فلان متهم بالكذب ، أو الوضع ، أو يسرق الحديث ، أو ساقط ، أو متروك ، أو هالك ، أو ذاهب الحديث ، أو تركوه ، أو لا يعتبر به ، أو ليس بثقة ، أو نحو ذلك .

ثم الرابعة نحو : فلان رد حديثه ، أو لا تحل الرواية عنه ، أو مردود الحديث ، أو ضعيف جداً ، أو واه بمرة ، أو اطرحوه ، أو لا يكتب حديثه ، أو لا تحل الرواية عنه ، أو ليس بشيء عند غير ابن معين ، وابن معين إذا قال في الراوي ليس بشيء : يريد أن أحاديثه قليلة كما في مقدمة الفتح .

ثم الخامسة نحو : فلان لا يحتج به ، أو ضعفوه ، أو مضطرب الحديث ، أو ضعيف ، أو له مناكير ، أو له ما ينكر ، أو منكر الحديث عند غير البخاري ، وفي ميزان الذهبي ، وفي ترجمة ابان بن سليمان الكوفي أن البخاري قال : كل من قلت فيه منكر الحديث ، لا تحل الرواية عنه .

ثم السادسة : وهي أخفها ، نحو : فلان فيه مقال ، أو أدنى مقال ، أو ينكر مرة ويعرف أخرى ، أو ليس بذاك ، أو ليس بالقوي ، أو ليس بعمدة ، أو ليس بالحافظ ، أو سيء الحفظ ، أو فيه لين .

قال الحافظ العراقي في فتح المغيث قولهم : فلان فيه نظر ، أو سكتوا عنه ، هاتان عبارتان يقولهما البخاري فيمن تركوا حديثه ، والذي عليه أهل الحديث أنه لا يحتج بأحد من أهل المراتب الأربع . الأول منها : ولا

يستشهد به ، ولا يعتبر . وأما المرتبتان الخامسة والسادسة ، فيعتبر بحديث من ذكر فيهما أي يخرج للإعتبار .

كيفية سماع الحديث وضبطه وأداؤه وكتابته

تحمل الحديث : وهو روايته عن المشايخ ، ويشترط فيه الفهم والتمييز .

وأما الأداء : فهو التحديث بما قد سمع وتحمل ، ويشترط فيمن يحتج بتحديثه الضبط والعدالة .

قال الخطيب : أرفع العبارات في التحديث « سمعت » ، ثم « حدّثنا » و« حدّثني » .

ولكت ترتيب الحافظ ابن حجر هو كما يلي : قال رحمه الله .

وصيغ الأداء : سمعت ، وحدثني ، ثم أخبرني ، وقرأت عليه ، ثم قريء عليه ، وأنا أسمع ، ثم أنبأني ، ثم ناولني ، ثم شافهني ، ثم كتب إلي ، ثم عن ونحوها .

فالأولان : لمن سمع وحده من لفظ الشيخ ، فإن جمع فمع غيره ، وأولها : أصرحها وأرفعها في الإملاء . والثالث والرابع : لمن قرأ بنفسه ، فإن جمع فهو كالخامس .

والأنباء بمعنى الأخبار ، إلا في عرف المتأخرين ، فهي دون الأخبار ، ومنهم من جعلها للإجازة .

ويصح سماع الصبي على الأصح ، بدليل ما رواه البخاري عن محمود بن الربيع رضي الله عنه . قال : عقلت من النبي ﷺ مجة مجها في وجهي وأنا ابن خمس سنين . وابن الصلاح والنووي قالا : والصواب اعتبار التمييز ، وهو فهم الخطاب ورد الجواب ، فإذا فرّق مثلاً بين الحصان والثور والحمار فهو مميز .

من طرق التحمل العرض ، وهي القراءة على الشيخ ، لأن القاريء يعرض على الشيخ ما يقرأ . سواء قرأ الطالب على الشيخ بنفسه من حفظه أو كتابه ، أو قرأ عليه غيره وهو يسمع ، بشرط أن يكون الشيخ حافظاً لما يُقرأ عليه ، أو يقابل على أصله الصحيح ، وهذا سائغ صحيح عند العلماء من أهل الحجاز والكوفة .

وكان النبي ﷺ يقرأ القرآن على الناس ويعلمهم السنن ، كما كانوا يعرضون عليه صحفهم وحفظهم في رمضان . والسماع أرفع من العرض .

ومن طرق التحمل الإجازة ، وهي الإذن في الرواية لفظاً أو كتابة ، نحو : أجزتك أن تروي عني صحيح البخاري ، أو صحيح مسلم .

ومن طرق التحمل المناولة ، كان يناول الشيخ الطالب أصله أو فرعه ، وهو ما كتبه مما سمعه من شيوخه أو بعضه ، ويقول أو فرعه ، وهو ما كتبه مما سمعه من شيوخه أو بعضه ، ويقول له : هذه روايتي عن شيخي فلان أو شيوخي ، فأروه عني .

وشرطه أن يبقى أصله عند الطالب (التلميذ) عارية أو هبة لينقل عنه ، فيقول : حدّثني فلان إجازة أو مناولة ، وكذا أخبرني فلان إجازة أو مناولة ، أو نحو ذلك .

ومن طرق التحمل الكتابة ، وهي أن يكتب الشيخ مسموعه لحاضر أو غائب بخطه ، فإن قرنها بالإجازة كانت بالقوة والصحة مثل المناولة . وإن لم يقرنها بالإجازة فيكون لها حكم المناولة .

ومن طرقها أيضاً الوجادة ، وهي أن يجد أحد حديثاً أو كتاباً بخط شيخ يعرفه ، ويقول في الأداء : وجدت أو قرأت بخط فلان ، أو نحو ذلك .

والمروي بالوجادة من قبيل المنقطع ، وأن لا تغلبه شهرة الحديث ، وألا تشغله عن مروءته وصلاته ، وأن يلزم أهل المعرفة وينصت للسماع ، وأن لا يكتب عمن لا يعرف الحديث ، وإن كان من الصالحين .

وقد كان الإمام مالك لا يحدّث إلا على طهاره ، ولم يكتب الإمام البخاري حديثاً في صحيحه إلا بعد أن يغتسل ويتوضأ ويستخير الله تعالى في ضمه الصحيح ، وذلك بعد الإستيثاق من صحته .

المرفوع والموقوف والمقطوع

الحديث إذا انتهى إلى النبي ﷺ يقال له : المرفوع . وإذا انتهى إلى الصحابي يقال له : الموقوف . وإذا انتهى إلى التابعي ولم يجاوزه إلى الصحابي يقال له : المقطوع[1] .

فمثال المرفوع من القول تصريحاً أن يقول الصحابي : سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا ، أو حدّثنا رسول الله ﷺ بكذا ، أو يقول : قال رسول الله ﷺ كذا ، أو عن رسول الله ﷺ أنه قال كذا .

ومثال المرفوع من الفعل تصريحاً أن يقول الصحابي : إني رأيت رسول الله ﷺ فعل كذا ، أو يقول هو أو غيره : كان رسول الله ﷺ يفعل كذا .

ومثال المرفوع من التقرير تصريحاً أن يقول الصحابي : فعلت بحضرة رسول الله ﷺ كذا ، أو يقول هو أو غيره : فعل بحضرة النبي ﷺ كذا ، ولا يذكر إنكاره كذلك كما تقدّم .

ومثال المرفوع من القول حكماً لا تصريحاً أن يقول الصحابي الذي لم يأخذ عن الإسرائيليات فيما لا مجال فيه للإجتهاد ولا له تعلق ببيان لغة أو شرح غريب ، كالإخبار عن الأمور الماضية من بدء الخلق وأخبار الأنبياء ، أو عن الآتية كالملاحم والفتن وأحوال يوم القيامة ، وكذا ما يحصل بفعل ثواب مخصوص أو عقاب مخصوص . وإنما كان له حكم المرفوع لأن إخباره بذلك يقتضي له مخبراً ، وما لا مجال للإجتهاد فيه يقتضي موقفاً للقائل به ولا

(١) الرفع يكون صريحاً ويكون حكماً ، فالصريح ثلاثة أقسام : (قولي وفعلي وتقريري) . والحكمي كذلك : (قولي وفعلي وتقريري) .

موقف للصحابة إلا النبي ﷺ ، وإذا كان كذلك فله حكم ما لو قال : قال رسول الله ﷺ .

ومثال المرفوع من الفعل حكماً أن يفعل الصحابي ما لا مجال فيه للإجتهاد ، فيدل على أن ذلك عن النبي ﷺ . كما قال الشافعي في صلاة علي للكسوف : في كل ركعة أكثر من ركوعين .

ومثال المرفوع من التقرير حكماً أن يخبر الصحابي أنهم كانوا يفعلون في زمان النبي ﷺ كذا ، فإنه يكون له حكم المرفوع من جهة أن الظاهر إطلاعه ﷺ على ذلك لتوفر دواعيهم على سؤاله عن أمور دينهم ، ولأن ذلك الزمان زمان نزول الوحي فلا يقع من الصحابة فعل شيء ويستمرون عليه إلا وهو غير ممنوع الفعل ، لأنه لو كان ممنوعاً لهبط جبريل وأخبر النبي ﷺ بمنع الصحابة عن ذلك .

ومن الصيغ المحتملة ، قول الصحابي : من السنة كذا . مقال ذلك : ما رواه البخاري من حديث ابن شهاب عن سالم بن عبدالله بن عمر عن أبيه في قصته مع الحجاج حين قال له : إن كنت تريد السنة فهجر بالصلاة . قال ابن شهاب ، فقلت لسالم : أفعله رسول الله ﷺ . فقال : وهل يعنون بالسنة إلا سنته ﷺ .

ومن هنا قول أبي قلابة عن أنس : « من السنة إذا تزوج البكر على الثيب أقام عندها سبعاً » أخرجه ق .

قال أبو قلابة : لو شئت لقلت إن أنساً رفعه إلى النبي ﷺ ، (أي لو قلت لم أكذب) .

ومن ذلك قول الصحابي : أمرنا بكذا أو نهينا عن كذا .

المسند

الحديث إذا رفع إلى النبي ﷺ وكان متصل الإسناد فهذا هو المسند .

قال العراقي نقلاً عن ابن عبد البر : المسند هو ما رفع إلى النبي ﷺ خاصة . قال : وقد يكون متصلاً مثل المروي عن مالك عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ . وقد يكون منقطعاً مثل مالك عن الزهري عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ . قال : فهذا مسند لأنه أسند إلى النبي ﷺ ، وهو منقطع لأن الزهري لم يسمع من ابن عباس . وقال الحاكم أبو عبدالله النيسابوري : المسند لا يقع إلا على ما رفع إلى النبي ﷺ بإسناد متصل .

المتصل

الحديث المرفوع الذي يكون كل راو من رواته سمعه من شيخه ، أو من روى عنه ، يسمى : المتصل . قال صاحب البيقونية :

وما بسمع كل راو يتصل إسناده للمصطفى فالمتصل

ويسمى موصولاً أيضاً . وقال العراقي : المتصل والموصول هو ما اتصل إسناده إلى النبي ﷺ أو إلى واحد من الصحابة ، حيث كان ذلك موقوفاً عليه . وأما أقوال التابعين : إذا كانت الأسانيد متصلة إليهم فلا يسمونها متصلة . وقال ابن الصلاح : يقع المتصل على الموفوع والموقوف ، وإنما يمتنع إسم المتصل على المقطوع حالة الإطلاق ، أما مع التقييد فلا مانع كقولهم : هذا متصل إلى سعيد بن المسيب ، أو إلى الزهري ، أو إلى مالك ونحو ذلك . ولا فرق بين أن يقول الصحابي : قال رسول الله ﷺ ، أو : أنه قال ، أو : عنه أنه قال .

المقطوع

المقطوع هو ما جاء عن تابعي من قوله أو فعله موقوفاً عليه وليس بحجة .

المنقطع

الحديث المنقطع ما سقط منه واحد قبل الصحابي ، وكذا من مكانين

وأكثر ، بحيث لا يزيد ما سقط منها على راو واحد وهذا قول أكثر علماء الحديث ومنهم من تجوز فأطلق المقطوع على المنقطع .

المعضل

فإن سقط قبل الصحابي إثنان من رواته فهو المعضل . ويعرف الإنقطاع وسقوط الراوي أو الراويين بمعرفة عدم الإجتماع بين الراوي والمروي عنه ، إما بعدم المعاصرة أو بعدم الإجتماع بحكم علم التاريخ المبين لمواليد الرواة ووفياتهم ، وتعيين أوقات طلبهم وارتحالهم ، وبهذا صار علم التاريخ أصلاً وعمدة عند المحدثين .

(فائدة) تبين لك أن المنقطع غير المقطوع ، لأن الأول من مباحث علم السند . والثاني من مباحث المتن . ومن أمثلة المعضل أن يقول مالك : قال رسول الله ﷺ ، إذ بين مالك وبين النبي ﷺ نافع وابن عمر . فإن قال نافع : قال النبي ﷺ ، كان الحديث مرسلاً كما ستعلم ذلك . فإن قال مالك ومن في طبقته : قال ابن عمر . كان هذا منقطعاً لسقوط واحد قبل الصحابي ، وهو نافع . والحديث الذي يرويه مالك عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب : أن النبي عرس منصرفه من خبير ، وقال لبلال : أكلأ لنا الفجر ، مرسل لسقوط الصحابي منه .

وكذلك إذا قال مالك : قال أبو هريرة ، أو عن أبي هريرة ، كان هذا الحديث أو السند معضلاً لسقوط أبي الزناد والأعرج ، فإن قال أبو الزناد : قال أبو هريرة مثلاً ، كان هذا السند منقطعاً لسقوط واحد قبل الصحابي وهو هنا (الأعرج) .

المرسل

المرسل ، الحديث الذي يرفعه التابعي إلى النبي ﷺ إذ يكون سقط منه الصحابي . قال صاحب البيقونية :

ومرسل منه الصحابي سقط   وقل غريب ما روى راو فقط

والمرسل من أقسام الضعيف لا يحتج به عند الشافعي والجمهور واحتج به أبو حنيفة ومالك وأحمد في المشهور عنه .

فإن اعتضد المرسل بمجيئه من وجه آخر مرسل أو مسند قُبِلَ ذلك عنده ، ومن ثم احتج الشافعي بمراسيل سعيد بن المسيب لأنها وجدت مسندة من وجوه أخر .

وأما مرسل الصحابي كإبن عباس وعائشة مما لم يسمعوه من النبي ﷺ فحجة ، كقول السيدة عائشة : أول ما بديء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤ يا الصالحة . لأن هذا كان قبل أن تولد .

ومن ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال أبو لهب عليه لعنة الله للنبي ﷺ ، تباً لك سائر اليوم ، فنزلت ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب** ﴾ . فهذا من مراسيل الصحابة أيضاً ، لأن ابن عباس ولد في شعب أبي طالب قبل الهجرة بثلاث سنين ، وهذه الآية نزلت في السنة الثالثة من النبوة أي قبل ولادته بسبع سنين ، وهو أيضاً أسلم مع أبيه عام الفتح .

وكذلك رواية أبي هريرة لما وقع قبل إسلامه لأنه أسلم بين الحديبية وخيبر حوالي السنة السابعة من الهجرة .

تنبيه : إذا تعارض الرفع والوقف بأن يرفع ثقة حديثاً وقفه ثقة غيره ، فالحكم للأحفظ ، فإذا تعادلا فللذي رفع لأنه مثبت وهو مقدم على غيره .

خلاصة

١ ـ الحديث إذا انتهى إلى النبي ﷺ يقال له : (المرفوع) .

٢ ـ وإذا انتهى إلى الصحابي يقال له : (الموقوف) .

٣ ـ وإذا انتهى إلى التابعي يقال له : (المقطوع) .

٤ ـ وإذا سقط منه واحد قبل الصحابي فهو : (المنقطع) .

٥ ـ فإن سقط منه إثنان قبل الصحابي فهو : (المعضل) .

٦ ـ فإن سقط منه الصحابي نفسه فهو : (المرسل) .

٧ ـ وما رفع إلى النبي ﷺ وكان سنده متصلاً سمي : (مسنداً) .

٨ ـ وما اتصل سنده إلى النبي ﷺ دون أن ينفصل أو ينقطع أو يسقط منه راو فهو : (المتصل) .

مراتب كتب الحديث

ويقول الدكتور صبحي الصالح في « مذكرة في الأدب الإسلامي » .

لقد صنفت في الحديث كتب كثيرة وصل إلينا بعضها ولم يصل البعض الآخر ، ولا يزال عدد كبير منها مخطوطاً في المكاتب العالمية ، وسيعيش لها الجهابذة من العلماء لينفضوا عنها الغبار ، ويحيوا بها التراث الإسلامي العظيم . وكان ينبغي أن تكون كتب الحديث بهذه الكثرة ، لأن مجموعة الأحاديث النبوية يتعذر احصاؤها وضبطها في كتاب يجمعها مهما يكن هذا الكتاب ضخماً عظيماً ، فالإمام أحمد بن حنبل انتخب مسنده وحده من ٧٥٠،٠٠ (خمسين ألف حديث وسبعمائة ألف) ولم يصح له منها ـ كما يقول هو ـ إلا سبعون ألف حديث وتزيد قليلاً .

وإن المقدار العظيم من الأحاديث التي جمعت من كتب شتى ألّفت في أعصر مختلفة ، لا يمكن أن ينظر إلى مصادره كلها نظرة متساوية ، وبعبارة أخرى : لا يمكن أن تكون مصادر الحديث ـ على اختلافها ـ ذات طبقة واحدة ، ومرتبة واحدة ولذلك اصطلح العلماء على تقسيم كتب الحديث بالنسبة إلى الصحة والحسن والضعف إلى طبقات :

١) الطبقة الأولى ، تنحصر في صحيحي البخاري ومسلم وموطأ مالك

بن أنس : وفيها من أقسام الحديث : المتواتر ، والصحيح الأحادي ، والحسن .

٢) الطبقة الثانية ، وفيها جامع الترمذي ، وسنن أبي داود ، ومسند أحمد ابن حنبل ، ومجتبى النسائي ، ومنها استمدت أكثر العلوم والأحكام . والمحدثون يعتمدون على هاتين الطبقتين بوجه خاص ، ويستنبطون منهما أصول العقيدة والشريعة .

٣) الطبقة الثالثة ، وهي الكتب التي لم يكتف فيها بجمع الصحيح والحسن ، بل اشتملت على أنواع الضعيف ككتب البيهقي والطبراني والطحاوي . وهذه الطبقة لا يستطيع الإعتماد عليها والإستمداد منها إلا جهابذة المحدثين ، الذين افنوا حياتهم في استكمال هذا العلم وتتبع جزئياته .

٤) والطبقة الرابعة ، مصنفات هزيلة جمعت في العصور المتأخرة من أفواه القصاص والوعّاظ والمتصوفة والمؤرخين غير العدول وأصحاب البدع والأهواء . ومن الواضح أن هذه الطبقة الأخيرة لا يعوّل عليها أحد من الذين لهم المام بالحديث النبوي ، لأنها مصدر الأهواء والبدع .

٩ ـ التعريف بأهم كتب الرواية والمسانيد :

تعددت أنواع كتب الحديث ، كما تعددت طبقاتها ، فكان منها كتب الصحاح والجوامع ، والمسانيد ، والمعاجم ، والمستدركات ، والمستخرجات ، والأجزاء .

(أ) أما كتب الصحاح فهي تشمل الكتب الستة للبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه . إلا أن العلماء اختلفوا في الأخير ،

---

(١) قيل انها لا تزيد عن أربعة عشر موضعاً ، يعلق فيها سند الحديث فيقول مسلم : قال رسول الله .

أعني ابن ماجه ، فجعلوا الكتاب السادس موطأ الإمام مالك ، أو مسند الدرامي . وعلى ذلك ، فإن من الواضح أن عبارة ، الكتب الخمسة « تصدق على كتب الأئمة الذين ذكروا قبل ابن ماجه ، فإذا قرأنا في ذيل بعض الأحاديث مثل هذه العبارة ، : « رواه الخمسة » فمعنى ذلك أن البخاري ومسلماً وأباً دواود والترمذي والنسائي قد اتفقوا جميعاً على رواية هذا الحديث . وعبارة « الصحيحين » تطلق على كتابي البخاري ومسلم ، ويقال في الحديث الذي رواه الشيخان « أو » متفق عليه « وإنما سميت الكتب الستة بالصحاح على سبيل التغليب ، وإلا فإن كتب السنن الأربعة (للترمذي وأبي دواود والنسائي وابن ماجه) هي دون الصحيحين منزلة ، وأقول منهما دقة وضبطاً .

ولكل من أصحاب الكتب الستة ميزة يعرف بها ، فمن أراد التفقه فعليه بصحيح البخاري ، ومن أراد قلة التعليقات فعليه بصحيح مسلم ، ومن رغب في زيادة معلوماته في فن التحديث فعليه بجامع الترمذي ، ومن قصد إلى حصر أحاديث الأحكام فبغيته لدى أبي دواود في سننه ، ومن كان يعنيه حسن التبويب في الفقه فابن ماجه يلبي رغبته ، أما النسائي فقد توفرت له أكثر هذه المزايا .

وصحيح البخاري أرجح من صحيح مسلم ، لأن الإمام البخاري اشترط في إخراجه الحديث شرطين أحدهما معاصرة الراوي لشيخه ، والثاني ثبوت سماعه منه ، بينما اكتفى مسلم بمجرد شرط المعاصرة .

والبخاري قد وضع بنفسه عناوين « صحيحة » ، فبّوبه بطريقة خاصة تدل على سعة علمه وفقهه ، وهو غالباً يفتتح بآيات قرآنية ، فتكاد تستنبط من ذلك رأيه الفقهي في الأبواب المختلفة . أما مسلم فإنه رتب أحاديثه بطريقة خاصة ، فجعل كل طائفة من الأحاديث المتعلقة بموضوع واحد متلاحقة متتابعة من غير أن يفردها بعنوان يضعه لها بنفسه ، ولقد بوّب له صحيحه

ووضع له عناوينه الإمام النووي صاحب (رياض الصالحين) فيما بعد ، فأصبح الإنتفاع به أيسر .

والبخاري ومسلم لم يلتزما بإخراج جميع ما يحكم بصحته من الأحاديث ، فلقد فاتهما عدد قليل من الأحاديث اعترفا بصحتها مع أنها لم ترد في كتابيهما ، وإنما وردت في كتب السنن الأربعة أو سواها من الكتب المشهود لها بالصحة .

أما موطأ الإمام مالك فإنه يلي الصحيحين في الرتبة ، على الرأي القائل بأنه سادس الكتب الستة ، ولم يعد في الكتب الصحاح على رأي الذين يجعلون الأصل السادس سنن ابن ماجه ، وتعليل ذلك لديهم أن فيه كثيراً من المراسيل من ناحية ، وكثيراً من الآراء الفقهية من ناحية ثانية ، فهو إلى كتب الفقه أقرب . قيل : إن مالكاً جمعه من مائة ألف حديث ، وألّفه في مدى أربعين سنة وعرضه على سبعين فقيها من فقهاء المدينة . وأراد الخليفة المنصور أن يحمل الناس على موطئه ، فأبى مالك وقال : « إن الناس قد جمعوا واطّلعوا على أشياء لم نطلع عليها » .

ب ـ والجوامع من كتب الحديث تشتمل على جميع أبواب الحديث التي اصطلحوا على أنها ثمانية : باب العقائد ، باب الأحكام ، باب الرقاق ، باب آداب الطعام والشراب ، باب التفسير والتاريخ والسير ، باب السفر والقيام والقعود (ويسمى باب الشمائل أيضاً) ، باب الفتن ، وأخيراً باب المناقب والمثالب[1] . فالكتاب المشتمل على سائر هذه الأبواب الثمانية يسمى جامعاً ، كجامع البخاري وجامع الترمذي . أما الذي يخلو من أحد أبوابها فلا يسمى جامعاً ، كصحيح مسلم لخلوه من باب التفسير والقراءة .

ج ـ والمسانيد جمع مسند ، وهو ما تذكر فيه الأحاديث على ترتيب

(١) وهذه الأبواب الثمانية قبل أن تضم بين دفتي « جامع » واحد بجمعها ، كان كل منها موضوعا لكتاب قائم برأسه .

الصحابة على حروف التهجي ، وأحياناً حسب السوابق الإسلامية ، أو تبعاً للإنساب . وأوفى تلك المسانيد وأوسعها مسند الإمام أحمد بن حنبل المتوفي سنة ٢٤١[١] . وفيه أحاديث صحيحة كثيرة لم تخرج في الكتب الستة . وقد قال الإمام أحمد عن مسنده هذا « هذا الكتاب جمعته وانتقيته من أكثر من سبعمائة ألف حديث وخمسين ألفا ، فما اختلف فيه المسلمون من حديث رسول الله ﷺ فارجعوا إليه ، فإن وجدتموه فيه وإلا فليس بحجة »[٢] . وقد عقّب الحافظ الذهبي على ذلك بقوله : « هذا القول منه على غالب الأمر ، وإلا فلنا أحاديث قوية في الصحيحين والسنن والأجزاء ، ما هي في المسند » . وقد نفى ابن تيميّة في كتابه (التوسل والوسيلة) وجود الموضوع في مسند الإمام أحمد إن كان المراد بالموضوع ما في سنده كذاب « أما إذا كان المراد ما لم يقله النبي ﷺ ، لغلط راويه وسوء حفظه ، ففي المسند والسنن من ذلك كثير » .

د ـ والمعاجم جمع معجم ، وهو ما تذكر فيه الأحاديث على ترتيب الشيوخ أو القبائل ، واشهر المعاجم معجم الطبراني الكبير ، والمتوسط والصغير .

هـ ـ والمستدركات جمع مستدرك ، وهو ما استدرك فيه ما فات المؤلف لكتاب في كتابه على شرطه . واشهرها مستدرك الحاكم النيسابوري على الصحيحين ، وقد لخّصه الذهبي . غير أن الحاكم الزم الشيخين بإخراج أحاديث لا تلزمهما ، لضعف رواتها عندهما وإن الضرر في مستدرك الحاكم أن يظن ما ليس بصحيح صحيحا ، لأنه يحاول تخريج بعض الأحاديث على شرط الشيخين ، وإن كان في كثير من استدراكاته مقال .

---

(١) مسند ابن حنبل مطبوع في مصر في ستة مجلدات كبار ، وقد تم طبعه سنة ١٣١٣ ، وقام بتحقيقه مؤخراً العلامة أحمد محمد شاكر .

(٢) كان الإمام أحمد شديد الإعتزاز بمسنده ، لإيمانه بأنه جمع السنة فأوعاها ، فكان يقول لابنه عبد الله راوي المسند عنه : « احتفظ بهذا المسند ، فإنه سيكون للناس إماما » .

و ـ المستخرجات ، وموضوع المستخرج ـ كما قال العراقي : أن يأتي المصنف إلى الكتاب فيخرج أحاديثه بأسانيد لنفسه ، من غير طريق صاحب الكتاب ، فيجتمع معه في شيخه أو من فوقه . من ذلك مستخرج أبي بكر الإسماعيلي على البخاري ، ومستخرج أبي عوانه على مسلم ، ومستخرج أبي علي الطوسي على الترمذي ، ومستخرج محمد بن عبد الملك بن أيمن على سنن أبي داوود . قال ابن كثير في (مختصر علوم الحديث) في هذا السياق : « وكتب آخر التزم أصحابها صحتها كابن خزيمة ، وابن حبان البستي ، وهما خير من المستدرك بكثير ، وأنظف أسانيدا ومتوناً .

ز ـ والأجزاء ، ويراد بالجزء ما جمع الأحاديث المروية عن رجل واحد ، أو جمع ما يتعلق بمطلب من المطالب ، كجزء أبي بكر ، وجزء في قيام الليل للمروزي ، وجزء في صلاة الضحى للسيوطي .

وكل من علم شروط العمل بالحديث ، وكان أهلاً لتحمله وأدائه ، جاز له أن ينقل الحديث من الكتب الصحيحة المشهورة ، وأن يرويه ويذيع بين الناس معناه .

وأشهر كتب السنة هي :

١) **صحيح البخاري** : للإمام « محمد بن إسماعيل البخاريّ » ، واتفق العلماء على أنه أصحّ كتاب بعد القرآن . ولد البخاريّ سنة (١٩٤) وتوفي سنة (٢٥٦) .

٢) **صحيح مسلم** : للإمام « مسلم بن الحجاج القشيريّ النيسابوريّ » ، وهو من أئمة الحديث في عصره ، وقد لقي البخاريّ وأخذ عنه ، ويعتبر جمهور العلماء كتابه أصحَّ الكتب بعد صحيح البخاريّ ، ولد مسلم سنة (٢٠٤) وتوفي سنة (٢٦١) .

٣) **سنن أبي داود** : وهو الإمام « سليمان بن الأشعث السجستاني » ، ولد سنة (٢٠٢) وتوفي سنة (٢٥٧) .

٤) **سنن الترمذي** : وهو « الإمام محمد بن عيسى بن سورة الترمذيّ » ، ولد سنة (٢٠٩) وتوفي سنة (٢٧٩) .

٥) **سنن النسائيّ** : وهو « أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائيّ الخراسانيّ الحافظ » ، ولد سنة (٢١٥) وتوفي سنة (٣٠٣) .

٦) **سنن ابن ماجه** : وهو « أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني » المعروف بابن ماجه ، ولد عام (٢٠٧) وتوفي سنة (٢٧٢) .

هذه الكتب تسمّى : « **الكتب الستة الأصول** » ، وبعض العلماء يسمّيها : « **الصحاح الستة** » لتفوّقها على غيرها من كتب الحديث ، واشتمالها على معظم **الحديث الصحيح** ، لم يَفُتها منه إلاّ القليل .

وثمّة كتب أخرى هامة أيضاً منها : « **الموطأ** » للإمام « مالك بن أنس » المتوفي سنة (١٧٩) و « المسند » للإمام أحمد بن حنبل المتوفي سنة (٢٤١ هـ) ، و « **سنن الدراميّ** » ، و « **سنن البيهقي** » ، و « **مصنف عبد الرزاق بن همام** » ، و « **مصنف أبي بكر بن أبي شيبة** » وغيرها .

مزايا صحيح البخاري :

١ ـ أنه سَنَّ للمحدِّثين التشدّد في تصنيف الحديث والإقتصار على الصحيح . لذلك كان كتابه أصحّ كتب الحديث لمبالغته في التدقيق .

٢ ـ أنه اعتنى بفقه الحديث فهو يستنبط من الحديث أحكاماً كثيرة في مختلف الأبواب ، ويروي الحديث استدلالاً على الحكم الذي يستنبطه ، لذلك وقع التكرار في كتابه ، فالحديث الواحد تجده مثلاً في كتاب الصلاة ، وفي الحج ، والجهاد ، والتوحيد ، لتضمُّنه فوائد تتصل بتلك الأبواب . وقد يختصر الحديث فيروي الجملة المتعلقة بالمقصود فقط .

٣ ـ التنصيص على الخلاف في رواية الحديث ولو كان لفظاً يسيراً .

مزايا صحيح مسلم :

١ ـ أنه يسوق الحديث تامّاً بأسانيده المتعدِّدة في موضع واحد فقط ، ولا يكرِّره في أبواب أخرى كما فعل الإمام البخاريّ .

٢ ـ أنه لا يختصر الحديث ولا يقطعه أيضاً .

٣ ـ أنه أكثر عناية بإيراد الفروق الدقيقة في الحديث ، ولو كان (حرفاً) ، وقد أجمع أئمة الحديث على صحّة هذين الكتابين ، وذهب أكثر العلماء إلى تقديم صحيح البخاريّ لأنه كما أشرنا أكثر تشدداً في التدقيق من صحيح مسلم .

رموز العلماء للكتب الستة :

إذا قيل في حديث : « **رواه الستة** » فالمراد أنه رواه أصحاب الكتب الستة الأصول التي سبق أن عرفتها وأنها أهمّ الكتب . وإذا قيل : « **رواه الشيخان** » فالمراد بذلك البخاريّ ومسلم ، وكذلك إذا قيل في حديث : « **متفق عليه** » وإذا قيل في حديث : « **رواه أصحاب السنن** » أو « **رواه الأربعة** » ، فالمراد بهم : أبو داود ، والترمذيّ ، والنسائيّ ، وابن ماجه .

الحديث القدسي : ـ

عرفنا معنى الحديث لغة ، والقدسي : نسبة إلى القدس ، وهي نسبة تدل على التعظيم ، لأن مادة الكلمة دالة على التنزيه والتطهير في اللغة ، فالتقديس : تنزيه الله تعالى ، والتقديس : التطهير ، وتقدس : تطهر ، قال الله تعالى على لسان ملائكته ﴿ **ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك** ﴾ (٣١ ـ البقرة) أي نطهّر أنفسنا لك .

والحديث القدسي في الإصطلاح : هو ما يضيفه النبي ﷺ إلى الله تعالى : أي أن النبي ﷺ يرويه على أنه من كلام الله ، فالرسول راوٍ لكلام

الله بلفظ من عنده وإذا رواه أحد رواه عن رسول الله مسنداً إلى الله عز وجل ، فيقول : ـ

قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل ، أو يقول : ـ

قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى ، أو يقول الله تعالى .

ومثال الأول : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل : ﴿ **يد الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار . .** ﴾[1] .

ومثال الثاني : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : يقول الله تعالى : ﴿ **أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه . .** ﴾[2] .

الفرق بين القرآن والحديث القدسي : ـ

هناك عدة فروق بين القرآن الكريم والحديث القدسي أهمها : ـ

١ ـ أن القرآن الكريم كلام الله أوحى به إلى رسول الله بلفظه ، وتحدى به العرب ، فعجزوا عن أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة من مثله ، ولا يزال التحدي به قائماً ، فهو معجزة خالدة إلى يوم الدين .

والحديث القدسي لم يقع به التحدي والإعجاز .

٢ ـ والقرآن الكريم لا ينسب إلّا الله تعالى ، فيقال : قال الله تعالى .

والحديث القدسي ـ كما سبق ـ قد يروى مضافاً إلى الله وتكون النسبة

---

(١) أخرجه البخاري .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم .

إليه حينئذ نسبة إنشاء فيقال : قال الله تعالى ، أو يقول الله تعالى ، وقد يروي مضافاً إلى رسول الله ﷺ ، وتكون النسبة حينئذ نسبة إخبار لأنه عليه الصلاة والسلام هو المخبر به عن الله ، فيقال : قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل .

٣ ـ والقرآن الكريم جميعه منقول بالتواتر ، فهو قطعي الثبوت . والأحاديث القدسية أكثرها أخبار آحاد ، فهي ظنية الثبوت . وقد يكون الحديث القدسي صحيحاً ، وقد يكون حسناً ، وقد يكون ضعيفاً .

٤ ـ والقرآن الكريم من عند الله لفظاً ومعنى ، فهو وحي باللفظ والمعنى .

والحديث القدسي معناه من عند الله ولفظه من عند الرسول ﷺ على الصحيح فهو وحي بالمعنى دون اللفظ ، ولذا تجوز روايته بالمعنى عند جمهور المحدثين .

٥ ـ والقرآن الكريم متعبد بتلاوته ، فهو الذي تتعين القراءة به في الصلاة ﴿ **فاقرءوا ما تيسر من القرآن** ﴾ (٢٠ ـ المزمل) وقراءته عبادة يثيب الله عليها بما جاء في الحديث « من قرأ حرفا من كتاب الله تعالى فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[(١)] .

والحديث القدسي لا يجزىء في الصلاة ، ويثيب الله على قراءته ثواباً عاماً ، فلا يصدق فيه الثواب الذي ورد ذكره في الحديث على قراءة القرآن ، بكل حرف عشر حسنات .

الفرق بين الحديث القدسي والحديث النبوي : ـ

الحديث النبوي قسمان :

(١) رواه الترمذي عن ابن مسعود وقال حديث حسن صحيح .

« **قسم توقيفي** » وهو الذي تلقى الرسول ﷺ مضمونه من الوحي فبينه للناس بكلامه ، وهذا القسم وإن كان مضمونه منسوباً إلى الله فإنه ـ من حيث هو كلام ـ حريّ بأن ينسب إلى الرسول ﷺ ، لأن الكلام إنما ينسب إلى قائله وإن كان ما فيه من المعنى قد تلقاه عن غيره .

و « **قسم توفيقي** » وهو الذي استنبطه الرسول ﷺ من فهمه للقرآن ، لأنه مبيّن له ، أو استنبطه بالتأمل والإجتهاد . وهذا القسم الإستنباطي الإجتهادي يقره الوحي إذا كان صوابا ، وإذا وقع فيه خطأ جزئي نزل الوحي بما فيه الصواب(١) وليس هذا القسم كلام الله قطعا .

ويتبين من ذلك : أن الأحاديث النبوية بقسميها : التوقيفي ، والتوفيقي الإجتهادي الذي أقره الوحي ، يمكن أن يقال فيها إن مردها جميعاً بجملتها إلى الوحي ، وهذا معنى قوله تعالى في رسولنا ﷺ ﴿ **وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى** ﴾ (٣ ، ٤ ـ النجم) .

والحديث القدسي معناه من عند الله عز وجل ، يلقي إلى الرسول ﷺ بكيفية من كيفيات الوحي ـ لا على التعيين . أما ألفاظه فمن عند الرسول ﷺ على الراجح ونسبته إلى الله تعالى نسبة لمضمونه لا نسبة لألفاظه ، ولو كان لفظه من عند الله لما كان هناك فرق بينه وبين القرآن ، ولوقع التحدي بأسلوبه والتعبد بتلاوته .

ويرد على هذا شبهتان !

الشبهة الأولى : أن الحديث النبوي وحي بالمعنى كذلك ، واللفظ من الرسول ﷺ فلماذا لا نسميه قدسياً أيضاً ؟

والجواب : أننا نقطع في الحديث القدسي بنزول معناه من عند الله لورود النص الشرعي على نسبته إلى الله بقوله ﷺ : « قال الله تعالى ، أو

---

(١) ومثاله ما كان في أسرى بدر ، فإن رسول الله ﷺ أخذ برأي أبي بكر وقبل منهم الفداء ، فنزل القرآن الكريم معاتباً له ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى . . . ﴾ (٦٧ ـ الأنفال) .

يقول الله تعالى » ولذا سميناه قدسياً ، بخلاف الأحاديث النبوية فإنها لم يرد فيها مثل هذا النص ، ويجوز في كل واحد منها أن يكون مضمونه مُعْلَماً بالوحي (أي توقيفيًا) وأن يكون مستنبطاً بالإجتهاد (أي توفيقيّا) ولذا سمينا الكل نبويًا وقوفاً بالتسمية عند الحد المقطوع به ، ولو كان لدينا ما يميز الوحي التوقيفي لسميناه قدسياً كذلك .

الشبهة الثانية : أنه إذا كان لفظ الحديث القدسي من الرسول ﷺ فما وجه نسبته إلى الله بقوله ﷺ : « قال الله تعالى ، أو يقول الله تعالى » .

والجواب : أن هذا سائغ في العربية ، حيث ينسب الكلام باعتبار مضمونه لا باعتبار ألفاظه ، فأنت تقول حينما تنثر بيتا من الشعر : يقول الشاعر كذا ، وحينما تحكي ما سمعته من شخص : يقول فلان كذا ، وقد حكي القرآن الكريم عن موسى وفرعون وغيرهما مضمون كلامهم بألفاظ غير ألفاظهم ، وأسلوب غير أسلوبهم ، ونسب ذلك إليهم ﴿ **وإذ نادى ربك موسى ، أن ائت القوم الظالمين ، قوم فرعون ألا يتقون : قال رب إني أخاف أن يكذبون ، ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون ، ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون ، قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون ، فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين ، أن أرسل معنا بني إسرائيل ، قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ، قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ، ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين ، وتلك نعمة تمنُّها عليَّ أن عبَّدتَ بني إسرائيل ، قال فرعون وما رب العالمين ؟ ، قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين** ﴾ (١٠ ـ ٢٤ ـ الشعراء)[1] .

---

(١) من ذهب إلى أن الحديث القدسي وحي باللفظ كذلك يجعل هذا فرقا أساسياً بينه وبين الحديث النبوي ، ويبقى الفرق بينه وبين القرآن الكريم في عدم التحدي وعدم الإعجاز وعدم التعبد بتلاوته وعدم التواتر في معظمه .

ويقول د . صبحي الصالح في « مذكرة في الأدب الإسلامي » صفحة ١٩ :

نعني بدراسة علوم الحديث لاعتبارات كثيرة أهمها ثلاثة : إعتبار ثقافي ، وإعتبار حضاري ، وإعتبار تشريعي .

أ ـ فللثقافة نصيب كبير في الحديث الشريف ، ونخص بالذكر هنا الثقافة اللغوية التي تتسع آفاقها بدراسة هذا الديوان الضخم من دواوين لغتنا العربية . فمن القرآن بالدرجة الأولى استمد العرب قواعد لغتهم ، ثم من الحديث وكلام العرب بالدرجة الثانية . وكلما قطعنا في دراسة الحديث شوطاً ازددنا اقتناعاً بتأثيره في طبع أدبنا بطابع معين ، وفي صياغة أخبارنا الأدبية ورواياتنا في الشعر والنثر والخطب والقصص وما شابه ذلك . وسنجد أن مصطلحات المحدثين دخلت عنصراً أساسياً في أسانيد اللغويين الثقات . وسنكون إذاً أقدر على فهم تراثنا الأدبي الضخم ، وموسوعاتنا اللغوية الكبرى ، إذا أحطنا خبراً بعلم الحديث دراية ورواية .

ب ـ وعلى الصعيد الإجتماعي ، نجد الحديث الشريف مرآة صادقة لعصر النبي عليه السلام ، فهو يعبّر عن حياته ومكارم أخلاقه ، وإرشاده أصحابه إلى بناء مجتمع مثالي يقوم على الحق والخير والجمال . يرسم الحديث النبوي للفرد الصفات التي تجعله صالحاً نافعاً منتجاً ، ويشرع للأسرة الأحكام التي تكفل استقرارها وإطمئنانها ، وينظم للمجتمع الإسلامي علاقاته بالمجتمعات الأخرى في عصر النبوة وبعده . وكل شيء مهما يكن تافهاً في حياة المسلمين الأولين ، صور بدقة وأمانة في حديث الرسول ، وما عليك إلا أن تقرأ أحد المصنفات المختصرة الصحيحة في متون الحديث ، كرياض الصالحين للنووي ـ مصحوباً بشرحنا عليه « منهل الواردين » ـ لتقتنع بهذه الحقيقة الإجتماعية الحضارية .

ج ـ ومن الزاوية التشريعية ، نجد الحديث المصدر النقلي الثاني بين

مصادر التشريع ، فنحن نستمد كثيراً من الأحكام من كلام رسول الله أو فعله أو تقريره أو صفته حين يسكت عن بيانها كتاب الله المجيد . والله منح نبيه هذه السلطة التشريعية في مثل قوله : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ .

ولرسول الله ـ من ناحية ثانية ـ أن يبين المراد من كلام الله ، فيخصص عمومه ، أو يفصل إجماله أو يقيد إطلاقه ، فيكون حديثه شارحاً لكتاب الله ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ، ولعلهم يتذكرون** ﴾ . وحسبك أن تعلم أن أركان الإسلام الخمسة وردت في القرآن مجملة ، ولم تفصلها إلا السنة النبوية الصحيحة .

فإذا أخذنا بعني الإعتبار تلك الزوايا الثلاث ـ الثقافية والحضارية والتشريعية أدركنا المكانة الرفيعة التي ينبغي أن نبوئها حديث الرسول الكريم .

٢ ـ الحديث والسنة واصطلاحات أخرى

الرأي السائد بين المحدثين ـ ولاسيما المتأخرين ـ أن الحديث والسنة مترادفان متساويان ، ففي كل منهما إضافة قول أو فعل أو تقرير أو صفة إلى النبي الكريم . لكنّا لو رددنا اللفظين إلى أصولهما التاريخية لوجدنا بعض الفروق الدقيقة بينهما لغة واصطلاحاً .

فالحديث هو إما إسم من التحديث : وهو الإخبار ، وإما ملحوظ فيه معنى الجدة والحداثة : في مقابل « القديم » . وعلى هذا ، يكون « القديم » كتاب الله الأزلي ، ويكون الحديث كلام الرسول « الجديد » . والنبي بنفسه سمى قوله « حديثاً » . فالحديث ـ على هذا ـ هو « القول » المنسوب إلى الرسول .

والسنّة هي في الأصل الطريقة ، ثم أضحت تطلق بوجه خاص على الطريقة الدينية التي سلكها الرسول في حياته المطهرة ، فإذا كان الحديث

« قول » النبي فالسنة هي « فعله » المنسوب إليه ، الموضح لطريقته في سيرته التي كانت قدوة حسنة للمؤمنين .

والخبر أجدر من السنة أن يرادف الحديث ، فما التحديث إلا الإخبار ، وما حديث الرسول إلا الخبر المرفوع إليه . غير أنه أطلق لقب « الإخباري » على من يشتغل بالروايات التاريخية والأدبية ، فرأوا من الأنسب تخصيص المشتغل بالسنّة يلقب « الحديث » إذا كان قولاً ، و« السنّة » إذا كان فعلاً ، لتمييزه عن « الخبر » ، وعلى هذا ، فكل حديث خبر ، وليس كل خبر حديثاً .

والأثر أيضاً يبدو كالمرادف للخبر والسنة والحديث . يقال : أثرت الحديث : بمعنى رويته ، ويسعى المحدث « أثرياً » نسبة إلى الأثر . لكن بعضهم خصص الأثر بما أضيف للسلف من الصحابة والتابعين . وقد أخذنا مع ذلك برأي الجمهور في تساوي هذه المصطلحات جميعاً في إفادة التحديث والإخبار ، وعليهما مدار البحث في علم أصول الحديث .

٣ ـ تدوين الحديث

١ ـ لم يكن تدوين الحديث شائعاً في عصر الرسول صلوات الله عليه ، لأنه نهى أن يكتب الصحابة عنه غير القرآن ، فقال : « لا تكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه ، وحدّثوا عنّي ولا حرج ، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . لكننا نجد رسول الله ﷺ يأذن لبعض الصحابة بالكتابة عنه ، كما روي عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه قال : كنت أكتب كل شيء سمعته من رسول الله وأريد حفظه فنهتني قريش وقالوا : أتكتب كل شيء سمعته من رسول الله وهو بشر يتكلم في الرضى والغضب ؟ (قال) : فأمسكت ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « أكتب ، فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق » ، وأشار بيده إلى فمه .

يمكن التوفيق بين الحديثين بأن النبي الكريم نهى أولاً عن كتابة

أحاديثه وقت نزول القرآن مخافة التباس الحديث بالقران ، حتى إذا أمن اللبس أذن لعبدالله بن عمرو وسواه بالكتابة . على أن اشتغال الصحابة بكتابة القرآن صرفهم عن الإهتمام بتدوين الحديث ، فلم يشع ذلك عنهم في حياة رسول الله .

٢ ـ وفي عصر الخلفاء الراشدين لم يدوّن الحديث أيضاً ، لتشدد هؤلاء الخلفاء في الرواية وحرصهم على ضبطها ، فهذا أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه لم يورّث الجدة السدس إلا بعد أن شهد محمد بن مسلمة على قول المغيرة : « أن رسول الله أعطاها السدس » . وهذا عمر رضي الله عنه يهدد أبا موسى الأشعري بتعزيزه (أي عقوبته) إن لم يشهد أحد من الصحابة على صحة سماعه حديث الإستئذان من رسول الله ، ولم يسكت عنه إلا بعد أن شهد له الصحابي أبو سعيد الخدري . وهذا علي كرّم الله وجهه يقول : « حدثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يكذب الله رسوله ؟ » .

٣ ـ وظلت الرواية بالسماع والمشافهة في عصر كبار التابعين حتى نهاية القرن الهجري الأول ، وغلب على الناس كره تدوين الحديث أسوة بمن كرهه من الصحابة . إلا أن بعض التابعين بدؤوا يستسيغون فكرة التدوين ويقولون بجوازها . يروى عن سعيد بن جبير (التابعي الجليل) أنه قال : « كنت أسير مع ابن عباس في طريق مكة ليلاً ، وكان يحدثني الحديث فأكتبه في واسطة الرحل حتى أصبح فأكتبه » .

٤ ـ حتى إذا كان عصر أواسط التابعين في أول المئة الثانية للهجرة ، ابتدأ تدوين الحديث ، عندما أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز (المتوفي سنة ١٠١ هـ .) عامله على المدينة أبا بكر محمد بن حزم بأن يكتب ما عنده من الحديث ، ويجمع ما عند عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية والقاسم بن محمد . ويبدو أنه كتب لعلماء الأمصار بمثل ما كتب لابن حزم فنشط العلماء في تدوين الحديث ، وكان أول من حقق هذه الفكرة محمد بن مسلم بن شهاب الزهري المتوفي سنة ١٢٤ هـ .

٥ ـ ثم شاع التدوين وانتشر في عصر أواخر التابعين حفظاً للنصوص النبوية من أهل الفرق والشيع المختلفة . ومزية التدوين في هذا العصر أن الحديث ممزوج بفتاوي الصحابة والتابعني ، كما في موطّأ مالك بن أنس إمام أهل المدينة (المتوفي سنة ١٧٩ هـ .) .

٦ ـ وفي عصر أتباع التابعين ، ممن كانوا على رأس المئتين ، عني العلماء بتأليف المسانيد الخيالية من فتاوي الصحابة والتابعين ، مقصورة على السنّة النبوية وحدها . وأول من ألّف شيئاً من تلك المسانيد أبو داوود الطيالسي المتوفي سنة ٢٠٤ هـ . ويعتبر مسند أحمد بن حنبل المتوفي سنة ٢٤١ هـ . وفي تلك المسانيد وأوسعها ، إلا أن هذا الإمام معدود من أتباع التابعين ، لأن وفاته بعد العشرين والمئتين .

٧ ـ ولم تدون السنة الصحيحة وحدها مرتبة على الأبواب والموضوعات إلا في عصر أتباع أتباع التابعين ممن عاصر البخاري . وفي هذا العصر ألّفت الكتب الستة الصحيحة . وسنشير إلى ما يتعلق بها وبأصحابها (البخاري ومسلم والترمذي وأبي داوود وابن ماجه والنسائي) عند الحديث عن « أهم كتب الرواية » .

٨ ـ أما المتأخرون عن عصر الرواية فيكون عملهم ـ في نهاية المطاف ـ تهذيباً وشرحاً واختصاراً للكتب الصحيحة المشهورة . فيجمع أبو عبدالله الحميدي المتوفي سنة ٤٤٨ هـ الصحيحين على ترتيب المسانيد ، ثم أبو السعادات مبارك بن الأثير الكتب الستة بترتيب الأبواب ، ثم نور الدين علي الهيثمي المتوفي سنة ٨٠٧ ما زاد على الكتب الستة من المصنفات المشهورة في مجمع الزوائد ، وأخيراً السيوطي المتوفي سنة ٩١١ هـ . الكتب الستة والمسانيد العشرة وغيرها مما يزيد على خمسين مصنفاً في « جمع الجوامع » المسمى « بالجامع الكبير » .

وهكذا ، مرّ الحديث النبوي بمراحل طويلة حتى وصل إلينا محرراً مضبوطاً ، وساعدت الطباعة الحديثة على نشر هذا التراث الإسلامي العربي العظيم

٤ ـ الرحلة في طلب الحديث

في المدينة المنوّرة ، دار السنّة المشرّفة ، نشأ الحديث نشأته الأولى ، فكان الصحابة يتناقلونه فيها بالسماع والمشافهة ، وإليهم كان يفزع التابعون ليأخذوه من أفواههم بالتلقين أيضاً . فأتم الحديث ، في مطلع فجره ، بالطابع الإقليمي . وظلّت رحاب المدينة مقدسة في عيون الرواة ، وما فتئت تهفو إليها القلوب ، لأنها الإقليم المبارك الذي اتسعت فيه آفاق الدعوة الإسلامية بعد الهجرة النبوية ، وأصبح الواة من أبناء الأقاليم الأخرى إذا حجّوا بيت الله قصدوا المدينة للزيارة من ناحية ، ولسمعوا الحديث من أفواه أهلها من ناحية ثانية .

وأصبحت بعض الأمصار ـ بفضل انتقال بعض الصحابة والرواة إليها ـ أقاليم مختصة برواية أنواع من الحديث تفرّد بها بعض علمائها وسكانها ، ولم يعد الناس منذ ذلك الحين يقنعون بتلقي العلم من أهل بلدهم ، ولا بأخذه من أهل المدينة وحدها ، وأمست الرحلة في طلب الحديث إلى الأمصار ـ مهما نأت ـ أشهى أماني الذين أحبوا أن يتلقوا العلم من أفواه الرعيل الأول من الرواة الذين سكنوا مختلف الأمصار ، فكان بعضهم يرحل الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد ، أو أحاديث قليلة في موضوعات معينة .

واختلفت صور الرحلة وأشكالها باختلاف الأشخاص والأمصار والأجيال : فكان من الراحلين من يمشي على قدميه ، ومن يطلب الرحلة وهو ابن خمس عشرة سنة أو ابن عشرين ومن يوصف بأنه أحد من رحل وتعب ، أو بأن له رحلة واسعة ، أو أنه أكثر وأكثر الترحال ، أو أنه بقي في الرحلة بضع عشرة سنة . . . وكان يقال في أمثال هؤلاء أحياناً : « تضرب إليه آباط المطي ، أو أكباد المطي » ، أو « رحل الناس إليه » ، أو « كانت الرحلة إليه في زمانه » .

وأوضح أن لقب الرحال والرحالة والجوال والجوالة « كان وقفاً على

كبار المحدّثين . ولا ريب في أن بعض هؤلاء الجوالين قد طوفوا بالشرق والغرب مراراً ، وأن طواف الكثيرين منهم بالأقاليم قد ربط الشرق بالغرب ، وألغى السدود والحدود ، وكانت رحلاتهم تمهد لطبع الحديث بطابع مشترك تتماثل فيه النصوص والتشريعات . وأخذت الروايات المتباينة في التقارب شيئاً فشيئاً حتى أمكن صهرها في قالب واحد ، كما حصل لحديث : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » ، فقد استهل الكثيرون من كبار المحدّثين مصنفاتهم به ، كالبخاري وأمثاله . ولم يقف أثر هذه الرحلات عند حد التشابه بين النصوص أو توحيد ألفاظها كما في حديث النبة هذا ، بل تعداه إلى وحدة التشريع ووحدة الإعتقاد .

وإذا كان للرحلات مثل هذا الأثر في توحيد التشريع والعقيدة فلا بد من التشدد في الأسانيد لمعرفة كل رجل ورد اسمه في سلسلة الإسناد ، لأن معرفة الرجال نصف العلم ، كما كان يقول علي بن المديني ، شيخ البخاري . لذلك اشترطوا لقبول رواية من رحل في طلب العلم أن يسرد من حفظه أسماء سلسلة الإسناد جميعاً ، ثم يضيف إليها في آخرها إسمه ليعلم أنه قد سمع حقاً ما يرويه ، وإلا عدّ متساهلاً وترك الأخذ عنه والإحتجاج بحديثه .

٤ : ١ ـ الرحلة للمتاجرة بالحديث

لئن كانت رحلات بعض الرجال ابتغاء الإتساع في المعرفة ، فإن كثيراً غيرهم بدؤ وا يطلبونه للمتاجرة به : وقد اتهم بعض هؤلاء بالكذب ، أو على الأقل بالتدليس والتمويه على الناس ، وبات الأئمة ينصحون بأخذ الحديث عن المغني الموسر لأنه يستغني عن الكذب ، كما قال شعبة بن الحجاج : « أكتبوا عن زياد بن مخراق فإنه رجل موسر لا يكذب » !

لكن أكثر العلماء ـ في مختلف العصور ـ قاموا في وجه أولئك المتاجرين بالحديث ، يضربون على أيديهم قائلين : « يا بن آدم ، علم

مجاناً كما علمت مجاناً » . ولهذا القول أصل صحيح في الكتب السماوية الماضية ، ووردت في معناه أحاديث عن رسول الله ﷺ .

أولع كثيرون بغريب الحديث ونادره حتى أفسد عليهم الحيطة في أخذ السنة الثابتة عن الثقات والعدول ، فحذرهم الناس ، وحذر منهم العلماء ، حتى صرحوا « بأ الكذب في غير الحديث الشريف ترد روايته ، فكيف بمن يتعمد الكذب على خاتم النبيين ؟ » وكان كل من يجري على لسانه شيء من بذيء الكلام يفر منه المحدثون ويتركون روايته والتلقي عنه . وكانت للقوم آداب خاصة ومناهج في التربية والتعليم ينفردون بها من بين سائر العلماء من قدامى ومحدثين .

٤ : ٢ ـ بعض ألقاب المحدثين

١ ـ المسند : وهو من يروي الحديث بإسناده ، سواء أكان عنده علم به أم ليس له إلا مجرد روايته .

٢ ـ المحدث : وهو أرفع من المسند ، لأنه عرف الأسانيد والعلل وأسماء الرجال ، والعالي والنازل ، وحفظ جملة من المتون ، وسمع الكتب الستة ومسند الإمام أحمد بن حنبل وسنن البيهقي ومعجم الطبراني ، وضم إلى هذا كله ألف جزء من الأجزاء « الحديثية » .

٣ ـ الحافظ : وهو أعلاهم درجة وأرفعهم مقاماً ، فهو عارف بسنن الرسول ، بصير بطريقها ، مميز لأسانيدها ، يحفظ ما أجمع أهل المعرفة على صحته ، وما اختلفوا فيه للإجتهاد في حال نقلته ، ويعرف بدقة بالغة الفرق بين قولهم : فلان حجة أو ثقة أو مقبول ، أو وسط أو لا بأس به أو صدوق أو صالح أو شيخ ، أو لين أو ضعيف أو متروك . . . وعلى وجه الإجمال ، تكون معرفته حفظاً في الصدر أكثر من القراءة في الكتب والإجازة عن الشيوخ .

« السعداء في الآخرة »

من « كنوز السنة » . دراسات أدبية ولغوية من الحديث الشريف ـ للأستاذ محمد علي الصابوني .

الحديث الثاني :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

سَبْعَةٌ يظلُّهم اللَّهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظلَّ إلاَّ ظِلُّهُ :

- إمَامٌ عادلٌ .
- وَشَابٌ نَشَأَ في عِبَادَةِ رَبِّهِ .
- وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في المَسَاجِدِ .
- وَرَجُلاَنِ تَحَابّا في اللَّهِ ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ .
- وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امرأةُ ذَاتُ منصِبٍ وَجَمالٍ فَقالَ : إنِّي أخَافُ اللَّهَ .
- وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأخْفَاهَا حَتَّى لا تَعْلَم شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ .
- وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيَاً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ .

« متفق عليه » .

الأبحاث العربية :

يظلهم : المراد بالظل هنا هو الظل الحقيقي حيث يكون هؤلاء السعداء تحت ظِلِ العرش يوم القيامة بقرينةِ قوله ﴿ **يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه** ﴾ فلا يمسُّهم حر الشمس ولا وهجها ، وقيل المراد بالظلّ : الكرامةُ والحماية فهو (كناية) عن الرعاية والحماية والأول أرجح .

في ظله : إضافة الظل إلى الله إضافة تشريف وهو على حذف مضاف أي في ظل عرشه وإنما أضافه إليه تكريماً وتشريفاً كما يقال للمسجد (بيتُ الله) .

إمام عادِل : المراد بالإمام الحاكم أو السلطان ويشمل أيضاً القاضي وكل من له ولاية على غيره والعادل الذي يحكم بالعدل بين الناس فلا يميل مع هوى ولا يرتشي بمال .

معلق في المساجد : أي محبٌّ لها حباً شديداً فهو ينتظر الصلاة بعد الصلاة ويصليها بالجماعة ولا يؤخرها عن وقتها كما قال تعالى في هذا الصنف ﴿ **والذين هم على صلاتهم يحافظون** ﴾ .

تحابّا في الله : أي لأجله لا لغرضٍ دنيويٍ ، وتحابّا أصله تحاببا أدغم الأول في الثاني والتفاعل عبارة عن معنى يقتضي المشاركة أي أن كلًا منهما أحب صاحبه في الله .

اجتمعا عليه : الضمير يرجع إلى الحب في الله والمعنى اجتمعا على ذلك الحبِّ وتفرقا عليه فهو إشارة إلى أن الحب تمكن من قلب الرجلين تمام التمكن من أجل الله تعالى لا لغرضٍ دنيوي وفي الحديث « من أحبَّ لله ، وأبغض لله ، ومنه لله فقد استكمل الإيمان » .

ذات منصب : أي امرأة جاهٍ من أصلٍ أو شرفٍ أو سلطانٍ أو مالٍ ، وفي

الحديث الشريف (تُنْكَحُ المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يداك) . ومعنى تَرِبَتْ يداكَ : أن إن لم تفعل هلكتَ .

أخاف الله : الخوف من الله هو الرهبة من عذابه وهو دليل الإيمان قال تعالى : ﴿ وَخَافُونِ إن كُنْتِمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

الشمال واليمين اليدان اللتان بجانبي الإنسان وضرب المثل بها للتوضيح فلو فرضنا أن الشمال رجُلٌ مستيقظ وتصدق الإنسان بيمينه لما شعر ذلك الرجل الذي عن يساره .

ذَكَرَ الله : من الذِكر بكسر الذال فهو باللسان أو من التذكر بالفكر والقلب أي تذكر عظمة الله وجلاله فبكى من خشيته سبحانه فيكون المراد بالذكر الذكر القلبي .

خالياً : أي بعيداً عن الناس ليكون أقرب إلى الإخلاص وأبعد عن الرياء .

ففاضت عيناه : أي سالت منها الدموع كأنها فيض لغزارتها وذلك دليل على الخوف من الله وقوة اليقين به سبحانه وفي الحديث « عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله » .

الأبحاث النحوية :

« سبعة » مبتدأ وخبره جملة يظلهم الله ، وجوز الإبتداء بها مع أنها نكرة لكونها على معنى الإضافة أي سبعة أشخاصٍ من الناس .

« إمام عادل » : إمام خبر لمبتدأ محذوف تقديره أحدهم إمام ، وعادل صفة لإمام « وشاب نشأ » وشاب خبر لمبتدأ محذوف أيضاً تقديره والثاني شاب وجملة (نشأ في عبادة الله) صفة لها . لأن القاعدة « أنَّ الجمل من بعد النكرات صفاتٌ ومن بعد المعارف أحوال » ويكون التقدير وشاب ناشيء

« قلبه معلق » قلبه مبتدأ ثاني وخبره معلق في المساجد ، والمبتدأ الثاني وخبره في محل رفع صفة لرجل « حتى لا تعلَمَ » بالنصب فتكون حتى للغاية وبالرفع فتكون تفريعية نحو : مرض زيد حتى لا يرجونه « خالياً » حال من فاعل ذكر أي ذكر الله حال كونه وحيداً فريداً ليس معه أحد .

ترجمة راوي الحديث :

تقدمت ترجمة الراوي في الحديث الأول فارجع إليه في صفحة (١١) .

الأبحاث البلاغية :

١ ـ قوله (معلَّق في المساجد) فيه كناية لطيفة ، فقد كنَّى عن ملازمته للمسجد ، وتردّده عليه ، ومحافظته على الصلاة بالجماعة ، بتعلق قلبه في المساجد ، وهو (كناية عن صفة) .

٢ ـ قوله (لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) فيه استعارة لطيفة تسمى (الإستعارة المكنية) فقد شبّه اليد اليمنى بإنسان ، واليد اليسرى بإنسان آخر ، وحذف المشبّه به وهو الشخص الأول ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهي اليد على طريق (الإستعارة المكنيّة) .

٣ ـ قوله (دعته امرأة) كناية عن المراودة عن النفس من أجل عمل الفاحشة ، وهي (كناية عن صفة) .

٤ ـ قوله (ففاضت عيناه) مجاز مرسل على حذف مضاف أي فاضت دموع عينيه لأن العين لا تفيض إنّما يفيض الدمع فيها ، وذلك علامة الإيمان . قال الشاعر :

« ذاق طعم الإيمان من ذكر اللّهَ ففاضت عيناه بالعبرات »

الشرح الأدبي :

في هذا الحديث النبوي الشريف ، تقسيم لطيف ، وبيان شافٍ

مجيد ، لأولئك السعداء الأبرار ، الذين نالوا الكرامة الإلهية ، والسعادة الأبدية ، في دار الخلد والنعيم ، بسبب ما قدّموا في الدنيا من صالح الأعمال ، واتصفوا به من جميل الخصال .

فالرسول الكريم ـ عليه أفضل الصلاة والتسليم ـ يحدثنا عن شمول العناية الإلهية والرحمة الربانية ، تحت ظل عرش الله الكريم ، لكل من اتصف بواحدة من تلك الخصال الحميدة ، التي يحبها الله ورسوله ، وقد أوضحها عليه الصلاة والسلام في أجمل عرض ، وأقوى بيان ، ليلهب نفوس المؤمنين ويحرك فيهم روح الجد والإخلاص والعمل الصالح ، ليسيروا على النهج القويم ، ويقتدوا بالأخيار الأطهار من عباد الله الصالحين . فهو يدعو أولاً إلى مراعاة العدل ، ومجانبة الظلم لكل من تولى شأناً من شئون المسلمين ، أو ولي أمراً من أمورهم ، سواء كانت الولاية عامة أم خاصة ، فالعدل شريعة الله ، والله تعالى يمقت الظلم ويكرهه ، أياً كان مصدره ، وصدق الله حيث يقول ﴿ **يا داود إنّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً في الأرْضِ ، فَأحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بالحَقِّ ، ولا تَتَّبِعْ الهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ** ﴾ . وهو يدعو ثانياً الشباب إلى الإقبال على طاعة الله وعبادته ، منذ بدء حياتهم ، ونعومة أظفارهم ، ليكونوا رجال المستقبل ، وليحققوا (الجيل الثاني) الذي ينشده الإسلام ولقد أثنى القرآن على فتية أهل الكهف بقوله : ﴿ **إنَّهُمْ فِتيَةٌ آمنوا برَبِّهِم وَزِدْناهُم هدى** ﴾ فالشباب موطن الرجاء والأمل ، وهم عدة المستقبل .

وفي الخصلة الثالثة : إشادة بفضل ذلك الرجل الصالح ، الذي عمر الإيمان قلبه ، وتعلقت جوارحه وقلبه بذكر الله عن طريقة المحافظة على الصلاة التي هي عماد الدين ، لِتَتشرب القلوب حب الإجتماع والإلفة ، وتتوحد صفوف الأمة عن طريق الإجتماع في بيوت الله ، ولقد أثنى الله عزّ وجل على هذا الصنف من الناس بقوله : ﴿ **في بيوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أنْ تُرْفَعَ ويُذكَرَ فِيها اسْمُه ، يُسبِّحُ لهُ فيها بالغُدُوِّ والآصالِ رجال . .** ﴾ .

وفي الخصلة الرابعة : يدعو الرسول الكريم إلى (الحبِّ في الله) ابتغاءَ وجهه الكريم ، لا لغرض دنيوي ، أو كسبٍ مادِّي ، أو مصلحة دنيئة . . وهل الدين إلا حبٌّ في الله ، واجتماعٌ على مرضاته ، والتقاء على دعوة الحقِّ التي جاء بها رسول الله ﷺ ، ليكون الحب طهراً وصفاءً ، وسمواً ونقاءً ! !

وفي الخصلة الخامسة : إظهار لأسمى ما تصورته البشرية من طهارةٍ وسموٍّ وصفاءٍ ، إنه طهارة الوجدان ، وصفاء الإيمان ، الذي يعصم صاحبه من الإنزلاق في مزالق الرذيلة ، فها هي الفتنة والإغراء تتزيًا بصورة واقعية في صورة (امرأة جميلة) ذاتِ حسبٍ ونسبٍ ، تدعو الرجل إلى نفسها ، وتراوده على عمل الفاحشة بها ، ولكنه تَجنَّبَ كل ذلك خوفاً من الله .

وفي الخصلة السادسة : نرى روعة البيان في أجمل صورة يصورها الرسول عليه الصلاة والسلام . صورة ذلك الرجل المحسن الذي تصدَّق بصدقةٍ خُفْيَةً عن أعين الناس ، ابتغاء مرضاة الله ، فأخفى صدقته حتى عن أقرب ما يتصل به ألا وهي شماله ، حتى لو تصورنا أن يمينه تصدَّقت بشيء لما شعرت يده اليُسرى فيما أنفق في سبيل الله .

وأخيراً يختم عليه الصلاة والسلام حديثه الشريف بفضل البكاء من خشية الله . فلله ما أروع هدي الرسول وما أجمل حكمته ومغزاه ! ! إنَّه الهدي النبويُّ ، والحكمةُ المحمَّديَّة .

* * *

« الحرية الشخصية »

الحديث الرابع :

عَنْ النُّعْمانِ بن بشيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُما عَنِ النبيِّ ﷺ أنَّه قال :

﴿ مَثَلُ القَائِمِ عَلى حُدُوْدِ اللَّهِ ، والوَاقعِ فيها ، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلى سَفِينَةٍ فأصَابَ بَعْضُهُمْ أعْلاهَا وأصَابَ بَعْضُهُم أسْفَلَها ، فَكَانَ الَّذِين في أسفَلِها إذا اسْتَقوا مِن الماء مَرُّوا عَلى مَنْ فَوْقَهم فآذَوْهُم ، فَقالُوا : لَوْ أنَّا خَرَقْنَا في نَصيبنا خَرْقاً ولَمْ نُؤذِ مَنْ فَوْقَنا ، فإنْ تَركُوهُمْ ومَا أرادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً ، وإنْ أخَذُوا عَلى أيْدِيهمْ نجوْا ونَجَوا جَمِيعاً ﴾ .

« رواه البخاري والترمذي »

الأبحاث العربية :

القائم على حدود الله :المراد به المستمسكُ بالدين ، القائم بواجب الدعوة من أمر بالمعروف ، ونهيٍ عن المنكر ، وحدودُ الله تقسم إلى قسمين : حدود الأمر ، وحدود النهي ، فحدود الأمر يجب امتثالها ، وحدود النهي يجب اجتنابها فمن الأول قوله تعالى **﴿ وَتِلكَ حُدُوْدُ الله يُبَيّنُها لِقَوْمٍ يَعْلمُون ﴾** ومن الثاني **﴿ تِلكَ حُدُودُ الله فلا تَقْرَبُوها ﴾** .

الواقع فيها : المراد به المستهتر بأمور الدين ، المرتكب للمنكرات والمعاصي الذي لا يبالي بما فعل من فُحْشٍ وموبقات .

استهَموا : أي اقترعوا فيما بينهم ، والقرعة إنّما تكون لقطع النزاع ورفع الخلاف . وفي الحديث الشريف [لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهَموا] والمراد بالنداء : الأذان ، وكان ﷺ إذا أراد سفراً أسهم بين نسائه . أي ضرب القرعة بينهن فأيتهن خرجت قرعتها أخذها معه .

خرقنا في نصيبنا: أي ثقبنا المكان الذي نحن فيه لنستخرج منه الماء والمراد خرق السفينة .

أخذوا على أيديهم : أي منعوهم مما أرادوه من خرق السفينة ،والتعبيرُ بلفظ (أخذوا على أيديهم) يفيد المنع بالقوة كمن شددنا يديه بالوثاق لمنعه من الحركة والعمل . وهذا كما قال السفهاء من كفار قريش لبعضهم البعض (خذوا على يديه قبل أن تظهر دعوته) أي امنعوه بالقوة والحزم قبل أن ينتشر دينه .

الأبحاث النحوية :

(مثل القائم) : مثل مبتدأ وخبره جملة (كمثل قوم استهموا على سفينة) ، وجملة (استهموا على سفينة) صفة لقوم ، ولفظ (أعلاها) مفعول به لأصاب وهو مضاف إلى الهاء أي أعلى السفينة . (مرُّوا على من فوقهم) مَنْ اسم موصول بمعنى الذي ومحلّه الجر بعلى ، وفوقهم منصوب على الظرفية ، والجار المجرور متعلق بمروا . (فقالوا : لو أنا خرقنا الخ) جملة لو أنا خرقنا مقول القول لأنَّ (قال) تنصب الجمل ولا تنصب المفرد (خرقاً) مفعول مطلق .

الأبحاث البلاغية :

١ ـ قوله [مثل القائم . . كمثل قوم استهموا] فيه تشبيه يسمى (تشبيهاً تمثيلياً) لأن وجه الشبه صورةٌ منتزعة من متعدد . . وهذا النوع من التشبيه له تأثير عظيم على النفس فإنَّه إذا وقع في صدر القول بعث المعنى إلى النفس بوضوح وجلاء مؤيدٍ بالبرهان ليقنع السامع ، وإذا جاء بعد تمام المعاني كان كالبرهان الذي تثبت به الدعوى ، والحجة التي توجب الإذعان مثل قول الشاعر :

« لا ينزل المجد إلا في منازلنا   كالنوم ليس له مأوى سوى المُقَل »

٢ ـ بين لفظ (أعلاها) ولفظ (أسفلها) طباق بين اسمين ، والطباق هو الجمع بين لفظين متقابلين في المعنى كما هو معلوم في (علم البديع) وكذلك يوجد طباق بين قوله (القائم والواقع) .

٣ ـ (وإن أخذوا على أيديهم) في هذا اللفظ (كناية) لطيفة فقد كنَّى عن المنع بالأخذ على الأيدي فهو إذاً كناية عن (صفة) أي فإذا منعوهم عن تنفيذ ما أرادوا الخ .

ترجمة راوي الحديث :

راوي هذا الحديث الشريف هو (النعمان بن بشير بن سعد) الأنصاري الخزرجي يكنَّى (أبا عبد الله) وهو أول مولود في الإسلام من الأنصار ، وُلِدَ بعد الهجرة بأربعة أشهر وله صحبة بالنبي ﷺ هو وأبوه ولذلك يقال رضي الله عنهما ، تولى قضاء الشام ثمَّ استعمله (معاوية) رضي الله عنه على الكوفة ، وكان من الخطباء المشاهير الذين لا يجاريهم أحد في قوة البيان ، وجودة التعبير . وقد قتل رحمه الله بالشام في إحدى القرى التابعة لحمص في ذي الحجة سنة ٦٤ هـ ودفن هناك وكان مقتله في عهد (مروان

بن الحكم) ، روي له عن النبي ﷺ ١١٤ مائة وأربعة عشر حديثاً أخرج بعضها البخاري وبعضها مسلم رحمه الله وأسكنه فسيح جناته .

الشرح الأدبي :

مثل في منتهى الجمال والروعة ، يضربه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه لأوَلئك الذين اخطأوا الطريق ، وَضلوا الجادّة ، وتنكَّبوا عن سبيل الهدى ، ففهموا (الحرية) فهماً خاطئاً ، وساروا في هذه الحياة حسب أهوائهم وشهواتهم . . ومثلٌ آخر لأولئك الذين رأوا المنكر فسكتوا عنه ، وأغمضوا أعينهم عما يدور حولهم من آثام وموبقات ، كأنّ الأمر لا يَعْنيهم ، وظنُّوا في أنفسهم الصلاح والفلاح ! .

إنَّه مثل رائع من روائع الحِكم النبوية ، التي ضربها الرسول الكريم ، معلم الإنسانية ، ومهذب البشرية ، الذي دانت له الفصاحة والبلاغة ، وأُعطي جوامع الكلم ، فكان له منها النصيب الأوفر ، فصلوات ربي وسلامه عليه !

مثل في غاية الروعة يصوّر فيه الرسول الكريم (المجتمع البشري) بما فيه من أخيار وأشرار ، ومتقين وفجَّار ، بركابِ سفينة في بحر خِضَمٍّ متلاطمِ الأمواج ، هذه السفينة تسير وسط البحر ، تشق طريقها بين الأمواج والأعاصير ، وقد انقسم الركاب فيها إلى قسمين : قسم في أعلى السفينة ، يتمتعون بجمال الكون ، وروعة الطبيعةِ ، ونضارة الحياة ، وقد تأمنت لهم كل أسباب الرفاهية والراحة ، من مياه عذبة نقية ، وسُرر وأرائك ، وخدمٍ وولدان يسعون في خدمتهم وقضاء حاجاتهم . . وقسم في أسفل السفينة ، لا يرون مناظر الطبيعة ، ولا يتمتعون بجمالها الخلاَّب ، ولا ينعمون بما ينعم به إخوانهم في الطبقة العليا ، حتى الماء فقد كانوا يجلبونه من الأعلى . . وهنا خطرت لهم خاطرة : وهي أن يثقبوا أسفل السفينة ويستخرجوا من البحر الماء ، حتى لا يتعبوا أنفسهم في حمل الماء ، ولا يزعجوا جيرانهم ، وهنا

بدأوا بما عزموا عليه وقرروا ثقب السفينة ، فاستخرجوا المعاول والفؤوس ، وراحوا يضربون بها السفينة لاستخراج الماء . . وسمع الذين هم في الطبقة العليا أصوات السفينة وهي تخرق ، فهرعوا نحوهم ووقفوا في وجههم يريدون منعهم ، ولكنَّ أولئك الأذكياء « الشّطار » استاءوا منْ تدخل إخوانهم وقالوا لهم : هذا مكاننا نصنع فيه ما نشاء لأننا « أحرار » ، وهل تمنعون الناس من استعمال حرياتهم ؟ فإن تركوهم على إرادتهم وصنيعهم هلك ركاب السفينة جميعاً ، وإن منعوهم وأخذوا على أيديهم نجوا جميعاً !

وهكذا نحن حالنا في هذه الحياة ، نعيش فوق سطح هذا الكوكب الأرضي ، (كركاب السفينة) فينا البر والفاجر ، وفينا الصالح والطالح ، فإن تركنا أهل الشر والفساد يسرحون ويمرحون ، ويفعلون ما يحلو لهم وما يشاؤون ، دون أن نوجِّه لهم النصح ، أو نمنعهم عن اقتراف الموبقات والآثام هلكنا جميعاً ، وإن منعناهم منها نجونا جميعاً ، فكان في ذلك نجاتنا ونجاتهم ، وحياتنا وحياتهم . . فيا له من مثلٍ رائع ، وتوجيه حكيم . نبهنا إليه رسول الهدى والرحمة ونبي العلم والعرفان . يا له من مثل رائع لو أنَّ الناس كانوا يعلمون . !!

* * *

« الجلَيس الصالح ، والجليس السوء »

الحديث الخامس :

عَنْ أبي مُوْسَى الأَشْعَرِيِّ رضي اللَّهُ عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال :

﴿ إنَّما مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وجَلِيسِ السُّوْءِ ، كَحَامِلِ المِسْكِ ونافِخِ الكِيرِ ، فحاملُ المِسْكِ أمَّا أن يُحْذِيَكَ ، وإمَّا أن تَبْتَاعَ مِنْهُ ، وأمَّا أنْ تَجدَ مِنْهُ ريحاً طَيِّبَةً ، ونافِخُ الكِيرِ إمَّا أنْ يُحْرِقَ ثِيابَكَ ، وإمَّا أنْ تَجدَ مِنْهُ ريحاً مُنْتِنَة ﴾ .

« رواه البخاري ومسلم »

الأبحاث العربية :

الجليس الصالح:إنما أداة حصر ،والمَثَلُ بفتحتين : الشأن العجيب ، والأمر الغريب ويستعمل في تقريب البعيد ، وتوضيح الغامض قال تعالى ﴿ **وتلكَ الأمثالُ نضربها للنَّاسِ وما يَعْقِلُها إلا العَالِمون** ﴾ والأمثال لها أثر عظيم في النفوس ولذلك فقد أكثر منها القرآن .

مثلُ الجليسِ : يُقصد بالجليس الصالح هنا الصديق الفاضل المتحلي

بالأخلاق الكريمة . وفي الحديث الشريف [لا تُصاحبْ إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تَقِيٌّ] .

جليس السوء : يقصد به الصديق والصاحب السيء الذي فسدت طباعه وساءت أخلاقه والسَوْء بالفتح مصدر وبالضم اسم مصدر وقال اللغويون يجوز فتح السين وضمها .

كحامل المسك : المراد بحامل المسك بائع المسك وهو الطيب الذي يتطيب به الناس والمقصود منه هنا هو « بائع العطورات » لأنه يقابل (الحداد) نافخ الكير .

ونافخ الكير : الكِيْر : هو حانون الحدَّادِ وأمَّا نافخ الكير فالمراد به الحدَّاد الذي ينفخ النار على الحديد حتى يحمَّر فيستعمله .

تبتاع منه : أي تشتري منه وهو فعل مضارع من باب الإفتعال للمبالغة في طلب البيع . وفي الحديث الشريف [إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا له لا ربَّحَ الله تجارتك] .

ريحاً مُنتنة : أي رائحة كريهة تنفر منها النفس ، يقال أنتن الطعام إذا فسد وانتشرت منه رائحة خبيثة ، وفي الحديث « دَعُوها فإنها مُنْتِنة » وهي قولهم يا للأنصار ويا للمهاجرين . . الخ .

الأبحاث النحوية :

١ ـ إنما : كافة مكفوفة ملغاة لا عمل لها ، وهي تفيد الحصر .

٢ ـ مثل : مبتدأ وخبره جملة (كحامل المسك ونافخ الكير) . .

٣ ـ حامل المسك : حامل مبتدأ والمسك مضاف إليه والخبر هو جملة (إمَّا أن يحذيك . .) الخ .

٤ ـ ريحاً طيبة : ريحاً مفعول به لـ (تجد) ، وطيبة صفة وصفة

المنصوب منصوب ، ومثلها ريحاً منتنة ، وقوله (إمّا) شرطية تفيد معنى التفصيل .

الأبحاث البلاغية :

١ ـ قوله (إنمّا مثل) قصر إضافي يسمى هنا (قصر موصوف على صفة) وعلماء النحو يقولون : إنمّا للحصر مثل (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

٢ ـ قوله (مثلُ الجليس الصالح) فيه تشبيه يسمى (التشبيه التمثيلي) حيث شبّه ببائع الطيب الذي يدخل إليه الإنسان ، فيشتري منه أو يهديه البائع ، أو يشم الرائحة العطرية الزكيَّة .

٣ ـ قوله (كحامل المسك ، ونافخ الكير) فيه لفٌ ونشر مرتب ، وهو من المحسنات البديعية ، فحامل المسك مثل للجليس الصالح ، ونافخ الكير مثل للجليس السوء ، وسمي (لفاً ونشراً مرتباً) لأنه قد عاد عليهما بالترتيب ومثله قوله تعالى : ﴿ **جعل لكم الليل والنهار ، لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله** ﴾ .

الشرح الأدبي :

ما أروعه من معنى وما أجمله من تصوير ! تتجلى فيه البلاغة النبوية وروعة البيان ، وإن من البيان لسحرا ، صورة حية صادقة للجليس . فالجليس الصالح هو الذي ترتاح إليه نفسك ، ويطمئن به فؤادك وتنتعش روحك . . تطرب لحديثه وتنعم بمجالسته ، وتسعد بصحبته ، إنه عدة في الرخاء وزينة في الشدة ، وبلسم الفؤاد وراحة النفس :

صحبة الصالحين بلسم قلبي

إنها للنفوس أعظم راقي

وقد شبهه الرسول ﷺ ببائع الطيب ، الذي ينفحك بعطره ، ويغمرك

بنشره فإما أن يهديك وإما أن تجد عنده ريحاً طيبة ، فأنت معه في ربح دائم ونشوة غامرة .

أما جليس السوء فليس هناك أبلغ من تشبيهه بالحدَّاد ، الذي ينفخ بكيره ، فأنت معه في خسارة دائمة فإن لم يحرقك بناره ، أحرقك بشراره فصحبته همٌّ دائم ، وحزن لازم .

وقد سأل أحدُ الشعراء عن جواب لهذا البيت :

« مالي أرى الشمع يذوي في معادنه : من صحبة النار أم من فرقة العسلِ » ؟

فأجابه أحد الأدباء :

« من لم تجانسه فاحذر أن تجالسه : ما ضرَّ بالشمع إلا صحبة الفتل »

وهكذا يقولون : من جالس جانس لأن النفس تقتبس الخير أو الشر من الجلساء ولهذا أمر الباري تبارك وتعالى بصحبة الصالحين : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وكونوا مع الصادقين** ﴾ .

شِعْر المخضْرَمين وأثر الإسْلام فيه

وللدكتور يحيى الجبوري كتاب قيم عن « **شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه** » حيث يقول :

رأينا أن الإسلام كان حدثاً هز النفوس ، وأثر في نظم القوم ، ومظاهر الحياة ، وقد كان الشعر من تلك المظاهر التي تأثرت بالإسلام ، تأثيراً واضحاً بارزاً ، من حيث الشكلُ والمعنى ، ومن حيث اتجاهاتُ الشعر وموضوعاتُه ، صحته وزيفه ، ضياعه أو إبادته ، كل ذلك من أثر الدين الجديد . ولننظر أولاً كيف وقف الإسلام من الشعر[1] ، حتى يمكن على ضوئه تفسير كثير من مظاهره .

---

(١) ينظر تفصيل ذلك في كتاب الإسلام والشعر ـ يحيى الجبوري .

نستطيع أن نتبين النظرة الدينية للشعر ، من خلال الآيات القرآنية ، وحديث الرسول ، ومواقف الصحابة خلفاء الرسول ، باعتبارهم ممثلي السلطة الدينية والدنيوية بعد الرسول ﷺ .

لقد اتخذ الإسلام من الشعر مواقف تنسجم وطبيعة المرحلة التي شهدتها الدعوة ، والمواقف الإسلامية تلك كانت منبثقة من ظروف الدعوة نفسها . فنجد أن الدين قد ذم الشعر والشعراء ، وهوّن من أقدارهم في الفترة الأولى ، فترة البدء بنشر الدعوة ، حين كان الشعر يهاجم الدين وينتقص منه ، ويرمي المرجمون بنشر الدعوة ، حين كان الشعر يهاجم الدين وينتقص منه ، ويرمي المرجمون الرسول بأنه شاعر ، وقوله الشعر ، فهو سلاح من أسلحة الشرك ، ثم يكون الإسلام مشجعاً وموجهاً للشعر والشعراء ، وذلك حين أتيح للمسلمين أن يتخذوا الشعر سلاحاً من أسلحة الحرب ، يقاتلون به أعدائهم المشركين ، الذين شهروا بوجوههم السلاح ذاته .

أما بعد الفتح ، وقهر قريش العدو الأول ، فيكون الشعر قد أنهى مهمته الحربية وانتهى دوره في الهجاء ، فقريش عدو الأمس قد أصبحت بعضاً من المسلمين ، وقد عاد اجترار الشعر الذي تقاذفت به مكة والمدينة ، خطراً حظره المسلمون ، لأنه يثير الضغائن والأحقاد التي عفى عليها الإسلام .

لذلك كله لا يصح أن يقال أن الدين قد غَضَّ من الشعر ونهى عنه ، كما لا يصح أن يقال أنه شجع الشعر دون توجيه وتهذيب ، بل لا يمكن قطعاً أن ينظر للشعر - من الوجهة الدينية على الأقل - بمعزل عن الأحداث ، ولننظر مصداق ذلك من هذا العرض السريع .

إذا نظرنا في كتاب الله ما جاء من ذكر الشعر والشعراء ، نجد أن القرآن الكرين ينزّهُ الرسولَ عن قول الشعر ، ويرفعه عن أن يكون شاعراً ، وقد ردّ القرآن على مزاعم المشركين ، الذين زعموا أن القرآن شعر ، أو ضرب من

الشعر ، قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وما يَنْبَغي لهُ إن هوَ إلاّ ذكْرٌ وقُرْآنٌ مبين ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ بل قالوا أضغاثُ أحلامٍ بلِ افتراهُ بل هُوَ شاعرٌ ﴾[2] . ﴿ ويقولونَ أئنَّا لَتَاركُوا آلِهَتِنَا لشاعرٍ مجنونٍ ﴾[3] ﴿ أمْ يقولونَ شاعرٌ نَتَربَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ ﴾[4] ﴿ وما هُو بقولِ شاعرٍ قليلاً ما تُؤْمنُونَ ﴾[5] ولعل الحكمة في تنزيه الرسول عن قول الشعر وعن أن يكون شاعراً ، أن الله سبحانه وصف الشعراء بالطيش والسفه وبأنهم قوّالون غير فَعّالِين ﴿ والشُّعراءُ يَتَّبِعُهُمْ الغاوون ألم تَرَ أنَّهُمْ في كلِّ وادٍ يهيمونَ وأنَّهم يقولون ما لا يفعلونَ ﴾[6] . والشعراء معروفون منذ القدم بالغلو والكذب ومجاوزة الحق في مديحهم وهجائهم ، وتلك صفات برّأ اللَّهُ رسله منها .
وقد ذكر السيوطي تعليلاً ـ لا يخلو من وجاهة ـ في سبب تنزيه الرسول عن قول الشعر ، قال : « إن علماء العَروض مجمعون على أنه لا فرق بين صناعة العروض وصناعة الإيقاع ، إلا أن صناعة الإيقاع تقسيم الزمان بالنغم ، وصناعة العروض تقسيم الزمان بالحروف المسموعة ، فلما كان الشعر ذا ميزان يناسب الإيقاع ، والإيقاع ضرب من الملاهي ، لم يصلح ذلك لرسول الله ﷺ ، وقد قال رسول الله ﷺ : (ما أنَا مِن دَدٍ ، ولا دَدُ مِنِّي)[7] .

والقرآن الكريم يستثني ـ في تمام الآية ـ الشعراء الصالحين : ﴿ إلاّ الذينَ آمَنوا وَعملُوا الصالحاتِ وذكروا اللَّهَ كثيراً وانتصروا من بعدِ ما ظُلِموا وسَيَعْلَمُ الذين ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلبٍ ينقلبونَ ﴾[8] فقد حدد القرآن الكريم ، الشعراء الغواة ، والشعراء الصالحين ، الذين كتب لهم النصر بعد الظلم .

(١) يس ٦٩ .
(٢) الأنبياء ٥ .
(٣) الصافات ٣٦ .
(٤) الطور ٣٠ .
(٥) الحاقة ٤١ .
(٦) الشعراء ٢٢٤ ـ ٢٢٦ .
(٧) المزهر ـ السيوطي ج ٢ ص ٢٩١ السعادة و ج ٢ ص ٤٧٠ ط دار إحياء الكتب .
(٨) الشعراء ٢٢٤ ـ ٢٢٧ .

أما رسول الله ﷺ فقد روى عنه أنه ذم الشعر ، وهوّن منه ، ونهى عن رواية بعضه ، وهذه الروايات قليلة معدودة ، ورويت عنه أيضاً أخبار كثيرة ، فيها إعجاب بالشعر وإقبال على الشعراء ، وتشجيعهم واستنشادهم ، فقد روى عنه عليه السلام ، أنه قال : « لأَنْ يَمْتَلِيء جَوْفُ أحدِكم قَيْحاً حتى يَرِيَهُ ، خيرٌ ، من أن يمتليءَ شعراً »(١) كما جاء عنه أنه توعد الشعراء الهجائيين الذين ينهشون إعراض الناس بالباطل ، قوله : « مَنْ قال في الإسلام هِجاءً مقذعاً ، فلسانُه هَدَرٌ »(٢) . وهذا منسجم مع ما جاء في القرآن ، من ذم ضرب من الشعر ، وتنزيه الرسول عن كونه شاعراً ، ولو كان الرسول شاعراً ، لنسب العرب فضيلته وحجته البالغة إلى تأثير الشعر ، لا إلى فضل الرسالة ، ولا يكون إذ ذاك الكلام الذي يلقى إليه وحياً من عند الله ، بل إلهاماً من شيطان الشعر ـ وما أكثر شياطين الشعراء ـ . ولأمر ما كانت الحكمة في أن الرسول ما روى بيت شعر كاملاً صحيح الوزن(٣) ، وإذا وردت بعض الأبيات ، ـ إذا صحت روايتها ـ صحيحة ، فهي إلى النثر أقرب منها إلى الشعر(٤) .

هذا وجه ، أما الوجه الثاني ، فقد جاءت عنه ﷺ أحاديث فيها ثناء على الشعر الجيد ، وتقدير أثره في نفوس العرب ، من ذلك قوله : « لا تَدَعُ العربُ الشعرَ حتى تدع الابلُ الحنين »(٥) . فالرسول ينظر للشعر على أنه ملكة فنية اشتهر بها قومه وأحبوها وأثرت في نفوسهم وأذواقهم ، ثم أن من الشعر كلاماً طيباً رفيعاً يوافق الحق ، وقد روي عنه ﷺ أنه قال : « إنّما الشعرُ

---

(١) العمدة ـ ابن رشيق ج ١ ص ٣١ ـ ٣٢ ودلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص ١٣ ط ٣ دار المنار .

(٢) العمدة ج ٢ ص ١٧٠ .

(٣) الأغاني ج ١٥ ص ١٤٢ . ط ساسي وأنظر أيضاً أمثلة من ذلك في السيرة ق ٢ ص ٤٩٤ والعمدة ج ١ ص ٣٢ .

(٤) العقد الفريد ـ ابن عبد ربه ج ٥ ص ٨٢ و ج ٦ ص ١١٥ ـ ١١٦ ط العريان .

(٥) العمدة ج ١ ص ٣٠ . وحول مكانة الشعر في نفوس العرب وحياتهم يراجع قول أبي هلال

(٦) العسكري في الصناعتين ص ١٠٤ وما نقله الجاحظ في كتاب الحيوان ج ١ ص ٣٦ ط مصر .

كلامٌ مؤلَّفٌ ، فما وافقَ الحقَ منه ، فهو حَسَنٌ ، وما لم يوافق الحق منه ، فلا خَيْرَ فيه » . وقال : « إنما الشعرُ كلامٌ ، فمِن الكلام خبيثٌ وطَيِّبٌ »(١) .

فالأصل في الشعر والفضل فيه أن يوافق الحق ، وقد كان الرسول حريصاً على أن يتجه الشعر نحو تمثل المفاهيم الإسلامية ، ونشر المثل الجديدة ، التي تنأى عن ضلالات الجاهلية وعصبياتها ، وكان الرسول يوجه الشعراء هذه الوجهة ، ويدفعها إليها دفعاً ، ويحذرهم من اتباع الهوى القديم .

أما أصحاب رسول الله وخلفاؤه ، فقد كانت مواقفهم من الشعر والشعراء مستمدة من مواقف الرسول ومصلحة المسلمين ، وما كان أصحاب رسول الله ﷺ منصرفين ولا معرضين عن الشعر ، يروي أن الحسن البصري سئل يوماً « أكان أصحابُ رسول الله ﷺ يمزحون ؟ قال : نعم ويتقارضون من القريض وهو الشعر »(٢) . فما كان أصحاب الرسول متزمتين ، ولا متحرجين مما يتعاطاه الناس من بليغ القول ، وطيب الشعر ، ولم يكن الإسلام ليقطع بينهم وبين آداب الجالهية وأشعارها ، ما دامت في حدود ما أباحه الإسلام ، وضمن مكارم الأخلاق . قال أبو سلمة : « لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ مُتَحزِّقِينَ وَلا مُتَمَاوتين ، كانوا يتناشدون الأشعار ، ويذكرون أمر جاهليتهم ، فإذا أريد أحدهم على شيء من أمر دينه ، دارت حماليق عينيه كأنه مجنون »(٣) .

بل وكانوا يتناشدون الأشعار على مسمع ومرأى من رسول الله ﷺ ، حكى جابر بن سمرة قال : « جالست رسول الله ﷺ أكثر من مائة مرة ، فكان أصحابه يتناشدون الأشعار في المسجد ، وأشياء من أرم الجاهلية ، فربما

---

(١) العمدة ج ١ ص ٢٧ وينظر رأي الرسول في الشعر أيضاً في دلائل الإعجاز ـ الجرجاني ص ١٣ - ٢٠ .
(٢) الفائق في غريب الحديث والأثر ج ٢ ص ٣٣٩ .
(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٢٧٥ .

تبسم رسول الله ﷺ »(1) . وَلِمَ لا ألم يكن رسول الله يسمع الشعر ، ويعجبه منه ما كان دعوة إلى مكرمة وتغنياً بفضيلة ؟ ألم يعجب بقول عنترة :

ولقد أبيتُ على الطَّوىٰ وأظَلُّهُ حتى أنالَ به كريمَ المأكَلِ

حتى أنه عليه السلام قال : « ما وُصِفَ لي أعرابيٌ قَطُّ فأحببت أن أراه ، إلا عنترة »(2) . وقد اقتدى به خلفاؤه الراشدون ، واهتدوا بهديه ، فكانت نظرتهم للشعر نظرة رسول الله ﷺ(3) .

جاء الإسلام ثورة على عهد جاهلي ، فغير كثيراً من نظمه ومثله ، وأقام مقامها مثلاً ونظماً تختلف عنها اختلافاً كبيراً . وكان الشعر قبل الإسلام يستمد عواطفه وقيمه من تلك المثل والنظم ، وقد أبطل الإسلام دواعي ونزعات الجاهلية ، فصار على الشعر أن يستمد معانيه وأغراضه من طبيعة الظرف الجديد . فوفق حيناً وخاب في أكثر الأحايين . وقد كان لتلك الخيبة أثرها في خمول الشعر وضعفه ، إذا ما قس بشعر العصر الجاهلي ، وعلنيا هنا أن نستعرض ما يذكر من أسباب وعوامل أدت إلى ضعف الشعر :

١ ـ الشعر والفتوح :

لقد كان قول عمر بن الخطاب ، وتعقيب ابن سلام ، عماد كل من نظر في ضعف الشعر وحاول تعليله(4) . وقول عمر في ذلك مشهور : « كان الشعرُ علمَ قوم لم يكن لهم علم أصحُ منه » . ويقول ابن سلام : « فجاء

---

(1) الطبقات الكبير ـ ابن سعد ج ١ ق ٢ ص ٩٦ ط ليدن سنة ١٣٢٢ هـ .
(2) الأغاني ج ٨ ص ٢٤٣ ط الدار .
(3) وردت أخبار كثيرة في إقبال الصحابة على الشعر وحفظه وإنشاده والحكم على جيده وبخاصة أبو بكر وعمر . ينظر بعض ذلك في أدب الكتاب ـ الصولي ص ١٩٠ ط الأثري والبيان والتبيين ج ١ ص ٢٤١ ط هارون والأغاني ج ١٠ ص ٢٨٨ .
(4) ينظر في ذلك ما كتبه كل من الأساتذة ، الدكتور الحاجري ـ تاريخ النقد والمذاهب الأدبية ص ٤٨ . والبيهقي ـ تاريخ الشعر العربي ص ١١٤ والبصير ـ عصر القرآن ص ٦٥ . والكفراوي ـ الشعر العربي بين الجمود والتطور ص ٤٠ وغيرهم .

الإسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته »[١] .

٢ - **القرآن وانشغال الناس به :**

ويقول ابن خلدون ، ذاكراً سبب ضعف الشعر ، وانصراف الشعراء عنه : « ثم انصرف العرب عن ذلك [أي الشعر] أول الإسلام بما شغلهم من أمور الدين والنبوة والوحي ، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه ، فأخرِسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً ، ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره وسمعه النبي ﷺ وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ إلى دينهم منه »[٢] .

٣ - **إنصراف الشعراء عن قول الشعر :**

والفكرة الشائعة من عدم تشجيع الدين للشعر ، دفع الشعراء إلى الإنزواء والتحرج من النظم ، وبخاصة أولئك الذين ملأ الإيمان قلوبهم ، فهم يخشون أن يكونوا من الشعراء الذين عناهم القرآن في قوله : ﴿ **والشُّعراءُ يَتّبِعُهم الغاوون ألم ترَ أنَّهم في كل وادٍ يهيمون وأنَّهم يقولون ما لا يَفْعَلونَ** ﴾[٣] . ومن ذلك ما يلاحظ أن شاعراً مثل لبيد يترك الشعر ويلوذ بالصمت ، ويلاحظ كذلك أن شعر حسان قد أصابه اللين ، « لأنه دخل في باب الخير وترك طريق الفحول من هجاء ومديح وتشبيب وفخر »[٤] .

٤ - **إبطال الدوافع الجاهلية :**

ثم إن الإسلام قد حرم أكثر الأعمال التي يجود فيها الشعر ، وتنشط لأجلها القرائح ، كشرب الخمر ، ومغازلة المرأة ، والفخر الكاذب ،

---

(١) طبقات الشعراء - ابن سلام ص ٢٢ .
(٢) المقدمة ص ٥٨١ .
(٣) الشعراء ٢٢٤ - ٢٢٦ .
(٤) ينظر في ذلك رأي الأصمعي في الموشح - للمرزباني ص ٦٥ ط السلفية .

والهجاء ، المقذع[1] . ثم أن التشجيع الذي كان يلقاه الشعراء من الملوك والأمراء ، قد حلَّ محله حزم عمر بن الخطاب وزجره ، عن المديح الكاذب والهجاء المقذع ، ومما يلاحظ أيضاً ، أن الرسول الكريم لم يصطنع الشعراء لنفسه ، بل وجههم لبث الدعوة وتثبيت قواعد الدين . « والناحية الروحية والمعنوية من الإسلام لم تزل إذ ذاك في مستهلها ولم يتكن قد نفذت بعد إلى قلوب المسلمين في شكل قوي ملهم يفجر ينابيع الفن الرفيع »[2] .

هذه أهم الأسباب التي تقدم في ضعف الشعر ، ولا شك أن بعض هذه الأسباب صحيح ، فقد أصاب عصر المخضرمين شيء من الضعف والهزال ، ولأنَ شعرُ الشعراء ، وأن الدواعي القديمة قد انقرضت أو كادت ، إلا أن الذي يلاحظ مع كل ذلك ، أن الإسلام لم يقف ـ كما يبدو لأول وهلة ـ من الشعر موقف العائق المضطهد ، (ولو أنه عاق ضروباً من الشعر لا تتفق ومبادىء الإسلام) فالدين قد شجع الشعر ، واصطنعه سلاحاً من أسلحته ، كانت كفيلة أن تجعله ينبع ويزدهر ، وأول تلك المجالات النقائض بين المسلمين والمشركين ، ثم تمثيل الروح الديني الجديد حيث كان الإسلام يحث إليه . وعلى كل حال فإن ما يلاحظ على الشعر من فتور نسبة إلى شعر العصر الجاهلي كان نتيجة طبيعية للصراع الشديد بين مثل الإسلام ومثل الجاهلية .

وكان للأحداث الكبرى التي شهدها العصر ، أثر فيما آل إليه الشعر من الطمس والضياع ، والنحل والتزيد ، فالفترة مليئة بالأحداث الهامة الكبرى ، وفي غمرة الأحداث هذه ، يتعرض الشعر وكل الظواهر الأدبية ، إلى الطمس والضياع . وإذا استعرضنا الأحداث التي تتابعت سريعاً ، نجد أن الإسلام قد لقي عداءً شديداً ونضالاً عنيفاً من مشركي قريش ، ومن والى

---

(١) تاريخ النقد والمذاهب الأدبية ـ الدكتور الحاجري ص ٥٠ .

(٢) دراسات في الأدب الإسلامي ـ الأستاذ خلف الله ص ٤٧ وجاءت كلمة (الرفيق) بدلاً عن (الرفيع) وهي خطأ مطبعي بلا شك .

قريشاً من الثقفيين والأعراب واليهود ، ولم يكن العداء هيناً يسيراً ، فقد قدم الفريقان لأجله من الضحايا العدد الكبير ، وخلف الضغائن والأحقاد ، واستمر لأجله النزاع طويلاً نيف على العشر سنين ، وقد كاد الخطر يحدق بالإسلام والمسلمين ، حتى قيض الله لدينه أن ينتصر على معقل الشرك وأهله في الفتح ، ثم في حنين والطائف ، ولم يكد يطمئن المسلمون إلى درء الخطر والقضاء عليه ، حتى أصيبوا بوفاة رسول الله ﷺ ، وجوبهوا بتحدٍ جديد وخطر رهيب من قبل القبائل التي أعلنت ردتها وتمردها على سلطان المسلمين ، المتمثل في خلافة أبي بكر ، وكان أن أعلن أبو بكر الحرب ، وجابه المرتدين بحزم وشدة ، وكادت معركة اليمامة أن تهدد المسلمين بفناء أكثر الحفاظ ، وما إن قمعت حركة الردة ، حتى توجه المسلمون نحو الفتوح ، وقبل أن يكتب لهم الطمأنينة على أمر دينهم ، والإستقرار في دور الهجرة ، حتى اشرأب عنق الفتنة وتطاول شرها واستفحل ، فتخطفت ثلاثة من أمراء المسلمين ، هم عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، رضوان الله عليهم جميعاً .

ومن الطبيعي أن يتأثر الشعر بهذه الأحداث الجسام ، فيضيع منه الكثير ، ولعل ابن سلام كان ينظر إلى هذه الأحداث ، عندما قال معقباً على قول لعمر بن الخطاب : « فجاء الإسلام فتشاغلت عنه [أي الشعر] العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك ، بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عليهم منه كثير »(١) . نعم « فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عليهم منه كثير » . وضياع الشعر عامة ـ الجاهلي منه والإسلامي ـ أمر يؤكده النقاد القدامى ،

(١) طبقات الشعراء ص ٢٢

فإبن سلام يذكر في موطن آخر من كتابه[1] ، قلة ما بقي لطرفة وعبيد بأيدي الرواة والمصححين . ويقول أبو عمرو ابن العلاء : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقلهُ ولو جاءكم وافراً لجاءكم علمٌ وشعرٌ كثير »[2]

وإذا عرفنا أن الشعر الذي قاله شعراء مكة ، وغير شعراء مكة من خصوم الإسلام ، كان يهاجم الرسول وأصحابه ، والدين الإسلامي ، ثم يشاء الله أن يكون النصر لدينه ولرسوله ، ويدخل الخصوم طوعاً أو كرهاً في رحاب الإسلام ، إذا عرفنا ذلك ، أدركنا أن لا بد أن يعمل الناس على تجنب ما قيل من الشعر الذي يمثل عهد الحرب والدماء والصراع بين الكفر والإيمان . ثم أن ولاة المسلمين قد نَهوْا عن رواية الشعر الذي ترادّ به أهل مكة والمدينة . فعمر بن الخطاب كان حازماً في منع ما قيل ، دفعاً للتضاغن والأحقاد ، وبث القبيح . وإذا تيسر للأنصار فدونوه وجددوه حمية وعصبية[3] ، فما كان لقريش أن تفعل ذلك وقد تغير بها الزمان ، وتبدل وجه الدنيا ، فشعرها كان يحارب الله ورسوله ، ثم قد ثابت فآمنت بالله ورسوله ، فالشعر الذي كان مفخرة عصبيتها بالأمس ، أصبح اليوم سبة وعاراً تتوارى منه، وتعمل على دفعه والتخلص منه . ثم إن المسلمين لا يرضيهم حفظ شعر فيه تعريض برسول الله وأصحابه ، فكان طبيعياً أن يعلموا على طمسه وإبادته ، أضف إلى ذلك أن الرسول ﷺ ، كان قد نهى عن رواية أشعار بعينها[4]

---

(١) طبقات الشعراء ص ٢٣ .

(٢) الخصائص - ابن جني ج ١ ص ٣٨٦ ط الدار وطبقات الشعراء ص ٢٣

(٣) جاء في الأغاني : أن عمر بن الخطاب قال بعد أن حدث ما حدث بين حسان بن ثابت وبين غريميه عبدالله بن الزبعري وضرار بن الخطاب : أني كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئاً دفعاً للتضاغن عنكم وبث القبيح فيما بينكم ، فأما إذا أبوا فاكتبوه واحتفظوا به » . . قال الراوي « فأدركته والله وأن الأنصار لتجدده عندها إذا خافت بلاه » الأغاني ج ٤ ص ١٤١ ط الدار .

(٤) مثل شعر أمية ابن الصلت في هجاء المسلمين وبكاء قتلى بدر من المشركين وعلينا أن نحذر هنا من الغلو في تقدير ما منع الرسول ، فقصيدة أمية هذه مدونة في السيرة ويبدو أن الرواة دونوها فيما بعد حيث زالت ظروف منعها ينظر في السيرة ق ٢ ص ٣٠ - ٣٢ .

وحتى الشعر الذي وصل إلى الرواة في العصور الأولى ، وفيه تعريض برسول الله ﷺ وأصحابه ، فقد تحرجوا من روايته وأسقطوه من مدوناتهم ، وكثيراً ما نجد في السيرة تعقيبات لابن هشام ، يذكر فيها أنه أسقط أبياتاً من القصائف والمقطعات ، نال الشعراء فيها من رسول الله وأصحابه ، أو أن الشاعر قد أقذع فيها ، ولذلك فليس من الغريب أن نجد شعر قريش ، أو شعر مكة ، خلوا من ذكر الدين الإسلامي ، ومن ذكر رسول الله ﷺ . ـ إلا في القليل النادر ـ وقد يلتبس لأجل ذلك هذا الشعر بشعر الأيام ـ أيام العرب في جاهليتها وإسلامها ـ لولا ما في شعر الفترة من ذكر للمواقع والرجال .

وإذا كان كثير من الشعر المتعلق بأحداث هذه الفترة قد ضاع ، نتيجة الصراع بين مكة والمدينة ، ولحركة الفتوح والتوسع فللأسباب نفسها ، مضافاً إليها العصبية ـ التي بقيت قوية مستمرة في حياة المسلمين ـ كان احتمال الشك والتزوير في شعر الفترة . فإن ما بقي من هذا الشعر لا يصح أن يؤخذ على أنه صحيح لا ريب فيه ، كما أنه لا يصح أن يرفض على أنه باطل لا نفع به ولا خير فيه ، وإنما يؤخذ هذا الشعر بالتنقية والتنقيح والتمحيص ، فمنه الصحيح الذي لا غبار عليه ، وقد وثقته الرواة وصححه الناقلون ، ومنه الفاسد المصنوع ، ويتضح زيفه بالفحص والتمحيص ، وإن استجلاء الشعر الصحيح من الشعر الفاسد ، مهمة غير يسيرة ، وذلك أن كتب السيرة على العموم ، أقرب إلى القصص منها إلى التاريخ ، وطبيعة القصص ، تحتمل التزيد ، بل يجملها المثل المصنوع والشاهد الملفق ، وقد فطن لذلك الرواة العلماء ، فنبهوا إلى ما فيها من شعر مصنوع منحول . وفي كتاب السيرة لابن اسحق ـ وهو من أهم وأقدم الكتب التي اعتنت بأحداث هذه الفترة ـ كثير من مثل هذا الشعر ، فعمل ابن هشام على استدراكه على ابن اسحق ، وأسقط كثيراً منه ، وبين زائفه ، وذكر نقد العلماء له . وابن اسحق نفسه كان قد نبه إلى ما في كتابه من منحول الشعر ، فأعتذر بأنه لا علم له بالشعر ، يحمل منه الجيد والرديء ، قال : « لا علم

لي بالشعر أوتي به فأحمله »[1] . ولم يرض ابن سلام بذلك عذراً ، فقال : « ولم يكن له ذلك عذراً ، فكتب في السيرة أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعاراً كثيرة ، وليس بشعر ، إنما هو كلام مؤلف معقود بقوافٍ ، أفلا يرجع إلى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ؟ ومن أدّاه منذ آلاف من السنين ؟ والله تبارك وتعالى يقول : ﴿ فَقُطِعَ دابِرُ القومِ الذينَ ظَلَموا ﴾ أي لا بقية لهم[2] .

ونقد ابن النديم ابن اسحق أيضاً فقال : « ويقال : كان يُعمل له الأشعار ويُؤتي بها ، ويسأل أن يدخلها في كتابه السيرة فيفعل ، فضمن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر »[4] . وقد عمل ابن هشام على تعقب ابن اسحق ، فاختصر بعض ما أورده ابن اسحق ، ونقد بعضه الآخر ، ونبه عليه ، وذكر رواياتٍ أخرى ، فاتَ ابن اسحق ذكرها . ومع أن ابن هشام كان يسقط ما لا يصح عنده من الشعر ، فقد كان يثبت أشعاراً منحولة مما اثبت ابن اسحق دون أن يخرم منها شيئاً ، ثم ينبه عليها بأن يقول : وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لفلان ، أو أنها لم تصح . . وهكذا .

وإذا كان ابن سلام قد فتح للنقاد طريقاً يؤدي ـ إذ أُحسِنَ الفهمُ والقصد ـ إلى تصحيح الخطأ ، ورد المنحول ، فإنه كذلك يذكر أن : « ما اتفقوا [أي العلماء] عليه [أي الشعر] فليس لأحد أن يخرج منه »[2] .

ثم إن من الشعر ما تُرجحُ صحَتَهُ الأسانيد ، وأكثر الشعراء المخضرمين حظاً من هذا الضرب في الروايات المسندة ، هو حسان بن ثابت ، ومرد ذلك إلى صلة حسان برسول الله ﷺ ، وشعره في الأحداث الإسلامية .

---

(١) طبقات الشعراء ص ٩ .

(٢) طبقات الشعراء ص ٩ .

(٣) الفهرست ـ ابن النديم ص ١٣٦ ط المكتبة التجارية بمصر .

(٤) طبقات الشعراء ص ٦ .

من هذا يتضح أن شعر الفترة ، قد تعرض للضياع والشك ، وذلك من طبيعة الفترة والأحداث التي شهدتها . والمنهج الصالح القويم ، يقوم على أخذ ملاحظات النقاد القدامى باهتمام بالغ ، إذ لا يمكن أن يركن إلى شعر نبه على بطلانه الثقات من الأقدمين ، وعلى الباحث ـ إذا توخى الدقة والإطمئنان ـ أن يعرض الشعر على الحدث التاريخي ، فإذا استجاب له قبله وإلا رفضه ، وإن يقارن شعر الشاعر بما ثبت وصح من شعره ، فإذا وافقه كان منه وإلا صد عنه .

ولا بد من الحذر ، فكما يطلب الحذر من الفاسد المصنوع ، عليه أن يحذر من الغلو والإسراف في تقدير المنحول المصنوع ، ومن اتباع الهوى الذي تحببه لذة التشكيك .

وما دامت دراستنا تتناول شعر المخضرمين ، فعلينا أن نقف على معنى الخضرمة ، وحد المخضرم ، وكيف ذهب بهما الإستعمال .

لقد وردت مادة (خضرم) (خ . ض . ر . م .) في كتب العربية تحمل معاني عدة ، فمن ذلك :

الكثرة والسعة :

وردت الكلمة في معنى الكثرة والسعة ، جاء في اللسان (بِئْرٌ خِضْرِم كثيرة الماء ، وماء مُخَضْرم وخُضارِم كثير)[1] وجاء في القاموس : (الخضرم كزبرج ، البئر الكثيرة الماء ، والبحر الغطمطم ، والكثير من كل شيء)[2] .

وقالوا : كل شيء واسع خضرم . والخِضْرِم : الجواد الكثير العطية[3] .

(١) لسان العرب ـ جمال الدين ابن منظور مادة خضرم ج ١٥ ص ٧٤ وما بعدها .
(٢) القاموس المحيط ـ مجد الدين الفيروز أباذي ط ٢ ج ٤ ص ١٠٨ .
(٣) اللسان نفس المادة .

٢ ـ القطع :

وقد وردت في معنى القطع والوسم ، يقال : (ناقة مُخَضْرَمَة ، قُطِعَ طرفُ أذُنِهَا ، والخضرمة قطع إحدى الأذنين ، وهي سِمَةٌ الجاهلية)[١] .
وقال الأصمعي : (أسلم قوم على إبل فقطعوا آذانَها ، فسُمِّي كل من أدرك الإسلام والجاهلية مخضرما)[٢] .

٣ ـ الهجين :

وجاءت الكلمة بمعنى الهجين ، والمختلط النسب ، والذي لا تعرف حقيقةُ أصله ، قالوا : « رجل مخضرم : أبوه أبيضُ وهو أسودُ . . وناقص الحسب . . ودعي . . ومختلط النسب . . ولا يُعرف أبواه . . والذي ولدته السَّرارِي »[٣] .

٤ ـ المدرك لعصرين ـ الشاعر :

وقد قصد بالكلمة من أدرك عهدين ، فقالوا : « رجل مخضرم إذا كان نصف عمره في الجاهلية ونصفه في الإسلام ، وشاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام ، مثل لبيد وغيره ممن أدركهما »[٤] . وهذا المعنى هو الذي نريد هنا .

وإذا حاولنا أن نربط بين المعاني السابقة المتصلة بالسعة والقطع والهجنة والخلط ، وبين الشاعر الذي شهد عصرين مختلفين ، هما عصر

---

(١) اللسان مادة خضرم .
(٢) المعارف ـ ابن قتيبة ص ٢٤٩ ط ١ الإسلامية بمصر ١٣٥٣ هـ ١٩٣٤ م .
(٣) اللسان والقاموس المحيط وأساس البلاغة في نفس مادة خضرم وقد ورد في الكلمة (مخضرم) على صيغة اسم الفاعل أيضاً . كما وردت بحاء غير معجمة (محضرم) وهي من الحضرمة أي الخلط ، وهذا الإستعمال قليل . وللكلمة معان أخرى بعيدة عن المعنى الذي نريد كالزبد المتفرق من البرد ، واللحم الفاسد المتغير لونه . ينظر في اللسان والقاموس المحيط وتاج العروس ج ٨ ص ٢٨٠ .
(٤) لسان العرب مادة خضرم .

الجاهلية وعصر الإسلام ، نجد أن الصلة بين الماء المتناهي في الكثرة والسعة ، وبين المعنى الذي نريد ، هو أن الرجل قد استوفي الأمرين ، أمر الجاهلية وأمر الإسلام ، فكان واسعَ العمر ، كثيرَ المشاهد ، فالسعة هي الصلة الجامعة بين المعنيين . وأما القطع : فصلته واضحة ، فالمخضرم الذي أدرك خضرمة الجاهلية وخضرمة الإسلام ، قريب الصلة بالشاعر الذي شهد عصرين ، فكأنه قطع عن الكفر إلى الإسلام(١) .

ومعنى الهُجْنَةِ وارد أيضاً . فكأن المخضرم قد اتخذ الإسلام له أصلاً ومفخرة ، ولا يمكن أن يُفَاخِرَ بدينٍ الجاهلية ، كما لا يفتخر الهجين بأصله المغموز وكذلك يقال في معنى الخلط ، فقد خلط المخضرمون عهدين مختلفين .

وبقي في النفس سؤال : من هو الشاعر المخضرم ؟ هل هو كل من شهد عهدين مختلفين وحسب ، أم هناك تحديد لذلك ؟

يقول ابن قتيبة : « وإنما يكون مخضرما إذا أدرك الإسلام وهو كبير ، فلم يسلم إلا بعد رسول الله ﷺ »(٢) . ولم يرد هذا التحديد عند غيره ، وهو في هذا يسقط من مفهوم المخضرمين الشعراء الذين أسلموا في عهد رسول الله ﷺ ، وهم كثرة المخضرسين ، وابن قتيبه يعتمد في هذا ـ على ما يبدو ـ على اصطلاح أهل الحديث في تعريف المخضرم ، فقد قال السيوطي في شرح التقريب : « المخضرم في اصطلاح أهل الحديث هو الذي أدرك الجاهلية وزمن النبي ﷺ ولم يره »(٣) ويفرق السيوطي بين اصطلاح أهل الحديث ، واصطلاح أهل اللغة ، في تعريف المخضرم ، فيذكر أن المخضرم عند اللغويين ، هو الذي عاش نصف عمره في الجاهلية ، ونصفه في الإسلام ، سواء أدرك الصحبة أم لا(٤) .

---

(١) المزهر ـ السيوطي ج ١ ص ١٧٣ ط السعادة .
(٢) المعارف ص ٢٤٩ .
(٣) نقلاً عن خزانة الأدب ـ البغدادي ج ١ ص ٢٤٥ .
(٤) خزانة الأدب ج ١ ص ٢٤٥ .

ويشترط بعض المُحْدِثين[1] في الشاعر المخضرم ، أن يتأثر شعره بالإسلام ، أما من لم يتأثر كالخنساء ولبيد وغيرهما ، فعنده أنهم غيرُ مخضرمين ، وهذا لا يصح ، لأن التسمية مطلقة دون تحديد . ولعله ـ ومن تابعه في ذلك ـ لاحظوا أن ابن سلام قد درج أسماء بعض المخضرمين في مراتب الشعراء الجاهلين ، لأنه لم يجد الأثر البارز الذي يميزهم عن شعراء الجاهلية ، وابن سلام يعد المخضرمين في الجاهلين تارة ، وفي الإسلاميين تارة أخرى قال : « ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية ، والإسلام ، والمخضرمين ، فنزلناهم منازلهم »[2] .

وقد تُوسِعَ في اطلاق تسمية المخضرمين ، على كل من أدرك دولتين وشهد عصرين ، كرؤبة بن العجاج ، وحماد عجرد ، فإنهما أدركا دولة بني أمية ، ودولة بني العباس ، فهما من المخضرمين[3] ويترجم أبو الفرج الأصفهاني لعدد من الشعراء ، شهدوا الدولتين ، فينص على تسميتهم بالمخضرمين ، من ذلك قوله في داود بن سلم مولى بني تَيْمِ بنِ مُرَّةَ : « وهو مخضرم من شعراء الدولتين الأموية والعباسية »[4] وقد ذكر ذلك في أكثر من موضع ، وأكثر من ترجمة . وهؤلاء هم مخضرموا الدولتين .

بعد هذا التمهيد الذي تعرض لأمور كان من الواجب أن تعرض ، نستطيع أن نمضي في الدراسة ، ولعل الموضوعات التي طرقت تجعلنا على بينة من أمر هذه الفترة وشعرها .

ومسك الختام « الخاتمة » القيمة للدكتور يحي الجبوري صاحب كتاب « شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه » وهو كتاب مفيد جامع . . . يقول الباحث في خاتمة دراسته النفيسة .

---

(١) محمود مصطفى في كتابه تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ١٥١ .
(٢) طبقات الشعراء ـ ابن سلام ص ٢١ .
(٣) الخزانة ج ١ ص ٢٤٥ .
(٤) الأغاني ـ أبو الفرج الأصفهاني ج ٦ ص ١٠ ط الدار .

وبعد :

فقد تناولت هذه الدراسة فترة المخضرمين التي يستغرق زمانها قرنا من الزمان ، ممتداً من الجاهلية حتى نهاية عهد الراشدين وأول الحكم الأموي ، وقد كان لهذه الفترة مكانة فضلى ومنزلة مقدسة في نفوس العرب والمسلمين ، ذلك لأنها فترة الرسالة والوحي ، فترة رسول الله ﷺ وصحابته أئمة المسلمين وقادتهم . وهي بعد ذلك نقلة كبرى في حياة العرب من عهد راكد محافظ ضال ، إلى عهد دين وهدى وإيمان . وقد نالت هذه الفترة عناية الدارسين ورعايتهم ، سواء كانوا من أبناء هذه الأمة أم من أبناء الأمم الأخرى فقامت الدراسات الكثيرة الواسعة في شتى مجالات البحث ، إلا أن الناحية الأدبية فيها لم تستوف حقها من الدرس والبحث والتقصي ، وذلك للظروف التي أحاطت بالشعر في هذه الفترة ، تلك الظروف التي جعلت الباحثين يتهيبون الأقدام على درس الشعر فيها .

وقد رأيت حين أقدمت على دراسة هذا العصر ، أن ظواهر الشعر وظروفه واتجاهات الشعراء ومذاهبهم ، كل ذلك مرتبط بالأحداث الهامة فيه ، والحدث الهائل الكبير الذي غير معالم الحياة وطرق التفكير هو الإسلام ، فكان لا بد أن ينظر للشعر من ناحية علاقته بالدين ، سواء في تمثيل المبادىء الإسلامية ، والدعوة لها ، والسعي في سبيلها ، أم في معارضة هذه المبادىء ومعاداتها . وعلى ذلك قامت هذه الدراسة في شعر المخضرمين من ناحية تأثره بالإسلام .

ولم يكن عصر المخضرمين منبتاً معزولاً عن العصر الجاهلي ، بل إن خصائص الجاهلية ومثلها وطرائق الفن فيها بقيت مستمرة في هذا العصر ، فكان لا بد أن يقدم بين يدي الدراسة تمهيد يبين طبيعة العصر ، ويوضح ظروف الشعر ، وما أحاط بكل ذلك من عوامل ومظاهر أثرت في حياة العرب وشعرهم ، فكان الكلام لذلك عن الجاهلية والإسلام ومثلهما ، واصطراع تلك المثل وأثرها في سلوك المسلمين وفي شعرهم . والمهم هنا أن نشير

إلى أن الشعر في هذه الفترة لقي أن مبادىء الإسلام وآدابه تحد من نشاطه ، تعيق بعض مناحيه ، فيجد الشعراء الحرج ، والحرج الكبير ، في طرق بعض الفنون ، كالتشبيب بالمرأة ، وذكر الخمرة ، والهجاء المقذع ، وما شابه ذلك من موضوعات تتنافى وآداب الإسلام ، وتتعارض ومبادىء الدين الجديد . أما ما دون ذلك فلم يكن الإسلام ليعيق ملكة من ملكات العرب ، أحبوها وأبدعوا فيها ، بل إن رسول الله ﷺ كان قد وجه الشعراء ، وسدد خطاهم ، وهذب شعرهم ، وقوم ما أعوج من طرائقهم في القول ، ثم هو يدفع بالشعر في سبيل الله ، ليصطنعه سلاحاً من أسلحة الحرب ، يرد فيه على هجاء الخصوم ، فيكون درعاً واقياً لأعراض المسلمين ، وصوتاً مسموعاً يبشر بالدعوة إلى الإسلام .

ولعل أهم ما يلفت النظر في شعر هذه الفترة ثلاث ظواهر : ضعف الشعر أولاً ، والشك فيه ثانياً ، وطمسه وضياعه ثالثاً .

فأما ضعفه فالحق أنه قد أصيب بشيء من الوهن ، فنزل عما كان عليه في عهد الجاهلية ، ولم يرتفع إلى الذروة التي بلغها الشعر في العهد الأموي . ولكن ليس من الحق أن يبالغ في ذلك الضعف ، فالأمر نسبي قياساً إلى الجاهلية والأموية . وللضعف أسباب ، منها : أثر القرآن وبلاغته في دهشة الشعراء ، ومنها ما شغل المسلمون به من أمر الفتوح ، ومنها أبطال الدوافع الجاهلية التي تعين الشعراء على قول الشعر والتوجيد فيه .

أما الشك في الشعر الإسلامي فأمر قديم فطن إليه النقاد القدامى ، ونبهوا عليه ، وعينوا صحيحه من فاسده ، كما فعل ابن سلام وابن هشام وابن النديم . والذي أراه أن المنهج الصحيح الذي يقوم على تمحيص الشعر وفحصه ، يظهر للبحث حقه من باطله ، فيرفض الفاسد من الشعر على بينة ، ويقبل الصحيح على بينة أيضاً . وذلك أن يؤخذ بتنبيهات القدامى أولاً ، ويقارن الشعر المنحول بما صح من شعر الشاعر ثانياً ويدرس

الظرف التاريخي الذي يعين كثيراً على معرفة الصحيح من الموضوع ثالثاً ، ثم الحذر من الهوى في الحكم على شعر الشاعر ، ذلك الهوى الذي يؤدي إلى الشطط الذي تمليه رغبة الشك ، بحيث يرفض صحيح الشعر بحجة باطله .

أما ضياع الشعر وطمسه ، فأمر طبيعي ، إذا عرفنا أن الفترة فترة حرب وصراع دام بين المسلمين وأعدائهم من قريش ومن والي قريشاً من أعراب مشركين ويهود .

وقد دام الصراع عنيفاً طويلاً حتى فتح الله على المسلمين بالنصر على أعدائهم ، فذلت قريش ودخلت في دين الله طائعة أو كارهة ، فكسف الشعر القرشي ، وعاد الهجاء الذي هجي به المسلمون سبة وعاراً على أصحابه ، فأبيد ذلك الشعر ، أو عمل المسلمون على ضياعه وطمسه . وبديهي أن آداب المسلمين كانت تحظر عليهم ذكر شعر فيه هجاء لرسول الله ﷺ أو لأصحابه ، وأن الرسول كان قد نهى عن ذكر أشعار بعينها . وإذا أتيح للمسلمين من الأنصار أن يذكروا الشعر الذي قيل في الحروب الأولى ضد قريش ، فما كان لقريش أن تفعل ذلك ، وقد كان شعرها يحاد الله ورسوله والمؤمنين . ثم أن سياسة الخلفاء الحازمة ـ وبخاصة عمر ـ في منع ما قيل من شعر الأمس لأن فيه بثا للقبيح ونبشاً للضغائن ، ثم ما تعرض له العصر من ردة وفتوح ومعارك داخلية ، كل ذلك كان سبباً في ضياع الشعر وطمسه وإبادته ، ولا سيما شعر قريش الذي لا تجد منه إلا الشعر المبرأ من هجاء رسول الله وأصحابه . وإذا كان القليل من ذلك الشعر قد وصل إلى أيدي الرواة وكتاب السير ، فإنهم أسقطوا ذلك القليل الذي فيه دلالة على الفحش أو إشارة فيها هجاء أو نيل من المسلمين . وكثيراً ما ينبه ابن هشام في السيرة إلى أنه أسقط أبياتاً نال فيها الشاعر من صحابة رسول الله ﷺ ، أو كان فيه فحش واقذاع .

وكان عليَّ قبل الدخول في تفصيل البحث أن أحدد الخضرمة ، وما ينصرف إليه مدلول الكلمة في اللغة والإصطلاح ، فرأيت أن كلمة « مخضرم » ترد في معان كثيرة منها : الكثرة ، والسعة ، والقطع ، والرجل الهجين ، وغير ذلك من المعاني . ثم ينصرف معناها إلى الشاعر الذي أدرك عصرين مختلفين ، وتبين أن هناك صلة وارتباطاً بين كل تلك المعاني اللغوية ، وبين معنى الشاعر الذي أدرك عصرين مختلفين ، كما أن الإستعمال قد ذهب بمعنى المخضرم فصارت تشمل كل من شهد عصرين مختلفين ، سواء الجاهلية والإسلام ، أم غيرهما من العصور .

فأما الشعر الإسلامي فهو على فصلين : شعر الأنصار أولاً ، وشعر المهاجرين ثانياً . وقد كان شعر الأنصار في المدينة أجود الشعر وأكثره تمثيلاً للآداب الدينية ، واستجابة لمبادىء الإسلام . وقد نبغت المدينة بين القرى العربية في الجاهلية ، وكان لشعرائها المكانة الكبرى في الإسلام ، وقد برز في الأحداث الإسلامية ثلاثة نفر كلهم من الخزرج : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة . أما الأوس فقد كان لها شاعران هما قيس بن الخطيم ، وأبو قيس بن الأسلت ، وكلاهما لم يسلم . وقد اكتفيت بالترجمة لشعراء الخزرج ، مستفيداً من الشعر الذي فيه للإسلام أثر ، ويصلح شاهداً في تصوير أحداث الفترة . ويصح أن يقال أن هؤلاء الشعراء هم الشعراء الرسميون للدولة الإسلامية آنذاك ، حيث كانوا المعبرين عن أماني المسلمين ، المدافعين عن أعراضهم ، الممثلين لوجهة النظر الإسلامية . أما المهاجرون فكان شعرهم قد عرف منذ أول البعثة ، حين أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة أولاً ، وإلى المدينة ثانياً ، وقد عرف من هؤلاء عبد الله بن الحارث السهمي ، وعثمان بن مظعون ، وعبد الله بن جحش ، وأخوه أبو أحمد عبد بن جحش . ومن النساء صفية بنت عبد المطلب ، وهند بنت أثاثة ، ونعم بنت سعيد زوجة شماس . ويلاحظ في الشعر الإسلامي أنه لم يوفق التوفيق الكامل المرتجى في تمثيل الدعوة

والتعبير عنها إلا بقدر ، ذلك لأن الشاعر في هذه الفترة كان يعبر عن حاجات الجاهلية وحاجات الإسلام . حاجات الجاهلية التي نشأ عليها وألفها واستجاب لها وصارت جزءاً من تكوينه الفكري والخلقي والفني ، وحاجات الإسلام الجديدة التي صارت جزءاً من حياة الشاعر الجديدة ، وضرورة تمليها عليه تعاليم الإسلام ومبادىء الدين ، وكان لا بد للشاعر أن يوفق بين الحاجتين ، فهو لن يستطيع أن ينزع عنه موروثات الجاهلية وآثارها حتى لو أراد . ولذلك نجد الشعر الإسلامي مقصراً عن تأدية المهمة التي نيطت به وعقدت عليه ، ولكن هذا الأمر في حقيقته طبيعي إذا ما نظر للظروف العامة التي تحيط بالشاعر ، فليس من الغريب أن تأتي المعاني الدينية في القصيدة مقتصرة على بيت أو أبيات ، ويأتي المعنى الديني مقتضبا مجملاً من غير توسع ولا عمق ولا استرسال أو تفصيل ، فتذكر ـ غالباً ـ ألفاظ دينية ، كالكافر ، والمسلم ، والفاجر ، والمؤمن ، والضلال ، والهدى ، والجنة ، والنار ، والذين نصروا الآله ، والبر الحنيف ، وغير ذلك . ومع أن السور والآيات الكريمة كانت تنزل في الأحداث وفيها حث وتوجيه وتقريع المشركين ، ومخاطبة المؤمنين . مع كل ذلك فلم تكن إفادة الشعر من المعاني القرآنية إلا بقدر ، وفي حدود معينة . إلا أن هناك تعويضاً جاء من لدن رسول الله ﷺ ، فهو برعايته شعراء المسلمين ، وتوجيههم ، وتسديد خطاهم ، ونهيهم عن أمور ، وحضهم على أخرى ، كان أن سد نقصهم ، ورعى مواهبهم ، وتعهدها بالصقل والتهذيب والتوجيه . وقد أثمرت جهود الرسول الكريم في صقل مواهب الشعراء المسلمين ، فأتت أكلها عند الفتح أو قبله بقليل ، فقد بدأ المعنى الإسلامي يتضح في الشعر ويعمق ، وصارت الشخصية الإسلامية تتميز عن شخصية الشاعر الجاهلي . فبعد أن كان الفخر في الحرب بقوة العدة والعدد ، وبلاء القبيلة وكسب المغنم وسبي العدو ، صار الفخر في شعر المسلمين بنيل الشهادة في سبيل الله ، وانتصار جند الله وأمة المسلمين على أعداء الله المشركين ، وصار الكسب كسب رضوان الله

ورسوله ، لا كسب الشاة والبعير . وكان طبيعياً لذلك أن يكون أسلوب الشعر خاضعاً للمعنى الجديد ، فغدت لغة الشعر سهلة لينة ابتعدت عن خشونة الكلمة الجاهلية ، وصعوبة تركيب عبارتها ، ولذلك فليس من الغريب أن يلين شعر حسان ، ويسلس شعر كعب ، أما ابن رواحة فيكاد أن يكون شعره كلام المتخاطبين ، وهو حديث النفس المؤمنة التي تفصح دون أعياء أو تعقيد . وكان لجودة هذا الشعر وخصبه أن ساهم مساهمة فعالة في نشر الدعوة واخضاع المشركين والمتمردين على الدين ، فيكفي أن يتفوق حسان على شاعر تميم ليسلم ذلك الوفد ، ويشهد أن هذا الرجل ـ رسول الله ﷺ ـ مؤتي له ، كما أن أبياتاً قالهن كعب بن مالك بعد حنين توقع الرعب في قلب دوس فتسارع إلى إعلان إسلامها واستسلامها . فكان شعر هؤلاء الشعراء سيفا مصلتا على رقاب المشركين ، وسلاحاً بيد رسول الله يخضع به أعداء الدين .

لقد طرق الشعراء المسلمون أكثر فنون الشعر ، وإن تميز فن الرثاء بين الفنون الأخرى ، لكثرة ما استشهد من المسلمين في المعارك التي دارت بينهم وبين قريش ، أو بينهم وبين اليهود . ثم رثاء رسول الله ﷺ والصحابة ، وكان لحمزة عم الرسول النصيب الأوفى من ذلك الرثاء ، ولم يكن شعر الرثاء إلا صورة من صور الدعاية للدين ، وبث الأفكار الإسلامية ، لأن شعراء المسلمين كانوا يمزجون رثاء القتلى بثواب الآخرة ، والتنعم بجنان الخلد ، والشهادة في سبيل الله أسمى غاية يسعى إليها المسلم ، فالروح المعنوية لدى المسلمين قوية ظاهرة ، ولم تتح هذه الناحية للمشركين ، فلم يجدوا التبرير المقنع لقتل أصحابهم ، ولم يكن أمامهم الهدف السامي البعيد الذي ترتبط إليه نفوسهم .

وقد وقف ضد هذا الشعر يجيبه ويناوئه ويعاديه ، شعر المعارضة في مكة والطائف والقرى اليهودية . فأما مكة فقد حباها الله مكانة دينية مقدسة ، وقد أفاد المكيون من وضع مدينتهم الديني والتجاري ، فمكثوا آمنين من

الغزوات والحروب . وإذا كان هذا الوضع الآمن قد جنب المكيين الحزازات والمنازعات ، فإنه من ناحية أخرى كان سبباً في ضعف شعرهم وقلته . وإذا كان لشعراء مكة شعر قبل الإسلام ، فهو شعر قليل ليس بذي خطر كبير ، فلم يحفل به النقاد القدامى . وقد برز شعرها في الإسلام إبان الحروب الإسلامية ، فنهض شعراؤها يحملون راية النضال ضد الدين الإسلامي ، ويقالتون دون دينهم الموروث وتقاليدهم القديمة ، وأبرزهم عبد الله بن الزبعري ، وضرار بن الخطاب ، وأبو سفيان بن الحارث ، وهبيرة بن أبي وهب ، وكلهم عرف بعدائه الشديد لرسول الله ﷺ وصحابته المؤمنين ، ولم يكن هؤلاء شعراء مكة وحسب ، بل إن معركة بدر فتقت القرائح وحفزت الهمم ، فقال الشعر كثرة من الشعراء وإن كانوا دون أولئك البارزين ، فعرفنا منهم الحارث ابن هشام ، وأبا عزة الجمحي ، وعمرو بن العاص ، وأبا أسامة معاوية بن زهير ، وأبا بكر شداد بن الأسود ، ومسافع بن عبد مناف . هذا غير مقطوعات وأبيات تسقط لشعراء آخرين . وكما كان في المسلمين نساء شواعر ، يرثين القتلى ، ويحرضن على القتال ، فكذلك كان الأمر عند المشركين ، فقد أظهرت الأحداث شعراً لشواعر قريش ازدهر بعد معركة بدر خاصة . وإذا علمنا أن القرشيين كانوا قد اصطحبوا نساءهم في غزوة أحد ، كان من الطبيعي أن ينشدن الأراجيز في الحث على القتال ، وتحريض الرجال على أن ينالوا من المسلمين ، مثلما نال المسلمون منهم يوم بدر . وكانت هند بنت عتبة أشد المتحمسات في تلك المعركة ، فقد حرضت ، وبكت ، وهجت ، وتشفت ، ومثلت بالقتلى ، ونكلت بالشهداء ، ولا سيما بحمزة عم رسول الله ﷺ ، حيث بقرت بطنه عن كبده . ولمعت في تلك الأحداث صفية بنت مسافر ، وقتيلة بنت النضر ، التي قالت قصيدة من أروع الشعر واشجاه في عتاب رسول الله ﷺ بقتل أبيها النضر بن الحارث ، الذي أسر يوم بدر وقتل بالصفراء صبراً .

وقد وقفت الطائف إلى جانب مكة في عدائها للدين الجديد ، وقد

عرف في الطائف شعراء ثلاثة ممن أدركوا الإسلام هم : أمية بن أبي الصلت ، وأبو محجن الثقفي ، وكنانة بن عبد يا ليل ، وكان أمية أبرز من صاحبيه وأشدهما عداوة لرسول الله ﷺ ، وحسدا له ، وحقداً عليه . كان أمية ممن أنكر الأصنام وشك في جدوى عبادتها ، وذهب مذهب الأحناف ، وكان يطمح أن يبعث نبياً . فلما ظهر رسول الله كفر به حسداً وبغضاً ، وانحاز إلى أعدائه المشركين يناصرهم ويحرضهم على قتال المسلمين ، يبكي قتلاهم ، ويعظم مصيبتهم ، في قصيدة له مشهورة يقال أن رسول الله ﷺ منه إنشادها في ذلك الحين . وأما أبو محجن الثقفي ، فعلى الرغم من اشتراكه مع قومه في حرب المسلمين حين حاصر رسول الله الطائف ، وأنه أصاب في ذلك اليوم بسهمه عبدالله بن أبي بكر ، على الرغم من ذلك فإن جهده في هذا السبيل لا يقوم مقام شعراء المشركين أو يعد منهم ، وما أضيف إلى شعراء المشركين لمآتيه تلك ، بل لأن جل شعره كان في الخمرة التي حرمها الإسلام ، فهي منكر من المنكرات يعاقب الإسلام متعاطيها . وكنانة بن عبد يا ليل فارق الإسلام مهاجراً إلى الشام حين أسلم قومه ، ولزم الكفر ، وله شعر يرد فيه على كعب بن مالك في حصار الطائف ، وكان قد انضم إلى هوازن في حربها ضد المسلمين .

وبيئة ثالثة كانت مباءة للكفر والنفاق ، جدت واشتدت في عداوتها للدين وللرسول وأصحابه المسلمين ، تلك هي القرى اليهودية المحيطة بالمدينة والمنبثة على طريق الشام . ومع أن اليهود أصحاب دين وكتاب ، ومع أن رسول الله ﷺ وضع كتاباً أول الهجرة ثبت لهم فيه الضمانات الصريحة الواضحة التي تكلفل لهم حرية العبادة والحفاظ على أموالهم ، مع كل ذلك ، فإنهم نقضوا العهد ، ونافقوا ، وحرضوا قريشاً على قتال المسلمين ، فكانوا العدو القريب للإسلام ، فحاربهم رسول الله وأجلاهم .

وشعر اليهود الذي مثله كعب بن الأشرف ، وسماك اليهودي ، وجبل بن جوال ، وغيرهم ، ظهر في بكاء قتلاهم من بين قريظة والنضير ،

وفي هجاء المسلمين والتشبيب بنسائهم ، وفي تحريض القرشيين على المسلمين لاستئصالهم .

هذا الشعر بجملته في مكة والطائف والقرى اليهودية ، هو شعر المعارضة الذي وقف يعادي ويهاجي المسلمين ، وإذا رحنا نتلمس السمات العامة لهذا الشعر ، نجد أن ما يتصل منه بالإسلام أو فيه ذكر له قليل ، والحقيقة أن الذي وصل منه وحفظ هو أقل القليل ، وقلة هذا الشعر مرتبطة بالظروف التي رافقت شعر المعارضة .

وهذا الشعر بعامته نشأ وترعرع في ظل الغزوات والحروب القائمة بين مكة والمدينة ، وقد انتهى الشعر بانتهاء تلك الحروب في فتح مكة ، ولم يكتب له البقاء بعد الفتح ، وفي ظل الخلفاء الراشدين . فهو على هذا شعر مقطوع ، شعر فترة قصيرة حدودها بين الهجرة والفتح . ويلاحظ أن هذا الشعر يكاد يخلو ـ إلا في القليل ـ من أثر الدين ، فإذا قرأنا شعر مكة وهم أصحاب البيت ، وسدنة الكعبة ، ومركز الآلهة ، ومباءة الأوثان ، لا نجد مجادلة أو محاجة أو تعرضاً لمبادىء الإسلام ونظمه ، ولا نجد كذلك اعتزاز بدينهم وتفضيلاً له أو تمسكاً به ، اللهم إلا ذلك الضرب من الإعتزاز بدين الآباء وتفضيلاً بموروثات الأجداد . وقد وضح ذلك عند الشعراء في البادية ، كمخاطبة كعب بن زهير ، وتعنيفه لأخيه بجير ، أو معاتبة زوج العباس بن مرداس حين ذهب زوجها ليسلم وفارق أخوان الصفا والصنائع ، كما تقول . وكذلك الأمر في شعر الطائف ، فعلى الرغم من أن أمية بن أبي الصلت كان من الأحناف ، وكان أكثر شعره في ذكر الآخرة ، مع كل ذلك فقصيدته التي يبكي فيها أصحاب القليب من قريش ليس فيها شيء من ذكر الآخرة والدين ومحاججة المسلمين . ويتضح الأمر أكثر في شعر اليهود فهم أصحاب كتاب وتراث ديني قديم ، وإن أحبارهم كانوا يحاجون الرسول ويسائلونه ، يريدون إحراجه . وإذا قرأنا ما وصل من شعرهم في هذه الفترة ، لا نجد لتلك المحاجة أثراً ولا اعتزازاً بدينهم ، ولا نجد مفاضلة بين دينهم والدين

الإسلامي ، ومن غير المعقول أن يكون الأمر كذلك . فإذا كنا نرجع خلو شعر مكة والطائف من أثر الدين إلى أنهم لم يكونوا متمسكين بدينهم ، فهذا لا يكون سبباً راجحاً في تطبيقه على شعر اليهود . وهناك ظاهرة أخرى في هذا الشعر هو أنه لم تكن لتجمعه وحدة فكرية أو وحدة مكانية ، فهو شعر قرى مختلفة في الثقافة والشاعرية والنظرة إلى الدين ، وإذا كان العداء للدين الإسلامي قد جمعهم ، فإن الحماس ضد هذا الدين يختلف عند القرشيين الموتورين عنه عند الثقفين أو اليهود . وبالرغم من كثرة الشعراء في هذه البيئات ، فإن جهودهم ضد الإسلام كانت مبعثرة ، ولعل لهذا ولانتصار الإسلام في فترة قصيرة كان خمول شعر المعارضة ، وتفرقه ، وقلته ، وضياعه .

وإذا انتقلنا إلى البادية نجد الأمر يختلف كل الإختلاف ، ففي البادية شعر وافر غزير ، ولا يعنينا من أمر هذا الشعر إلا ما كان فيه للإسلام أثر أو لشعرائه صلة بالحياة الإسلامية ، فقد تأثر بعض شعراء البادية بالإسلام ، واتصلوا بحاضرة المسلمين .

والشعر هذا هو شعر الفحول من مثل العباس بن مرداس ، وكعب بن زهير ، والنابغة الجعدي ، ولبيد العامري . وكلهم شاعر مكثر مشهور ، ولم يكن فيهم من المغمورين المقلين إلا بجير بن زهير . وهؤلاء هم الذين ظهر للإسلام أثر واضح في شعرهم . وكل هؤلاء الشعراء وغيرهم من الأعراب دخلوا الحياة الإسلامية بعد فترة الحرب بين مكة والمدينة أو قبل نهايتها بقليل ، وإذا عرفنا أن فورة الشعر وأزدهاره كانت خلال الحروب ، وفي بدر وأحد والخندق خاصة ، أدركنا السبب في عزلة هذا الشعر عن مشاركته في الأحداث الإسلامية . وقد بدأت صلة شعر البادية بالإسلام قبيل فتح مكة بقليل ، واستمر في حياة الخلفاء الراشدين حتى أدرك عهد معاوية بن أبي سفيان ، وشارك بعضه في الفتنة التي قامت بين العراق والشام ، أو بين علي ومعاوية .

وشعراء البادية هم بقية الجاهلية في الإسلام ، وشعرهم جاهلي أعرابي بكل صفاته . ولم يكن إسلامهم ليغير من المنهج العام الذي لزمه الشعراء في صياغة الشعر ونظمه ، ففيه كثرة القصائد الطوال التي تحفل بكل فنون الشعر ومعانيه ، وتتعاقب في القصيدة الواحدة أكثر موضوعات الشعر : من غزل ، ووصف ، وفخر ، ومديح ، وحكمة ، وهذه الميزة لم تتوفر فيها الوحدة الموضوعية غالباً . وإذا كان شعراء مكة والمدينة قد شغلتهم الحروب ، فترادوا بالشعر وتهاجوا ، فظهرت في شعرهم المناقضات ، فإن شعراء البادية دخلوا الحياة الإسلامية بعد فترة النزاع ، فلم تكن النقيضة ـ لذلك ـ مدار شعرهم وحوارهم ، وقد مثل شعر البادية بيئته بكل دقائقها وتفصيلاتها ، وأبرز ما في البادية الروح القبلي ، والنزعة العصبية ، فقد عبر عن عواطف القبيلة ومجد آثارها وسجل وقائعها .

لقد كانت الدراسة في الأبواب الثلاثة الأولى معنية برصد الشعر الإسلامي ، ووصف أحواله ، وصلته بالدين في البيئات التي نشأ فيها ، فهي دراسة إقليمية . أما في الباب الرابع : (شعر المخضرمين ومبلغ تصويره للأحداث الإسلامية ، فالدراسة تعنى برصد الشعر الإسلامي عامة ، تبعاً للأحداث البارزة منذ أول الهجرة حتى نهاية الفترة الإسلامية بمجيء معاوية إلى الحكم سنة إحدى وأربعين ، فهي دراسة زمنية وقد قسم الموضوع إلى مرحلتين لكل منهما فصل : الأول : الشعر زمن الرسول ، والثاني : الشعر زمن الخلفاء الراشدين . فأما الفصل الأول فقد بدىء بذكر ملاحظات تلفت نظر الدارس ، ذلك أن الماقضات والأهاجي الشديدة التي كانت قائمة بين الأوس والخزرج في المدينة ، قد أذهب الإسلام ريحها بهجرة رسول الله ﷺ ، فكان أن وجه الرسول المقدرة الهجائية والحماس الذاب عن الأهل والعشيرة إلى مناقضات ضد المشركين في مكة معقل الكفر والأذى ، فنشط الشعر بعد فترة ركود ، وحركت المعارك والخصومات حسان بن ثابت وكعب بن مالك في المدينة ، وأظهرت عبدالله بن الزبعري وضرار بن

الخطاب في مكة يجيبانهما ويناقضانهما ، كما حركت الخصومات والأحداث الدامية الشاعرية القرشية ، فنشطت وبرزت . ونبهت القرى العربية الأخرى فحركت هممها وشاعريتها ، فكان أن وقفت الطائف إلى جانب قريش كما انضمت يهود إلى معسكر المشركين ، واحتدم النزاع الشديد طيلة السنوات التسع التي كانت بين الهجرة والفتح ، وزها الشعر في هذه الفترة ، واشتد حماس الفريقين كلما اشتد وقع الحرب وكثرت فيها الدماء . وكان أول يوم ثبتت فيه قوة المسلمين وفرضت هيبتهم على الأعداء المشركين ، يوم بدر ، فقد كانت هزيمة منكرة لقريش ، حيث رجعت من المعركة خائبة مندحرة تنوح على قتلاها وتهجو المسلمين . وكان المسلمون يفخرون بالنصر ويعيرون قريشاً الهزيمة ، فقامت النقائض بين الجانبيين . وقد وصفت بدر وصفا موفقا ، وصفت الحرب وأحداثها وملابساتها وآلتها ، وسجلت بطولة المنتصرين وانهزام المنهزمين ، وقد نزلت في هذا اليوم سورة الأنفال ، تناولت المعركة من كل وجه وبأسلوب قرآني لا يرقى إليه أسلوب . وقد حاول الشعر أن يستفيد من هذه السورة ، فوفق في جانب وفاتته جوانب كثيرة ، والفرق كبير بين نظرة القرآن للمعركة ، ونظرة الشعر ، فنظرة الشعر فردية عصبية ، فيها شماتة وفيها هجاء وقذف وفخر وزهو . أما آيات الله في ذلك فقد تسامت على كل ذلك ، فصورت المعركة من وجهة الإيمان وهدى المهتدين ، ونصر الله المسلمين وتأييدهم بجنود من عنده .

وإذا كانت وقعة بدر يوماً للمسلمين على المشركين ، فقد كانت وقعة أحد يوماً للمشركين على المسلمين ، فهو يوم محنة وبلاء وموعظة للمؤمنين . فبعد عام من بدر جاءت قريش بجموعها وأحابيشها ونسائها لتثأر لذلها وهزيمتها في يوم بدر . وقد سجل الشعر أحداث أحد ، فكان القرشيون يفخرون بالنصر والثأر ، ويعلنون فرحتهم وشماتتهم بقتلى المسلمين ، وكان المسلمون يناقضونهم ويدفعون دعواهم بأن النصر الحق هو بثبات الإيمان ضد قوى الكفر والعصيان . ثم يبكون قتلاهم بكاء فيه حزن شديد ، ولوعة

مشبوبة ، وكذلك يلاحظ أن التوفيق الذي أحرزه الشعر في تصوير المعركة ووصف أحداثها ، كان دون روعة الآيات الستين من سورة آل عمران التي نزلت في هذا اليوم ، وإن كان الشعر قد أفاد من هذه الآيات البينات فائدة كبيرة مذكورة . وشعرت قريش أن شوكة المؤمنين قوية لم تكسر ، فراحت تجمع الجموع وتحزب الأحزاب وتحرض القبائل على المسلمين لاستئصال شأفتهم من المدينة ، فكانت موقعة الخندق ، وكان ما كان من مناوشات ومبارزات ، وفشل الحصار ، ورجعت قريش مغلوبة على أمرها لم تحقق من أحلامها الطائشة شيئاً . وكان يوم الخندق سبباً لما نزل بقريظة والنضير من عقاب شديد ، جزاء وفاقاً للغدر والخيانة ، وقد أحاق المكر السيء بأهل . وقد رصد الشعر أحداث هذه الأيام فحكى أمرها وسجل أحداثها بتفصيل وتقص ، وقد نزلت في ذلك سورة الأحزاب ، وكان الشعر قد أفاد من السورة الكريمة فائدة جلى ، فظهر في أشعار الشعراء تطور وفهم لطبيعة الدين وروحه .

ويكون عام الفتح ، حيث كتب الله لرسوله أن يدخل مكة منتصراً وقد دحرت معاقل الشرك والوثنية ، ويكون الفتح إيذاناً بنهاية شعر المعارضة وخمول شعرائها . والحقيقة أن الفتح كان بدء مرحلة جديدة في الشعر ، حيث أنهى شعر المعارضة والمهاجاة مهمته ، لأن أسباب الخصام قد حسمت وانتفى وجودها ، وبدأ ضرب جديد من الشعر ، ذاك هو شعر التوبة والإعتذار لرسول الله ﷺ ، وشعر الوفود ، ثم شعر الردة ، والشعر الذي كان يعالج مشاكل الحياة الجديدة ، وشعر الفتوح والجهاد في سبيل الله .

أما شعر الذي قيل في فتح مكة فيكفي أن تكون قصيدة حسان :

عفت ذات الأصابع فالجواء ... إلى عذراء منزلها خلاء

قد غطت على كل ما قيل ، وفيها يظهر الفخر الإسلامي ، والإعتزاز بالدين ، والتمثيل الواضح لمبادىء الإسلام . ولم يكن فتح مكة ليثضي على

فلول الشرك كلها ، فقد بقي أعراب هوزان وأهل الطائف ، وقد غزاهم رسول الله ﷺ ، واصطدم معهم في حنين وكان النصر لله ورسوله ، بعد رجعة أرعبت المسلمين وفرقت من تفرق . ثم سار رسول الله إلى الطائف فحاصرها غير كثير ثم نزلت على أمره . وقد خلت هاتان الغزوتان شعراً أكثره للعباس بن مرداس ، فظهرت فيه النزعة الأعرابية المتعصبة إلى جانب الحس الديني المغتبط بانتصار الإسلام .

وبعد أن استقر الأمر للمسلمين بالقضاء على أعدائهم المشركين ، تحركت أعراب الجزيرة لتلقى رسول الله ﷺ . فمنها من جاء يعلن إسلامه ، ومنها من جاء يجادل ويماري . ومنها من كان خائفاً وجلاً جاء يستأمن ويعلن توبته وندمه . وقد كان في هذه الوفود ـ فرادى وجماعات ـ شعراء قالوا شعراً وقد ظهر في ذلك الشعر للدين أثر ، سواء كان ذلك الأثر واضحاً قوياً أو ضعيفاً باهتاً ، يعتمد اللمح والإشارة . فعلى كل حال هو شعر قيل في مناسبة دينية ، وبحضرة رسول الله ﷺ .

وحين فقد المسلمون رسول الله ﷺ ، بكاه الشعر ، بكاه الرجال مثلما بكته النساء . وكان الشعر الذي قيل فيه حزن وجزع ووصف للفجيعة النازلة وحسرة على فقد النبي ، وقد ظهر النفس الإسلامي فيه واضحاً جلياً . إلا أن ذلك الشعر ـ رغم صدقه ولوعته ـ ما كان ليرقى إلى مقام السيد الأمين عليه السلام ، وقد نعتذر للشعراء في ذلك بأن المصيبة كانت قد ألجمت أفواه الشعراء فارتج عليهم ، والقرائح عادة لا تجيد التعبير الواضح المبدع وقت الأزمات وإبان المصائب .

وإلى هنا نكون قد انتهينا من رصد الشعر زمن رسول الله ﷺ ، ليبدأ عهد آخر هو عهد الخلافة الراشدة ، وشعر عصر الرسول بعامة هو أحسن شعر هذه الفترة وأغزره وأخصبه ، ولا غرو في ذلك فالفترة فترة حماس وخصومة وشدة ، أتاحت للشعر أن يزهو ويزدهر ، أما في عهد الخلفاء

الراشدين فللشعر أمر آخر . فبعد وفاة الرسول شب الخلاف بين المسلمين حول الخلافة فيمن تكون ولمن تكون : نظر إليها المهاجرون وأرادتها الأنصار وطمعت فيها بقية قريش من غير المهاجرين والأنصار . وقد قام الخصام وكاد يستفحل ، وصور الشعر تلك المشكلة ، فاحتج الشعراء كل لفريقه وصاحبه بحجج هي من الدين وإن افتقرت إلى روحه ، فهي مفاخرات ومفاضلات ودفع ورد وشتيمة في بعض الأحايين ، وأجمع الناس على أبي بكر صاحب رسول الله ﷺ ، وخليله ، وثاني اثنين إذ هما في الغار . ولم تكن خلافة أبي بكر لتقطع لغو الشعراء ولجاجة الطامعين ، حتى جاءت الردة وتمردت بعض القبائل ، فألفت المحنة آن ذاك بين قلوب المهاجرين والأنصار ، ومسحت الأطماع فالتفوا جميعاً حول أبي بكر يريدون العدو الجديد . وبفضل حزم أبي بكر وشدته على المشركين قمعت الردة بزمن قصير ، وقد خلفت الردة شعراً أكثره بدوي أعرابي ، ليس فيه للإسلام أثر إلا في العراق القليل . وما أن قمعت الردة حتى سارت الجيوش الإسلامية لتكتسح العراق وتمحق الكفر هناك ، وكانت الفتوح التي حمل لواء النصر فيها خالد بن الوليد . وكان أن وصف الشعر مسيرة خالد وهيبة الجيش الإسلامي . وشعر هذا العهد أكثره لشعراء مغمورين من الأمصار المفتوحة ، وشعرهم في وصف الحرب والفرق منها ، وتوقع الذل والهزيمة والسخط على الزمان الذي أذلهم وجعلهم سواماً بأيدي الأعراب ، بعد عز ونعمة في كنف المناذرة الملوك .

وأبرز عهد حفل فيه الشعر وأينع وزها ، هو عهد عمر بن الخطاب ، ذلك لأن عهد عمر كان أطول العهود وأحفلها ، ولأن عمر نفسه كان من نقاد الشعر ورواته والمقبلين عليه ، فهو يرى في جيد الشعر دعوة إلى الخير ، وتثبيتاً لمكارم الأخلاق ، وتسجيلاً لأحساب العرب وأيامها ، وحفظاً لمكارمها وسجاياها . وكان مع ذلك شديداً على شعراء الهجاء ، ألجم أفواههم عن فاحش القول ، وأخذهم بالحد والعقوبة الصارمة ، ونهاهم أن يذكروا ما قيل من شعر بين مكة والمدينة يوم كانت مكة على الشرك والضلال .

وقد برز في عهد عمر شعر الفتوح الذي رددته الأمصار الإسلامية ، قاله الجند المحاربون وتغنى به المنتصرون ، وكان فيه روح من هدي الإسلام ومسحة من تعاليمه ، وإذا ما كتب لعمر أن يصرع شهيداً بكاه الشعر ، وذكر مقامه ، ومقتله ، وفضله ، وتقاه .

ويأتي عهد عثمان بن عفان ، ولم يكن عثمان مقبلاً على الشعر محباً للشعراء ، فكان لا يحسن الظن بهم . عنده أن الشاعر لا حريم له ، إن شبع شبب بنساء أهله ، وإن جاع هجاهم . ولذلك كان الشعر في زمنه ضعيفاً فاتراً قليلاً ، وقد سار عثمان مسيرة عمر في زجر شعراء الهجاء ، إلا أن جهود عثمان تلك لم تكن لتحول دون الغرائز التي وجدت متنفساً في عهده ، فنفثت شعراً فيه هجاء وفيه سخط وتذمر . وكانت الحياة في عهد عثمان قد توسعت وتعقدت بما كان من أثر الفتوح ، فظهر الشعر الذي يعبر عن هذه الحياة الجديدة ، تمثل بالسخط على الولاة والتذمر من تهاون بعضهم في أمور الدين . وقد حدثت في هذا العهد أحداث وفتن ، وقام الشغب الذي أودى بحياة خليفة المسلمين . فكان أن سجل الشعر تلك الأحداث ، وصور تلك الفتن ، وأضرم نار الحماس في الصدور حزناً على عثمان ، وحسرة على شتات كلمة المسلمين .

بعد أن صرعت الفتنة عثمان ، بويع علي بن أبي طالب خليفة بعد صاحبه . وقد ورث علي تركة سياسية وغير سياسية باهظة ثقيلة ، فأتباعه وشيعته ناقمون على ما كان من حكم الأمويين ، والأمويون يطالبون بدم عثمان ، ثم هم ينقمون على الهاشميين أن تؤول الخلافة إليهم على ما كان بين الحيين من منافسة وخلاف في الجاهلية تجدد في الإسلام ، وأنصار عثمان من أهل المدينة يتهمون علياً بقعوده عن نصرة خليفة المسلمين . ثم إن كثيراً من المسلمين لم يبايع علياً إلا على ضيم ، ومنهم من نقض بيعته وولى وجهه شطر البصرة ليعلن الثورة عليه ، كما فعل طلحة والزبير . وكان من أمر الشعر في هذه الفترة أن سجل الحروب الداخلية ، وصور نزعات

المحاربين من أنصار علي وأنصار معاوية ، وعرض العصبية القبلية التي كانت تظهر خلال الحروب ، ثم وصف الشعر معركة الجمل وصفين ، وحكى قصة التحكيم وما رافق ذلك من خروج على علي ، وتذمر الجند وسخط الساخطين . حتى إذا بلغ علي أجله تصدى له عبد الرحمن بن ملجم فطعنه طعناته اللئيمة الغادرة ، فبكى الشعر علياً ، وناح عليه ، ووصف مصرعه وشهادته ، رحمه الله ورضي عنه .

وإلى هنا تكون فترة المخضرمين قد آذنت بالإنتهاء ، ليبدأ عهد جديد هو العهد الأموي ، حيث نشطت فيه كل المذاهب والفنون التي وجدت أصولها وجذورها في عهد المخضرمين .

وبعد فهذه هي القسمات البارزة في هذه الدراسة على أصغر صورة يمكن أن يجملها العرض ، وهي في شكلها هذا دراسة بكر فيما أحسب ، والدراسات البكر لا تكون أحكامها قاطعة حاسمة ، ولا يكون يقينها إلا ظناً قد ترجح كفته وقد تشيل . وما هذه الدراسة إلا خطوة في الطريق ، آمل أن تتلوها خطوات تكمل ما فيها من نقص ، وتقوم ما قد يكون فيها من عوج . وحسبي أني أخلصت النية فيما بنيت من أحكام وما بلغت من نتائج ، وعلى الله قصد السبيل ، والحمد لله أولاً وآخراً(*) .

وفي كتاب د . بدوي طبانة : « دراسات في نقد الأدب العربي » هذه الصفحات القيمة عن النقد في أدب صدر الإسلام فيقول :

« أشرقت شمس الإسلام على العقول فبددت ظلامها ، ونزل القرآن الكريم فطمأن من تلك العواطف الثائرة ، وأسلس نفوس العرب النافرة ، وأعاد إليها الأمن الذي سلبته أحقاباً طويلة ، وارتقت العقول ، لتودّع حياة الفوضى التي ألفتها وعاشت فيها ، وتجد هادياً يبصرها بأمور دنياها ، ويهذب

(*) إن كتاب الدكتور يحيى الجبوري في « شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه » خير مرجع لهذا الأدب الإسلامي .

سلوكها ، كما يبصرها بأمر ربها ، وحساب أخراها . وتبقى نفوس حائرة يجتذبها ضلالها القديم ، إذ رأت في الدين الجديد شيئاً يفرق بينها وبين وثنيتها الأولى وضلالها القديم وزعامتها القبلية التي هامت بها ، وعبدتها طوال جاهليتها المظلمة ، فيصطرع الهدى والضلال بالحجة والبيان ، ثم يحتكمان إلى السيف إذا امتدّ الخصام إلى العدوان ، وفي كل صراع كانت الغلبة للهدى ، وكان النصر للحق .

وإلى جانب الحجّة والسيف كان الشعر سلاحاً من أمضى الأسلحة في النيل من الأعداء المعاندين ، وقد أخذ يشق لنفسه طريقاً جديداً ، فيصبح لسان الدعوة الجديدة ، يشيد بانتصاراتها ، ويشيع مبادئها في تطهير العقيدة ، وفي إصلاح المجتمع ، والعمل للدنيا والآخرة ، كما أصبح لسان المشركين يعلنون به إصرارهم على قديمهم ، ويدعون به إلى الإستبسال في مقاومة الهدى والهداة .

وبذلك انتقل الشعر من طور إلى طور ، وبعد أن كان تعبيراً عن أهواء النفوس ، وتشجيعاً للعصبية الفردية ، أو العصبية القبلية ، أصبح تشيعاً للمبادىء التي انحصرت في مبدأين يسيران في اتجاهين متضادين ، وكان هذا عاملاً من أهم العوامل التي أبقت للشعر سلطانه ، وزادته قوة في الحقبة الأولى من صدر الإسلام ، وإن كانت معاني الشعر لم تبتعد كثيراً عن معاني الجاهليين . فلا يزال الفخر بالأجداد والآباء ، ولا يزال التمجد بالكرم والشجاعة وحسن البلاء ، ولا تزال الإشادة بالإنتصارات التي يحرزها أحد الفريقين ، وإن تغيرت الظروف وتغير الموضوع .

وفي هذا الصراع كثيراً ما كان يضيف شعراء المسلمين إلى تلك المعاني المعهودة ما اقتبسوه من دينهم من نبز المشركين بالضلال ، وتسفيه أحلامهم ، والفخر بأنهم دعاة الحرية والهدى ، والتحرر من الوثنية وعبادة الأصنام .

وكما اعتز الكفار بشعرائهم استعان النبي ﷺ بذوي الشاعرية من المسلمين ، يحثهم على تأييده ، ويقول للأنصار : « ما يمنع الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ » فينتدب منهم طائفة من المتحمسين لدينهم من أمثال حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة ، ليقفوا صفاً في وجه الشعراء المشركين من أمثال عبدالله بن الزبعري ، وعمرو بن العاص ، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب من قريش ، وكعب بن الأشرف اليهودي . وكما استعر القتال في ميدان الوغى ، استعر القتال بين شعراء الفريقين .

فازدادت الدائرة على المشركين في يوم بدر ، وكتب الله للمسلمين النصر بهذا العدد القليل ، انطلقت ألسنة الشعراء المسلمين تذكر النصر المؤزر الذي ظفر به النبي وأصحابه ، وتندد بقريش وأبطالهم الذين صرعهم الغيّ والضلال ، ولم تغن عنهم كثرتهم شيئاً .

فمن فعل ذلك الحمزة بن عبد المطلب ؛ وعلي بن أبي طالب ، وكعب بن مالك « وقد روى له ابن هشام ثلاث قصائد » وحسان بن ثابت « وقد روى له ابن هشام تسع قصائد في هذه الوقعة وحدها » ، وعبيدة بن الحارث بن المطلب .

وممن أشاد بالمشركين ، وبكي قتلاهم الحارث بن هشام بن المغيرة ، وضرار بن الخطاب ، وعبدالله بن الزبعري ، وأبو بكر بن الأسود ، وأمية بن أبي الصلت ، ومعاوية بن زهير بن قيس ، وهند بنت عتبة ، ولها أربع قصائد في رثاء أبيها وقومها ، وصفية بنت مسافر . . . الخ .

وهكذا نرى الشعر ينشط في تلك الفترة نشاطاً ملحوظاً ، ويجري على ألسنة الرجال والنساء ، والذي يعنينا من هذا ما نلاحظه في كثير مما قيل من روح النقد ، والتتبع بين الشعراء أنفسهم . فإذا قال شاعر من المسلمين قصيدة في الفخر بما كتب الله لهم من النصر تصدى له شاعر من المشركين

يحاول أن يهدم فخره ، وينقض قوله ، فإذا أنشد الحمزة بن عبد المطلب قصيدته التي مطلعها :

أَلَمْ تَرَ أمراً كانَ مِنْ عَجَب الدَّهْرِ وَلِلْحَينِ أسبـابٌ مُبَيَّنَـةُ الأمْـرِ

أجابه الحارث بن هشام بن المغيرة بقصيدة على رويها ووزنها ، مطلعها :

ألاَ يا لِقَوْمِي للصَّبـابةِ والهجـرِ وللحزْنِ مني والحرَارَة في الصَّدْرِ

وحين يقول علي بن أبي طالب في يوم بدر :

أَلَمْ تَـرَ أنَّ الله أَبْلَى رَسُـولَـهُ بَلاَءَ عَزيزٍ ذِي اقتدارٍ وذِي فَضل

يجيبه الحارث بقصيدة على وزنها وقافيتها مطلعها :

عَجِبْتُ لأَقْـوَامٍ تَغَنى سَفِيهُهُمْ بأمر سفاهٍ ذِي اعتراض وذِي بُطْلِ

وينشد ضرار بن الخطاب بن مرداس في النيل من الأنصار ، والتهديد بالانتقام منهم :

عَجبتُ لِفخرِ الأوْسِ والحيْنُ دَائِرُ عَلَيْهِمْ غَداً وَالدَّهْرُ فيهِ بصَـائِرُ

ويجيبه كعب بن مالك ـ وهو من شعراء النبيّ ـ بقوله :

عَجِبْتُ لأمـر الله ، والله قـادِرُ عَلَى مَا أَرَادَ ، لَيْسَ لِلَّهِ قَاهرُ

ويبكي عبدالله بن الزِّبْعري صرعى بدر من وجوه المشركين بقصيدته :

مَـاذَا عَلَى بَـدْرٍ ومَـاذَا حَـوْلَـهُ مِنْ فِتْيـةٍ بيض الوُجُـوهِ كِـرَامِ

فيشمت فيه صنوه الشاعر حسان بن ثابت ، ويتمنى أن تكون دموعه دماً :

ابْـكِ بَكَتْ عَيْناكَ ثمَّ تبـادَرَتْ بِـدَمٍ تُعلّ غُـرُوبها سَجَّـامِ

ولا ينسى ابن الزّبعري شماتة حسان ، فإذا كان يوم أحد الذي ابتلى

فيه المؤمنون أسرع إلى الزهو بما أصاب المشركون في هذا اليوم الذي ثأروا فيه لقتلاهم ، فيقول قصيدته التي أولها :

يـا غُرابَ الْبيْن اسمعْتَ فقـلْ إنمـا تنـطِقُ شيئـاً قـدْ فُعِـلْ

ولا ينسى أن يشتفي بحسان بن ثابت الذي سأل له البكاء الطويل والحزن المقيم يو م بدر ، فيقول :

أبْـلِغَـا حَسَّـانَ عـنِّي آيـةً فَـقَـرِيضُ الشِّعرِ يشفي ذَاالغُللْ

ويذكره حسان بيوم بدر ، وما نال المشركين فيه ، وبأن الأيام دول فيقول :

نَـزَلتْ بـابْن الـزِّبعـرَى ضَـرْبـةٌ كانَ مِنَّا الفضلُ فيها لَـوْ عَدَلْ
وَلَـقَـدْ نِـلْتُـمْ وَنِـلْنَـا مِـنْكُـمُ وَكَـذَاكَ الحَـرْبُ أحْيـانـاً دُوَلْ

وهذا يبين لنا أن النقائض قد وجدت في تلك الفترة في صورتها الكاملة ، ولم تكن نقائض جرير والفرزدق والأخطل شيئاً ابتدعه الشعراء في دولة بني أمية ، بل كان لها أصل معروف كامل الأركان في أوائل أيام الإسلام . وتدل تلك النقائض التي ذكرنا طرفاً منها إلى تنبه ملكة النقد عند العرب في تلك الفترة ، لأن صاحب النقيضة يتتبع ما قال خصمه ، ويحاول أن يهدم هذا القول بنظم على مثاله ، ورَوِيّ على غراره ، وهذا نقد لا يقف عن العبارة الموجزة التي يلقيها الناقد ، يبين فيها رأيه في الشعر ، أو في الشاعر ، بل هو نقد يمكن أن يوصف بأنه نقد عملي ، فيه المحاكاة الظاهرة ، وفيه النقض أو النقد الفعلي الذي يتناول هدم الأفكار والمعاني .

النبي والشعر :

ونلاحظ أيضاً أن النبي ﷺ كان يشجع شعراءه ، ويعدّ قولهم جهاداً في سبيل الدين ، وأن فعل شعرهم لا يقلّ في الأعداء عن فعل السيوف التي يحملها المحاربون في رقاب أعدائهم المشركين .

وقد سمع النبي الشعر في مسجده ، وعلى منبره ، وقال لحسان : « اهجُ قريشاً ومعك روح القدس » ، وقد روى عنه قوله لأن يمتلىءَ جوفُ أحدِكم قيحاً حتي يَرِيه خيرٌ له من أن يمتلىءَ شعراً » كما رُوِيَ عنه في شأن امرىء القيس ، « ذلك رجلٌ مذكورٌ في الدنيا شريفٌ فيها ، منسيٌّ في الآخرة خامل فيها ، يأتي يوم القيامة معه لواء الشعراء إلى النار » .

ولكن هذا ينصرف إلى أولئك الشعراء الذين اتخذوا الشعر لهواً ولعباً ينالون به من الأعراض ، ويؤرثون نيران العداوة والبغضاء بين الناس ، ويستنزفون به أموالهم بالثناء الكَاذب . أما الشعر الذي يدعو إلى حق ، أو ينشر فضيلة ، أو يذيع محمدة ، أو يدفع ظلماً ، فذلك لا شبهة في جوازه : وأما قول الله تعالى ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر في كلّ وادٍ يهيمون . وأنهم يقولونَ ما لا يفعلون** ﴾ فهو ينصرف إلى الكفار الذين يذكرون الله ، ويستنصرون بالشعر على أعدائهم ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون** ﴾ وهذا يفسر قول الأصمعي : « الشعر نكد ، بابه الشر ، فإذا دخل في الخير ضعف . هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره » وقوله مرة أخرى : « شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر ، فقطع متنه في الإسلام » .

فليس سماع النبي الشعر واستحسانه إياه في حاجة إلى التأويل والتخريج ، فقد جاءه كعب بن زهير مستأمناً تائباً ، وأنشده قصيدته التي أولها :

بانَتْ سُعادُ فَقلْبي اليَوْمَ مَتْبُولُ   مُتَيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مكْبُولُ

فلم ينكر عليه النبي ﷺ قوله ، بل تجاوز عنه ، ووهب له بردته ، فاشتراها معاوية بثلاثين ألف درهم[1] .

---

(١) كتاب العمدة ١ /٧ .

ولما قدم على رسول الله ﷺ عطارد بن حاجب بن زرارة في أشراف بني تميم منهم الأقرع بن حابس ، والزبرقان بن بدر ، وعمرو بن الأهتم لمفاخرة النبي وقف خطيبهم عطارد بن حاجب فخطب ، فانتدب ثابت بن قيس الخزرجي للرد عليه ، فلما فرغ قام الزبرقان بن بدر ، فأنشد قصيدته :

نَحْنُ الكِرامُ ، فلا حَيٌّ يعادِلنا   منَّا الملوكُ وفِينا تُنْصَبُ البِيَعُ

وكان حسان غائباً ، فبعث إليه النبي ليجيب شاعر بني تميم ، فحضر ، وأنشد قصيدته :

إن الذوائبَ من فِهْرٍ وإخوتهمْ   قد بيَّنوا سنةً للناس تُتَّبَعُ

فلما فرغ حسان من قوله قال الأقرع بن حابس : « وأبي ، إن هذا الرجل لمؤتي له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ؛ ولأصواتهم أحلى من أصواتنا ! » . فلما فرغ القوم أسلموا[1] .

وما كان للنبي وهو القائل « إن من الشعر لحكمة » أن يدعو إلى تعطيل ملكة من الملكات الفنية التي اشتهر بها قومه ، ويقضي على الفن الذي نبغ فيه العرب ، وقد عرف بُعد أثره في نفوسهم ، كما عرف بُعد أثره في نفسه وفي نشر دعوته . ولكن غاية ما يقال في هذا الشأن أنه عمل على توجيه تلك الملكة توجيهاً جديداً ، يبعد بها عن جاهليتها وضلالها القديم ، ويحول بينها وبين العبث والإسراف والمجون ، ويدعوها إلى الجد النافع والقصد القويم . وإلا فإن رسول الله ﷺ كان يعرف تماماً أن محاولة القضاء على هذا الفن الإنساني الجميل في أمته التي ينتسب إليها وفي لغته التي تباهي بالفصاحة والبيان ، إنما هي ضرب من المستحيلات لأن قول الشعر وتقريره والإعجاب بروائعه يجري في هذه الأمة مجرى الدم في العروق ، ولذلك قال : « لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين » . وكان أبو السائب

(١) السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبي) ٤ /٢١٤ .

المخزومي على شرفه وجلالته وفضله في الدين والعلم يقول : أما والله لو كان الشعر محرماً لوردنا الرحبة كل يوم مراراً[1] . .

وقال أبو زيد : وكان رسول الله ﷺ لا يقول الشعر لقوله عزَّ وجلَّ ﴿ **وما علمناه الشعر وما ينبغي له** ﴾ ولكن كان يعجبه[2] .

وعلى هذا فإن كان ما نسب إلى النبي من ذم للشعر أو للشعراء إنما هو ذم لمعانيه المجانبة للحق ، المؤججة لنيران العداوة ، والممعنة في مسالك الشيطان .

ويروى عن أسماء بنت أبي بكر قالت : مرّ الزبير بن العوام بمجلس لأصحاب النبي ﷺ وحسان ينشدهم . وهم غير آذنين لما يسمعون من شعره ، فقال : « مالي أراكم غير آذنين لما تسمعون من شعر ابن الفريعة[3] ؟ لقد كان ينشد رسول الله ﷺ ، فيحسن استماعه ، ويجزل عليه ثوابه ، ولا يشتغل عنه إذا أنشده » .

ويروى أن عمر بن الخطاب مر بحسان وهو ينشد الشعر في مسجد رسول الله فقال : أرُغاء كرغاء البَكر ؟ فقال حسان : دعني عنك يا عمر ، فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك ، فما يغير على ذلك ! فقال عمر : صدقت[4] !

المقاييس الدينية والخلقية في الأدب :

جاء محمد ﷺ يحمل إلى الناس ديناً جديداً ، ويهديهم إلى صراط مستقيم ، ويخرجهم من ظلام الشرك إلى نور التوحيد ، يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً ، ويؤمنون برسوله ويعملون بتعاليمه ، فمن اهتدى بهديه

(١) العمدة ١ /١٢ والرحبة الموضع الذي تقام فيه الحدود ، يريد أنه لا يستطيع الصبر عنه فيحد في كل يوم مراراً ولا يتركه .
(٢) جمهرة أشعار العرب ٣١ - (المطبعة الرحمانية - القاهرة ١٩٢٦ م) .
(٣) الفريعة أم حسان بن ثابت ، وهي من الخزرج .
(٤) كتاب العمدة ١ / ١٠ .

وعمل بأمره وانتهى عما نهى عنه فهو أقرب الناس إلى الله ، وأحبهم إلى رسوله .

ورسم الإسلام للناس مناهج السلوك التي يسلكها الفرد في مجتمعه ، والفضائل التي يتحلّى بها . ومن جرى لسانه بالتبشير بالدين الجديد ، أو إذاعة تعاليمه فهو المحكوم على قوله بالصحة والسداد ، وهو المستثنى من الذين يتبعهم الغاوون الذين يهيمون في كل واد ، ويقولون ما لا يفعلون .

وعلى هذا الأساس وضع العهد الجديد مقياساً جديداً للشعر يقاس به ، بعد أن لم يكن هنالك مقياس ثابت معروف للحكم عليه ، ويقدر على مقدار حظه منه في أيام الجاهليين . وكان ذلك المقياس الجديد هو الدين ، ينظر إلى الشعر على ضوء هديه ، فما اتفقت فيه روح الشعر مع الدين فهو من الشعر في الذروة وما خالفه فهو من كلام الغواة الذي يكون شراً على صاحبه وعلى المجتمع كالقيح الذي يرد القلب .

زوبتلك النظرة الدينية كان الرسول ينظر إلى الشعر : ينشده نابغة بني جعدة قوله :

أتيتُ رسولَ الله إذ جاء بالهدَى ... ويتلو كتاباً كالمجرَّة نَيِّرا
بلغنا السماءَ مجدُنا وجدودُنا ... وإنا لنرجُو فوقَ ذلك مظهرا

فيسأله الرسول ـ وقد أحسن أنه يفخر فخر الجاهليين ـ : إلى أين يا أبا ليلى ؟ فيقول : إلى الجنة يا رسول الله ! : فيعجب النبي مقاله ، ويقول وهو مغتبط بتلك الروح التي هذبها الإسلام : « إلى الجنة إن شاء الله » .

ثم إذا أنشده :

ولا خَيْرَ في حِلْم إذا لم تكن لهُ ... بَوَادِرُ تحمِي صفوَه أن يكَدَّرا
ولا خيرَ في جهلٍ إذا لم يكنْ له ... حَلِيمٌ إذا ما أورَد الأمرُ أصْدَرَا

ناظراً إلى قول الله تعالى : ﴿ **خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن**

الجاهلين ﴾ وإلى قول الرسول : « ليس الشديد بالصُّرَعة ، وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » يزداد إعجاب النبي به ، ويدعو له بقوله « لا يفضُض الله فاك »[1] .

ومما يلائم هذا المذهب « النقد الديني » حكم رسول الله على قول لبيد :

* ألا كلُّ شيء ما خَلاَ الله باطلُ *

بأنه أصدق كلمة قالها شاعر[2] . وفي رواية أخرى[3] أن لبيداً أنشد أبا بكر رحمه الله قوله :

* ألا كلُّ شيء ما خَلاَ الله باطلُ *

فقال : صدقت ! قال :

* وكلُّ نعِيمٍ لا محالةَ زائلُ *

فقال : كذبت ! عند الله نعيم لا يزول ! .

ولما سمع رسول الله ﷺ بيت طرفة :

سَتبدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ويأتيكَ بالأخبارِ مَنْ لم تزوِّدِ

إستحسنه وقال : هذا من كلام النبوَّة .

وكان عمر بن الخطاب إذا أنشد قول زهير بن أبي سلمى :

فإنَّ الحقَّ مقطعُه ثلاثٌ يمينٌ ، أو نِفارٌ ، أو جِلاءُ

يعني يميناً أو منافرة إلى حاكم يقطع بالبينات ، أو جلاء ، وهو برهان

---

(١) الشعر والشعراء ١ /٢٤٨ .
(٢) شرح الأشموني ١ /٥٩ .
(٣) الموشح للمرزباني : ١٧ .

وبيان يجلو به الحق وتتضح الدعوى ، تعجب من معرفته بمقاطع الحقوق ، حتى قال بعض الرواة[1] : « لو أن زهيراً نظر إلى رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء ما زاد شيئاً على ما قال » .

* * *

تلك الأفكار التي ارتضاها الرسول وخلفاؤه من الشعراء هي الأفكار والإتجاهات التي تلائم روح الإسلام ، سواء أكانت روحاً دينية أم كانت روحاً أخلاقية . والدين والأخلاق يسيران دائماً في سبيل واحد ، ويهدفان إلى غاية واحدة ، هي صلاح العقيدة ، وصلاح المجتمع ، وتحصيل أسباب السّعادة في الدنيا والآخرة .

ولقد ظلت الفكرة الدينية في النظرة إلى الأدب سائدة ما دامت للدين المنزلة في القلوب ، وما دام سلطانه قويًّا على العقول ، فإذا كانت فترات للتحلل من قيود الدين ، والإنحراف عن أهدافه ، ضعف هذا المقياس ، وتلاشى بسبب ضعف الوازع الديني ، أو الوازع الخلقي .

ولقد سلك الخلفاء الراشدون وغيرهم من أهل التقوى والورع السبيل التي سلكها رسول الله ﷺ ، فأعلنوا رضاهم عن كل شعر فيه إشادة بالعقائد والأخلاق والمثل العليا التي رسمها الإسلام . وأبدوا سخطهم على كل قول يناهض تلك المثل الرفيعة التي رسمها الإسلام ، أو يشجع الرذائل ويشيع الفاحشة ومساوىء الأخلاق ، ويؤثر الدنيا على الآخرة .

وقد روي أن سحيم عبد بني الحساس أنشد عمر بن الخطاب قوله :

عُمَيرةَ ودِّع إن تجهّزتَ غاديا   كفى الشيبُ والإسلامُ للمرء ناهياً

فقال له عمر : لو كنتَ قدمتَ الإسلام على الشيب لأجزْتُك[1] .

---

(١) خزانة الأدب للبغدادي ٢ /١٢٨ .

(١) المبرد : الكامل ١ /٣٧٢ .

فاستحق الشاعر اللوم ، وحرم الجائزة مع أنه يذكر الإسلام ، ويبين أنه رادع للنفوس عن الإسترسال في النزوات ، ولكنه يقدم عليه شيئاً كان ينبغي في ضوء الفكرة الجديدة أن يؤخر .

وبهذه الروح استقبل إبنه عبدالله قول حسان بن ثابت الأنصاريّ :

يـأبَى لي السيفُ واللسانُ وقـو مٌ لم يُضـامُـوا كَلِبْـدةِ الأسـدِ

فقال ابن عمر[٢] : أفلا قال : يأبى لي الله ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله ؟!

* * *

مقياس الطبع وذم التكلف :

ويتصل بالنقد الديني لون آخر من النقد ، هو ذلك الذي يتصل بالطبع والتكلف ، وإنما ذكرناه هنا لأننا لم نجد له نظيراً في الكلمات التي سقناها في نقد الجاهليين ، فليس في كلام من أسلفنا كلامهم في الحكم على الشعر ما حكم فيه على شاعر بالتكلف .

وإنما وجدنا بين الظواهر الجديدة في العصر الإسلامي تلك النظرة للمرة الأولى . ذلك أن صفة السماحة والبساطة من الصفات التي غرسها الإسلام ، وتعهدها النبي وتابعوه في كل ما يصدر عن النفس ، ورسول الله ﷺ وصفه الله تعالى بأنه لم يكن من المتكلفين ، وهو الإمام المقتدى به ، وللمسلمين فيه الأسوة الحسنة .

وعلى هدى تلك السماحة كان خير القول في نظر النبي والخلفاء ما كان جارياً مع الطبع بعيداً عن مظنة الإستكراه ، وكان المعيب كل كلام غالى فيه صاحبه وتكلف ، فذمُّوا القول إذا كان فيه التقعير والتشادق ، فأبغض

(٢) القالي : ذيل الأمالي ١١٢ .

الخلق إلى الرسول ، وأبعدهم منه مجالس يوم القيامة هم الثرثارون والمتفيهقون ، والثرثارون هم أولئك الذين يكثرون الكلام تكلفاً وتجاوزاً وخروجاً عن الحق والمتفيهقون إنما هو بمنزلة قوله « الثرثارون » توكيداً له[1] .

ومما هو قريب من هذا قول الإمام علي : الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك ، وألا يكون في حديثك فضل عن عملك ، وأن تتقي الله في حديث غيرك[2] .

كما حذر ﷺ من تكلف الفصاحة بقوله « إياي والتشادق »[3] .

وقد كانت في الجاهلية طائفة من العرب تحترف الكهانة ، وتدّعي علم الغيب ، وفي سبيل ذلك كانت تتكلف القول ، وتتصنع السجع حين تخبر عن المغيبات ، حتى يكون لكلامها وقع عند ذوي النفوس الضعيفة فتصدقه ، لما تجد فيه من الغرابة ، لأنه كلام خارج عن مألوفها ، بعيد عما عهدته في استعمالها .

ولقد اختص هذا اللون من النثر باسم « سجع الكهان » ، تمييزاً له عن السجع المطبوع الذي يجيء عفواً من غير تعمل أو تكلف ، ومثل هذا السجع المطبوع الذي يزداد به الكلام حسناً ورد في كلام البلغاء ، وكانت له حلاوته وطلاوته ؛ بل إنه ورد في الكتاب الكريم ، وفي حديث رسول الله عذباً سائغاً غير ممجوج ولا مستكره .

أما السجع الممقوت فهو الذي يجري مجرى سجع الكهان ، وهو الذي عابه رسول الله ، ونقد الكلام إذا جرى على منواله . فقد أثر أنه أمر في دية الجنين بغرة عبد أو أمة ، فقال له الرجل : أأدى من لا شرب ولا أكل ،

---

(١) المبرد : الكامل ج ١ ص ٤ .
(٢) نهج البلاغة ٢ /٢٥٧ .
(٣) البيان والتبين : ج ١ ص ١٣

ولا نطق ولا استهل ، ومثل ذلك يُطلّ ؟! فقال رسول الله ﷺ : « أسجعاً كسجع الكهان ؟ » وكذلك كان الكهنة كلهم ، فإنهم كانوا إذا سئلوا عن أمر جاءوا بالكلام مسجوعاً[1] .

ومن هذا الضرب من النقد ما روي من أن سائلاً سأل عمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين أيظحيًّ بضبي ؟ قال : وما عليك لو قلت : ضحى بظبي ؟ قال : إنها لغة ! قال : أنقطع العتاب ، ولا يضحى بشيء من الوحش[2] .

فقد أنكر عمر على الرجل مخالفة الفصيح المعروف ، واستعمال الغريب من اللهجات ، وفي بعض الروايات أن عمر علاه بدرّته استنكاراً لتكلفه !

وهذا يدل على منزع جديد في النظر إلى الكلام ، هو إنكار كل محاولة للتكلف والتشدق ، والإعجاب بكل كلام سهل سمح ابتعد به صاحبه عن مظنة القسر والإستكراه . .

ومثل ذلك إعجاب عمر بشعر زهير بن أبي سلمى ، ووصفه إياه بأنه أشعر الشعراء ، لبعده عن الغلو ، وتجنبه الإسراف في مدح الناس ، فقد كان زهير كما يرى عمر « لا يمدح الرجل إلا بما فيه » وهذا مرجعه أن الإسلام دين القصد والإعتدال ، فقاس شعره بهذا المقياس . وقد سمع النبي رجلاً يثني على رجل ويطريه في مدحه ، فقال : أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل ! والله تعالى يقول : ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم** ﴾ ! .

كان هذا الذي ذكرناه شرعاً وتوجيهاً للكلام وللأدب ، ليساير تيار العصر الجديد ، ويلائم روح الإسلام في العقيدة والعمل ، وسماحته في العبارة والقصد في الغرض .

---

(١) ابن الأثير : المثل السائر ١ /٢٧٤

(٢) ذيل الأمالي : ١٤٢ .

وتلك التوجيهات في حقيقتها إنما هي أصول ومبادىء للنقد الأدبي الذي لم نعثر على أصل ثابت له في الجاهلية .

وحينئذ يكون في استطاعتنا أن نقرر أن الأسس الأولى والمبادىء العامة للنقد الأدبي قد أخذت في التميز والوضوح في صدر الإسلام بعد أن لم تكن هناك أسس واضحة ، أو معالم ثابتة يهتدى النقاد بهديها ، ويحكمون على الأدب بالجودة أو بالرداءة في ضوئها .

* * *

ولسنا نزعم أن تلك الأسس النقدية قد استوعبت كل جهات الفن الأدبي ، وحددت أركانه ، وجعلت لكل ركن من تلك الأركان حدوداً وشروطاً ، فقد بان مما سلف أن تلك الأصول النقدية التي غرست نواتها إذ ذاك كانت تقتصر على بعض ما يجب أن يراعي في الألفاظ ، باستعمال المتداول المألوف منها في أشهر اللغات وفي أفصح اللهجات ، ونفي كل ما ينم عن التكلف في الصياغة بالسجع الملتزم أو نحوه ، وتقتصر على بعض ما يراد من المعاني كالقصد في المدح وموافقة تلك المعاني للمعاني القرآنية وأصول العقيدة والمثل الأخلاقية التي رسمها الإسلام لحياة الفرد في أسرته أو في حياته العامة .

وقد نقل إلينا التاريخ صورتين من صور الإحتكام إلى العشراء في الحكم على الشعر ، وكلتا الصورتين كانت في عهد عمر ، وفي كلتيهما كان الحكم حسان ابن ثابت .

فقد كان الحطيئة جاور الزبرقان بن بدر ، فلم يحمد جواره ، فتحول عنه إلى بغيض بن عامر ، فأكرم جواره ، فقال يهجو الزبرقان ويمدح بغيضاً :

ما كانَ ذنبُ بغيضٍ أن رأى رجُلاً ذا حاجةٍ عاش في مُسْتَوْعرٍ شاسِ (١)

(١) شاس : يقال مكان شأس وشأز ، خشن من الحجارة أو غليظ ، وتسهل الهمزة مثل كاس كاس .

جَاراً لقومٍ أطالوا هُونَ منزلِهِ   وغادرُوهُ مقيماً بين أرْماسِ
ملُّوا قِراهُ وهرَّتْه كلابُهم   وجرّحُوهُ بأنيابٍ وأضْراسِ
دعِ المكارِمِ لا تَرْحَلْ لبُغيتها   واقعدْ فإنك أنتَ الطاعمُ الكاسِي

فاستعدى عليه الزبرقان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأنشده آخر الأبيات : فقال له عمر : ما أعلمه هجاك ! أما ترضى أن تكون طاعماً كاسياً ؟! قال : إنه لا يكون في الهجاء أشد من هذا ! ثم أرسل إلى حسان بن ثابت فسأله عن ذلك ، فقال : لم يهجه ، ولكن سلح عليه ! فحبسه عمر ، وقال : يا خبيث لأشغلنك عن أعراض المسلمين[٢] .

وكان النجاشي الحارثي هجا بني العجلان ، فاستعدوا عليه عمر بن الخطاب ، فسألهم : ما قال فيكم ؟ فأنشدوه قوله :

إذا اللَّهُ عادَى أهلَ لؤمٍ ورقةٍ   فعادَى بني العَجلان رهط ابن مُقبلِ

فقال له عمر : إنما دعا ، فإن كان مظلوماً استجيب له ، وإن كان ظالماً لم يستجب له ، قالوا : وقال أيضاً :

قبِّيلةٌ لا يغدرُون بذمةٍ   ولا يظلمونَ الناسَ حبَّةَ خردَلِ

فقال عمر : ليت آل الخطاب هكذا ! قالوا : وقد قال أيضاً :

ولا يَرِدُونَ الماءَ إلا عشيَّةً   إذا صَدَرَ الوُرَّادُ عن كلِّ مَنْهلِ

فقال عمر : ذلك أقلُّ لِلِّكاك[١] ! قالوا : وقد قال أيضاً :

تعافُ الكلابُ الضارياتُ لحومَهُمْ   وتأكلُ من كعب وعَوْفٍ ونهْشَلِ

فقال عمر : أجنّ القومُ موتاهم فلم يضيعوهم ! قالوا : وقد قال :

وما سمَّى العَجلَانَ إلا لقيلهم   خذِ القعبَ[٢] واحلبْ أيها العبد اعجلِ

---

(١) الشعر والشعراء ١ /٢٨٧ .
(٢) اللكاك ـ بكسر اللام ـ الزحام .
(٣) القعب القدح الضخم الغليظ الجافي .

فقال عمر : خير القوم خادمهم ، وكلنا عبيدالله ! ثم بعث إلى حسان والحطيئة ، وكان محبوساً عنده ، فسألهما ، فقال حسان مثل قوله في شعر الحطيئة ، فهدد عمر النجاشي ، وقال له : إن عدت قطعت لسانك(٣) .

ويظهر عمر في كلتا القصتين بمظهر الرجل الذي لا يعرف الشعر ؛ ولا يدرك مراميه البعيدة ، ولا الهجو المقنّع الذي حاول الشاعر بمهارته ألا يجعله صريحاً سافراً ، فستره وراء عباراته ، أو وراء كناياته .

ولسنا نحسب عمر الذي كان يستنشد الشعر ، ويعجب به ، ويفاضل بين شعر وشعر ، وشاعر وشاعر ، ويشيد بالمجيدين من الشعراء ، والذي بلغ من حبه للشعر وتقديره له أن يكتب إلى أبي موسى الأشعري : « مُر من قبلك بتعلم الشعر ، فإنه يدلّ على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب » . ولا نحسب أن يخفي على فطنته ، وهو العربي الصميم المشهود له بصحة الفهم وصدق الفراسة ؛ ما في تلك الأبيات من الهجاء المقذع .

ولكنا نرى في كلماته للزبرقان بن بدر ولبني العجلان شيئاً من هذا الذي يسمى « تجاهل العارف » الذي يريد ألا يطيل أمد الخصام ، ويوسع شقة الخلاف بين المتنازعين ، لئلا يتمادى الشاكون في خصومتهم ، ويتشددوا في طلب العقوبة ، فعل عمر ذلك لتقبر الفتنة في مهدها ، وفي سبيل ذلك حاول أن يصرف القول ، ويحمل الشعر على أحسن جهاته التي يمكن أن يصرف إليها .

فلما رأى الإصرار على فهم الشعر على الوجه الذي يصرح بالشر أراد ألا ينفرد بالحكم ، فاستعان كعهد المسلمين به في كل مشكل من المشاكل التي تحزبهم بالخبراء ، والتمس التأييد من الشعراء الذين عركوا فن الشعر وخبروه ، فكان رأيهم هو الرأي الذي كان قد استقر في نفسه ، وإلا فما كان

الشعر والشعراء ١ /٢٩١ .

لعمر أن يهدد النجاشي بقطع لسانه ، أو أن يغيب الحطيئة في ظلمات السجون لتلك الكلمة الموجزة التي قالها حسان .

وإذا كانت غاية النقد إصدار الحكم على العمل الأدبي ، فإن كلمات عمر تعد من النقد في الصميم ، فقد جاءوا إليه يلتمسون تأييده في هجاء الشاعر إياهم وإنزال العقوبة به ، فبدا في أول الأمر أن رأي عمر يخالف ما ذهبوا إليه فزعم لهم أن ما رأوه هجواً في هذا الشعر يمكن أن يعد مديحاً ، وتمنى أن لو كانت بعض تلك الصفات التي رماهم بها الشاعر في خاصة آله . ولا شك أنه يحسب في النقد الموضوعي ذلك البحث عن معاني الأشعار والحكم عليها .

* * *

على أننا لا نجد في كلمة حسان الذي يعرف مداخل الشعر ، ودخائل الشعراء ، وأساليبهم في الكناية والتعريض شيئاً جديداً يظن أنه أثر العهد الجديد بل نجد فيها الإيجاز الذي رأيناه في أحكام الجاهليين . ولم نر منه محاولة لتقوية حكمه بحجة واحدة يدعم بها ما قال .

وذلك إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن روح النقد في الفترة الأولى للإسلام لم تبعد كثيراً عن روح النقد في الجاهلية من القصد إلى الإيجاز في العبارة وعدم محاولة البحث عن الأسباب الموجبة للإستحسان أو الإستهجان ؛ لأن الأذواق كانت لا تزال قريبة من فطرتها الأولى .

وإن كان من المنتظر أن تتسع دائرة النظرة الموضوعية بتأثير الإسلام والقرآن وكلاهما يحث على البحث والتفكير ، ويشجع الإستدلال العقلي على صحة الرأي ، كما شجعا الإستدلال العقلي على سلامة العقيدة .

ولكن يبدو أن انصراف المسلمين إلى الفتح والجهاد ، فإذا خلوا فإلى العبادة والنسك ، هو الذي صرفهم عن إنعام النظر في الأدب وإعمال العقل في استخلاص عناصر الحكم . والتفكير في الأسس الفنية التي يسمو بها

العمل الأدبي ، اللهم إلا تطبيق تلك الروح الدينية والخلقية التي أشرنا إليها فيما سبق .

* * *

وفي سبيل الإحصاء ومحاولة الإستقصاء لا يفوتنا أن نشير إلى رأي عمر في شعر زهير بن أبي سلمى . فقد روي أنه قال : أنشدوني لأشعر شعرائكم فقيل له : ومن هو؟ قال : زهير ، قيل : وبم صار كذلك ؟ قال : « كان لا يعاظل بين القول ؛ ولا يتبع حوشى الكلام ، ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه » .

وفي رواية أخرى أن عمر قال لابن عباس : أنشدني لشاعر الشعراء الذي لم يعاظل في القوافي ، ولم يتبع وحشي الكلام ؛ قال : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : زهير . فلم يزل ينشده إلى أن برق الصبح[1] .

وكلام عمر هذا من النقد الموضوعي في الصميم ، فقد بني حكمه على نفي المعاظلة[2] عن شعر زهير ، ووصفه بالسماحة في اختيار الألفاظ ، ومجانبة التوعر والتعقيد ، كما مدحه بالإعتدال في المديح ، والبعد عن

---

(١) الشعر والشعراء ١ /٨٦ ، ٨٧ ، ٩٣ .

(٢) لا يعرف قدامة المعاظلة إلا فاحش الإستعارة مثل قول أوس :

وذات هدم عار نواشرها ... تصمت بالماء تولبا جدعا

فسمي الصبي تولبا ، والتولب ولد الحمار . ومثل قول الآخر :

وما رقد الولدان حتى رأيته ... على البكر يمريه بساق وحافر

فسمي رجل الإنسان حافراً ، فما جرى هذا المجرى من الإستعارة قبيح لا عذر فيه (نقد الشعر ١٧٤) .

قال أبو هلال : وهذا غلط من قدامة كبير ، لأن المعاظلة في أصل الكلام إنما هي ركوب الشيء بعضه بعضاً ، وسمي الكلام به إذا لم ينضد نضداً مستوياً ، وأركب بعض ألفاظه رقاب بعض ، وتداخلت أجزاؤه ، تشبيهاً يتعاظل الكلاب والجراد . . وتسمية القدم بحافر ليست بمداخلة كلام في كلام وإنما هو بعد في الإستعارة (كتاب الصناعتين : طبعة الآستانة ص ١٢٢) .

وذكر أبو زيد القرشي أن « المعاظلة » هي أن يتردد الكلام في القافية بمعنى واحد (جمهرة أشعار العرب ٣٢) ـ وأنظر كتابنا (قدامة بن جعفر والنقد الأدبي) الطبعة الثانية ٢٠٤ ، وكتابنا (علم البيان) ١٥٦ .

الإطراء والمغالاة في الثناء . وكلمة عمر هذه هي أقدم النصوص التي وصلت إلينا من حيث اعتمادها على تفصيل أسباب اختيار الشعر ، وتفضيل الشاعر ، وعلى الرغم من قدمها فإنها تضع مقاييس صالحة يقاس بها الأدب ، فقد تناولت أهم أركان الشعر ، وهي أساليبه ومعانيه . وظلت تلك المقاييس نواة للنقد الأدبي في عصور الأدب العربي حتى عصرنا الحاضر .

وليس في نقاد الأدب العربي من لم يحذر من التوعر والتعقيد ، فبشر بن المعتمر « توفي سنة ٢١٠ » في صحيفته المشهورة في البلاغة يرى أن التوعر يسلم إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك المعاني ويشين الألفاظ .

وليس فيهم من لم يذم اللفظ الحوشي والغريب ، والجاحظ يلوم الأدباء والكتاب أشد اللوم ، لأنه رآهم « يديرون في كتبهم هذا الكلام ، فإن كانوا إنما رووه ودوّنوه لأنه يدل على فصاحة وبلاغة فقد باعده الله عن صفحة الفصاحة والبلاغة !

وإن كانوا قد فعلوا ذلك لأنه غريب فأبيات من شعر العجّاج وشعر الطّرمّاح وأشعار هذيل تأتي لهم مع الرصف الحسن على أكثر من ذلك ، ولو خاطب أحد الأصمعيّ بمثل هذا الكلام لظننت أنه سيجهل بعضه !» .

أما المبالغة في الصفات فكثير من نقاد الأدب العربي يعيبونها مع اختلاف بيئاتهم وثقافتهم .

وعلى هذا فإن كلمة عمر يمكن أن تعد أول بارقة في النقد الأدبي ، وأول أساس للنظر في الأدب نظرة موضوعية ، ولولا الإيجاز الملحوظ في العبارة ، وهو ما عهدناه في كلام عمر ، وفي أسلوب عصره ، لقلنا إن تلك العبارة أشبه شيء بكلام المختصين من النقاد الذين وقفوا أنفسهم على تلك الصناعة ، وليست لخليفة تشغله أمور الدولة ، وتجهيز الجيوش ، ونشر الدين ، وإقامة الحدود عن مثل هذا التعمق في فهم عناصر الفن الأدبي .

* * *

ذلك أهم ما يجده الدارس من الآثار النقدية في المرحلة الأولى للإسلام التي يمكن أن تسمى « فترة الإنتقال » أو « مرحلة الجهاد » . لاقتلاع جذور الوثنية وغرس العقيدة الإسلامية وما يتصل بها من المثل الأخلاقية والإجتماعية في القول والعمل في عهد كان النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون يعملون فيه على إسعاد المسلمين في الدنيا والآخرة ، وكان رسول الله فيهم كأحدهم لا يستأثر بخير ، ولا يؤثر به واحداً من آله أو صحبه ؛ ولم يُنْفِقَ شيء من أموال المسلمين إلا فيما يعود على مجموعهم بالخير ، ويخفف عن معسريهم آلام العوز والحرمان ، ورضي منه المسلمون بذلك ، فلم تتطلع نفوسهم إلى ما ليس من حقهم ، ولا إلى أكثر من حقهم ، ولم تخدعهم مفاتن الدنيا الزاهية ولا زخارفها الفانية ، بل لقد كان أحبهم إلى رسول الله وأقربهم إلى نفسه أكثرهم زهادة فيما بين يديه من أموال المسلمين وطمعاً فيما عند الله مما هو خيرٌ وأبقى(*) .

(*) من أراد الإستزادة والفائدة فليراجع كتاب « دراسات في النقد الأدبي » للدكتور بدوي طبانة ، فهو كتاب شامل ومفيد .

تمهيد

في أصول دراسة النص الأدبي وتذوقه

من كتاب « نصوص مختارة من الأدب الإسلامي والأموي »

للدكتور وهيب طنوس .

إنه لمن الواجب علينا قبل أن نتصدَّى لدراسة النصوص المقررة في المنهاج ، والتي اخترناها من عيون الأدب الإسلامي والأموي ، ممثِّلة الإتجاهات ، والتيارات المختلفة ، أن نفهم فهماً واعياً كنه هذه العملية العقلية الجمالية التي نقدم عليها ، لتتّضِح في أذهاننا مقوّمات دراسة النص الأدبي ، فتكون أمام أعيننا ، تدلنا على الطريق وتقود خطواتنا وتحرسها من الإستطراد والتيه والضلال .

ذلك لأنه عندما يطلب إلى الطلاب دراسة أحد النصوص الأدبية يقف الكثيرون منهم حائرين لا يعرفون ماذا يفعلون ، حتى إذا تغلّبوا على حيرتهم راحوا يشرحون معاني النص ويكتبون كلاماً عاماً يحفظونه ، يحسبون أنه يكفيهم عناء البحث في أفكار النصوص وأساليبها ، ويختمون (دراستهم) بأحكام عامة عريضة واسعة تنطبق على كل نص ويتسع لها صدر كل أديب ، من شاعر أو ناثر .

إن دراسة النص وتذوقه عملية جمالية ، تبرز لنا عند تحليلها وتبسيطها هذه الخطوط الرئيسية الأربعة : **قراءة النص قراءة صحيحة** ، **فهم أفكاره ومعانيه** ، **وصفه** ، **نقده** ، وهذه الخطوط هي المقومات الأساسية لدراسة

النص وتذوقه ، كما يحرص الدارسون على توفيتها حقّها في دراساتهم للنصوص ، وإن تنوّعت أساليب دراستهم ، وتعدّدت الطرق التي يسيرون فيها . ومن هنا نرى خطأ بعض الباحثين ممن يحاولون أن يرسموا لدراسة النصوص الأدبية منهاجاً عاماً موحداً ، ذلك أن في تفريغ كل نص داخل هذا القالب الموحد الرتيب تَعَسُّفاً ظاهراً ، وهدراً لأصالة الدارس ، وحداً ظالماً من إبداعه وحريته ، فلنطلق يد الدارس إذاً من كل قيد ما دام يعي تلك المقومات الأساسية وعياً كاملاً .

غير أن الطلاب ، قبل أن يكتمل وعيهم لهذه المقومات ويحسنوا التصرف في دراساتهم الأدبية للنصوص على ضوئها ، هم في حاجة إلى أن يتمرسوا بدراسة عدد من النصوص الأدبية ، يسيرون فيها على منهاج مرسوم ، يأخذ بأيديهم ويمهد لهم الطريق ، ولهؤلاء الطلاب دون غيرهم ، ننصح بأن يستعينوا بالمنهاج التالي :

١ ـ وضع النص الأدبي في إطاره العام

ونعني بذلك تقديم لمحة عن عصر الأديب وبيئته وحياته ، مما له علاقة شديدة بالنص ، ثم الحديث عن مناسبة ظهور النص والتعريف الموجز بشخصياته وغرضه وموضوعه .

٢ ـ فهم النص

ونريد بذلك تقديم شرح للنص يوضح غامضه ويربط بين أجزائه ، ثم عرضٍ للأفكار الرئيسية الكبرى فيه .

٣ ـ امتحان الأفكار والمعاني

من حيث جدَّتها ، وتعبيرها ، وتمثيلها للإتجاهات الأدبية ، أو تأثرها بالواقع السياسي والثقافي ، ثم موقع هذه الأفكار في سلّم التطور ؛ أهي تقليد للماضي أم تجديد كامل ، أم تجديد في إطار التقليد ؟، ثم تسلسل

الأفكار ومدى ارتباطها ومدى ارتباطها فيما بينها ، والطريقة التي عرضت بها : أهي عقلية تستند إلى البراهين والأدلة ؟ أم عاطفية تعتمد إثارة القارىء والتأثير في وجدانه ؟

٤ ـ امتحان الأسلوب

امتحان الألفاظ : من حيث سهولتها وجدتها وشاعريتها وإيحاؤها ومناسبتها للمعنى ، وامتحان التراكيب : من حيث صحتها وعدم تنافر أجزائها ومتانتها ، وامتحان الصور والأخيلة : من حيث كثرتها وقلتها ونوعها ومصادرها وصلتها ببيئة الأديب وجدتها ومدى توفيقه فيها ، ثم ملاحظة المبني والمعنى متلازمين وما ينتج عن ذلك من إيجاز أو إطناب أو مساواة ، ومن تأخير أو تقديم ، ومن إيثار التعبير المباشر الذي لا يعني بكثرة الصور والتشابيه ، ومن اصطناع القصص اليسير والحوار مما يزيد الأسلوب حياة وحركة وتأثيرا . مع تعريج على العاطفة ودرجتها ، ومقدار نجاح الأديب في التعبير عنها .

٥ ـ خصائص النص

وهنا نكثف مجمل الخصائص التي لاحظناها فيما قدّمنا من الدراسة لنرى المميزات الأصيلة التي يمتاز بها ، والتي تساعدنا على إصدار الأحكام الصحيحة عليه .

٦ ـ الحكم على النص

وهو الجزء الذي تظهر فيه مقدرة الطالب على فهم كل أبعاد النص وتمثيله أو عدم تمثيله لبعض جوانب عصره الأدبية ، أو الفنية الإجتماعية . . . الخ . ونتحدث فيه عن أثر النص في نفوسنا ومدى توفيق الأديب في أثره ، وقيمة هذا الأثر بين إنتاجه ، وقيمته بالمقارنة بما في آثار غيره من نصوص مشابهة . وموقع هذا النص عامة من مستوى التطور

الأدبي : أعلى العفوية قام ، أم على التصنُّع ؟ أصوَّر الواقع الإجتماعي الذي كان سائداً في بعض التجمعات الإجتماعية ، أم كان بعيداً عن ذلك ؟ ما القيم الجديدة التي أعطانا إياها هذا النص ؟ وما الإتجاهات الأدبية ، والفنية التي عبّر عنها ؟ أكان صورة لبعض تيارات العصر الفكرية والإجتماعية والإقتصادية أم كان تقليداً لما عرفه العرب في المراحل السابقة ؟ إلى ما هنالك من تقويم عقلي واعٍ ، ودراسة منطقية مترابطة ، تأتي الأحكام فيها نتيجة لترابط أفكار الدارس وفهمه ، وصورة عن استيعابه لمجمل الحركة الأدبية في عصر ذلك النص ، وما سبق ذلك العصر ، وما تلاه في هذا المجال .

والذي يمكن أن نسأله : ما الذي تركنا للأصالة الفردية والنبوغ الشخصي إذا نصحنا الطلاب أن يترسّموا في دراستهم للنصوص الأدبية هذه العناصر العامة الموحّدة ؟

والجواب : إن هذه العناصر المرسومة ـ كما قدَّمنا واحترسنا ـ هي أداة للتمرين يتمرّس بها الطلاب حتى يتهيأ لهم الإنطلاق الحر بمواهبهم وأصالتهم . ومهما يكن فمجال الأصالة والنبوغ يظل على كل حال مبسوطاً ، ذلك لأنه مرتبط بقدرة الدارس على تذوق النص .

وما التذوق إلاّ ذلك التفاعُل النفسي ، والتجاوب الوجداني بين النص الأدبي ودارسه ؛ ذلك التجاوب الذي يجعل من الأدب أداة صالحة للحياة ، وتعبيراً عن التجارب الإنسانية الخالدة ، وبهذا التجاوب يسهل على الدارس أن يكشف عن مواطن الجمال في الأثر الأدبي ، وأن يحدد على ضوئها قيمته الفنية والإنسانية والإجتماعية .

ولكي نتذوق الأثر الأدبي تذوقاً فنياً صالحاً وندرك قيمته الجمالية ، يجب أن تكون نظرتنا إليه سليمة ، أعني ألا نحاول محاولات عقيمة في تحليل النص إلى عنصري المبني والمعنى لنتلمس من بعد القيمة الجمالية

لكل منهما ، وهل نحن الآن في حاجة إلى التذكير بأن هذا التحليل السطحي بدأبه منذ القرن الهجري الثالث ابن قتيبة في مقدمته النقدية الخصبة لكتابه في (الشعر والشعراء) عندما قسّم الشعر إلى أربعة أضرب تقوم كلها على أنه لا يرى في الشعر غير عنصري اللفظ والمعنى ؟ إن تقسيمات ابن قتيبة هذه كبّلَتْ أذهان النقاد العرب بعده حتى القرن الخامس الهجري ، فما استطاعوا الخروج عليها حتى جاء ابن رشيق فهدَّم الحد الفاصل بين اللفظ والمعنى ، وأعلن في تمثيل حيٍّ أن « اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوته » . وفي القرن الخامس نفسه يقف عبد القاهر الجرجاني إلى جانب ابن رشيق ، ويتعمّق بتحليل المسألة وينتهي إلى أن ما يُخَيّل للناظر في أثر أدبي أول وهلة أنه جمال في المبني إنما هو في الحقيقة جمال في المعنى أيضاً . فالجمال عنده في التركيب . أو في (النظم) كما يسميه .

ولكن الغريب أن نجد إلى اليوم ، وفي كثير من مدارسنا ، تأثير ابن قتيبة وتحليله ، وأن تضيع جهود ابن رشيق والجرجاني عند أكثرنا ، مع أن كتب (العمدة) و(دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) لها كلها طبعات كثيرة منتشرة .

أن نُقَسِّم الشعر أو النثر إلى عناصر ، شيء جميل بحد ذاته ، ولكن الخطورة تكمن في الحكم على كل عنصر بمفرده ، فالأثر الأدبي (كل) فني من الصعب تجزئته إلى عناصر ، وتقدير القيمة الفنية لكل عنصر منها ، والتذوق السليم يجب أن يتبنى هذه النظرة الصحيحة .

ولكي يؤتي التذوق الفني ثمرته ، يجب أن يصحب بتذوق إنساني كامل ، وللتذوق الإنساني سبيلان : أولهما شحذ الحساسية وإرهافها وتقوية الإنفعال وتثقيفه ، وثانيهما أن نتذكّر عند قراءة الأثر الأدبي تجاربنا المماثلة التي مرت بنا ونحاول أن نتفهم من خلالها تجارب الكاتب أو الشاعر التي يصفها

وهذا التذوق النفسي وضعٌ للأثر الأدبي في مكانه من الحياة ، وما الأدب إلا تعبيرٌ حيٌ ممتاز عن تجارب الحياة الإنسانية ، مهمته أن يذكرنا بتجاربنا نحن ، ويساعدنا على فهم مشكلات حياتنا ، ويرسم لنا انفعالات نفسيّاتنا ، وظلال خواطرنا ، ويزيدنا شعوراً بعواطفنا وتقديراً لها ، فالتذوق الإنساني للنص الأدبي تأدية لرسالة الأدب بصورة عادلة ، على ضوء تجاربنا نحن ، من جهة أخرى .

ونستطيع أخيراً أن ننتهي إلى أن هنالك عاملين هامين يجعلان تذوق النص الأدبي مرتبطاً كل الإرتباط بهما ، وتابعاً في فقره أو غناه لهما ، وهما العامل الثقافي والعامل الحياتي ونريد بالأول ما يلم به القارىء من ألوان المعارف والعلوم والفنون كالإطلاع على الفلسفة وعلى علم الجمال والإجتماع والتاريخ والموسيقى والنحت والرسم والتصوير ، ونريد بالثاني تربية العاطفة ودقة الإنفعال وثروة الدارس الشخصية من تجارب الحياة الإنسانية ، من كثرتها وتعددها ، أو قلتها ورتيباتها وكلما كان حظ القارىء من هذين معه أقوى ، وإحساسه بعمق التجربة أدق ، وإدراكه لقيمته الفنية والإنسانية أشد ، وهنا تتفاوت إمكانات الدارسين وتبدو الأصالة الشخصية ويتميز النبوغ الفردي .

إذا استطعنا أن نتذوق عدداً من النصوص الأدبية هذا التذوق الفني الإنساني الكامل الصحيح ، قوي إحساسنا بالجمال دقة ورهافة ، وسهل علينا من بعد أن تكون دراساتنا الأدبية للنصوص أكثر خصباً وأغنى فائدة وأوفر أصالة وعمقاً ، وأكثر تعبيراً عن مجمل الحركة الأدبية .

من عبير الشعراء

عَبدالله بنُ رَواحَة

الخطوط الرئيسة في حياته :

عبدالله بن رواحة أنصاري ، خزرجي الأب والأم ، فهو ينتسب إلى فرع بني الحارث المشهور ، وفي أجداده رياسة وفروسية وتضحية .

نشأ الشاعر في المدينة نشأة أبناء السراة الأغنياء في الجاهلية ، فكان يقرأ ويكتب منذ صغره ، والكتابة آنذاك نادرة إلا في البيوتات الكبيرة ، وقد قرض الشعر صغيراً حتى إذا صلب عوده أصبح يناقض شاعر الأوس قيس بن الخطيم في الأيام التي كانت بين الأوس والخزرج في الجاهلية . فكان كل من الشاعرين يتغزّل بأخت الثاني ، نكاية ومناقضة ، وعندما جاء الإسلام انضم عبدالله بعد إسلامه إلى النبي وصار يكتب له ، وأصبح من ألمع صحابة الرسول عليه السلام شخصية وأثراً .

كان عبدالله بن رواحة مع السبعين من الأنصار في بيعة العقبة الثانية ، وهو أحد النقباء الإثني عشر الذين أقامهم النبي عليهم ، وقد حضر بدراً وأوفده النبي بعد النصر إلى المدينة ليبشر الأنصار بهزيمة قريش ، وحضر موقعة أحد وأبلى بلاء حسناً ، ورثى حمزة عم النبي ، وعندما خرج النبي إلى بدر الموعد استخلف على المدينة عبدالله ، فظل ست عشرة ليلة أميراً للعاصمة الإسلامية الأولى .

وشهد عبدالله الخندق وكان يتغنّى برجز في مدح النبي ، والقوم يحفرون وينقلون التراب ، كما كان يرتجز للمسلمين وهو آخذ بزمام ناقة النبي في عمرة القضاء وفي داخل الحرم .

وعندما بعث النبي الجيش إلى مؤتة (من عمل البلقاء بالشام دون دمشق) ، أوفد معه عبدالله ليكون القائد الثالث بعد زياد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب ، واستشهد هنالك في السنة الثامنة للهجرة (حوالي ٦٣٠ م) .

ملامح من شخصيته :

من الصعب أن نلتمس ، فيما وصل إلينا من أخبار عبدالله وشعره القليل ، صورة واضحة المعالم عن شخصيته ، وإنما هي ملامح سريعة يمكن استقراؤها مما قدَّمنا عن حياة الشاعر ، فقد كان عبدالله مؤمناً شديد الإيمان (في حديث أبي الدرداء قال : لقد رأيتنا مع رسول الله في بعض أسفاره في اليوم الحار الشديد حتى إن الرجل ليضع من شدة الحرِّ يَدَه على رأسه وما في القوم صائم إلا رسول الله وعبدالله بن رواحة) « الإستيعاب ١ ـ ٣٦٢ » . وكان عبدالله شديد الإخلاص للنبي ، يروي حديثه ، وكان شجاعاً جريئاً يذب عن النبي بسيفه وبشعره ، ويعيّر المشركين بالكفر ، قوي الشخصية ، أثيراً عند النبي ، فيه من المزايا ما يؤهله لإدارة المدينة وما يجعل النبي يستخلفه أميراً عليها خلال غيابه في إحدى غزواته .

شعره :

لم يبقَ لنا من شعر عبدالله شيء كثير ، وأكثر الشعر المنسوب إليه في سيرة ابن هشام يثير المؤلف حول نسبته إلى عبدالله شكوكاً كثيرة ، فكأَنَّ شعره قد ضاع ، وقد طبع ديوان ابن رواحة في القاهرة سنة ١٩٧٢ ، وجمعه من المصادر المطبوعة : الدكتور حسن محمد باجودة ، وزاد عدد أبياته على (١٥٠) بيتاً

(النص)

قال عبدالله بن رواحة يمدح النبي العربي* :

نُجَالِدُ النّاسَ عن عُرْضٍ فَنَأسِرُهُمْ
فينا النبيُّ وفينا تَنْزِلُ السُّوَرُ(١)
وقد علِمْتُم بأنّا ليسَ غالِبَنَا
حيٌّ من الناس إنْ عَزّوُا وإن كَثُرُوا
يا هاشِمَ الخيرِ إنَّ اللّهَ فَضّلَكُمْ
على البريّةِ فضلًا ما له غِيَرُ(٣)
إني تَفَرَّسْتُ فيك الخير أعرِفُه
فِرَاسَةً خالَفَتْهُمْ في الذي نَظَرُوا(٤)
ولو سألْتَ او استَنْصَرْتَ بعضَهُمُ
في جُلِّ أمْرِك ما آوَوْا ولا نَصَرُوا
أنتَ النبيُّ ومَنْ يُحْرَمْ شِفاعَتَه
يومَ الحسابِ فقد أزْرَى به القَدَرُ(٦)
فَثَبَّتَ اللّهُ ما آتاك من حَسَنٍ
تَثْبِيتَ موسى ونَصْراً كالذي نُصِرُوا(٧)

وقال ابن رواحة يبكي حمزة عم الرسول :*

بَكَتْ عيني وحقَّ لها بُكَاها
وما يُغْنِي البكاءُ ولا العَوِيلُ

(*) سيرة ابن هشام ، القسم الأول ؛ وأنظر : ديوان ابن رواحة ، ص ٩٣ - ٩٤ .
(١) عن عرض : عن ناحية ، يريد أنهم لا يبالون من يضربون .
(٣) غير : تغيير .
(٤) تفرست : علمت بالفراسة ، وقد شهر بها البدوي العربي .
(٦) أزرى به : حقره .
(١) يقصد الرسل .
(*) ابن رواحة ، ديوان ، ص ٩٨ - ٩٩ .

عــلى أَسَــدِ الإلــهِ غـداةَ قــالُــوا
أحمــزةُ ذاكُمُ الــرجــلُ الـقتيــلُ
أُصِيبَ الـمسـلمـون بــهِ جـمـيعــاً
هناك وقـد أُصِيبَ بـه الرسـولُ
أبــا يَـعْـلَى لــك الأركــانُ هُــدَّتْ
وأنتَ المــاجدُ البَــرُّ الــوَصُــولُ(١)
عـليــكَ سـلامُ رَبِّــك فـي جِنـانٍ
مُـخَـالِـطُهـا نـعـيمٌ لا يـزولُ
ألا يـا هــاشمَ الأخيــارِ صـبــراً
فـكــلُّ فِعــالكم حَسَنٌ جـميــلُ
رســولُ الـلَّهِ مُـصْـطَبِرٌ كــريــمٌ
بــأمــرِ اللَّهِ ينـطِقُ إذ يـقــولُ
ألا مَــنْ مُــبْـلِغٌ عــنّـي لــؤيّــاً
فـبـعــدَ الـيــومِ دائِـلةٌ تــدولُ(٢)
وقبــلَ اليومِ مــا عَـرَفُــوا وذاقُــوا
وقــائِـعَنــا بـهــا يُشْفَى الـغـليــلُ
نَسِيتُمْ ضَــرْبَنــا بِقَــلِيبِ بَـدْرٍ
غــداةَ أتــاكُمُ المــوتُ العَجيــلُ (٣)
غــداةَ ثـوى أبــو جهـلٍ صــريعــاً
عليــه الـطيــرُ حــائمــةً تجــولُ (٤)

---

(١) البر : العطوف ، الصادق . الوصول : مبالغة اسم الفاعل من واصل . وواصل رحمه صلة : برهم وأحسن إليهم .

(٨) دائلة : من دالت الأيام : دارت ، يريد الحرب .

(٣) القليب : البئر ما كانت .

(٤) أبو جهل : قائد المشركين في مكة ، وهو أعظم مناوىء للنبي .

وَعُــتْبَــةُ وابــنُــه خــرَّا جــمــيــعــاً
وَشَيْبَــةُ عَضّــهُ السيفُ الصّقيــلُ(١٢)
وَمَــتْــرَكُــنَــا أُمــيــةَ مُــجْــلَعِــبّــاً
وفــي حــيــزومِــه لَــدْنٌ نــبــيــلُ(١٣)
وهــامَ بــنــي ربــيــعــةَ ، ســائــلوهــا
فــفــي أســيــافِــنــا مــنــهــا فُــلولُ(١٤)
ألا يــا هــنــدُ لا تُبْــدِي شــمَــاتــاً
بــحــمــزةَ إنّ ع؟ءكــمُ ذَلــيــلُ(١٥)
ألا يــا هــنــدُ فــابــكــي لا تَــمــلّــي
فــأنــت الــوالِــهُ الــعَبْــرى الهَبُــولُ(١٦)

---

(١٢) جاء في سيرة ابن هشام طبعة ١٩٥٥ م القسم الأول (ص ٦٢٥) ما يلي : (دعاء عتبة إلى المبارزة) : (قال : ثم خرج عتبة بن ربيعة ، بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة ، حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة ، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة ، وهم عوف ، ومعوذ ، إبنا الحارث ـ وأمهما عفراء ـ ورجل آخر ، يقال : هو عبدالله بن رواحة ، فقالوا : من أنتم ! فقالوا : رهط من الأنصار ، قالوا : ما لنا بكم من حاجة . ثم نادى مناديهم : يا محمد ، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فقال رسول الله ﷺ : قم يا عبيدة بن الحارث ، وقم يا حمزة ، وقم يا علي . . . فبارز عبيدة ، وكان أسن القوم ، عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة ، وبارز علي الوليد بن عتبة . أما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله ، وأما علي فلم يمهل الوليد فقتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين ، كلاهما أثبت صاحبه (جرحه جراحة لم يقم معها . .) وكر حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فذففا عليه (أجهزا عليه وقتلاه) ، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه) .

(١٣) أي : هل نسيتم متركنا . المجعلب : الشريد ، المضطجع . حيزوم : ما اكتنف الحلقوم

(١٤) فلول : من فل القوم : أي هزمهم وهم فل وربما قالوا : فلول .

(١٥) هند : أم معاوية وزوج أبي سفيان ، وهي التي رغبت (وحشياً) بقتل حمزة في موقعة أحد ، ويروى أنها لاكت كبد حمزة بعد مقتله . ثم إن وحشياً أسلم وقتل بعد ذلك مسيلمة الكذاب ، وقال : « قتلت خير الناس وشرهم » .

(١٦) الواله : الحزينة . العبرى : الباكية . الهبول : الثكول التي لا يبقى لها ولد .

كَعْب بن مَالك

الخطوط الرئيسة في حياته :

كعب بن مالك أنصاري خزرجي ، ينتسب إلى بني سلمة من الخزرج ، وهو شاعر مجيد من شعراء المدينة ـ كما يذكر ابن سلّام ـ ولا نعرف عن حياته في الجاهلية شيئاً كثيراً ، غير اشتراكه في معارك قبيلته في المدينة .

اعتنق كعب الإسلام قبل هجرة النبي ، وحضر بيعة العقبة الثانية وقد أصبح كعب من شعراء النبي ، يشارك عبدالله بن رواحة وحسان بن ثابت في تمجيد انتصارات المسلمين والرد على أعداء الدعوة وخصومها ، ولم يحضر كعب غزوة بدر ، ولكنه شهد أكثر الغزوات الأخرى ، وقد جرح في غزوةأحد ودافع عن النبي دفاعاً مجيداً ، (راجع المقريزي ١ ـ ١٢٩) وهو الذي لقي النبي جريحاً في أُحُد ، وقد ظنه الناس مقتولاً .

كان كعب أحد الرجال الثلاثة الذين تخلفوا عن تبوك (هو وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع) فأوصى النبي المسلمين بألا يكلموهم ، ولكن كعباً أظهر توبته وندمه ونال بعد لأيٍ عفو النبي . ونزلت توبتهم في الآية « وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا . . . . » .

وبعد موت النبي انحاز كعب مع حسان إلى عثمان ، وأصبح من أنصاره ، وقد رثاه بعد قتله وجافى عليّاً ، ومات بعد أن فقد بصره سنة **٥٣** هـ وقيل سنة **٥٩** هـ في خلافة معاوية .

ملامح من شخصيته :

كان كعب قوي الإيمان عميقه ، أسهم بسيفه ولسانه في الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه ، وقد كان مُقَرَّباً من النبي لإخلاصه وصدقه ، وقد شهد أكثر غزوات النبي ووصفها في شعره ، وأبلى في الحروب بشجاعة وإيمان ، ويعدّ تخلفه عن تبوك من أهم الأحداث الخطيرة في حياته . وكان في توبته وندمه صورة للمؤمن العميق الإيمان بمبادىء الإسلام فلم يكذب النبي الخبر ، ولو ركب الكذب لنجا مما جرّه عليه الصدق ولكنه كان صابراً مؤمناً ، فقابل المحنة بشجاعة ، وقُبلت منه التوبة .

شعره :

طبع ديوان كعب في بغداد سنة **١٩٦٦** م ، وقد جمعه (سامي مكي العاني) من ثنايا المصادر الكثيرة ، من تاريخية وأدبية ولغوية . . . وفي شعره نفس سام رفيع ، وحماسة متأججة للنبي والدعوة الإسلامية .

(النص)

١ ـ قال كعب بن مالك حين فرغ النبي من حنين وأجمع السير إلى الطائف (سنة ثمان للهجرة :*

قَضَيْنَا من تِهَامَةَ كُلَّ وِتْرٍ
وَخَيْبَرَ ثمَّ أَجْمَمْنَا السيوفا[١]
نُخَيِّرُها ولو نَطَقَتْ لَقَالتْ
قَوَاطِعُهُنَّ : دَوْساً أو ثَقِيفَا[٢]
فَلَسْتُ لحاصنٍ إنْ لمْ تَرَوْهَا
بساحةِ داركم مِنّا أُلُوفَا[٣]
فَنَنْتَزِعُ العُروشَ ببطنِ وَجٍّ ،
وتصبحُ دورُكُمْ مِنْكُمْ خُلُوفا[٤]
ويأتيكُمْ لنا سَرَعَانُ خيلٍ
يغادِرُ خَلْفَهُ جَمْعاً كَثِيفَا[٥]
إذا نَزَلُوا بساحتِكُم سمعتُمْ
لها مِمّا أناخَ بها وَجيفَا[٦]

(*) القصيدة في ديوانه : ٢٣٤ ـ ٢٣٧ ، وابن هشام ج ٣ ص ١٢١ ـ ١٢٣ ، شرح نهج البلاغة ج ٤ : ٢٠٧ . وقال القصيدة بعد مرجع الرسول من حنين ، وفي مسيره إلى الطائف .

(١) تهامة هي الأرض المنخفضة التي تساير البحر قبل مكة ، وأراد موقعة حنين بها . الوتر : الثأر ، وقضى وتره : أدركه . أجممنا : أرحنا السيوف فأغمدناها . خيبر : تذكير باليهود فيها .

(٢) دوس وثقيف : هما القبيلتان المشهورتان ، ومنزلهما الطائف .

(٣) الحاصن والحصان : المرأة العفيفة الكريمة . يقول : لست ولد هذه الحصان العفيفة ، إذا لم أحقق ما أتوعدكم به من الشر .

(٤) عرش الكرم : ما تدعم به قضبان الكرم ، والجمع عروش . ووج : هي الطائف ونواحيها كثيرة الأعناب مشهورتها . (يهددهم باقتلاع كرومهم وإحراقها) . حي خلوف : فارقه الرجال ولم يبق إلا النساء . أي سنقتل رجالكم .

(٥) سرعان خيل : الخيل المسرعة التي تتقدم الجيش .

(٦) وجف وجيفاً : سقط من الخوف . والوجيف سرعة الناقة ، أو رجيف : الحركة للحرب .

بـأيـديـهـمْ قـواضِـبُ مُـرْهَـفَـاتُ
يُـزِرْنَ المصطلين بهـا الحُتُـوفـا(٧)
لأمـرِ الـلّهِ والإسـلامِ حـتـى
يـقـومَ الـدينُ مـعـتـدلاً حَـنيفـاً(٨)
ونُـرْدِي الـلاّت والـعـزّى وَوَدّاً
وَنَـسْلُبُـهـا الـقـلائـدَ والـشُّنُـوفـا(٩)

٢ ـ وقال كعب في أُحُد يرد على عمرو بن العاص وضرار بن الخطاب*

أَبْلِغْ قُـريشـاً وخيـرُ القـولِ أَصْـدَقُـهُ
والصِدْقُ عند ذوي الألبابِ مقبولُ(١)
أنْ قـدْ قتلْنَـا بقتـلانـا سَـرَاتـكُمُ
أهـلَ اللواءِ ففيمـا يَكْثُـرُ القِيـلُ(٢)
ويـومَ بـدرٍ لقِينـاكُمْ ، لـنـا مَـدَدٌ
فيـه مع النَصرِ ميكـالٌ وجبـريـلُ(٣)

---

(١) القواضب : السيوف القاطعة .

(٢) أصنام في الجاهلية ، والعزى كانت تقلد القلائد ، الشنوف جمع شنف وهي القرط الأعلى يلبس في قوف الأذن (القسم العلوي) أما ما يلبس في شحمة الأذن فهو الرعثة ، وجمعه رعاث . ود : صنم كان لقوم نوح ثم صار لكلب ، وكان لقريش صنم يقال له ود .

(*) كعب بن مالك ، ديوان ، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .

(٣) بقتلانا : الباء باء العوض . سراة القوم : علية القوم . أهل اللواء : الأبطال حملة اللواء في الحرب .

(٤) مدد : ما يمد به الإنسان من مؤونة وقوة .

(٥) لا تمنوا : لا تتمنوا . لقاح الحرب : إشعالها . أصدى اللون : متغير اللون (لصعوبة الحرب) .

(٦) نمريها : أمرت الناقة : در لبنها وكثر ، وهنا نكثر من الحرب . وننتجها : نولدها . الأضغان : الأحقاد .

إنْ تقتلونــا فــدينُ الحقِّ فِــطْرَتُــنــا
والقتلُ في الحقِ عند اللَّهِ تفضيلُ(٤)
وإنْ تَــرَوْا أمْـرَنَــا في رأيكم سَفَهـاً
فـرأيُ من خالفَ الإسـلامَ تضليلُ(٥)
فـلا تَمَنّـوا لِقَـاحَ الحـربِ واقتَعِـدُوا
إنّ أخا الحربِ أصدى اللونِ مشغولُ(٦)
إنّـا بنـو الحـربِ نَمْـرِيهـا ونُنْتِجُهـا
وعنـدنـا لـذوي الأضغـانِ تنكيـلُ(٧)
إنْ ينجُ منها ابنُ حربٍ بعدما بلغت
منـه التـراقي وأمـرُ اللَّهِ مفعولُ(٨)
فقــد أفـادت لــه حِلْمـاً ومــوعِــظةً
لمن يـكــونُ لــه لُبٌّ ومـعقــولُ(٩)

---

(١) ابن حرب : أبو سفيان .
(٢) أي جعلته يفكر ويعتبر . معقول : عقل .

لبيد بن ربيعة[1]

قال في معلقته التي بدأها بقوله :

عفت الديار محلُها فمُقامُها ... بمنىً تأبّد غَولها فرِ جَامها

* * *

أفتِلك أم وَحشيةٌ مسبوعة ... خَذَلت وهادية الصِّوار قِوامها[1]
خنساء ضيَّعت الفريرَ فلم يَرِم ... عُرض الشّقائق طَوفُها وبُغامها[2]
لمُعفَّر قَهدٍ تنازعَ شِلْوه ... غُبْسٌ كواسبُ ما يُمنَ طعامُها[3]
صَادفْن منها غِرة فأصبْنها ... إن المنايا لا تطيش سهامها[4]
باتت وأسبَل واكف من ديمة ... يُروى الخمائل دائماً تَسجامها[5]
نجتاف أصلاً قالِصاً مُتنبِّذا ... بعُجوب أنقاءٍ يميل هَيامُها[6]
يعلو طريقةَ مَتْنها مُتواتراً ... في ليلة كفرَ النجومَ غمامها[7]

(١) أبو عقيل لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر العامري من شعراء الجاهلية وفرسانهم أدرك الإسلام ووفد على رسول الله ﷺ في وفد بني كلاب ثم قدم الكوفة فأقام بها حتى مات في خلافة معاوية وهو من المعمرين ولم يقل شعراً في الإسلام إلا بيته المشهور :

الحمد لله إل لم يأتني أجلي ... حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

أو قوله :

ما عاتب الحر الكريم كنفسه ... والمرء يصلحه الجليس الصالح

وهو من شعراء المعلقات المضريين .

وتُضيء في وَجهِ الظلام منيرة كجُمانة البحرِيّ سُلَّ نِظامها(٨)
حتى إذا انحسر الظَّلامُ وأسفرت بكَرت تَزل عن الثَّرى أزلامها(٩)
عَلِهَت تَبلَّدُ في نِهاء صُعائد سبعاً تؤاما كاملا أيامها(١٠)
حتى إذا يئست وأَسْحق حالق لم يُبله إرضاعُها وفطامها(١١)
وتَسمّعت رِزّ الأنيس فراعها عن ظهر غيب والأنيس سقَامها(١٢)
فغدَت كلا الفَرجين تحسب أنه مَولى المخافة خَلفُها وأمامُها(١٣)
حتى إذا يئس الرماة وأرسلوا غُضفاً دَواجن قافلاً أعصامها(١٤)
فَلحِقن واعتكرت لها مَدَرِيَّة كالسمهريَّة حَدُّها وتمامُها(١٥)
لِتَذودهن وأيقنت إن لم تَذد أَن قد أحم على الحُتوفِ حمامها(١٦)
فتقصدت منها كَسابِ فضُرِّجَت بدم وغُودِر في المكر سُخامُها(١٧)
فبتلك إذ رقص اللوامعُ بالضُّحى واجتاب أَردية السَّراب إكامها(١٨)
أقضى اللُّبانة لا أفرط ريبه أو أن يلوم بحاجة لُوّامُها(١٩)
أوَلم تكن تدري نوار بأنَّني وصَّال عقد حبائل جذّامها(٢٠)
تَرَّاك أمكنة إذا لم أرضها أو يعتلق بعض النفوس حمامها(٢١)

الشرح :

---

(١) المراد بالوحشية البقرة الوحشية ومسبوعة أكل السبع ولدها فهي مذعورة يقال سبعت الذئاب الغنم وسبعت الوحشية وخذلت بالبناء للفاعل تأخرت عن القطيع وأقامت على ولدها قال النمر

وكأنها عيناء أم خويدر خذلت له بالرمل خلف صوارها

وهي خذول وخاذل. كأنها حين لم توافق صواحبها خذلتها وأخذلها ولدها والصوار بالكسر والضم القطيع من بقر الوحش صاره يصوره قطعه وصاره يصوره ويصيره جمعه وأماله ومنه « فصرهن إليك » وهادية الصوار متقدمته والهادية العنق لأنه يتقدم البدن ويهدي الجسد ، والمعنى أفتلك الاتان الوحشية التي تحدث عنها قبل ذلك تشبه ناقتي أم البقرة الوحشية التي أكل السبع ولدها فخذلت عن القطيع وتخلفت تبحث عن ولدها وقد كانت هادية جماعة البقر أو المعنى قامت مقامها حين تخلفت غيرها تهدي الصوار وتتقدمه ويقصد الشاعر بهذا التردد في التشبيه الدلالة على القوة والسرعة عند الناقة .

(٢) الخنس تأخر الأنف في الوجه وقصره ، والفرير ولد البقرة وأصله لولد الضأن ولم يرم لم يبرح . ما رمت المكان : ما برحت ، والشقائق جمع شقيقة الأرض الغليظة بين رملتين وطوقها ذهابها ومجيؤها وبغامها صوتها .

والمعنى أن هذه الوحشية ضيعت ولدها فلم تبرح هذه الأماكن تطلب ولدها فيها ولا تزال تطوف بها وتصيح . وإنما مكثت في هذه الأماكن لأن بها نباتاً يمكن أن يغطي ولدها ولو كانت مصحرة ما ثبتت في مكان واحد .

(٣) المعفر المسحوب في العفر وهو التراب . يقال أخذه الأسد فاعتفره أي ضرب به الأرض والفهد الأبيض الذي يخالط بياضه صفرة أو حمرة وتنازع تعاطي ومنه « يتنازعون فيها كأسا » والشلو بقية الجلد والغبس الذئاب جمع أغبس وغبساء والغبسة لون شبيه بالغبرة وهو لون الرماد « بياض فيه كدرة » والكواسب التي تكسب الصيد ويمن من المن أي لا يمن عليها أحد وإنما تطعم نفسها من الصيد أو لا تمن هي على أحد لأنها تأكل فريستها مكانها أو لا ينقص طعامها ولا ينقطع ومنه « لهم أجر غير ممنون » ومعنى البيت أن الوحشية لا تفتأ تبكي وتصيح وتطوف من أجل ولدها الذي اعتفرته الذئاب وتعاطت أجزاء جسمه .

(٤) الغرة الغفلة يقال صبحهم الجيش وهم غارون أي غافلون ويقال « أغر من ظبي مقمر » لأنه يخرج في الليل المقمر يظن أنه النهار فتأكله السباع ولم يزل يطلب غرته حتى أصابها ويروى منها أي من أمه ويروى منه أي من الفرير ويروى فأصبنها أي فيه أو فأصبنها أي الغر ويروى فأصبنه لا تطيش أي لا تخطىء ولا تخف وإثبات السهام للمنية على سبيل المثل والمعنى صادفت السباع غفلة من البقرة فأصبنها في ولدها وأنشبن فيه مخالبها فأدركته منيته ولم تخطئه لأن المنايا لا تخطىء وهذا المعنى أحسن من قول زهير :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطىء تعمر فيهرم

(٥) أسبل الستر والأزرار أرسله ومن المجاز أسبل المطر أرسل دفعه وتكاثق كأنما أسبل ستراً ومطر سبل وأسبلت مني عبرة ووقع السبل وهو المطر قال النابغة :

وأسبل مني عبرة فرددتها على النحر منها مستهل ودامع

والواكف القطر يقال دمع واكف ومنحة وكوف غزيرة ومن المجاز فلان يستوكف الأخبار كأنه يستقطرها والديمة المطر الدائم والخمائل جمع خميلة وهي الرملة غطاها النبيت كأنه أخملها : يقال سقى الله الخمائل بالمخائل وتسجامها ومطرها الغزير الجود ، والمعنى أن هذه البقرة الوحشية باتت حزينة على ولدها تمطرها الديمة الكثيرة والمطر الذي يروي الروضة الملتفة الشجر .

(٦) تجتاف تدخل في جوفه والقالص المرتفع الفروع والمتنبذ المتنحي عن الناس والعجوب جمع عجب وهو أصل الذنب ويريد هنا أطراف الرمال والانقاء جمع نقا وهو الكثيب من الرمل ، والهيام بفتح الهاء الرمل المتناثر يقال أنهام وأنهار وأنهال بمعنى والمعنى أن البقرة الوحشية تبعد وتتنحى عن معظم الشجر عن الطريق لتأمن وتطمئن لائذة بأطراف الكثبان .

(٧) طريقة خطة مخالفة للونها وتسمى الجدة والمتنان مكتنفاً الظهر ومتواتراً متتابعاً يقال تواترت الإبل إذا جاء في إثر بعض وكفر النجوم غطاها وسمي الزارع كافراً لأنه يستر الزرع في الأرض وسمي غير المؤمن كافراً لأنه غطى دين الله وستره أو لأن الكفر غطى قلبه وستره والمعنى أن هذا الواكف من المطر الغزير يعلو متني البقرة الوحشية متتابعاً في ليلة مظلمة

غطى الغمام نجومها ويروى برفع متواتر على أنه فاعل يعلو ويروى بنصبها على الحالية والفاعل ضمير يعود على الواكف .

(٨) وجه الظلام ووجه النهار أوله والجمانة اللؤلؤة الصغيرة والكبيرة الدرة والبحري الغواص ونظامها خيطها الذي تسلك فيه والمعنى أن هذه البقرة تضيء في الظلام لشدة بياضها كما تضيء الجمانة لأنها من فضة أو المعنى وصف البقرة في العدو بالجمانة حينما يخونها نظامها فتهوى وتسقط مسرعة .

(٩) انحسر عنه الظلام انكشف وذهب وأسفرت دخلت في الأسفار كما يقال أظلم دخل في الظلام ويقال أسفر الصبح وأسفر وجه المرأة أضاء وبكرت غدت بكرة وتزل تزلق وتسقط والثرى التراب الندي والأزلام هنا القوائم على التشبيه بالأزلام والقداح للطافتها والمعنى إذا وضح النهار وأسفر الصبح فإن قوائم هذه البقرة تزلق عن الثرى أي لا تثبت على الأرض من الطين والوحل .

(١٠) عهلت تحيرت ودهشت أو جاءت وذهبت فزعة وتبلد أصله تتبلد أي تتحير تذهب وتجيء ولا تدري أين تمر والنهاء جمع نهى وهو الغدير وصعائد اسم موضع ويروي في شقائق عالج والشقائق الرمال فيها النبت وعالج موضع رمله كثير . تؤاما جمع توأم وهو المولود مع غيره في بطن من الإثنين فصاعداً للذكر والأنثى جعل كل ليلة مع نهارها توأماً والمعنى أن هذه البقرة الوحشية تحيرت ودهشت من جزعها لا تدري أين تسلك وأين تذهب ومكثت في هذه الأمكنة سبع ليال مع أيامها كاملة غير منقوصة .

(١١) يئست من ولدها الذي فقدته وأسحق ارتفع أو أخلق وحالق ضامر وقيل ممتلىء لبناً يقال ضرع حالق ممتليء لبناً وأسحق الضرع ذهب لبنه لم يبله لم يخلقه ولم يذهب به والمعنى حتى إذا يئست من ولدها وذهب لبن ضرعها الذي لم يذهبه كثرة الإرضاع ولا فطامها إياه ولكن ذهب به فقدها ولدها وترك علفها .

(١٢) الرز والركز والصوت الخفي وراءها أفزعا ، وعن ظهر غيب من وراء حجاب أي تسمع من حيث لا ترى والمعنى أنها تسمع صوت الناس خفية دون أن راهم فراعها ذلك الصوت وأفزعها ومن عجب أن يكون الأنيس ومن به الأنس سقاماً لها وهلاكاً لأنه يصيدها .

(١٣) الفرج الواسع من الأرض والفرجان الجانبان والفرج أيضاً الثغر وهو موضع المخافة ومولى المخافة أي الموضع الذي تكون منه المخافة وخلفها وأمامها بدل من مولى أو خبر مولى والجملة خبر أن ولامعنى أن البقرة الوحشية غدت تخاف وتفزع من كلا الجانبين من خلفها وأمامها .

(١٤) الغضف جمع أغضف وهو المسترخي الأذن والمراد الكلاب بهذا الوصف والدواجن الضاريات المتعودات وقيل المقيمات مع أصحابها من دجن بالمكان أقام والقافل اليابس ومنه قول امرىء القيس :

نظرت إليها والنجوم كأنها ... مصابيح رهبان تشب لقفال

والقفال عباد النصارى الذين يبسوا من العبادة والصوم .

والأعصام قلائد من أدم تجعل على أعناق الكلاب الواحدة عصام كأنه جمع عصاماً على عصم كحمار وحمر ثم جمع عصما على أعصام كما يقال طنب وأطناب وقيل واحدها عصم كجذع وأجذاع ، والمعنى حتى إذا يئس الرماة من أن تصيبها النبال تركوا الرمي وأرسلوا

كلاب الصيد المسترخية الآذان وهي معروفة بشطارتها في الصيد وقد علقت على أعناقها قلائد من أدم يابسة .

(١٥) اعتكرت رجعت عكر واعتكر عطف والمدرية هنا القرون الحادة ، والسمهرية القناة الصلبة منسوية إلى سمهر رجل كان يثقف الرماح شبه القرون بالرماح لصلابتها وحدتها وتمامها طولها والمعنى أن الكلاب لحقت البقرة الوحشية فعطفت عليها تطعنها بقرونها الصلبة الحادة التي تشبه القناة والرماح السمهرية في حدتها وطولها .

(١٦) لتذودهن لتطردهن وتمنعهن وأحم بحاء مهملة حان ومثلها حم وكذلك أجم بالجيم والحتوف جمع حتف وهو الهلاك والحمام المنية أي عطفت البقرة ورجعت على الكلاب لتدفعهن عن نفسها وتمنعهن عنها وهي تعلم أنها إن لم تمنع عن نفسها حان وقت موتها ودنا حتفها .

(١٧) تقصدت قتلت من قولهم رماه بأقصده أي قتله مكانه وكساب اسم كلبة وهي مبنية أو ممنوعة من الصرف وهي في موضع المفعول أو تقصدت تفعل من القصد وضرجت لطخت بالدم وغودر ترك وسخام اسم كلب والضمير عائد على الكلاب أي قصدت وقتلت البقرة الوحشية من الكلاب « كساب » فضرجتها ولطختها بالدم كما ترك غيرها من الكلاب مقتولاً في مكان الكر .

(١٨) رقص اضطراب اللوامع الأرضون التي تلمع بالسراب الواحدة لامعة واللماعة الفلاة تلمع بالسراب واليلمع السراب للمعانه وفي المثل « أكذب من يلمع » وقيل أراد باللوامع الآل والآل يكون بالضحى وهو الذي يرفع كل شيء والسراب يكون نصف النهار وهو الذي يلصق بالأرض واجتاب لبس يقال جبت الثوب لبسته ومنه سمي الجيب لأنه منه يلبس القميص وهذا من ذوات الياء من جاب يجيب وأما جاب الأرض قطعها فمن ذوات الواو جاب الأرض يجوبها والإكام الجبال الصغار ، يقول بهذه الناقة القوية أقضي حاجتي ساعة يضطرب الآل في الصحراء ضحى وقد لبست الإكام أردية السراب في الظهيرة والمعنى أنها تعينني على شدة الصحراء ووعثائها عند اشتداد الحر ولفح الشمس .

(١٩) اللبانة الحاجة لا أفرط لا أقصر ، والريبة الشك ولوام جمع لائم أو هو مفرد على التكثير والمبالغة والمعنى أني أقضي حاجتي بهذه الناقة مجتهداً ولا أفرط وأقصر لئلا أشك وأتندم إذا فاتتني أو يلومني اللائمون على تقصيري .

(٢٠) نوار امرأة من بني جعفر وجذام قطاع ومعنى البيت أني أصل من تستحق الوصل وأقطع من يستحق القطيعة وكأن ناقته تعينه على لقيا من أراد مواصلته وترك من أراد مصارمته .

(٢١) تراك مبالغة من الترك ويروى البيت أو يرتبط ويروى أو يعتنق والمراد ببعض النفوس نفسه هو الحمام الموت . والمعنى أني أترك الأماكن إذا رأيت فيها ما أكرهه إلا أن يحبسني الموت ويدركني الحمام ويعتلق معطوف على لم أرض فهو مجزوم مثله ويصح أن تكون أو بمعنى إلا أن فالفعل بعدها منصوب كقول أمرىء القيس :

فقلت لـه لا تبك عينـك إننا ... نحـاول ملكـاً أو نمـوت فنعـذرا

والتسكين للضرورة وهو تخريج ضعيف .

الجو الفني لمعلقة لبيد

هذا صنف آخر من شعراء المعلقات الجادين في شعرهم والذين لم يتخذوا اللهو والعبث مذهباً يفرغون فيه فنهم ويكادون يقصرونه عليه فنرى لبيداً كغيره من شعراء عصره يبدأ معلقته بذكر الديار وعفائها وتوحشها في أكثر من عشرة أبيات ملأها بذكر المواضع التي ارتادها في حياته وما جادها من غيث ثم تحدث عن العين والظباء وأطلائها ثم عاود الحديث بتشبيه ما بقي من الآثار بالكتابة القديمة التي أعيد كتبها أو رجع الوشم ، ثم سؤاله لها ورجوعه عن السؤال لأنها صم لا تجيب وليس يبين كلامها ثم يحدث عن الإشتياق إلى ظعن الحي حين تحملوا وارتحلوا في هوادج ثم ينتقل مفاجئاً إلى الحديث عن نوار فيقول : بل ما تذكر من نوار البيت وهو أسلوب لم يحكم ربطه ولم تصطنع له أسباب الوصال والتآخذ ويسميه علماء النحو الإضراب الإنتقالي في الكلام ويكون ببل كما هنا ثم يعدد الأماكن التي حلت فيها صاحبته ويحدد هذه الأماكن أحياناً ثم يترك كل هذا إلى الحديث عن ناقته وركوبه لها ونشاطها وتشبيهها مرة بالسحاب الذي هريق ماؤه وأخرى بأتان الوحش يتبعها حمارها ولا يزال يعلو بها الأكام ويطارها وهي تهرب منه وقد أثار غباراً شديداً حتى انتهيا إلى ماء فورداه وترى ألفاظ شعره في هذه الأغراض التناثرة من الألفاظ الخشنة المضرسة حتى لتستوحش منها النفس

ويكاد ينبو عنها السمع كأنها قدت من صخر بل لقد كانت . ونراه يخرج من الحديث عن الأتان الوحشية إلى الحديث عن البقرة الوحشية وضياع ولدها وتأخرها عن القطيع للبحث عنه وإصابة الغرة منها حتى اخترمته المنون ووصفها باللمعان في الليل إضاءتها في وجه الظلام وعدم ثبات قوائمها في الثرى والمطر وتبلدها وحيرتها سبع ليال بأيامها وهي جزعة خائفة فلما يئست من ولدها وبلى ضرعها من فقد ابنها وترك علفها . وتسمعت صوت الناس مستخفية غدت تخاف من كلا جانبيها أمامها وخلفها فلما يئس الرماة تركوها وأرسلوا كلاب الصيد فلحقتها فعطفت عليهن لتذودهن عن نفسها وقتلت منهن . كل هذا الحديث عن الأتان والبقرة يقصد به الحديث عن الناقة وأنها تشبههما في القوة والسرعة لأنه يقضي بها لبانته وحاجته فيصل بها من أراد وصله ويقطع بها من أراد مصارمته ، ولسنا نعني أن لبيدا لم يطف في قصيدته بمعنى لهو وعبث وإنما نعني أنه لم يكن صاحب مذهب في اللهو والعبث كما نجد ذلك عند امرىء القيس وطرفة مثلاً فلا جرم يتحدث لبيد في معلقته عن الخمر وعن إغلائه السباء وعن مباكرته في شرب الخمر صياح الديكة ثم يتحدث بعد ذلك عن إطعامه الطعام وإيقاد النار وعن فروسيته وحمله شكته وركوبه الخيل في الحروب ، ثم يرجع إلى الحديث عن إطعام الطعام ونحره الجزور وقسمها بين الناس بالقداح وفخره بقومه وأن منهم الحكم في مهام الأمور ثم ينتهي إلى أنهم ورثوا المجد كابراً عن كابر وأنهم يوفون بالأمانة فهم السعاة في إصلاح الحال وهم الفوارس وهم ربيع الجار إلى غير ذلك من صفات الفخر والمباهاة والوصف الغالب لشعر لبيد البداوة بكل ما في الكلمة من معان من جهة اللفظ والأسلوب حتى ليكاد شعر لبيد يكون شعراً خاصاً له طابعه وله مميزاته وخصائصه في حين تشتبه خصائص الشعر الجاهلي وتتقارب .

الحُطيئـــــة

شخصيته وحياته :

هو شاعر من فحول الشعراء ومقدميهم ، متصرف في جميع فنون الشعر ، من المديح والهجاء والفخر والنسيب ؛ مجيد في ذلك أجمع . وكان ذا شر وسفه : ونسبه متدافع بين قبائل العرب ، وكان ينتمي إلى كل واحدة منها إذا غضب على الآخرين . . . وهو مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام . هكذا وصفه أبو الفرج في كتابه الأغاني والإجماع ينعقد على أنه كان شاعراً نقي الفطرة صافي الملكة موهوب الشاعرية ، خصب الخيال ، جزل القول فحل العبارة . وكان مع ذلك سليط اللسان حاد الطبع يلهب بمقاله من يشاء دون خوف أو تحرج ، ويقذف بهجائه أي عرض ولا يبالي بعد ذلك ما يجره عليه عمله من هلاك وعطب .

وهم يقولون أنه كان متهماً في دينه ، مغموزاً في نسبه ، متقلباً بين القبائل ، ينتمي إلى هذه أمدا ، ويحتمي بها ، ويغادرها إلى تلك أمداً آخر . ولعله هو أيضاً أزكى ما ألصق به من تهم ، وما أشيع حوله من ريب ، بما كان يتسم به من خلائق ، وما طبع عليه من شيم .

ونحن لا نستطيع أن نجزم بأنه كان مغموز النسب كما يقولون فقد كان

لهذا الرجل خصوم ألداء ، وترهم ونال منهم ، وترك فيهم كلو ما لا تبرأ ، وجروحا لا تندمل ، ووصمات لا يستطيعون منها فكاكاً . وكان هؤلاء يتلمسون له العورات ، ويتصيدون السوءات ، فإذا أعوزهم الواقع استنجدوا بالخيال .

وعمدوا إلى الإختراع ، لعلهم يشفون الغلة ، ويرضون عاطفة الحقد التي تشتعل في صدورهم نحوه ، ولقد أعانهم على ذلك ما ركب في نفسه من الشر والخبث ، وما وقر في طبعه من الحمق والسفه وسرعة الغضب ، والإضطغان على كل من لا يقدم إليه عطاء ، أو يزدلف نحوه بصلة . وهم يقولون إنه غضب من أمه فقذفها بشر التهم وأشنع الجرائم وقال فيها .

تقول لي الضراء : لست لواحد ولا اثنين فانظر كيف شرك أو لئكا
وأنت امرؤ تبغي أبا قد ضللته هبلت ، ألما تستفق من ضلالكا[1]

وأنا بهذين البيتين ـ إن لم يكونا من صنع الوضاعين ـ أبرئه من تهمة الغمز في النسب ، وأبرىء أمه من جريمة السفاح فيه ، فلو كان الأمر كما يقولون لما واتته الشجاعة التي تدفعه إلى التصريح بما يجد فيه الأعداء والخصوم مادة للتشنيع عليه ومجالاً للنيل منه والطعن فيه .

وإني أرجح ـ إذا صحت نسبة البيتين إليه ـ أنه كان يبغي بما يقوله في أمه فوق إغاظتها وشتمها ، أن يقطع السبيل على خصومه حتى لا يبقى لهم في هجوه بعد ذلك مطمع : وأي شيء يبقى لهم من أديمه بعد أن جاءهم به مهلهلا ممزقاً تنتاشه الفضائح وتلطخه الآثام .

كان يكنى أبا مليكة ـ ومليكه إحدى بناته ـ ، غلب عليه الحطيئة ، ولقب به لقصره وقربه من الأرض ، واسمه جرول بن أوس بن مالك بن جؤية

(١) هبلته أمه : ثكلته . والقياس في المسند للمخاطب هبلت بالبناء للمجهول لأنه دعاء عليه ، ولكن صاحب اللسان نقل عن ابن الأعرابي أنه يقال في الدعاء هبلت بالبناء للفاعل لا للمفعول .

بن مخزوم ابن مالك بن غالب بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان .

وقيل إن أمه الضراء لم تكن زوجاً لأوس ، وإنما كانت أمة له ، فأعلقهابالحطيئة ، ورحل عنها ، وكان لزوجه بنت رياح أخ يقال له الأفقم ، فولدت الضراء الحطيئة ، فجاءت به قريب الشبه بالأفقم ، وحين سألتها مولاتها : من أين هذا الصبي ؟ قالت لها : من أخيك الأفقم ، وتهيبت أن تخبرها أنه من زوجها ، فصدقتها لوجود الشبه بين أخيها والمولود .

وأيما كان فهو ولد أوس ، وقد اعترفت أمه بذلك كما قالوا ، بعد أن أعتقتها بنت رياح ، فقد أخبرت أنها اعتلقت به من أوس .

ولقد أخذ الناس من تنقله في القبائل ، وتهافته عليها ، وانتسابه إلى هذه زمنا وإلى تلك زمنا آخر ، أنه يعترف باختلاط نسبه ؛ وتوزع أصله . فلقد قالوا أنه أتى أخويه من أوس بن مالك فقال لهم : أفردوا إلى من مالكم قطعة ، فقالا : لا ، ولكن أقم معنا نواسيك ، فقال :

أأمر تماني أن أقيم عليكما كلا لعمر أبيكما الحباق
عبدان خيرهما يشل بضبعه شل الأجير قلائص الوراق[1]

ولحق بأخويه بني الأفقم فلم يدفعوا إليه إلا نزراً يسيراً فغضب عليهم وهجاهم وقال :

تمنيت بكرا أن يكونوا عمارتي وقومي وبكر شر تلك القبائل[2]
إذا قلت بكري نبوتم بحاجتي فيا ليتني من غير بكر بن وائل[3]

---

(١) يشل : يطرد والضبع وسط العضد بلحمه . والوراق صاحب الورق : المال من إبل ودراهم وغيرها .

(٢) العمارة أصغر من القبيلة وترتيبها الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة ثم العشيرة ثم الرهط .

(٣) نبوتم تجافيتم وتباعدتم .

وهذا التنقل والمدح الذي لا يلبث أن يعقبه الهجاء إنما كان استجابة للطبيعة القلقة الجشعة التي لا تشبع ولا تقنع ولا يسكن فيها الرضى ، فقد كان جشعاً سؤولاً ملحفا دنيء النفس كثير الشر قليل الخير بخيلا ـ فرجل تمتد أطماعه إلى آفاق بعيدة ولا يكفيه ما يقدم إليه مهما كان ، لا بد أن يتنقل من مكان إلى مكان ، ويتجول من قبيلة إلى قبيلة ، سدا لأطماعه وانتجاعا لرزقه . ألم تروا أنه قدم المدينة فأرصدله له سراتها العطايا خوفاً من شره واتقاء لفضيحته ، فقام في المسجد فصاح يوم الجمعة : من يحملني على بغلين وقاه الله كبة جهنم .

ولقد اعترف هو على نفسه بما يتغشاها من طمع ويساورها من جشع أزرى به وأخره عن المكان الذي كان يجب أن يكون فيه ، فقد روى أن ابن عباس سأله من أشعر الناس ؟ فقال : من الماضين أم من الباقين ؟ قال : من الماضين ، قال : الذي يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه   يفره ومن لا يتق الشتم يشتم[1]

وما بدونه الذي يقول :

ولست بمستبق أخـا لا تلمـه   على شعث أي الرجال المهذب ؟

يقصد زهيراً والنابغة ، ولكن الضراعة أفسدتهما كما أفسدت جرولا ـ يعني نفسه ـ والله يا ابن عم رسول الله لولا الطمع والجشع لكنت أشعر الماضين أما الباقون فلا تشك في أني أشعرهم .

وكان هذا الرجل مع فحـولته وقوته زري الهيئة ، لا يستلفت عيناً ولا يثير اهتماما أو رعاية ، ولا يدعو الناس إلى احترامه إلا إذا عرفوه ، وقف على حسان وهو ينشد :

---

(١) يفره يتمه ولا ينقصه ويستعمل وفر لازما فيقال وفر عرضه وفرا ووفورا أي كرم ولم يبتذل وقد يتعدى لمفعولين فيقال وفره عرضه أي لم يشتمه كأنه أبقاه له كثيراً طيبا لم ينقصه بشتم .

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فقال له حسان وهو لا يعرفه فما تسمع يا أعرابي ؟ قال ، ما أسمع بأسا ، فدهش حسان وصاح : أما تسمعون إلى الأعرابي ؟ ما كنيتك أيها الرجل ؟ قال : أبو مليكة ، قال ما كنت قط أهون منك حيث اكتنيت بامرأة ، فما اسمك ؟ قال : الحطيئة . فأطرق حسان ثم قال له ، امض بسلام .

وكما كان الحطيئة جشعا أشد الجشع يحاول أن يستنزف ما بأيدي الناس من أموال ، كان كذلك بخيلا أشد البخل بما يملك ، ضنينا بما تحويه يده ، بل له ضنين حتى برد السلام .

روي أنه مر به رجل يسمى ابن الحمامة وهو جالس بفناء بيته ، فقال السلام عليكم ، قال قلت ما لا ينكر ، قال إني خرجت من عند أهلي بغير زاد فقال ما ضمنت لأهلك قراك ، قال أفتأذن لي أن آتي ظل بيتك فأتفيأ به ؟ قال دونك الجبل يفيء عليك ، قال أنا ابن الحمامة ، قال انصرف وكن ابن أي طائر شئت .

وأتاه رجل وهو في غنم له فقال . يا صاحب الغنم ، فرفع الحطيئة العصا وقال إنها عجراء من سلم[1] فقال الرجل أني ضيف ، فقال للضيفان أعددتها فانصرف عنه . ومن هنا نراه ضيقا أشد الضيق بأضيافه إذا ألجأته الضرورة إلى لقائهم ، متحرجاً أعظم الحرج من قبولهم . يتسخطهم وينقم عليهم ويودعهم بقارعة تكفهم عن المعاودة ، وتمنعهم من تكرار الضيافة ، حتى قال الأصمعي ما نزل بالحطيئة ضيف قط إلا هجاه .

ومما يدعو إلى العجب ويبعث على الحيرة بعد كل هذه الصور الدميمة عن شحه وكنوده ، أن يقول :

ولست أرى السعادة جمع ولكن التقى هو السعيد

(١) العجراء العصا التي فيها عقد والسلم شجر معروف .

وتقــوى الله خيــر الـــزادذخـــرا وعـنـــد الله لـــلأتقـى مـــزيـــد

ولعله كان يتشهى أن يتغلب على ما في نفسه من شح ، وما يرين على طبعه من كزازة .

ولقد كان الناس يخشون سلاطة لسانه وحدة طبعه وسفهه وإسراعه إلى الهجاء المقذع والذم البشع ، وكانوا يتلطفون له ويحاولون إرضاءه والبعد عما يكرهه ـ حدثوا أن الحطيئة أقحمته السنة[1] فنزل أرض مقلد ابن يربوع فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا إن هذا الرجل لا يسلم أحد من لسانه فتعالوا حتى نسأله عما يحب فنفعله وعما يكره ، فأتوه فقالوا له إنك قد اخترتنا على سائر العرب ووجب حقك علينا فمرنا بما تحب أن ننتهي عنه فقال : لا تكثروا زيارتي فتملوني ولا تقطعوها فتوحشوني ولا تجعلوا فناء بيتي مجلسا لكم ولا تسمعوا بناتي غناء شبانكم فإن الغناء رقية الزنا .

فسيرة الحطيئة وما ركب فيه من شيم وما شب عليه من خلائق ، كانت موضوع ذم ، وباعثا على كرهه والسخط عليه ، وإن لم يستطع أحد أن يجهر بذلك أو يعلنه إليه اتقاء لفحش لسانه وسوء قالته .

ولد الحطيئة ونشأ في الجاهلية وقد أدركه الإسلام ، فاسلم وإن كان الإسلام لم يهذب له خلقا ، ولم يرق له طبعاً ولم يغير من غلظته ووحشيته ، فلما مات الرسول ﷺ وارتد رقاق الدين ضعاف اليقين ومنعوا الزكاة وقام لحربهم أبو بكر رضي الله عنه . . . كان هذا الرجل يحرض على المسلمين ويهجو أبا بكر بقوله :

أطعنا رسول الله إذ كـان بيننا فيا عجبا ما بال دين أبي بكر
أيـورثهـا بكـر إذا مـات بعـده وتلك لعمر الله قاصمة الظهـر
فـدى لبني ذبيان أمي وخـالتي عشيـة ذادوا بالـرماح بني فهـر

---

(١) أقحمته أوقعته في شدة ومشقة والسنة الجدب .

وبعد أن استقر الأمر لأبي بكر وخضع من نزغ فيه الشيطان من العرب عاد الحطيئة إلى ما كان عليه من قبل مسلما أو مصانعاً لأرباب السلطان من المسلمين .

ودامت حياته في الإسلام إلى خلافة معاوية . ثم مات سنة **٥٩** هـ . وهم يروون في موته قصة طريفة فيها كثير من الفكاهة وكثير جداً من براعة الخلق وحسن الخيال .

قالوا لما حضرت الحطيئة الوفاة اجتمع إليه قومه فقالوا يا أبا مليكة أوص ، فقال : ويل للشعر من راوية السوء ، قالوا : أوص رحمك الله قال من الذي يقول :

إذا أنبض الرامون عنها ترنمت ترنم ثكلي أوجعتها الجنائز(١)

قالوا الشماخ ، قال : أبلغوا شاعر غطفان ، أنه أشعر العرب ، قالوا : ويحك أوص بما ينفعك ، قال : أبلغوا أهل ضابىء أنه شاعر حيث يقول :

لكل جديد لذة غير أنني وجدت جديد الموت غير لذيذ

قالوا : أوص ويحك بما ينفعك ، قال بلغوا أهلَ امرىء القيس أنه أشعر العرب حيث يقول :

فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل(٢)

قالوا : اتق الله ودع عنك هذا ، قال : أبلغوا الأنصار أن صاحبهم أشعر العرب حيث يقول :

يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

قالوا : قل غير ما أنت فيه ، قال :

---

(١) أنبض القوس : جذب وترها لتصوت .
(٢) المغار : المحكم الفتل . ويذبل جبل .

الشعـر صعب وطـويــل سلمـه   إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلت بـه إلى الحضيض قدمـه   يـريـد أن يعــربـه فيعجمــه[1]

قالوا : يا أبا مليكة ألك حاجة ، قال : لا والله ولكن أجزع على المديح الجيد يمدح به من ليس له أهلاً ، قالوا له : ما تقول في عبيدك ؟ قال : هم عبيد قن ما عاقب الليل النهار . قالوا : فأوص للفقراء بشيء قال : أوصيهم بالإلحاح في المسألة فإنها تجارة لن تبور .

فلنترك الحديث عن حياته إلى ديوان شعره لنلتمس فيه أصداء نفسه ، وجوانب خلقه ، ونستمتع بما خلفه من ثروة أدبية فاخرة .

شعر الحطيئة وعوامله :

إذ كان الناس قد اتهموا الحطيئة أشنع اتهام في نسبه ، وقذفوه بكل موبقة ، وخلطوا في ذلك خلطا شنيعاً حتى اخترعوا على لسانه ما يؤ يد هذا الغمز بقولهم :

تقول لي الضراء لست لـواحد   ولا اثنين فانظر كيف شرك أولئكا

وإذا كانوا قد طعنوه في كل ما يحمله الإنسان من خلال وصفات ، فلم يستطع أحد أن يطعنه في نسبه الأدبي ولا أن يثلبه في مجده الشعري ، بل قالوا فيه : ما طلب الإنسان عيباً في شعر شاعر إلا وجده إلا الحطيئة .

واتفقوا على أنه كان تلميذ زهير وراويته ، وكان زهير راوية أوس ابن حجر ، وأبو زهير شاعر ، وخاله بشامة بن الغدير شاعر ، وأخته شاعرة وابناه كعب وبجير شاعران . وقد روي عنه الحطيئة ، وروي عن الحطيئة جميل ، وروي عن جميل كثير .

وزهير كان من عبيد الشعر يهذب حواشيه ويصقل ديباجته وينقح جوانبه

(١) الفاء هنا للإستئناف . والمعنى فإذا هو يعجمه . ولا يصح أن تعطف على قوله يعربه لأنه لا يريد إعجامه .

وكانت له قصائد تسمى الحوليات يخلع عليها ما يملك من ذوق وتهذيب ومراجعة .

وكان الحطيئة يذهب مذهب أستاذه في التجويد والصقل والمراجعة واصطناع الأناة والروية ، فلا تخرج إلى الناس قصائده إلا بعد أن تكون قد استوفت حظها من العناية والإتقان والإبداع .

ومن هنا كان شعره قوي الديباجة مستوى الصفحة مشرق البيان سلس الأسلوب متين السبك رائع اللفظ سهل العبارة قريب المأخذ دقيق الوصف ساحراً أخاذاً في تعبيره وكلامه .

ومن الغريب بعد ذلك أنه كان على النقيض من زهير في كثير من خلاله وسماته .

كان زهير وفيا كريما ، وكان الحطيئة فحاشا غادراً شحيحاً لا يدع عرضا إلا نهشه ولا يترك حرمة إلا هتكها ومزقها : وكان زهير يكره الشر ويمقت الفتن ويحاول أن يخمد نار العداوة والبغضاء بين الناس ـ أما الحطيئة فطالما أذكى نار الفتنة وأشعل ضرام البغضاء بين الناس ، وكان زهير حيياً خجولاً يقنع بما يعطي من الرفد ويستحي أن يلقي التحية على ممدوحه حتى لا ينفحه بهبة فيقول : عموا صباحاً غير هرم وخيركم استثنيت .

أما الحطيئة فكان جشعا لا يشبع ولا يقنع ، وكلما اتخم بالرفد وامتلأت عيبته بالعطاء ازداد شعراً وكلبا ومكث يترقب المزيد وإلا هجا ، وألهب الناس بسياط من نار .

وحين نفتش بين ثنايا شعر الحطيئة عن أثر الحكمة التي رواها لزهير واكتسبها لا نجد إلا نتفاً أو أبياتاً معدودة محدودة .

هذه صورة الحطيئة كما رسمها الكتاب والأدباء ونقلها إلينا المؤرخون .

ونعود إلى شعر الحطيئة فنقول : إنه كان من أصفى الشعراء ديباجة وأجزلهم لفظا وأروعهم قصيداً ، وأنه تصرف في جميع أبواب الشعر من مدح إلى هجاء إلى رثاء إلى فخر ووصف .

أما مدحه فقد كان فيه قوي الشعر ، عذب الأسلوب ، خبيراً بأطواء النفوس ، يستطيع أن يكتسب رضاها ، ويستثير إعجابها . وكان في هجائه شديداً لاذعاً يسلب المهجو ما يعتز به من شرف وما يحرض عليه من هيبة .

مدح في الجاهلية علقمة بن علانة بن الأحوص الكلابي .

وكان بنو أنف الناقة يستحيون من لقبهم ويخجلون إذا ذكروا به فجاء الحطيئة فمدحهم بقوله ·

سيرى أمام فإن الأكثرين حصا ... والأكرمين إذا ما ينسبون أبا
قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ... ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا

كما مدح آل شماس بقصيدة مشهورة .

كما مدح طريف بن دفاع بن قنادة بن مسلمة الحنفي ، وكان قد أنعم عليه بقوله :

سرينا فلما أن أتينا بلاده ... أقمنا وأرتعنا بخير مريع

ومدح الحطيئة يستتبع غالباً الهجو ، فقل أن مدح إلا وقدح ، والذي يتزلف إلى الناس لإبة ويمدحهم لهبة ، يشتد سخطه ، ويشتعل غضبه ، حين يحرم ، أو حين لا يجد لديهم ما كان يؤمل من غناء ومنفعة ، واستمعوا إلى بيتين قالهما مقدمة للهجاء ، فستجدون فيهما أشد ما يؤلم النفس ، وأقبح ما يطامن العظمة والكبرياء ، فإنه مر بعتيبة بن النهاس العجلي من عظماء بكر فسأله فرده وهو لا يعرفه فانصرف ففزع إليه بعض قومه وقالوا له عرضتنا ونفسك للشر : هذا الحطيئة وهو هاجينا أخبث هجاء . فقال ردوه فردوه إليه فقال له : لم كتمتنا نفسك كأنك كنت تطلب العلل علينا . اجلس فلك عندنا

ما يسرك فجلس فقال له من أشعر الناس ؟ . قال الذي يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

فقال له عتيبة هذا من مقدمات أفاعيك . ثم قال لوكيله : اذهب معه إلى السوق فلا يطلب شيئاً إلا اشتريته له ففعل فلما جلس عتيبة في نادي قومه أقبل عليه الحطيئة . فلما رآه عتيبة قال : هذا مقام العائذ بك من خيرك وشرك ، قال : قد كنت قلت بيتين فاستمعهما ثم أنشأ يقول :

سئلت فلم تبخل ولم تعط طائلاً فسيان لاذم عليك ولا حمد
وأنت امرؤ لا الجود منك سجية فتعطي ولا يعدي[1] على النائل الوجد

ثم ركض فرسه وذهب . ثم لا تكاد تهب أول فتنة على الإسلام بعد موت رسول الله ﷺ حتى ترى هذا الرجل يحوض المسلمين على الإنتقاض على الخليفة ومنع الزكاة كأنما خيل إليه الوهم الخادع أن هذه الأموال ستمنع عن بيت المال لتأخذ طريقها إلى بيته : واستمعوا إليه في قطعته الفاجرة الغادرة ولعل سوء حظه في هذا الموقف مما جلب إليه الشر ، وأذكى كذلك تحامل الناس عليه ، قال :

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيا لهفتا ما بال دين أبي بكر
أيورثها بكرا إذا مات بعده وتلك وبيت الله قاصمة الظهر
فقوموا ولا تعطوا اللئام مقادة وقوموا ولو كان القيام على الجمر
فدي لبني نصر طريفي وتالدي عشية زادوا بالرماح أبا بكر

وبنو نصر بن قعين هم الذين صبروا في محاربة أبي بكر دون باقي القبائل التي عادت إلى الإسلام وأداء الزكاة .

فرجل يتطاول بقذائف لسانه على أبي بكر جدير أن يحفظ الناس عليه

(١) يعدي : يعين . والوجد اليسار والسعة . والنائل العطاء ، أي لا يعين الغني على المنح وإنما الذي يعين هو كرم النفس وسماحتها .

من اضطرتهم الأحداث إلى مصانعته واتقاء لسانه وشراء أعراض المسلمين منه .

وقد نسبوا إليه أنه هجا أمه وزوجها بقوله :

ولقد رأيتك في النساء فسؤتني وأبا بنيك فساءني في المجلس

وقوله :

جزاك الله شراً من عجوز ولقاك العقوق من البنين
فقد ملكت أمر بنيك حتى تركتهم أدق من الطحين
فإن تخلى وأمرك لا تصولي بمشتد قواه ولا متين
لسانك مبرد لا خير فيه ودرك در جاذبة دهيز[1]

وقوله في أمه أيضاً :

تنحي فاجلسي مني بعيداً أراح الله منك العالمينا
أغربالا إذا استودعت سراً وكانوناً على المتحدثينا[2]
حياتك ما علمت حياة سوء وموتك قد يسر الصالحينا

وقوله في زوجته :

أطوف ما أطوف ثم آوي إلى بيت قعيدته لكاع

وصفه :

كان الحطيئة بارع الوصف واسع الخيال رائع التصوير تام الجودة لكل ما يتناوله من المعاني ، والمتتبع لشعره يرى فيه دقة الوصف وجماله وحسنه وإبداعه . فمن ذلك قوله يصف بخيلاً نصب له شراكه واحتال عليه فلم يصب منه شيئاً بعد الجهد والأعياء بقوله :

(١) الجاذبة : الناقة التي جذب لبنها من ضرعها فذهب صاعدا والدهين من الإبل الناقة البكيئة القليلة اللبن التي يمري ضرعها فلا يدر قطره .
(٢) الغربال النمام : والكانون الثقيل الوخم من الناس .

كدحت بأظفاري وأعملت معولي ... فصادفت جلموداً من الصخر أملسا
تشاغل لما جئت في وجه حاجتي ... وأطرق حتى قلت قد مات أو عسى
وأجمعت أن أنعاه حين رأيته ... يفوق فواق الموت حتى تنفسا
فقلت له لا بأس لست بعائد ... فأفلح يعلوه السمادير ملبسا

فهذه صورة طريفة أبدعها خيال بارع وفن قوي ، وهل تقل هذه الصورة على بداوته وبعده عن الحضارة طرافة وجدة عن صورة أبي نواس :

رغيف سعيد عنده عدل نفسه ... يقلبه طورا وطورا يلاعبه
ويخرجه من كمه فيشمه ... ويجلسه في حجره ويخاطبه
وإن جاءه المسكين يطلب فضله ... فقد ثكلته أمه وأقاربه
يكر عليه السوط من كل جانب ... وتكسر رجلاه وينتف شاربه

الحطيئة في ميزان النقد :

ولو ذهب إنسان إلى التماس عيب أو اقتناص ملمز أو اكتشاف مطعن لأعياه البحث وأضناه الجهد ثم رجع آخر الأمر مؤمنا أعمق الإيمان بمجده الأدبي وعظمته الشعرية حتى أجمع الرواة والعلماء على أنه كان متين الشعر شرود القافية : ما تشاء أن تطعن في شعر شاعر إلا وجدت فيه مطعنا وما أقل ما تجد ذلك في شعره . قال حماد سمعت أبي يقول وقد أنشد قول الحطيئة :

وفيتان صدق من عدي عليهم ... صفائح بصري علقت بالعواتق(١)
إذا ما دعوا لم يسألوا من دعاهم ... ولم يمسكوا فوق القلوب الخوافق
وطاروا إلى الجرد العتاق فأجموا ... وشدوا على أوساطهم بالمناطق(٢)
أولئك آباء الغريب وغاثة الصـ ... ـريخ ومأوى المرملين الدرادق(٣)

(١) فتيان صدق : أشداء في القتال وصفائح بصري دروعها وبصري-مدينة بالشام .
(٢) الجرد : القصار الضمر والعتاق الخيار النجية والمناطق جمع منطقة بالكسر وهي ما يشد على الوسط .
(٣) الصريخ : طالب النصرة وغاثة جمع غائث والمرمل الفقير والدرادق الصغار جمع دردق .

أحلوا حياض الموت فوق جبلهم مكان النواصي من وجوه السوابق[1]

قال أما أني لا أزعم أن أحدا بعد زهير أشعر من الحطيئة .

وقال فيه الأصمعي وقد أنشد شيئاً من شعره : أفسد مثل هذا الشعر الحسن بهجاء الناس وكثرة الطمع . . وقال أبو العلاء لم تقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

وقال الأصمعي : كتبت للحطيئة في ليلة أربعين قصيدة . ولقد صدق الخبيث حيث يقول لابن عباس والله يا ابن عم رسول الله لولا الطمع والجشع لكنت أشعر الماضين فأما الباقون فلا تشك أني أشعرهم وأصردهم سهماً إذا رميت .

ولقد أخذ بعض العلماء مآخذ على أبيات من شعر الحطيئة ولكن ما تعلقوا به عليه هنات لفظية صغيرة لا تقدح في طبيعته ولا تنال من شاعريته كقوله :

قروا جارك العيمان لما جفوته وقلص عن برد الشراب مشافره

أراد شفتيه . . وكقوله :

ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأي والبعد

قالوا إن ذكر البعد مع ذكر النأي فضل .

ونقده المرزباني في قوله :

ومن يـطلب مسـاعي آل لأي تصعـده الأمـور إلى عـلاهـا

فقال كان ينبغي أن يقول من طلب مساعيهم عجز عنها وقصر عن بلوغه فأما إذا ساوى بهم غيرهم فأي فضل لهم ؟

(١) السوابق جمع سابق وهو الجواد . وحياض الموت معناه المنية .

وإني أرى أن الحطيئة لم يقصد أن يسوي بهم غيرهم ولا كان هذا من وهدفه إنما أراد أن يقول إن الناظر في مناقبهم ومآثرهم والمتتبع لمفاخرهم لا يزال يترقى صعدا في منازلها من حسن إلى أحسن ومن رائع إلى أروع . فما يلتمع له جانب إلا بهره جانب أعظم واسترعته ناحية أسمى .

وقال في قوله .

صفوف وماذى الحديد عليهم   وبيض كأولاد النعام كثيف

شبه البيض بأولاد النعام وأراد بيض النعام . ولكن الحطيئة فيما أرى لم يخطىء فإنه أراد أن يصف كثافة البيض الذي يدرع به المحاربون فشبهه ببيض النعام أو أولاد النعام ، وبيضه وأولاده من باب واحد ، وقالوا إنه أخذ قوله .

فما كان بيني لو لقيتك سالماً   وبين الغنى إلا ليال قلائل

من قول النابغة :

وما كان دون الخير لو جاء سالماً   أبو حجر إلا ليال قلائل

على أن هذه المعاني من المعاني العامة التي يشترك فيها جميع الناس وكثيراً ما يكون انتساب مثل هذه الأشعار إلى أكثر من شاعر ناشئاً من اضطراب الرواة واختلاط الأمر عليهم ولعل فيما تقدم من الدراسة ما يعطينا فكرة واضحة صادقة عن هذا الشاعر القوي الموهوب .

وقال الحطيئة يتغزل ويصف ناقته ويمدح بغيضا .

آثرت إدلاجي على ليل حرة   هضيمِ الحشا حُسّانة المتجرد[1]

(١) الإدلاج : سير الليل كله . والحرة : الكريمة من النساء . والهضيم والهضماء : المرأة الخميصة البطن اللطيفة الكشح . والحشا : ما بين الضلع الأسفل إلى الورك ، ومعنى هضيم الحشا : دقيقة الخصر . وحسانة ـ كرمانة ـ حسنة . والمتجرد ـ بكسر الراء ـ الجسد العاري ، ـ وبفتحها ـ مصدر ميمي بمعنى التجرد ، أي أنها جميلة عند التجرد .

والمعنى : أنه اختار السفر وسرى الليل إلى الممدوح على الإستمتاع بهذه الحرة الدقيقة الخصر الجميلة الجسم .

إذا النوم ألهاها عن الزاد خلتها بَعيدُ الكرى - باتت على طي مُجسد(١)
إذا ارتفقت فوق الفراش حسبتها تخاف انبتاتَ الخصر ما لم تشدد(٢)
وتضحي غضيضَ الطرف دوني ، كأنما تضمن عينيها قَذى غير مفسد(٣)

إذا شئت بعد النوم ألقيت ساعدي
على كَفِلٍ ريان ، لم يتخدّد(١)

لها طيب ريا إن نأتني ، وإن دنت
دنت عبلةً فوق الفراش الممهّد(٢)

---

(١) الزاد : الطعام . والكرى : النوم . والمجسد : الثور المصبوغ بالزعفران .
والمعنى : أنها إذا غلبها النوم ولم تتناول طعام العشاء ظننتها بعد النوم لطيب رائحة فيها - قد باتت على ثوب مصبوغ بالجساد - بفتح أوله - وهو الزعفران ، وليست كسائر النساء اللاتي تتغير رائحة أفواههن بعد النوم خصوصاً إذا بتن دون عشاء ، أو المراد أنها إذا لم تتناول العشاء تبيت خميصة البطن فتبدو طيات بطنها شبيهة بطي الثوب المجسد .
(٢) ارتفقت : اتكأت على مرفقها . وانبتات الخصر : انقطاعه . ما لم تشدد : تتقو وتتماسك - يقول : إنها - لدقة خصرها وعظم أردافها - تخشى إذا هي اتكأت على مرفقها ، وهمَت أن تجلس أو تقوم - أن ينبت هذا الخصر وينقطع ما لم تتماسك وتجمع بين نصفيها .
(٣) غضيض الطرف : في طرفها فتور وتكسر لشدة الحياء . والقذى : ما يدخل في العين من دقاق الحصى ونحوه - والمعنى : أنها تخفض طرفها وتداني بين جفنيها خفراً وحياء ، أوتيها وتدللا ، فيخال الرائي أن بعينيها يسيرا من القذى نشأ عنه فتور في جفنيها ، ولكنه لم يبلغ أن يكون ضاراً ومفسداً ، وهو احتراس جميل .
(١) كفل المرأة : عجزها ، والريان : السمين الممتلىء . والتخدد : تغضن اللحم من الهزال ، يقال : امرأة متخددة إذا نقص لحمها بعد أن كانت سمينة ، فكأن لحمها قد شقت فيه أخاديد ، فصلت بعضه عن بعض
وفي رواية (على كفل كالدعص لم يتخدد) . والدعص : الرملة المنفردة الملساء ، وقد شبه به عجز محبوبته في عظمها ولينها .
(٢) نأتني : بعدت عني . والعبلة : الممتلئة البيضاء المشرقة . والممهد : السهل الوطيء اللين .
يقول : إنها ممتعة في حالي نأيها ودنوها ، فهي إن بعدت عني تمتعت بشميم رياها وعطرها الذي يفوح وينتشر ، وينفذ إلى ما يحيط بها من الأمكنة ، وإن دنت مني تمنعت بجسمها الممتلىء الغض ، فوق الفراش اللين الوثير .
وقد روي الشطر الأخير من البيت (دنت وعثة فوق الفراش الممهد) والوعثة : اللينة الناعمة الكثيرة اللحم .

عميمةُ ما تحت النطاق كأنها عسيب نما في ناضر لم يخضّد[٣]
تفرّق بالمِدري أثيثا نباته على واضح الذِفري أسيلِ المقلد[١]

تضوّع رياها إذا جئت طارقا
كريح الخُزامى في نبات الخلا الندي[٢]

فبتنا ـ ولم نكذبك ـ لو أن ليلنا إلى الحول لم نملل ، وقلنا له ازدد
وفي كل ممسى ليلةٍ أو معرسٍ خيالُ يَوافي الركب من أم معبد[٤]
وأدماء حُرُجوج تعاللت موهنا بسوطيَ فارمدّت نجاء الخفيدد[١]

---

(٣) عميمة ما تحت النطاق . العميمة : المجتمعة ، والنطاق : النقبة التي تنتقب بها المرأة ، أو الحزام الذي تشد به وسطها ، والمراد أن نصفها الأسفل متناسق مجتمع ، والعسيب : سعف النخل اللدن الغض الذي لم ينزع عنه الخوص ، فإن نزع عنه صار جريدا ، والناضر : الحسن الجميل ، والمخضد : الذي ثنى وكسر من غير أن يقطع ويبين .

ومعنى البيت أن نصفها الأسفل راب مجتمع ، وقدها لين لدن مستقيم كأنه عسيب غض لم يثن أو يكسر .

(١) المدرى : المشط . والأثيث : الشعر الكث الكثير ، والذفرى : الجيد ، وهو صفحة العنق ، أو معلق القرط ، أو ما خلف الأذن . والواضح : الأبيض الجميل . والأسيل : الطويل . والمقلد : موضع القلادة من العنق ، يقول : إنها تفرق شعرها الأثيث بالمشط على جيد أبيض طويل ، وطول العنق من سمات الجمال عند العرب .

(٢) تضوع : تفوح وتنتشر . والريا : الريح الطيبة . والطارق : الذي يجيء ليلاً . والخزامي : نبت طيب الرائحة . والخلا : الرطب من النبات ، وقيل : هو الحشيش .

(٣) تعرضت : تنكبت في سيرها واضطربت ، يعني : أنها لما رأت صحبه معه في رحالهم بدا عليها الإضطراب ، واستبدت بها الحيرة ، فأعرضت وسترت وجهها بيدها خفرا وحياء ، وهذا المعنى قريب من قول النابغة :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

(٤) المعرس والتعريس : نزول القوم آخر الليل ، وقد يكون في أوله ، والمعرس أيضاً موضع التعريس .

(١) أدماء : بيضاء صافية البياض . والحرجوج : الطويلة أو الضامرة . وتعاللت : ترفقت والتمست الحيلة لحملها على النشاط والسرعة .

والموهن : نحو من نصف الليل ، أو بعد ساعة منه ، والمراد هنا : الوقت من الليل مطلقا . وارمدت : أسرعت . والخفيدد : ذكر النعام .

يقول : رب ناقة أدماء ركبتها وتشاغلت بها ، وزجرتها بالسوط حينا فأسرعت بي ، كأنها ظليم يعدو مسرعا طلبا للنجاة .

إذا بـرّكت أوفت على تَفناتهـا بذي قصب مثل اليراع المقصّد[1]
كأن هويّ الـريح بين فـروجها تجاوبُ أظآر على ربع ردي[2]
وإن حط عنها الرحل قارب خطوها
أمين القـوى كـالـدُمْلُج المتعضّـد[3]
وترمي يداها بالحصى خلفَ رجلهها
وتـرمي بـه الـرجـلان دابـرةَ اليـد[4]
تـلاعب أثنـاء الـزمـام وتتقي مخافة ملوى من القدّ مُحصد[5]
وإن آنست وقعا من السوط عارضت
بي الجوَرَ حتى تستقيمَ ضحى الغد[6]
وتضحى الجبال الغر دوني كأنها من الآل حُفت بالملاء المعضّد[7]

---

(١) أوفت : أشرفت أو اعتمدت والثفنات : جمع ثفنة (بكسر الفاء) وهي الركبة وأصل الفخذ والقصب : العظم . واليراع : نبات مجوف ذو أنابيب . والمقصد - كمعظم - المستقيم والوسط بين الغليظ والدقيق . يريد بذلك وصف سوقها بأنها كالقصب في اعتدالها واستقامتها .

(٢) هوى الريح : مرورها بسرعة . والفروج : الفجوات التي تفصل بين جسمها والأرض . والأظآر : جمع ظئر وهي التي ترضع غير ولدها ، والناقة المرضع . والربع : الفصيل يولد في الربيع ويكون أول النتاج ، فإن كان آخره فهو هبع ، والردى : الهالك - يريد أن هذه الناقة إذا بركت لا تلصق سائر جسدها بالأرض بل تظل مشرفة فوق ثفناتها فإذا مرت الريح بين فروجها سمع لها دوي كأنه حنين أظآر على ربع هالك .

(٣) أمين القوى ، كناية عن العقال الذي تقيد به الناقة ، والدملج - كجندب في لغتيه - حلى يحيط بالعضد كما يحيط السوار بالمعصم ، والمتعضد اللاصق بالعضد .

(٤) دابرة اليد : مؤخر الخف منها ، يريد أنها لسرعتها تقذف يداها الحصى إلى الخلف ، وتقذفه رجلاها إلى الإمام .

(٥) أثناء الزمام : جمع ثنى وهو ما انثنى منه . والملوي ، السوط المفتول . والقد - بكسر أوله - الجلد . والمحصد : الشديد . والمعنى أن هذه الناقة تحرك رأسها يمينا ويسرة نشاطا ومرحا ، ولكنها تراقب السوط وتخشاه .

(٦) آنست : أحست . والجور : القصد - يريد أنها ناقة عنيدة إذا قسا عليها راكبها وألهبها بالسوط عدلت به عن الطريق وسارت في غير قصده ، ولا يستطيع تقويمها إلا بعد وقت طويل .

(٧) الغر : جمع أغر وهو الأبيض أو المرتفع الذي يكسو الثلج قمته . والآل : السراب . حفت : أحيطت . والملاء - بضم الميم - جمع ملاءة . والمعضد - بتشديد الضاد والتاء للمفعول - الذي فيه خطوط .

فما زالت الوجناء تجري ضفورها إليك ابن شماس تروح وتغتدي(١)
تزور امرأ يؤتي على الحمد ماله ومن يعط أثمان المحامد يحمد
كسوب ومتلاف إذا ما سألته تهلل زاهتز اهتزاز المهند(٢)
متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجدْ خير نار عندها خير موقد(٣)
تزور امرأ إن يعطك اليوم نائلا بكفيه لا يمنعك من نائل الغد
هو الواهب الكوم الصفايا لجاره تروحّها العُبدان في عازب ندي(٤)
وأنت امرؤ من ترم تهدِم صفاتِه ويرمي فلا يهدِمْ صفاتِك مرتدي(٥)
سواء عليه أي حين أتيته أفي يوم نحس كان أو يوم أسعد

تحليل ونقد

أبدع الحطيئة في هذه القصيدة أيما إبداع ، فقد بدأها بمطلع طريف جمع فيه بين طريقة الجاهليين ورقة الإسلاميين ، ثم ترفق في غزله ووصف مفاتن محبوبته ومحاسنها وصفا رائعاً لم يدع فيه من سمات الجمال شيئاً ـ ثم انتقل من الغزل إلى وصف الناقة وسيرها وحركاتها وسرعتها ونشاطها وعنادها ، وتسلل من ذلك إلى مدح بغيض بن لأي وآل شماس ، ووفق في مدحه توفيقاً يغبط عليه .

على أننا نلمح في قصيدته كثيراً من المعاني التي طرقها غيره من

(١) الوجناء : التامة الخلق الممتلئة الوجنتين الصلبة الشديدة ، وفي رواية (العوجاء) وهي الضامرة النشيطة . والضفور جمع ضفر (بفتح فسكون) وهو النسع أي الحبل الذي يشد به رحل الناقة « وقد كنى بذلك عن ضمورها وهزالها بسبب ما لاقته من المشقة في رحلتها .

(٢) متلاف : أي يتلف ما عنده بالكرم والعطايا . تهلل : أشرق وجهه سروراً بالعطية . واهتز : أخذته هزة من النشوة والطرب .

(٣) تعشو : تقصد وتميل إلى ناره ترجو عندها خيراً ، يقال عشا إلى النار إذا أحد النظر إليها وقصدها .

(٤) الكوم : جمع كوماء ، وهي الناقة العظيمة السنام . والصفايا : الغزار اللبن . والعبدان ـ بضم العين وكسرها ـ جمع عبد . والعازب : الكلأ البعيد . والندى : الرطب .

(٥) الصفاة : الحجر الأملس ، والمرتدي : لابس الرداء ، ويكنى به عن متقلد السيف ، ولابس السلاح ، والمحارب في الجملة . والبيت كناية عن عظيم قدرته وقوة سلطانه ، فينال عدوه ويجهز عليه ، ولا يناله أحد .

الشعراء ، وقد أخذها عنهم دون تصرف ، ومن ذلك قوله :

تلاعب أثناء الزمام وتتقي مخافة ملوى من القد محصد

فإن الشطر الثاني منه متفق مع الشطر الثاني من بيت طرفة في معلقته :

وإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت مخافة ملوى من القد محصد

ويشبه أن يكون هذا البيت مأخوذاً من قول كعب :

فحطت سريعا لم يخنها فؤادها ولا عينها من خشية السوط تغفل

ومنه قوله أيضاً :

وإن آنست وقعا من السوط عارضت بي الجور حتى تستقيم ضحى الغد

فإنه متفق في شطره الثاني مع قول آخر :

إذا هو نحّاها عن القصد عارضت به الجور حتى تستقيم ضحى الغد

ويذكرنا قوله :

كسوب ومتلاف إذا ما سألته تهلل واهتز اهتزاز المهند

بقول زهير :

تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذي أنت سائله

ونراه يقبول :

تزور امرأ إن يعطك اليوم نائلا بكفيه لا يمنعك من نائل الغد

وهو مأخوذ من قوله النابغة :

يوما بأجود منه سيب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد

وقول الأعشى من قصيدته إلى التي أعدها ليمدح بها الرسول ﷺ :

له صدقات ما تغب ونائل وليس عطاء اليوم يمنعه غداً

وليس يعيب الحطيئة أن يأخذ المعاني التي طرقها غيره ، ولكن يعيبه أن ينقل شطراً بأسره ، أو يأخذ معنى غيره ولا يتصرف فيه ـ ويظهر أن كثرة حفظه لشعر الأقدمين قد أجرى على لسانه بعض ما قالوه ، وأدمجه في شعره عن غيره قصد ، إذ المعروف عن الحطيئة أنه كان شاعراً مطبوعاً غزير المادة غنيا بالمعاني ، ولم يكن في حاجة إلى سرقة شعر غيره ونسبته إلى نفسه .

ولقد أخذ الحطيئة معنى بيته الآتي من شعر الأقدمين ، ولكنه تصرف فيه تصرفا أسقط به شعر من سبقه وكان أحق به ، فقد قال الأعشى يمدح المحلق :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة   إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها   وبات على النار الندى والمحلق

وقد أعجب الناس بقول الأعشى هذا زمنا طويلاً حتى إذا قال الحطيئة في بغيض .

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره   تجد خير نار عندها خير موقد

سقط بيت الأعشى ، وتناقل الناس بيت الحطيئة استجادة له واستحسانا ، وقد سمع عمر رضي الله عنه منشدا ينشد هذا البيت فقال : ذاك رسول الله ﷺ ، أي أن هذا المدح لا يستحقه إلا الرسول الكريم ، وقال مرة أخرى : كذب الحطيئة ، تلك نار موسى عليه السلام لأن موقدها هو الله سبحانه وتعالى .

وأياما كان الأمر فإن هذه القصيدة تعد من عيون الشعر ، فألفاظها عذبة وأسلوبها فخم ، ومعانيها طريفة ، وديباجتها مشرقة ، وقد برئت من التوعر والإلتواء ، وليس في نسجها مأخذ يؤخذ عليه ، ونراها تمتاز باستواء أبياتها وتسلسل معانيها ، والترفق في الإنتقال من غرض إلى آخر ، وقلة التكرار الذي يقع فيه كثير من الشعراء ، ولا يؤخذ عليه أنه أطال في الغزل ووصف الناقة ومقصوده المدح ، فإن ذلك كان طبيعة معروفة في الشعر الجاهلي

والإسلامي في الجملة ، وقد فرضته البيئة وقصده الشعراء تنشيطا للنفوس بالغزل ، وإيحاء للممدوح بما لاقاه الشاعر من المشقة في الرحلة إليه ، ليعظم عنده أمره ، ويسمح في صلته وعطائه ، وقد كان ذلك هو ما يهتم له الحطيئة ويسعى إليه .

وقد يقال : إن القصيدة خالية من الوحدة الموضوعية وذلك عيب خطير في نظر النقاد المحدثين متابعة لأرسطو في اشتراطه وحدة الفعل في المأساة ، وفاتهم أن طبيعة المأساة والشعر الموضوعي كله غير طبيعة الشعر الغنائي الذي يكفي فيه الوحدة النفسية أو الشعورية ، وما دامت أجزاء القصيدة الغنائية قد تجمعت في نفس الشاعر وانفعل بها شعوره فذلك كاف في تحقيق الوحدة في القصيدة . وأرسطو لم يشترط وحدة الفعل في الشعر الغنائي وإنما شرطه في المأساة لأنها تعد لتمثل على المسرح في وقت محدد فإذا تعدد الفعل فيها تعذر عرضها في الوقت المحدد لها ، على أن اليونانيين أنفسهم قد عرفوا المسرحية المزدوجة التي تتعدد فيها الأحداث وإن كان أرسطو قد عابها . وما بالنا نعتد بما يفرضه الغربيون في شعرهم ونحاول تطبيقه على الشعر العربي مع الإختلاف البين بين طبيعة الشعر العربي والشعر الأوروبي والفارق الكبير بين البيئتين ، وتصوير الشعر العربي للرحلات عبر الصحراء التي تتعدد فيها المشاهد والمظاهر ، وتنفعل مشاعر الشاعر العربي بها جملة حتى يصل إلى ممدوحه ثم يمدحه وليس الأمر كذلك بالنسبة للشاعر الغربي .

* * *

وقال النابغة الجعدي(١)

من قصيدة له

خليلي عوجا ساعة وتهجّرا ... ولوما على ما أحدث الدهر ، أوذرا (٢)
ولا تجزعا إن الحياة ذميمة ... فخفا لروعات الحوادث أو قرا(١)
وإن جاء أمر لا تطيقان دفعه ... فلا تجزعا مما قضى الله واصبرا
ألم تريا أن الملامة نفعها ... قليل إذا ما الشيء ولّى وأدبرا
تهيج البكاء والندامة ثم لا ... تغير شيئاً غير ما كان قدرا(٢)

(١) الجعدي : شاعر مخضرم اسمه قيس بن عبدالله من بني جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، وقال أبو الفرج في الأغاني : الصحيح أنه حسان بن قيس بن عبدالله ، وكنيته أبو ليلى : ولقب بالنابغة لأنه قال الشعر في الجاهلية ، ثم تركه ثلاثين عاماً . ثم عاد إليه في الإسلام ونبغ فيه ، وهو أسن من النابغة الذبياني لأنه أدرك المنذر بن محرق ملك الحيرة ، والذبياني إنما أدرك إبنه النعمان ، وكان الجعدي من الموحدين في الجاهلية يعبد الله على دين إبراهيم ، وعزف عن عبادة الأوثان ، وحرم على نفسه الخمر ، ولما جاء الإسلام أسلم وحسن إسلامه ، وقد عرف بحسن الخلق ولين الجانب والعفة في القول ، ووقف إلى جانب علي في حروبه مع معاوية ، ثم ناصر ابن الزبير في خروجه على الأمويين ، ومن قوله فيه :

حكيت لنا الصديق لما وليتنا ... وعثمان والفاروق فارتاح معدم
وسويت بين الناس في الحق فاستووا ... فعاد صباحاً حالك اللون مظلم

وكان الجعدي يقول الشعر عفر الخاطر ولا يعني بتهذيبه وتزيينه ، فكان منه الجيد والرديء ، ولذا كان من الشعراء المغلبين ، ما هاجى شاعراً أو نافسه في قول إلا غلبه صاحبه وظهر عليه ، وكان سمحاً يعترف بالهزيمة ، ولا يضمر في نفسه شراً ولا حقداً ، وقد مدح بشعره المناذرة والغسانيين وأهل نجران فضلاً عن أمراء العرب ، وعمر الجعدي مائة وثمانين عاماً أو مائتين وعشرين على الخلاف بين الرواة ، وتوفي بأصبهان في خلافة عبد الملك بن مروان .

(٢) عوجا : إنزلا وأقيما . تهجرا : أسكنا وقت الهاجرة وهي شدة الحر في وقت القيلولة . ذرا : أتركا اللوم ، لأن لومكما وعدمه سواء ، إذ لا سبيل إلى تغيير ما أحدثه الدهر .

(١) الجزع : شدة الحزن وعدم الصبر . والروعات : جمع روعة وهي الفزعة الشديدة . وقرا ـ بكسر القاف وتخفيف الراء ـ أقر من وقر كوعد بمعنى ثقل ورزن ، و ـ بفتحها ـ أقر من قر ـ بالتشديد ـ بمعنى استقرا واثبتا ، ثم خفف الفعل بحذف إحدى الراءين فصار قرا ـ بفتح أوله وثانيه ـ .

(٢) في البيت اضطراب ظاهر إذ معناه أن الندامة لا تغير غير المقدور . ويلزمه أن تغير المقدور وهو فاسد ولو قال (ثم لا تنيلك شيئاً غير ما كان قدرا) لاستقام المعنى ، وخلا من التعقيد والإلتواء .

خليلي قد لاقيت ما لم تلاقيا وسيرت في الأحياء ما لم تسيرا

تذكرت والذكرى تهيج لذي الهوى
ومن حاجة المحزون أن يتذكرا

ندامای عند المنذر بن محرق
أرى اليوم منهم ظاهر الأرض مقفرا(٣)

كهول وشبان كأن وجوههم دنانير مما شيف في أرض قيصرا(١)
وما زلت أسعى بين باب ودارة بنجران حتى خفت أن أتنصرا(٢)

وجاورت في أرض الشآم أحبة
إذا جئتم أنسوك أهلاً ومعشرا

لدى مالك من آل غسان خاله
وجداه من آل امرىء القيس أزهرا(٣)

يدير علينا كأسه وشواءه مناصفة والحضرمي المحبرا(٤)
رحيقاً عراقياً وريطاً يمانياً ومعتصراً من مسك دارين أذفرا(٥)
ومهما يقل فينا العدو فإنهم يقولون معروفاً وآخر منكرا
فما وجدت من فرقة عربية كفيلاً لها منا أعز وأنصرا(٦)
وأكثر منا ناكحاً لقرينة أصيبت سباء أو أرادت تخيرا

---

(٣) الندامى : جمع ندمان بمعنى المنادم . ومحرق : هو الحارث بن عمرو بن عامر الغساني . والبيت وإن كان خبرياً إلا أن المقصود منه التحزن والتحسر على فقد هؤلاء الندماء ، فهو إنشاء في المعنى على طريقة المجاز المرسل المركب .

(١) شيف ضرب وصنع ـ بضم الأول فيهما ـ .

(٢) باب : جبل قرب هجر باليمن . ودارة بنجران . هي محلة النصارى هناك .

(٣) امرؤ القيس المذكور في البيت هو امرؤ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد ، وهو الجد الأعلى للغسانيين ، وينتسب إليه كذلك الأوس والخزرج .

(٤) المنصف ـ كمقعد ومنبر : الخادم ، ويجمع على مناصف ، ويقال للخادمة منصفة كذلك ، والحضرمي المحبر : ثياب فاخرة تنسب إلى حضرموت .

(٥) دارين : موضع بالبحرين . والأذفر : الذي بلغ غاية الجودة في طيبه وأريجه .

(٦) الكفيل : الناصر والمعين .

وأسرع منا للصريخ إجابة وأكثر منا دارعين وحسرا[1]
وأجدر أن لا يتركوا عانياً لهم فيغبر جولاً في الحديد مكفرا[2]
ونحن ضربنا بالصفا آل درام وحسان وابن الجون ضرباً منكرا
وعلقمة الجعفي أدرك ركضنا بذي النخل إذ صام البهار وهجرا[3]
ضربنا بطون الخيل حتى تناولت
عميدي بني شيبان عمرا ومنذرا
وتنكر يوم الروع ألوان خيلنا
من الطعن حتى تحسب الجون أشقرا[4]
ونحن أناس لا نعود خيلنا إذا ما التقينا أن تحيد وتنفرا
وما كان معروفاً لنا أن نردها صحاحاً ولا مستنكرا أن تعقرا[5]
بلغنا السما مجداً وجوداً وسؤددا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا[1]
وكل معد قد أحلت سيوفنا
جوانب بحر ذي غوارب أخضرا[2]
لعمري لقد أنذرت أزدا أناتها لتنظر في أحلامها وتفكرا[3]

(١) الدارع : لابس الدرع . والحاسر : من لا جنة له من مغفر ودرع ، ويجمع على حسر كركع .
(٢) يغبر : يمكث ويظل . والمكفر ـ كمعظم بصيغة اسم المفعول : الموثق بالحديد .
(٣) يقال : صام النهار إذا اشتد قيظه وقت الظهيرة فكأنما شُبه النهار بإنسان اشتدت حرارة جوفه من الظمأ . وهجر النهار ـ بالتشديد ـ دخل في وقت الهاجرة ، وهي عند زوال الشمس ، أو من زوالها إلى العصر .
(٤) الجون : الأبيض أو الأسود ، والأشقر المائل إلى الحمرة .
(٥) العقر والتعقير : الجرح وقطع القوائم والنحر ، وكان العرب إذا أرادوا نحر البعير أو الناقة عقروه بقطع أحد قوائمه حتى يسقط فيسهل عليهم نحره .
(١) روي أن الجعدي أنشد الرسول ﷺ هذه القصيدة فلما بلغ هذا البيت سأله الرسول : ما المظهر يا أبا ليلى ؟ فأجاب : الجنة بك يا رسول الله ، فقال : إن شاء الله ، ويروى (بلغنا السماء مجدنا وسناؤ نا) .
(٢) الغارب في الأصل : الكاهل وما بين السنام والعنق ، ويطلق على الموجة العالية من الماء ، والأخير هو المراد هنا .
(٣) الأناة ، الحلم والوقار والتعقل . والأحلام : العقول . وقد ضمن (أنذرت) معنى (طلبت) أي طلبت إليها أن تتأنى وتتعقل .

وأعـرضت عنها حقبـة وتركتهـا ... لأبلغ عـذرا عند ربي فـأعذرا
وما قلت حتى نال شتم عشيرتي ... نفيل بن عمر والوحيد وجعفرا[٤]
وحي أبي بكر ولا حي مثلهم ... إذا بلغ الأمر العماس المدمرا[٥]
ولا خير في حلم إذا لم يكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يكدرا[٦]
ولا خير في جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا[٧]
إذا افتخر الأزدي يوماً فقل له ... تأخر فلم يجعل الله لك مفخرا
فـإن تـرد الـعليـا بـأهـلهـا ... وإن تبسط الكفين بالمجد تقصرا
إذا أدلج الأزدي أدلج سـارقـاً ... فأصبح مخـطوماً بلوم معـزرا[١]

تعليق ونقد

تخيرنا هذه الأبيات من قصيدة للجعدي تقرب من الثمانين بيتاً ، وهي أشهر شعره كله ، وقد تقلب فيها بين أغراض شتى على طريقة الجاهليين ، فبدأها بالدعوة إلى الإستخفاف وعدم المبالاة بحوادث الدهر ونوائبه ، لأن الحياة قد طبعت على الكدر والمآسي . واللوم والجزع لا يردان قضاء ، ولا يدفعان مقدوراً ، وخير ما صبر عليه ما لا سبيل إلى دفعه .

ثم انتقل الشاعر إلى تقرير أنه قد خبر الحياة وعرف ما فيها من عبر ، وأفاد مما صادفه من تجارب ، حيث طوف في الآفاق ، ورحل إلى أقاصي البلاد ، ونادم الملوك والأمراء في الحيرة ونجران والشام ، وكان له منهم أحبة

(٤) نفيل والوحيد وجعفر من سادات بن جعدة وأشرافهم .

(٥) العماس ـ كسحاب ـ الحرب الشديدة ، والأمر الخطير الذي لا يهتدى لوجهه . والمدمر : المهلك .

(٦) البادرة : ما يبدر من الحدة وقت الغضب ، وتجمع على بوادر .

(٧) الجهل : الحمية وشدة الغضب ، وأورد الأمر : استحضره وأصدره : أذهبه وأمضاه ، والمراد أنه إذا طرأ عليه أمر من الأمور عالجه بحذق وحكمة ـ ومعنى البيت أنه لا خير في الحمية إذا لم يقترن بها عقل يزن الأمور ويمنع من التهور ، ويتصرف في الأمر باتزان وحكمة ، ويعصم من التسرع والوقوع في الخطأ وما يستوجب الندم .

(١) الخطم : ضرب الأنف ووضع الخطام فيه ليقاد به البعير ، ووسم البعير بسمة في أنفه . والتعزيز : التعنيف والعقوبة .

وأصفياء ، وكان له عند الغساسنة سلطان وجاه ، وقد منحوه سنى الجوائز وجزيل العطاء .

وقد وصف في أثناء القصيدة الناقة والصيد والفرس والحروب ، وأطال في ذلك ما شاء ، ثم دلف إلى الفخر بعزة قومه ومنعتهم وانتصارهم على غيرهم من القبائل والأحياء ، وأنهم يسبون خصومهم وينكحون نساءهم كرهاً أو اختياراً .

واختتم قصيدته بهجاء الأزد على كره منه للهجاء ، وساق في أثناء ذلك بعض الحكم الباهرة .

وقد حذفنا من هذه القصيدة ما رأينا فيه خشونة وإغراباً ، وبعداً عما توخيناه في اختيارنا ، وهو في الوقت نفسه لا يساير السمات المألوفة في الشعر الإسلامي من حيث السهولة والعذوبة وقرب التناول .

ومن البين أن معظم الأبيات التي أوردنا هنا جيدة السبك جزلة المعاني ، وفيها ما يعد من روائع الشعر وعيونه .

فقد أجاد الجعدي في وصف الخيل الدهم إذ علاها الغبار وخضبت بدماء القتلى فصار لونها إلى الشقرة ، وأصاب غرضه من الكناية بذلك عن شجاعة قومه وبسالتهم في الحروب ، وكثرة ما يريقونه من دماء أعدائهم .

وأبدع كذلك حين بالغ في الفخر بقومه وجمع لهم المجد والسماحة والشرف ، ووضعهم في أسمى مرتبة وأعز مكانة ، وحين وصف نفسه بالعفة والعزوف عن الهجاء خشية من الله ، وأنه لم يهج الأزد إلا بعد أن أنذرهم فلم يرتدعوا ونالوا أشراف قومه بشتمهم وعيبهم فأصبح مضطراً للدفاع عن أعراضهم وأحسابهم .

ولقد كان الجعدي ملهماً في بيتي الحكمة حين يقرر أن الحليم لا بد له من حمية وحدة عند غضبه حتى لا يطمع الناس فيه ، وينقلب حلمه جبناً

وخوراً ، وكذلك حدة الطبع وشدته لا بد أن يكون معهما أناة وحكمة وتعقل وإلا انقلب الأمر إلى حمق وطيش وتهور ، وقد جاء هجاؤه لاذعاً في غير فحش ، ونال من خصومه بهذه الأبيات القليلة ما لم ينله شاعر بقصيدة طويلة حيث جردهم من جميع المكارم والمفاخر .

على أن هذه القصيدة مع جودتها وجمالها نرى الشاعر لم يحفل فيها بوحدة الغرض كما هو الشأن في معظم الشعر العربي لتزاحم المشاهد واقترانها في ذهن الشاعر تبعاً لأحوال بيئته وانفعال النفس بهذه الأحداث مجتمعة ولذا كانت الوحدة في معظم الشعر العربي ذهنية شعورية ، ووحدة الحدث إنما تكون لازمة في الشعر الموضوعي ، وعلى الأخص المأساة ، في لا الشعر الغنائي كما بينا ذلك في موضع شابق .

ومن الواضح أيضاً أن الشاعر لم يعن بتسلسل المعاني ولا بإحكام الربط بين أجزاء القصيدة تمشياً مع الفطرة التي لم يصقلها علم أو ينظمها منطق ونلمس في صدرها كثيراً من الضعف في الأسلوب والتكرار في المعاني ، ويبدو ضعف الأسلوب واضحاً في قوله :

تهيج البكاء والندامة ثم لا تغير شيئاً غير ما كان قدرا

فإن مراده لا يغير شيئاً قد قدر ، ولكن أخطأه التوفيق في التعبير عن المعنى الذي قصد إليه كما بيناه في الشرح .

كعب بن زهير

يعتذر لرسول الله ، ويلتمس عفوه ، فيقول من لاميته المشهورة :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيّم إثرها ـ لم يفد ـ مكبول[1]
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا   إلا أغن غضيض الطرف مكحول[1]
هيفاء مقبلة ، عجزاء مدبرة   لا يشتكي قصر منها ولا طول

---

(١) هو أبو عقبة كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني ، شاعر مخضرم ، نشأ في بيت من بيوت الشعر العريقة ، وروضه أبوه على الأدب منذ صغره . فقرض الشعر ولما يبلغ الحلم ، وكان أبوه يدفعه عن قرضه مخافة أن يقول ما لا خير فيه ، ثم سمح له بقوله بعد أن اختبره ووثق من نبوغه وعبقريته ـ ولما ظهر الإسلام أسلم أخوه بجير ، وامتنع هو عن الإسلام ، وغاضب أخاه في ذلك ، وهجاه وهجا الرسول والمسلمين ، فأهدر النبي دمه ، وأرجف الناس بقتله ، وتناذروا في الظفر به ، ولما ضاقت عليه السبل ولم يجد له معيناً ولا ناصراً توسل بأبي بكر الصديق ، ودخل مسجد الرسول مختفياً ، ثم مدحه بلاميته هذه ، فأمنه الرسول وعفا عنه وخلع عليه بردته ، وقد بقيت في عقبه حتى اشتراها معاوية منهم بأربعين ألف درهم . ثم توارثها الخلفاء من بعده . وقد توفي كعب في عام ٢٤ هـ .

وكان كعب شاعراً نابهاً ، وله شعر رائق ، ولكنه كان يغرب في ألفاظه ، ويقع في التعقد أحياناً . وقد اعترف له الحطيئة بالتقدم والبراعة ولم ير له نظيراً سواه ، وذلك إذ يقول :

فمن للقوافي شانها من يحوكها   إذا ما مضى كعب وفوز جرول

(٢) بانت : ذهبت وفارقت . ومتبول : سقيم ذاهب العقل . ومتيم : معبد مذلل . ومكبول : محبوس مقيد .

(١) الظبي الأغن : الذي يخرج صوته من خيشومه فيكون له غنة وتطريب . والطرف الغضيض : الذي فيه تكسر وفتور .

تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول[٢]
شجت بذي شبم من ماء محنية صاف بأبطح أضحى وهو مشمول[٣]
تنفي الريح القذى عنه ، وأفرطه من صوب سارية بيض يعاليل[٤]
أكرم بها خلة لو أنها صدقت موعودها ، أو لوان النصح مقبول[٥]
لكنها خلة قد سيط من دمها فجع وولع وإخلاف وتبديل[٦]
فما تدوم على حال تكون بها كما تَلوّن في أثوابها الغول[١]
ولا تَمسّك بالعهد الذي زعمت إلا كما يمسك الماء الغرابيل
فلا يغرنك ما منت وما وعدت إن الأماني والأحلام تضليل
كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيدها إلا الأباطيل[٢]
أرجو وآمل أن تدنو مودتها وما إخال لدينا منك تنويل
أمست سماد بأرض لا يبلّغها إلا العتاق النجيبات المراسيل[٣]

---

(٢) تجلو : تكشف وتظهر . والعوارض : الأسنان . والظلم ـ بفتح الأول وسكون الثاني ـ ماء الأسنان وبريقها . وذو الظلم : الثغر . والمنهل ـ بضم أوله ـ الممزوج بالخمر أول مرة ، والمعلول : الممزوج بها مرة ثانية . والهل في الأصل أول شرب الإبل ، والعلل ثاني شربها .

(٣) شجت : شقت . والشبم : البرد ، وذو الشبم : الماء البارد . والمحنية : منعطف الوادي ، وماؤه يكون صافياً رائقاً . والأبطح : مسيل دقيق الحصى والمشمول : الذي هبت عليه ريح الشمال حتى برد .

(٤) القذى : الوسخ . أفرطه : زاده وأغدقه . والصوب : المطر . والسارية : السحابة التي تمر ليلاً . واليعاليل : جمع يعلول وهو القطعة البيضاء من السحاب ، ويطلق كذلك على الجبل .

(٥) الخلة ـ بضم أوله ـ الخليلة والصديقة .

(٦) سيط من دمها : السوط ـ في الأصل ـ معناه الخلط والمزج أي أن هذه الصفات صارت عنصراً من دمها بارزاً فيها ، والفجع : ما يفجع ويحزن . والولع : الكذب .

(١) تلون : أصلها تتلون أي تتشكل وتتبدل من حال إلى حال . والغول : السعلاة ، أو الشيطان ، أو من يتلون ألواناً من السحرة أو الجن .

(٢) عرقوب : هو عرقوب بن صخر أو ابن معبد بن أسد من العمالقة « وكان أكذب أهل زمنه وأكثرهم خلفاً للوعد . فضرب به المثل في الكذب والإخلاف » .

(٣) العتاق : الكريمات الأصل ، والنجيبات : جمع نجيبة وهي الجلدة الذكية . والمراسيل جمع مرسال ، وهي الناقة اللينة السير .

ولا يـبـلغـهـا إلا عـذافـرة لها على الأين إرقال وتبغيل[٤]
تسعى الـوشاة جنـابيها وقـولهم إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول[٥]
وقـال كـل خليـل كنت آمله لا ألهينـك إني عنك مشغـول
فقلت خلوا سبيلي لا أبـالكم فكل ما قـدر الرحمن مفعـول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول[١]
أنبئت أن رسـول الله أوعـدني والعفو عند رسول الله مأمول[٢]
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ ـقرآن فيها مـواعظ وتفصيل[٣]
لا تأخذني بأقوال الـوشاة ولم أذنب وقد كثرت فيّ الأقاويل[٤]
لقـد أقوم مقـاماً لـو يقوم بـه يرى ويسمع ما قد أسمع الفيل
لـظل يرعـد إلا أن يكون لـه من الرسول بإذن الله تنويـل[٥]
ما زلت أقتطع البيـداء مدرّعـاً جنح الظلام وثوب الليل مسدول[٦]
حتى وضعت يميني لا أنـازعه في كف ذي نقمات قيله القيل[٧]
لـذاك أهيب عنـدي إذ أكلمـه وقيـل إنـك منسـوب ومسئـول
من خادر من ليوث الأسد مسكنه من بطن عثر غيل دونه غيل[٨]

---

(٤) العذافرة ـ بضم العين ـ الناقة الصلبة القوية . والأين : الكلال والإعياء ، والإرقال : ضرب من ضروب السير فوق الخبب ، والتبغيل : ضرب منه بين العنق والهملجة .

(٥) الوشاة : جمع واش وهو الساعي بالنميمة . والجناب : الناحية .

(١) الحدب ـ بالتحريك ـ بروز الظهر ودخول الصدر والبطن ، وقد وصف الخشبة التي يحمل عليها الميت بأنها حدباء لأنها منبعجة من جهة دون أخرى .

(٢) أوعدني : أنذرني وأهدر دمي .

(٣) النافلة : العطية .

(٤) الأقاويل : جمع أقوال ، والمراد هنا الأكاذيب .

(٥) يرعد : تأخذ الرعدة خوفاً وفزعاً ، والمراد بالتنويل هنا الصفح والعفو .

(٦) مدرعاً جنح الظلام : مستتراً به كأنه درع يحيط بي ومسدول : مرخي .

(٧) في كف ذي نقمات : المراد أنه ذو بطش وانتقام ممن يناصبه العداء من المشركين . وقيله القيل : معناه أن قوله هو النافذ الذي لا يرد .

(٨) الخادر : الأسد المستتر في أجمته . وعثر ـ بالفتح مع تشديد الثاء ـ مأسدة مشهورة . والغيل : الأجمة .

إن الرسول لنور يستضاء به — وصارم من سيوف الله مسلول(١)
في فتية من قريش قال قائلهم — ببطن مكة لما أسلموا زولوا(٢)
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف — عند اللقاء ولا ميل معازيل(٣)
شم العرانين أبطال لبوسهم — من نسج داود في الهيجا سرابيل(٤)
بيض سوابغ قد شكت لها حلق — كأنه حلق القفعاء مجدول(٥)
لا يفرحون إذا نالت رماحهم — يوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا(٦)
يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم — ضرب إذا عرّد السود التنابيل(١)
لا يقع الطعن إلا في نحورهم — وما لهم عن حياض الموت تهليل(٢)

تعليق ونقد

لم تلق قصيدة في عالم الشعر قديمه وحديثه من العناية والشهرة والذيوع ما لقيته هذه القصيدة ، فقد أكب عليها العلماء والأدباء بالشرح والتشطير والتخميس وغير ذلك من ضروب الإهتمام والإحتفال . استجادة لها

(١) الصارم : السيف القاطع . والمسلول : الذي نزع من غمده وانتضاه صاحبه .
(٢) زولوا : هاجروا من دياركم .
(٣) الأنكار : جمع نكس ـ بكسر أوله ـ وهو الضعيف . والكشف بضمتين ـ جمع أكشف وهو من لا ترس معه في الحرب ، أو الجبان الذي يسرع إلى الهزيمة . والميل ـ بالكسر ـ جمع أميل وهو من لا سيف له ، أو الذي لا يحسن الركوب إلى الحرب . والمعازيل : جمع معزال وهو من لا رمح له ـ وهذه كلها كنايات عن الجبن والخوف من الحرب والقتال ، وأصحاب رسول الله ﷺ ليسوا من هؤلاء وإنما هم أبطال شجعان
(٤) شم ـ بضم أوله ـ جمع أشم وهو المرتفع . والعرانين : جمع عرنين وهو الأنف ، أو ما صلب من عظمه ، ويكنى بارتفاع العرنين عن العزة والأنفة والإباء . والسرابيل : جمع سربال وهو الدرع ، وقد نسبها لداود على التشبيه بما كان يصنعه في القوة والصلابة وتقدير السرد .
(٥) سوابغ : جمع سابغة وهي التامة الطويلة . وشكت لها حلق : قدرت ونظمت على طريقة واحدة . والقفعاء : شجرة ينبت في أغصانها خيوط تأخذ شكل الحلق ولكنها لا تلتقي . ومجدول : محكم السرد .
(٦) المجازيع : جمع مجزاع وهو الشديد الفزع عندما يصادفه شر أو مكروه .
(١) الزهر : جمع أزهر وهو الأبيض من الإبل ، ويعصمهم : يمنعهم ويحميهم . وعرد ـ بفتح فتشديد ـ فر ، والسود : جمع أسود . والمراد بهم العبيد ، والتنابيل : جمع تنبال وهو القصير ، والعرب كانوا يفخرون بالطول ويعدونه من سمات الكرم والشجاعة .
(٢) حياض الموت : ساحاته . والتهليل : التأخير .

واستحساناً لمعانيها ، ولأنها قيلت في مدح الرسول ووصفه ، وقد وقعت لديه موقع الرضا والقبول .

ولم يكن كعب بأقل جرماً من النضر بن الحارث القرشي الذي قتله الرسول صبراً ، ولم يقبل فيه شفاعة ولا فداء . ولكن كعباً استطاع بروعة شعره وسحر بيانه أن يستل غضب الرسول عليه ، وأن يدل بحرارة شعره على صدق توبته ورجوعه عن غيه وضلاله .

ولقد بدأ كعب قصيدته هذه بالغزل الذي جمع فيه بين طريقة الجاهليين ومذهبهم ، وتهذيب الإسلاميين وعفتهم ، بيد أنه قد انتزع أكثر معانيه من البيئة البدوية من ذكر البين والرحيل ، والتشبيه بالظباء ، وذكر الأودية والمنعطفات والأباطح والرياح والسحب وغير ذلك ـ ثم انتقل من الغزل إلى وصف الناقة وأطال في ذلك ـ وقد حذفنا هذا الجزء من القصيدة ـ ثم دلف إلى الغرض المقصود من استعطاف الرسول ﷺ ، والتماس عفوه وصفحه.

ونراه في غزله يشكو سقمه ولواعج هواه وذهاب لبه لفراق حبيبته ، وأنها قد أسرت فؤاده ، وقيدته بهواها ولم يفده أحد ، أو يفكه من أسره ، ويشبهها يوم رحيلها بظبي غرير ، حلو الصوت ، مكحول العينين . وأنها ممشوقة القوام ، دقيقة الخصر ، ثقيلة الردفين ، معتدلة الطول ، وأنها إذ تبسم تبدي عوارض جميلة براقة ، وثغر أريقه قد مزج بالراح مرة بعد أخرى حيت صار عذباً شهياً ، وأن هذه الراح التي مزج بها ريقها قد خلطت بالماء البارد الصافي ، وأن هذا الماء قد حملته الرياح من الأقذار ، وجادته السحب في الليل فصفا ورده ، وطاب شرابه ، ثم أخذ يشكو مطلها في الوصل ، وإخلافها للوعد ، وبين أن ذلك سجية فيها لا تنفك عنها ، وأنه يرجو مودتها ووصلها حيث لا أمل في ذلك ، فقد رحلت عنه ، وأصبحت في ديار بعيدة يشق الوصول إليها .

ثم يذكر في القسم الثاني من هذه القطعة أنه قد توسل بجميع أصحابه وخلانه ليشفعوا له عند الرسول ﷺ فصدوا عنه ، ولم يأخذوا بيده ، فاستيأس

واستسلم لقضاء الله ، وأيقن أنه صائر إلى الموت وهو مصير الناس جميعاً ، ثم عوده الأمل في عفو نبي الرحمة والهدى ، ومثله وقد نزل عليه القرآن بالحكمة والموعظة ـ يرجي منه الصفح والمغفرة ، وتنصل مما رمى به ، وادعى أنه من نميمة الوشاة وأكاذيبهم .

وفي القسم الثالث مدح الرسول وصحابته بأنه هدى وضياء للناس ، وأنه سيف سله الله على المارقين والمشركين ، وأن صحابته قد استعذبوا الهجرة عن أوطانهم ، والحرمان من ديارهم وأموالهم ، في سبيل دينهم وعقيدتهم ، وليسوا ضعفاء ولا جبناء ، بل رجال حرب وكفاح ، وقد أعدوا العدة للقتال والإستشهاد ، ولكنهم هاجروا ليتخذوا لهم قاعدة آمنة يقفزون منها على أعدائهم ، وينشرون دينهم وتعاليمهم بين الناس جميعاً . وليسوا ممن يتيهون بالإنتصار ، ويغلب عليهم الزهو والخيلاء إذا نالوا من الأعداء ، ولا يجزعون وتذهب نفوسهم شعاعاً إذا غلبوا في بعض حروبهم ، وأنهم يعتدون بشجاعتهم ، ولا يفرون من الموت كما يفعل الخوروان الجبناء .

ولقد أجاد كعب في تصويره ، وأصاب الهدف الذي رمي إليه ، وعباراته قوية محكمة ، وأسلوبه جزل رصين ، وقد حفلت أبياته بكثير من المعاني الشريفة والمقاصد النبيلة وسلمت من الضعف والفتور والتعقيد والإلتواء ، وحسبه أن الرسول قد أعجب بقصيدته ، وصفح بعد سماعها عن زلته ، ورضي عنه وأقال عثرته ، وخلع عليه بردته .

وقد جرى في قصيدته هذه على السنن الجاهلي ولكنه نأى عن بكاء الأطلال ووصف الدمن وما يتصل بها . وأجاد الغزل ثم انتقل إلى وصف الناقة ومظاهر الصحراء ، ودلف بعد ذلك إلى وصف حاله حين ضاقت أمامه السبل وقنط من شفاعة الشفعاء له عند الرسول ﷺ ، وتسلل برفق إلى مدحه ومدح صحابته ، وليس في القصيدة وحدة موضوعية ، ولا عضوية ، بل هي جاهلية في بنائها ونظامها ومشاهدها ولغتها ، ولم يشبها ضعفاً ولا فتورليس فيها مطعن لطاعن .

معن بن أوس

يتحدث عن صلة القرابة ، والصفح عن ذوي الرحم .

(١) هو معن بن أوس بن نصر بن زياد المزني المضري من رهط زهير بن أبي سلمى ، وكان شاعراً مخضرماً ، شهد الجاهلية والإسلام ، واشترك مع المسلمين في بعض حروبهم ، وكانت قبيلته تقيم بالقرب من المدينة على جانبي الطريق المؤدي منها إلى مكة ، عند ماء لهم اسمه « عمق » وهذه البقعة كانت خصبة جيدة التربة كثيرة العيون والآبار ، فاشتغل أهلها بالزراعة ، وعاشوا عيشة مستقرة هادئة ، وكان لمعن ضيعة تجود بالزروع والثمار ، وله نخيل ونعم ، ولكن كانت الحياة تقسو عليه أحياناً ، وعرف معن بصواب الرأي والعفة والسماحة وحسن الخلق والإعتداد بالكرامة والمروءة والشرف ، وقد تزوج امرأة من قبيلته اسمها « أم حقة » فولدت له عدداً كبيراً من البنات ، وكان شديد العطف والحدب عليهن ، وقد رحل إلى الشام والعراق ، ولقي بالبصرة امرأة ذات حسب وجمال ويسار فتزوجها ، وأقام معها عاماً كاملاً ، ثم استبد به الحنين إلى أهله فتركها وعاد إليهم ، وأملها بالعودة إليها ولكنه لم يفعل ، فأتت إلى دياره ، وألحت عليه في العودة معها إلى البصرة فلم يقبل ، واضطر إلى طلاقها كارهاً . ثم ندم ندماً شديداً ، وقال في ذلك شعراً مؤثراً .

ويعد معن من الشعراء المجيدين المقلين ، وشعره يمتاز بفخامة اللفظ وجزالة الأسلوب وشدة الأسر وإصابة المعنى ، وكان معاوية يستحسن شعره ، ويقول : إنه هو وكعب بن زهير أشعر أهل الإسلام ، كما كان عبد الملك بن مروان يروي شعره ، ويفضله على جميع الشعراء .

وقد جود معن المديح وتبع فيه طريقة زهير ، وكان يهجو ويلذع من يهجوه بالتهكم المر ، ولكنه لا يسف ، ولا يلجأ إلى السباب والإقذاع ، ولم يكن الهجاء غرضاً ذاتياً عند معن ، وإنما كان يهجو مضطراً للدفاع عن قبيلته ومجد عشيرته . ونال معن بعض الجوائز والصلات ، ولكنه كان سمحاً متلافاً فلم يدخر مما ناله شيئاً ، بل كثيراً ما كان يشكو الدين

عفا وخلا مما عهدت به خمّ وشاقك بالمسحاء من سرف رسم(١)
عفا حقبا من بعد ما خف أهله وحنت به الأرواح والهطل الشحم(٢)
يلوح وقد عفى منازله البلى كمالاح فوق المعصم الحسن الوشم(٣)
وفي الحي نعم قرة العين والهوى وأحسن من يمشي على قدم نعم
وكانت لهذا القلب نعم زمانة خبالاً وسقماً لا يعادله سقم(٤)
سبتني بعيني جؤذر بخميله وجيد كجيد الريم ، زينه النظم(١)
لها كفل راب ، وساق عميمة وكعب علاهاللحم، ليس له حجم(٢)
تصيد ألباب الرجال بأنسها ويقتلهم منها التدلل والنغم(٣)

والحاجة ، وقد كان عبدالله بن جعفر يصله ويعطف عليه . ويحمل عنه ديونه خصوصاً بعد أن كف بصره في آخر حياته ، وعمر معن طويلاً ، ثم توفي في عام ٦٤ هـ في أيام عبد الملك بن مروان .

(١) عفا : درس وزالت آثاره . وخم ـ بالضم والفتح ـ موضع بين مكة والمدينة تصب فيه عين هناك ، وغدير معروف بالجحفة ، أو غيضة بها هذا الغدير . والمسحاء ـ بفتح فسكون ـ أرض مستوية ذات حصى صغير . وسرف ـ كفرح ـ موضع قرب التنعيم . والرسم : بقية آثار الديار .

(٢) الحقبة ـ بكسر الحاء ـ مدة غير معينة أو السنة ، وتجمع على حقب كعنب ، والحقب ـ بضم أوله وبضمتين ـ ثمانون سنة أو أكثر ، والدهر ، والسنة أو السنون وحف أهله : ارتحلوا وتركوه . وحنت به الأرواح : اشتدت وصار لها صوت كحنين الإبل . والهطل ـ كركع ـ السحب الدائم مطرها في غير شدة . والسحم ـ بضم أوله ـ جمع أسحم وهو الأسود الغزير المطر .

(٣) يلوح : يبدو ويظهر ، والضمير يعود إلى الرسم . وعفى ـ بالتشديد ـ طمس وأزال . والمعصم : موضع السوار من اليد . والوشم : النقش .

(٤) الزمانة ـ كسحابة ـ الهوى أو العاهة . والخبال : الجنون . والسقم : المرض .

(١) سبتني : سلبت عقلي وأسرت فؤادي والجؤذر : ولد البقرة . والخميلة المكان الكثير الشجر ، والجيد : العنق . والرئم : الظبي الأبيض .

(٢) الكفل : الردف . والرابي : الضخم . والعميمة : الممتلئة . وليس له حجم : أي عظم ناتىء بارز ، يريد بذلك أن عظم كعبها يكسوه اللحم فيبدو مستديراً ولا يبرز منه شيء .

(٣) تصيد : أصلها تتصيد ، أي تقنص وتتملك . الأنس : الإلفة والمودة . ويقتلهم : يصيبهم ويهيجهم . والتدلل تصنع الإمتناع على الرجل مع الرغبة فيه . والنغم ـ بفتح الغين ويخفف ـ جمع نغمة ، وهى لحن الصوت العذب .

لباخية عجزاء ، جم عظامها ... نمت في نعيم ، وانمهل بها الجسم (٤)
توالدها بيض حرائر كالدمى ... نواعم ، لا سود قصار ولا خثم (٥)
وأجداد صدق لا يعاب فعالهم ... هم النضد السر الغطارفة الشم (٦)
مطاعيم في البؤسى لمن يعتريهم ... إذا يُشتكى في العام ذي السنة الأزم (١)
مصاليت أبطال إذا الحرب شمرت ... بأمثالهم - يوم الوغى - يكشف الهم (٢)
إذا انتسبت مدت يديها إلى العلا ... وصدقها الإسلام والحسب الضخم (٣)
كأني إذا لم ألق نعماً مجاور ... قبائل من يأجوج، من دونها الردم (٤)
وذي رحم قلمت أظفار ضغنه ... بحلمي عنه ، وهو ليس له حلم (٥)

---

(٤) لباخية : مكتنزة اللحم سمينة والحجزاء : كبيرة العجز . وجم - بالضم - جمع أجم ، وهو ما كثر لحمه ، أي أن عظمها مغطى باللحم . ونمت : نشأت . وانمهل : اعتدل وانتصب وطال .

(٥) بيض حرائر : أي حسان كرائم أطهار والدمى : جمع دمية وهي الصورة المصنوعة دات الحجم . والخثم - بالضم - جمع خثماء ، وهي التي في أنفها انبعاج وانخفاض . يريد أنها من علية الناس لا من سوادهم .

(٦) الفعال - كسحاب - الكرم والخير . والنضد - بالتحريك - الخيار والأشراف . والسر : الخالص من كل شيء . والغطارفة : جمع غطريف وهو السيد الكريم . والشم : جمع أشم ، والشمم - في الأصل - ارتفاع في قصبة الأنف ويكنى به عن العزة والأنفة والإباء .

(١) مطاعيم : جمع مطعام وهو المبالغ في الجود والكرم . والبؤسى : البؤس والفقر . والمعتري : الذي يلم بالقوم وينزل فيهم . والسنة : القحط والجدب . والأزم - بسكون الزاي - الضيق والحاجة .

(٢) مصاليت : جمع مصلات ، وهو القوي العزم الماضي الحد . وشمرت الحرب : اشتدت وحمي وطيسها . والوغى : الجلبة والضوضاء ، ويطلق على الحرب لأن ذلك من لوازمها .

(٤) الحسب : المكارم والمفاخر ، ومعنى هذا البيت أنها إذا ذكرت نسبها كانت في السنام والذروة من الناس جميعاً ، ولقومها فوق نسبهم وشرفهم أمجاد عظيمة في السبق إلى الإسلام ، ورفع لوائه والتمكين له ، كما أن لهم مكارم ضخمة ومفاخر كثيرة .

(٤) الردم : السد . والمراد أنه يشعر بالوحشة ، وينتابه القلق وعدم الإستقرار إذا هي بعدت عنه .

(٥) الرحم : القرابة ، والضغن : الحقد والبغض ، وقد أثبت للضغن أظفاراً على سبيل التخييل للمبالغة في شدته ، كأن الضغن وحش مفترس يتأهب للتفك والإهلاك . والمعنى : رب ذي قرابة اشتدت عداوته لي وحقده علي صبرت عليه وأغضيت عن فعله ، وهو لا يكف عن أذاه ، ولا يرتدع عن غيه .

يحاول رغمي ، لا يحاول غيره   وكالموت عندي أن يحل به الرغم(١)
فإن أعف عنه عيناً على قذى   وليس له بالصفح عن ذنبه علم(٢)
وإن انتصر منه أكن مثل رائش   سهام عدو يستهاض بها العظم(٣)
صبرت على ما كان بيني وبينه   وما تستوي حرب الأقارب والسلم
وبادرت منه النأي ، والمرء قادر   على سهمه ، ما دام في كفه السهم(٤)
ويشتم عرضي في المغيب جاهداً   وليس له عندي هوان ولا شتم
إذا سمته وصل القرابة سامني   قطيعتها ، تلك السفاهة والإثم(٥)
وإن أدعه للنصف يأب ويعصني   ويدع لحكم جائر غيره الحكم(٦)

وقد كنت أكوي الكاشحين وأشتفي
وأقطع قطعاً ليس ينفعه الحسم(٧)

---

(١) الرغم : الإذلال والإهانة : يقال : أرغم فلان أنف فلان إذا ألصقه بالرغام وهو التراب ، ثم كني بذلك عن الإذلال . ومعنى البيت : أنه يحاول إذلالي وإهانتي ويشق على أن ينزل به شر ، أو تلحقه مهانة .

(٢) الإغضاء : إدناء الجفون بعضها من بعض ، ويطلق بمعنى الإغماض . والقذى : ما يقع في العين من التراب أو الأجسام الدقيقة ، وإغضاء العين على القذى كناية عن التغافل والصبر والتسامح . والصفح : العفو والتجاوز عن الزلات ـ يقول : إذا صفحت عن ذنبه كنت متحملاً لما يشق على النفس تحمله ، وهو لا يدرك ذلك . ويظن أني أضمر له العداوة والشر .

(٣) الرائش : الذي يلصق بسهمه الريش ليكون أسرع وأدق إصابة لمرماه ، ويستهاض : يكسر كسراً لا يجبر ـ يقول : إن أخذت ابن عمي بذنبه ، وجازيته على فعله كنت كمن يعين عدوه ، ويريش له السهام ليرميه بها لأن ما ينال ابن عمي من الشر يصيبني ويشق علي .

(٤) النأي : البعد ـ ومعنى البيت ، أنني كظمت غيظي ، وبادرت بالإبتعاد عن ابن عمي مخافة أن يفلت زمام الأمر من يدي . ويحملني الغضب على مؤاخذته وإلحاق الأذى به .

(٥) سمته : طالبته وكلفته وحملته ـ يقول : إنني أرعى حق القرابة وأذكره بها ، ولكنه يسعى للقطيعة ويعمل لها جاهداً ، وذلك طيش وحمق وميل عن سبيل الرشد والهدى .

(٦) النصف ـ بفتح أوله وثانيه ـ الإنصاف والعدل ، وتسكن الصاد تخفيفاً أو ضرورة ، والجائر : الظالم ، وغيره الحكم : أي العادل المقبول حقاً .

(٧)الكاشح : العدو الذي يضمر العداوة ويطويها بين جنبيه . وأشتفي : أنال منه حتى تهدأ نفسي وتطيب ، والحسم : كي العرق بعد قطعه حتى لا ينزف دمه . وحسم الداء ، قطعه بالدواء ، والمعنى الأول أليق في هذا البيت .

وقد كنت أجزي النكـر بالنكـر مثله
وأحلم أحيـانـاً ولـو عـظم الجـرم[1]

فلولا اتقـاء الله والـرح التي رعـايتهـا حق وتعـطيلهـا ظلم
إذاً لعـلاه بـارق، وخـطمتـه بوسم شنار، لا يشاكله وسم[2]
ويسعى إذا أبنى ليهدم صالحي وليس الذي يبني كمن شأنه الهدم
يود لو أني معدم ذو خصاصة وأكره جهدي أن يخالطه العدم[3]
ويعتد غنماً في الحوادث نكبتي وما إن له فيها سناء، ولا غنم[4]
فما زلت في ليني له وتعطفي عليه كما تحنو على الولد الأم
وخفضي له مني الجناح تـألفاً لتـدنيه مني القـرابة والـرحم[5]

وقـولي - إذا أخشى عليه مصيبـة -
ألا أسلم فـداك الخال والأب والعم

وصبـري على أشيـاء منـه تـريبني
وكظمي على غيظي، وقد ينفع الكظم[6]

= يقول، إنني حين أصفح عن ذنبه، وأتغاضى عن شره وأذاه، لا أفعل ذلك جبناً وضعفاً، فطالما أصبت أعدائي وشفيت نفسي منهم، وأنزلت بهم من الشر والبلاء ما لا سبيل إلى دفعه أو زواله، كالجرح الذي يقطع ويتعذر رتقه أو مداواته.

(١) النكر - بضم أوله - الشر، وقد سمي الجزاء على النكر نكراً لأنه مسبب عنه، ومراعاة للمشاكلة والزينة اللفظية، وأحلم أحياناً: أتغاضى وأتغافل. والجرم - بالضم - الذنب، يقول، إنه رجل شجاع عاقل، يعاقب عدوه على الذنب حيناً، ويعفو عنه حيناً آخر، ويلبس لكل حال لبوسها.

(٢) البارق: السيف، وخطمته: ضربته على خطمه أي أنفه، والخطم كذلك: كي البعير على أنفه، أو في عرض وجهه، والوسم: الأثر والعلامة، والشنار: العيب الشنيع.

(٣) المعدم: الفقير. والخصاصة: الحاجة. والعدم - بالضم - الفقر.

(٤) الغنم - بضم أوله الغنيمة والكسب. والنكبة النازلة، والمصاب. والسناء: الرفعة والشرف.

(٥) خفض الجناح: كناية عن اللين والشفقة والرحمة. والرحم - بكسر فسكون - القرابة والوشيجة والصلة.

(٦) الكظم: الحبس والإمساك، تقول: كظمت غيظي إذا أمسكت على ما في نفسك منه، وكظم الغيظ: تجرعه، واحتمال سببه، والصبر عليه، ويقال: كظم البعير على جرته إذا أمسكها ورددها في حلقه دون أن يدعها تخرج من فيه.

لأستل منه الضغن حتى سللته ... وقد كان ذا ضغن يضيق به الجرم[1]
رأيت انثلاماً بيننا فرقعته ... برفقي وإحيائي ، وقد يرقع الثلم[2]
وأبرأت غل الصدر منه توسعاً ... بحلمي ، كما يشفى بالأدوية الكلم[3]
وداويته حتى ارفأن نفاره ... فعدنا كأنا لم يكن بيننا صرم[4]
وأطفأت نار الحرب بيني وبينه ... فأصبح بعد الحرب وهو لنا سلم

نقد وتعليق

قصيدة معن هذه تمثل حياة الشاعر المخضرم أروع تمثيل ، فهي جاهلية في مطلعها وعمودها ، وفخامة ألفاظها وجزالة أساليبها ، وعدم العناية بتسلسل المعاني وقوة الربط بين أجزائها ، وابتدائها بالغزل ووصف المحبوبة بما تواضع عليه الجاهليون من محاسن ومفاتن . وأنها ذات نسب كريم وحسب عريض ، وهي إسلامية في عذوبتها وعفتها ، وعنايتها بمكارم الأخلاق ، والصفح عن الزلات ، واحتمال أذى الأقارب ، والإحتيال لإزالة الفرقة ، ومعالجة النفوس المريضة ، واستلال الضغائن والأحقاد من القلوب ، وإحلال الوئام والمحبة محلّ الخلاف والتباغض .

ثم هي تمثل حكمة الشاعر وحصافته وحسن خلقه ، وإيثاره للعطف والملاينة والتجاوز عن الهفوات ، وهو قادر على الشدة والقسر والإذلال ، لأنه يرى للرحم حرمة ، وللقرابة حقاً ، وأن من يصوب السهم إلى صدر قريبه كمن يصوبه إلى نفسه .

ولقد أطال معن الكلام حول هذا الغرض وأتى على جميع جوانبه ،

---

(١) لأستل منه الضغن : لأزيله برفق وهوادة . والضغن : البغض والحقد . والجرم ـ بكسر أوله ـ الجسم .
(٢) الانثلام : الكسر ، والمراد هنا الفرقة والقطيعة . فرقعته : جبرته وأصلحته . والإحياء : المراد به إعادة الصلات والروابط إلى ما كانت عليه من صفاء ومودة .
(٣) الغل ـ بكسر أوله ـ الحقد ونوازع الشر . والكلم ـ بفتح أوله ـ الجرح .
(٤) ارفأن : سكن وهدأ وزال . والنفار : الجفوة والتباعد . والصرم : العداوة والقطيعة .

وقلبه في صور شتى ، ولكنك لا تحس لذلك ملالاً ولا سأماً ، ولا تستطيع أن تتبين في كلامه تكراراً أو حشواً ، وهذا دليل براعته وقدرته .

وفي قصيدته أبيات كثيرة بلغ فيها غاية الإجادة والإحسان ، وقد تأنق في صوغها ، وأبدع في معانيها ، وجعلها أشد نفاذاً إلى القلوب ، وأكثر حظوة لدى العاطفة والوجدان ـ ومن ذلك قوهل في وصف محبوبته :

تصيد ألباب الرجال بأنسها ويقتلهم منها التدلل والنغم

فهو هنا يلفت الذهن إلى رقتها وظرفها ودلالها ، فضلاً عما تمتاز به من حسن الصوت وجمال اللحن ، ويجعل هذه الرقة وذلك الدلال وتلك العذوبة في الصوت وسائل وأسباباً تصبي بها الرجال ، وتستحوذ على قلوبهم . وتجعلهم صرعى هواها وقتلى الغرام بها .

ومنه قوله كذلك :

إذا انتسبت مدت يديها إلى العلا وصدقها الإسلام والحسب الضخم

فإن شطره الأول لم يترك لغيرها شيئاً من حيث السمو والرفعة وكرم النسب وشرف المحتد ، وقد جمع لها إلى ذلك في الشطر الثاني مكانة قومها في الإسلام ، وما عرفوا به من أمجاد ومكارم ومفاخر .

وقد أحسن التشبيه وأبدع التصوير في قوله :

وإن أنتصر منه أكن مثل رائش سهام عدو يستهاض بها العظم

ومما يجري مجرى المثل الشطر الثاني من قوله :

صبرت على ما كان بيني وبينه وما تستوي حرب الأقارب والسلم

ولا نكاد نرى في هذه القصيدة مأخذاً من المآخذ البارزة التي يراها النقاد عيباً يغض من شأن الشاعر أن يزري بشعره . وحق علينا أن نقضي

لمعن بالبراعة والإجادة والإحسان ، وأن نمضي مع معاوية وعبد الملك في تمجيد شعره والإعتداد به .

وإذا عرضناها على قواعد النقد الحديث وجدناها ـ بعد اعتبار الغزل فيها مدخلاً وتمهيداً ـ ذات وحدة موضوعية وعضوية معاً ، حيث تناول فيها ما يجب على المرء من رعاية حق قرابته ، وصفحه عما يبدر منهم من زلات ، والصبر على كيدهم وأخطائهم ، ومقابلة السيئة بالحسنة ، حتى يستل حقدهم وسخيمة قلوبهم ، ويعودوا إلى الصفاء والمودة ، وقد نسقت هذه المعاني تنسيقاً مسلسلاً بديعاً وتراها كذلك قد حفلت بالصور البيانية والخيال البارع ، وقوة النسج ، وحسن الربط ، مع عذوبة ورقة وجزالة ، فالشكل فيها قد استوفى جميع مقوماته ، وتراءى الحسن فيه بيناً جلياً ، وكذلك نراه مثالياً في مضمونه ، إذ هو يصور لنا معنى إنسانياً جميلاً ، وفضيلة من أسمى الفضائل ، وخلقاً من أكرم الأخلاق وأنبلها ، وكان في قصيدته هذه كلاسيكياً ، ورومانتيكياً وواقعياً في آن واحد .

أبو ذُؤيب الهَذلي (١)

يرثي بنيه فيقول من قصيدة له :

(١) هو خويلد بن خالد بن محرث بن زبيد بن مخزوم الهدلي المضري ، وهو من المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام ، وقد أسلم وحسن إسلامه ، واشترك في الغزو والجهاد مع المسلمين ، وكان يقيم بالبادية ويتردد على الحواضر ، وقد نزل بيثرب يوم وفاة الرسول ﷺ ورثاه بأبيات منها قوله :

كسفت لمصرعه النجوم وبدزها ‏ ‏ ‏ ‏ وتضعضعت آطام بطن الأبطح
وتزعزعت أبيات يثرب كلها ‏ ‏ ‏ ‏ ونخيلها لحلول خطب مفدح

وكان أبو ذؤيب يهوى امرأة يقال لها أم عمرو ، وجعل رسوله إليها خالد بن زهير فخانه فيها ، فصرمها أبو ذؤيب وحمل على خالد ، وقال في ذلك شعراً منه قوله :

أخالد ما راعيت مني قرابة ‏ ‏ ‏ ‏ فتحفظني بالغيب أو بعض ما تبدي
دعاك إليها مقلتاها وجيدها ‏ ‏ ‏ ‏ فملت كما مال المحب على عمد

وأجابه خالد بأبيات زعم فيها أن أبا ذؤيب قد خان في هذه المرأة ذاتها قريباً له ، حينما جعله رسولاً إليها ، ومن ذلك قوله :

فلا تجزعن من سنة أنت سرتها ‏ ‏ ‏ ‏ فأول راض سنة من يسيرها

وقد خرج أبو ذؤيب في جند عبدالله بن سعد بن أبي سرح إلى إفريقيا غازياً في عام ٢٦ هـ في زمن عثمان ، فلما تم فتحها أرسله ابن أبي سرح في صحبة عداالله بن الزبير إلى عثمان مبشرين بالفتح ، فمات أبو ذؤيب بمصر وهو في طريقه إلى يثرب ، وقيل : بل مات في غزاة ببلاد الروم ، والرواية الأولى أشهر ، وقد مات أبناؤه الخمسة قبل موته بعام واحد بمصر حين انتشر وباء الطاعون ، ورثاهم بالقصيدة التي أوردنا بعضها هنا .
وكان أبو ذؤيب شاعراً فحلاً ، ويعده الرواة ونقدة الأدب أشعر الهذليين جميعاً

أمن المنـــون وريبـة تتــوجــع | والدهر ليس بمعتب من يجزع[١]
قالت أميمة ما لجسمك شـاحباً | منذ ابتذلت ، ومثل ما لك ينفع[٢]
أم ما لجسمك لا يلائم مضجعاً | إلا أقض عليه ذاك المضجع[٣]
فـأجبتهـا أمـا لجسمـي أنــه | أودى بنيّ من البلاد فودعوا[٤]
أودى بنيّ فـأعقبـوني حسـرة | بعْد الرقاد ، وعبرة مـا تقلع[٥]
سبقـوا هـويّ وأعنقـوا لهـواهم | فَتُخُرِّموا ولكـل جنب مصرع[١]
فغبـرت بعـدهم بعيش نـاصب | وإخــال أني لاحق مستتبــع[٢]
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم | وإذا المنيـة أقبلت لا تدفـع[٣]
وإذا المنيــة أنشبت أظفـارهـا | ألفيت كـل تميمـة لا تنفـع[٤]

(١) المنون : الموت . وريبه : صرفه وحادثه المفزع . ليس بمعتب : أي ليس بمزيل عتبه ، ولا براجع فيما أحدثه .
(٢) أميمة : زوجته ، وفي رواية (أمامة) . وشاحباً : مصفراً مهزولاً . ابتذلت ، الإبتذال : الإمتهان وعدم التحفظ والصيانة ، أو الإسراف وعدم القصد ، ويظهر أنه قد أسرف في بذل ماله بعد وفاة بنيه يأساً من الحياة .
(٣) يلائم مضجعا : يوافقه ويجد فيه راحة واستقرارا ، والمضجع مكان الإضطجاع والنوم . وأقض عليه المضجع : خشن عليه وآلمه ولم يطب له . والقضض : الحصى الصغار تقلق من ينام فوقها .
(٤) أما لجسمي : أن مخففة من الثقيلة ، وما موصولة ، والمعنى : أن الذي وقع لجسمي وأقلقه وأضناه هلاك بني ، أو أما حرف شرط ، والمعنى أما الشحوب لجسمي فلأن بني قد هلكوا ، وحذفت الفاء من الجواب للضرورة ـ يقول : إن سبب سهدي وآلامي وشحوب جسمي هو موت أولادي ، وذهابهم إلى حيث لا يعودون .
(٥) الحسرة : الأسى والندم . والعبرة : الدمعة . وما تقلع : ما تذهب وتزول .
(١) سبقوا هوى ـ بتشديد الياء ـ على لغة هذيل . وعند غيرهم يقال : هواي . والمراد أنهم ماتوا قبلي ، وكان هواي أن أموت قبلهم . وأعنقوا لهواهم : أسرعوا إليه ، وقد أراد أن يخيل أنهم قد أحبوا الموت وسارعوا إليه فتلقفهم وضمهم جميعاً ، أو أنهم كانوا يتمنون الموت لشدة آلامهم ويأسهم من الشفاء . فتخرموا : استؤصلوا وهلكوا ، والمصرع : الحين والهلاك .
(٢) غبرت : لبثت وبقيت . وناصب : شاق متعب موجع .
(٣) أدافع عنهم : أذود عنهم الموت بالتداوي ، أو حرصت على أن أدفع عنهم الشر والأذى دائماً . لا تدفع : لا ترد ـ يقول : طالما حرصت على حمايتهم ودفع الشر عنهم ، ولكن الموت لا يرد ولا يدفع .
(٤) أنشبت أظفارها : غرزت مخالبها في الشيء وتشبثت به ، وقد جعل للمنية أظفاراً على سبيل التخييل . والتميمة : خرزة رقطاء كان العرب يعلقونها في أعناقهم لدفع الشر عنهم ، وتطلق التميمة على التعويذة والرقية ، وكل ما يتقى به الأذى والشر .

فالعين بعدهم كأن حداقها سُملت بشوك ، فهي عور تَدمع(٥)
وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع(١)
حتى كأني للحوادث مروة بصفا المشقر ، كل يوم تقرع(٢)
لا بد من تلف مقيم فانتظر أبأرض قومك أم بأخرى المصرع(٣)
ولقد أرى أن البكاء سفاهة ولسوف يولع بالبكا من يفجع(٤)
وليأتين عليك يوم ذو جوى يبكي عليك مقنعاً لا تسمع(٥)
والنفس راغبة إذا رغّبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع(٦)
كم من جميعي الشمل ملتئمي الهوى كانوا بعيش ناعم فتصدعوا(٧)
فلئن بهم فجع الزمان وريبه إني بأهل مودتي لمفجع(١)

تعليق ونقد

هذه قطعة من جيد الشعر تفيض بالألم والحسرة ، وتنبعث منها حرارة

---

(٥) سملت بشوك ـ على البناء للمجهول ـ أصيبت . وعور ـ بضم أوله ـ جمع أعور ، وقد جع الحدقة على إرادة الأجزاء ، وجعل كل جزء منها أعور ، ثم جمعه على عور ، وفي رواية (عورا) بقصر الممدود ، وحداقها رواية اللسان ، وغيره روى (جفونها) بدل حداقها .

(١) التجلد : التصبر والتماسك عن النوازل . والشامت : الذي يفرح ببلية عدوه . وريب الدهر : صرفه ومصابه . لا أتضعضع : لا أضعف وأجبن ، أولاً أذل وأستكين .

(٢) المرو : حجارة بيض براقة صلبة توري بها النار ، واحدتها مروة . والصفا : حجارة صلدة ضخمة . والمشقر : حصن قديم بالبحرين بناه كسرى . وتقرع : تضرب وتدق ـ يقول : إنني برغم توالي الخطوب وفداحة المصائب التي نزلت بي ظللت قوياً متماسكاً ، فأنا كالحجر الصلد المتين الذي يتخذ غرضاً للسهام لصلابته وشدته . وعدم تأثره بما يقذف به .

(٣) المصرع : مصدر ميمي بمعنى الهلاك ، أو اسم مكان .

(٤) يولع : يفتن ويغري . من يفجع : من يشتد حزنه وجزعه لنزول فاجعة به لا يستطيع الصبر عليها .

(٥) الجوى : الحرقة وشدة الوجد ، ومقنعاً : مغطى بالأكفان .

(٦) راغبة : أي تطلب المزيد دائماً ، إذا لم تردعها وتدفعها .

(٧) كم من جميعي الشمل : أي مجتمعي الشمل ، وهو كل أمر يعمهم ويشملهم . ملتئمي الهوى : أي متفقين في تفكيرهم ونزعاتهم وأمانيهم . كانوا بعيش ناعم : لين هانىء خال من الأكدار . فتصدعوا : فتفرقوا وهلكوا .

(١) لمفجع ـ بتشديد الجيم مفتوحة ـ كثير التفجع دائم الأحزان .

الأسى ولوعة الجوى ولهيب الشجن ، هي دمعة مسفوحة يرسلها المكروب حين يشتد به الوجد ، ويخترمه الهم ، ثم لا يستطيع له دفعاً ، ولا يجد منه مخرجاً ، هي صورة حية لفؤاد مكلوم ، وقلب محطم ، وعاطفة ملتاعة ، صدعتها المحنة ، وفجعتها النكبة ، هي صدى لما تحس به نفس شاعرة مزقها الحزن ، وفدحتها الخطوب ، وأذهلها هول المصاب .

خمسة من البنين أو سبعة اختطفهم الموت ، وهم في ربيع الحياة ، وزهرة الشباب ، وتركوا أبا رحيما أثقله الهم ، وهده الرزء ، فأضحى كئيباً ، شارد اللب لا يرقأ له دمع ، ولا ينتهي له توجع ، ولا يستقر به مقام ، ويطوف به حيناً طائف من الذكرى ويمعن في التأمل ، ثم يدرك أن الموت سنة الحياة ، وأن جزعه لا يجديه نفعاً ، وأن الدهر لا يأبه لعتب ولا يبالي بجزع ، فيعود إلى نفسه باللوم ، ويدعوها للصبر والتجلد . هكذا يحدث الشاعر نفسه ، لعله يثنيها عن الإسترسال في حزنها وهلعها ، ولكن هيهات ثم هيهات .

ونراه يقص علينا حديثه مع زوجته وإشفاقها عليه ، وقد رأت شحوب جسمه وتبديده لماله زهداً في الحياة ويأساً من الأمل فيها ، ولعلها أرادت بذلك أن تحمله على الرفق بنفسه والإبقاء على حياته وماله ، برغم ما تعانيه هي أيضاً من الحزن والجوى على فقد أولادها ، بل ربما كانت أشد منه حزناً وجزعاً ولكنها تخشى أن تتضاعف الفجيعة وتبلغ الخسارة إلى غاية مداها ، أو لعلها لم تكن أم بنيه الذين فقدوا ، فهي أخف منه جزعاً وأكثر تماسكاً ، ولكن نصيحة زوجته لم تصرفه عما هو فيه ، بل اتخذ منها سبيلاً إلى بث أشجانه وتصوير آلامه ، وما يدور في نفسه من هواجس وأفكار .

على أننا نلمح في أبياته روح الشجاع الباسل الذي يعتصر الألم فؤاده ، ولكنه يحاول التجلد والتصبر حتى لا يشمت به أعداؤه ، ويشبه نفسه بالحجر الصلب يتخذ غرضاً للسهام فلا يتصدع ولا يلين ، ويتعزى بأن

الموت مصير الناس جميعاً ، والبكاء في واقع الأمر حمق وسفاهة ولكنه طبيعة في النفس ، لا يجد المرء عنها معدلاً ولا يملك لها دفعاً ، وكم تسلل الموت إلى صفوف الأحبة فبدد شملهم ، وفرق جماعتهم ، وأحال نعيمهم بؤساً ، وهناءهم كدراً ، وسعادتهم شقاء .

ولقد أدرك أبو ذؤيب أن هذه الفجيعة ستودي به وتعجل بحينه وهلاكه ، وقد صدقه حسه ، وتحقق حدسه ، وأسلم روحه بعد ذلك بعام واحد .

وإذن فقد كان أبو ذؤيب في هذه القصيدة شاعراً ذاتياً مصوراً صادقاً لمشاعره وأحاسيسه وما تجيش به نفسه المكلومة ، وهذه الأبيات صدى عميق لما يتصارع في نفسه من عواطف ووجدانات ، ولذا جاءت جزلة سائغة ، قوية الأسلوب ، نافذة المعنى ، شديدة التأثير ، حتى ليحس قارئها بوجل ورهبة يخالطهما إشفاق ورحمة ورثاء ، وهذا المنصور العباسي يموت إبنه الأكبر جعفر فيشتد وجده عليه ويفزع إلى وزيره أن يأتيه بمن ينشده هذه القصيدة ، حتى إذا أحضر له بعض المؤدبين وأنشده .

أمن المنون وريبه تتوجع … والدهر ليس بمعتب من يجزع

ردد المصراع الأخير وقال : صدق والله أبو ذؤيب ، أنشدني هذا البيت مائة مرة ليتردد هذا المصراع على مسمعي ، فأنشده ، ثم مضى حتى بلغ قوله :

والدهر لا يبقى على حدثانه … جون السراة له جدائد أربع

وهو بيت يلي ما أوردناه من القصيدة قال : سلا أبو ذؤيب ، وصرف الشيخ ومنحه بعض المال . والمنصور كان معروفاً بالشدة والصلابة ، وهو إلى ذلك من نقدة الشعر وذوي البصر به ، ولم يجد متنفساً لكربته إلا هذه القصيدة برغم كثرة ما قرع سمعه من مراثي الشعراء الأقدمين والمحدثين .

حسان بن ثابت

نسبه وأسرته:

هو أبو الوليد حسان بن ثابت بن المنذر الأنصاري الخزرجي النجاري: أشهر الشعراء المخضرمين، وصاحب المواقف الخالدة في الدفاع عن الإسلام ورسوله الكريم.

كان قومه بنو النجار أخوال رسول الله، لأن أم عبد المطلب (جد رسول الله ﷺ) منهم، ومن أجل ذلك كان لحسان بالرسول الأكرم صلات رحم وقرابة، وبنو النجار يرجعون في نسبهم إلى الخزرج، تلك القبيلة العظيمة. التي عرفها التاريخ، ورددت مفاخرها الأيام، وهي وأختها الأوس من الأزد القحطانيين،! وكان بينهما عداء شديد قبل الإسلام، كما كان بينهما وبين اليهود سكان المدينة القدامى خصومات وحروب وأيام متصلة في الجاهلية.

ولما هاجر رسول الله إلى المدينة، وأسلت القبيلتان، ألف الإسلام بين قلوبهم فأصبحوا بنعمة الله إخواناً متحابين.

وكان قيس بن الخطيم في الجاهلية شاعر الأوس، وحسان شاعر الخزرج.

تلك هي قبيلة حسان ومفاخرها العربية التليدة، ولقد كان جده المنذر

الحكم بين الأوس والخزرج يوم سميحة، وهو أحد أيامهم المشهورة.

ووالده ثابت بن المنذر بن حرام من سادة قومه وأشرافهم، أما أمه فهي الفرعة ابنة خالد بن قيس الخزرجي وقد أدركت الإسلام فأسلمت

في هذا النسب العربي الكريم، وذلك الحسب العبقري الماجد، ولد حسان في المدينة، قبل الهجرة بنحو ستين عاماً، أي قبل ميلاد الرسول بأقل من عشر سنين وشب على البلاغة والشعر، وشهد مواطن قومه وأيامهم ومفاخرهم، واشترك مع قبيلته في مفاخراتهم ومنافراتهم وخصوماتهم وحروبهم، وتزوج عمرة بنت صامت، وكان يشبب بها قبل أن يتزوجها، وقد طلقها بعد حين.

كان حسان في أول شبابه يناضل قيس بن الخطيم شاعر الأوس ويفاخره، ويشترك مع في منافرات أدبية طويلة، فطارت شهرته في الجزيرة العربية، وذاعت شاعريته، وحصفت ملكاته ومواهبه في البلاغة.

حسان في ظلال الغسانة:

وكان حسان يقصد بمدائحه بني غسان عاماً ويقعد عنهم عاماً آخر، وكان يأخذ منهم الأموال الطائلة، والجوائز السنية، وطال تردده عليهم في جلق، وجاسم وبصرى، وجابية الجولان، ومعان، والقريات، يمدح أمراءهم، وينشر مآثرهم ويصف حروبهم، ويشي بسلطانهم الواسع العريض.

وممن مدحهم حسان من الأمراء الغسانيين: عمرو بن الحارث (٥٨٧ - ٥٩٧ ميلادية)، وأخوه النعمان «٥٩٧ - ٦٠٠»، وحجر بن النعمان، وجبلة بن الأيهم آخر أمراء الغساسنة.

ويروى أن حساناً وفد على عمرو بن الحارث، فوجد عنده النابغة وعلقمة ابن عبدة، فوقف حسان وأنشد قصيدته التي يقول فيها.

لله دَرُّ عصابة نادَمْتُهُم يوما بجلِّق[1] في الزمان الأول
أولا جفنة[2] عند قبر أبيهمو[3] قبر ابن مارية[4] الكريم المفضل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول

ولما انتهى حسان من إنشاد قصيدته زحف عمرو بن الحارث عن موضعه سروراً، وهو يقول: هذا وأبيك الشعر لا ما يعللاني به منذ اليوم، أحسنت بابن الفُرَيْعة، هذه والله البتارة التي قد بترت المدائح، ومنحه ألف دينار مكافأة له على مدحته المحبرة، على أن يكون له في كل سنة مثلها.

وتروى هذه القصة له مع جبلة بن الأيهم الغساني آخر ملوكهم... وكان جبلة يقسم ألا يطيف به ذكر حسان إلا بعث إليه بجائزته، ولا يمر به غاد أو رائح إلا أرسل معه ما يطرف به حساناً.. وظل حسان يشكر أيادي هذا الأمير العربي الأريحي، وظل جبلة يقدر حسانا وشاعريته حتى بعد ان ارتد عن الإسلام ولحق بقيصر الروم، ويروى أنه بعث لحسان من القسطنطينية خمسمائة دينار وخمسة اثواب ديباج، فقال حسان:

إن ابن جفنة من بقية معشر لم يغذهم آباؤهم باللوم
لم ينسني بالشام إذ هو ربها كلا ولا متنصراً بالروم

حسان في ظلال النعمان:

ووفد حسان على النعمان بن المنذر ملك الحيرة، ومدحه بغر مدائحه، فأمر له بجوائز سنية. وكان يقيم في بلاطه، وينادمه ويصيب منه مالاً كثيراً، ويحضر مجالسه مع الشعراء، وخاصة مع النابغة شاعر النعمان الأثير لديه.

وهكذا كان حسان في الجاهلية يفد على ملوك الغساسنة في الشام،

---

(١) جلق: هي دمشق.. ويحقق بعض الباحثين أنها مدينة صغيرة بضواحي دمشق.
(٢) هو جفنة بن عمرو؛ وأولاده: النعمان والمنذر وجبلة وأبو شمر والمنذر كانوا ملوكا.
(٣) أراد وصفهم بالعزة والإقامة بدار ملكم حول قبر أبيهم
(٤) هيمارية بنت ظالم الكندية.

والمناذرة في الحيرة، وينال وفدهم وجوائزهم، ويفاخر شعراءهم، من أمثال النابغة وعلقمة وظل كذلك حتى ظهر نور الإسلام، وهاجر الرسول الى المدينة.

حسان في ظلال الإسلام:

ولما هاجر الرسول صلوات الله عليه إلى المدينة أسلم حسان واطمأن قلبه إلى الإيمان، وتحمس لعقيدته، فوقف يدافع عنها، ويذود عن الرسول الأكرم بلسانه وشعره، فقربه صلى الله عليه وسلم إليه وآثره بالحظوة والعطف، واتخذه شاعره.

كان ثلاثة رهط من قريش - وهم عبد الله بن الزبعري، وأبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب، وعمرو بن العاص - قبل إسلامهم يهجون رسول الله والأنصار، فاستنصر رسول الله الأنصار، وندبهم للرد عليهم، فأجابه ثلاثة من الأنصار، هم: كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، واشعرهم حسان.

يروى أن رسول الله ﷺ لما اشتد عليه أذى قريش بالهجاء قال لأصحابه ما يمنع الذين نصروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم؟ فقال حسان: أنا لها، وضرب بلسانه أربنة أنفه؛ وقال: والله ما يسرني به مقول ما بين بصرى وصنعاء؛ والله لو وضعته على صخر لفلقه، أو على شعر لحلقه فقال له النبي: كيف تهجوهم وأنا منهم؟ قال أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين فقال: اهجهم وروح القدس معك. فو الله لشعرك أشد عليهم من وقع الحسام في غبش الظلام، ثم قال صلى الله عليه وسلم: إيت أبا بكر فهو أعلم بالقوم، فأطلعه أبو بكر على مخازيهم وما يتهمون به في نسبهم، فهجاهم أوجع هجاء ولم يمس رسول الله من هجائه لهم شيء.

ويروى أن أحد الصحابة قال: لما اشتد هجاء المشركين للرسول قال لعلي بن أبي طالب: اهج عنا القوم الذين قد هجونا، فقال علي: إن أذن لي رسول الله فعلت، فقال رأل: يا رسول الله ائذن لعلي كي يهجو عنا هؤلاء

القوم الذين قد عجونا، فقال صلى الله عليه وسلم: ليس هناك أو ليس عنده ذلك، ثم ندب الأنصار، فقال حسان: أنا لها - وكان حسان وكعب يعارضان المشركين بمثل قولهم في الوقائع والأيام والمآثر، ويعيرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يغيرهم بالكفر، فكان أشد القول عليهم قول حسان وكعب، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة؛ فلما أسلموا وفقهوا في الدين كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة. وكان رسول الله ﷺ يسمع منه، ويقول له: أجب عني، اللهم أيده بروح القدس.

وهكذا عاش حسان في حياة الرسول. يدافع عنه، ويناضل المشركين ويرد على شعرائهم، ويهجو خصوم رسول الله، ويرفع من شأن الإسلام ورسوله ودعوته وكان الرسول يؤثره ويقربه إليه، ويقسم له من الغنائم، ويبعث إليه الهدايا الجزيلة، وقد وهب له «سيرين» أخت «مارية» القبطية، أم ولد رسول الله، وكان المقوقس قد بعث بهما للرسول، مع هدايا أخرى، فأولدها حسان ابنه عبد الرحمن... ووهب له رسول الله «بيرحى» وهو قصر بالمدينة، وقفه أبو طلحة على آل رسول الله.

وعاش حسان مبجلاً عند الصحابة وخلفاء رسول الله، حتى وهن بصره، واعتلت صحته، وتوفي في عهد معاوية عام ٥٤ هـ: عن عشرين ومائة سنة؛ قضى نصفها في الجاهلية، ونصفها في الإسلام.

شخصيته وأخلاقه:

كان حسان ذا ذوق مرهف، وشعور حي، كسب من الحضر حب الهدوء والدعة والأمن. وقد روى أنه لم يشهد مع رسول الله مشهداً ولا غزوة. ويعلل الرواة ذلك بأنه كان جباناً رعديداً. ويقولون إنه كان يصف في شعره شجاعته وبطولته، ومع ذلك فهو شديد الخوف، شديد الجبن، يقيم بأطم عال بالمدينة بسمى «فارعاً»، ويلهو مع الأطفال والنساء في الحصون. وحدث عبد الله بن الزبير عنه قال: كانت صفية بنت عبد المطلب في فارع

حصن حسان يوم الخندق وكان حسان مع النساء والأطفال في الحصن، فمر يهودي؛ فجعل يطوف بالحصن فخشيت صفية أن يعرف اليهودي موضعهم فيدل عليهم اليهود، والمسلمون مشغولون عمن في الحصن بحيث لا يغيثونهم لو استغاثوا بهم، فقالت صفية لحسان: انزل فاقتل اليهودي. فقال لها) يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب، ما أنا بصاحب هذا فنزلت هي فقتلته ورجعت إلى الحصن، ثم قالت: يا حسان انزل فاسلبه، فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل، قال: مالي إلى سلبه حاجة... وسوى ذلك من أقاصيص جبنه وخوفه الشديد... ويروون أنه أنشد أمام رسول الله قوله:

لقد غدوت أمام القوم مُنْتَطِقاً　　بصارمٍ مثل لون المِلح قطاع[1]
تُحفِز عني نجاد السيف سابغةٌ　　فَضفاضة مثلُ لون النِّهْى بالقاع[2]

فتبسم رسول الله صلوات الله عليه، وفهم حسان ما يشير به تبسم الرسول، فغض طرفه حياء.

وقد يعلل هذا الجبن بعيشة حسان الحضرية المترفة، ويروى أنه كان في الجاهلية بطلاً شجاعاً وأنه أدركه مرض أصاب أعصابه فأصبح لا يرجى لقتال.

وكان حسان فوق ذلك متحمساً لعقيدته ودينه، شديد الغيرة على الإسلام ومستقبله، حتى صح أن يلقب شاعر الرسول في الإسلام.

ولا يشوب ماضيه المشرف في الإسلام سوى خوضه في حديثه الإفك وسوء تناوله لعرض أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقد روي أنه كان خامس خمسة في إذاعة هذا الحديث الكاذب، وهم: عبد الله بن أبي بن سلول، وزيد بن رفاعة، وحسان، وحمنة بنت جحش، ومسطح بن أثاثة... وقد تاب حسان فتاب الله عليه ورسوله، ولم يقم عليه حد القذف، ونزل فيه

(١) منتطقاً بصارم: أي حاملاً له معلقاً منطقته.
(٢) تحفز: تدفع النهى: الغدير

قول الله تعالى: «إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم» وقد اعترضه صفوان بن المعطل فعلاه بالسيف. ومن شعر حسان في الاعتذار لعاشئة أم المؤمنين:

فإن كنت قد قلت الذي قد زعمتمو فلا رفعت صوتي إليّ أناملي
وكيف وودي من قديم ونصرتي لآل رسول الله زين المحافل

وبيته الأخير مأخوذ من قوله النابغة في اعتذاره للنعمان:

لما قلت مِن سَيِّء مما أتيت به إذن فلا رفعت سوطى إليّ يدي

شاعرية حسان

ورث حسان الشعر عن آبائه، وكان بيته أعرق بيت في الشاعرية، حتى ليقول المبرد في الكامل؛ وأعرق قوم كانوا في الشعر آل حسان، فإنهم يعدون سنة في نسق،! وكلهم شاعر، وهم، سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام:

وقد اجتمع إلى هذه الوراثة الشعرية بيئة الشاعر وملكاته، وكثرة الخصومات والمنافسات الدينية والاجتماعية والسياسية التي اشترك فيها، وتشجيع أمراء الغساسنة والحيرة له وتقديرهم لمدائحه... وجاء الإسلام فصقل هذه الفطرة الأدبية الشاعرة، وأمده بقوة الفكرة وجلال الهدف وسمو المبدأ وحرارة العاطفة.

إلى غير ذلك من البواعث التي أثارت كامن شاعريته، وأججت من فطرته الموروثة في الشعر حتى أصبح فيما بعد في الجاهلية شاعر أهل المدن العربية، وفي الإسلام شاعر اليمانية، وفي البعثة شاعر النبوة.

وصف شعره:

لحسان في شعره خصائص وميزات ظاهرة غالبة عليه:

فهو من حيث الأسلوب يمتاز بقلة التكلف وبعدم المبالغة في التجويد

والتهذيب والتنقيح، وموقفه أمام الرسول يرد على وفد تميم دليل صدق على ذلك، وهو في هذه الناحية يخالف الأعشى والنابغة والحطيئة وزهيراً وسواهم من الشعراء المصنعين لأنه كان يرسل الشعر كما تجود به فطرته وقريحته، لا يعتمد صنعة، ولا يقصد أسلوباً بعينه ولا يؤثر ألفاظاً بذاتها. . . وكان شعره في الجاهلية يمتاز بقوة الأسلوب وجزالته، فلما جاء الإسلام لان أسلوبه بعض الشيء، وأخذه الضعف الفني من بعض النواحي، ويرجع هذا اللين إلى أسباب كثيرة: فقد أدرك الإسلام هرماً كهلاً ولا شك ان الشيخوخة لها أثرها في ضعف قوة الشاعرية والأسلوب، وكان حسان يكثر من ارتجال الشعر في مواقف الذياد عن الرسول والرسالة، والشعر المرتجل دائماً لا يكون في منزلة الشعر الذي أعده صاحبه وهذبه ونقحصح، والأصمعي يعلل سبب لين شعره في الإسلام بأن الشعر نكد يقوى في الشر ويضعف في الخير ويؤكد ذلك قول حسان نفسه لما قيل له: لأن شعرك أو هرم في الإسلام يا أبا الحسام فقال: إن الإسلام يحجز عن الكذب والشعر يزينه، كما يؤكد قول الثعالبي: «كان حسان يقول الشعر في الجاهلية فيجيد جدا ويغير في نواصي الفحول، ويدعى أنه له شيطانا يقول الشعر على لسانه، كعادة الشعراء.

ويقول مثل قوله في بني جفنة:

بيض الوجوه كريمةٌ أحسابهم شُمُّ الأُنوف من الطراز الأول

فلما أدرك الإسلام، وتبدل الشيطان ملكاً، تراجع شعره وكاد يرك في قوله ليعلم أن الشيطان أصلح للشعر وأليق به وأذهب في طريقه من الملك[٢].

وقد يكون السبب في هذا اللين هو انبهار حسان كغيره من الشعراء ببلاغة القرآن وفصاحة رسول الله ﷺ، مما جعله يترك ما كان يتعاطاه شعراء الجاهلية، وينزل عن مستواه الفني العالي الذي بلغه في الجاهلية، أو أن

---

(١) ٨٠ خاص الخاص للثعالبي.

ذلك راجع إلى كثرة ما دس على حسان من الشعر المنحول، وهذا النحل كان من المشركين ومن بعض كتاب السيرة كابن إسحق، وقد ذكر ابن هشام في كتابه في السيرة النبوية كثيراً مما نحل واختلق ودس على حسان.

قال الأصمعي مرة: حسان أحد فحول الشعراء؛ فقال أبو حاتم. تأتى له أشعار لينة، فقال الأصمعي. تنسب له أشياء لا تصح عنه.

والحق الذي لا ريب فيه أن ما يستلان من شعر حسان إنما هو بعض ما قاله في وصف عقائد الإسلام وشعائره وتعداد فضائله، أو قاله في توحيد الله وتنزيه صفاته وتهجين عبادة الأوثان وما أعد الله للمؤمنين من الثواب وللمشركين من عقاب وبعض ما قاله في مدح رسول الله وأصحابه، أو في رثاء من استشهد في الغزوات من أصحابه ومن مات من الخلفاء وأعلام الإسلام بعد رسول الله.. أما شعره في مناقضة المشركين وهجائهم، وفي الذب عن رسول الله، وفي الدفاع عن الدين، فقد بقي قوياً جزلاً رائعاً، يؤكد ذلك ما ذهب إليه النقاد من أن شعره في الإسلام كان لا يزال كعهده في زمن الشباب قوياً حصيفاً رصيناً في مواضع خاصة: في هجائه للمشركين، وعند هيجه بمعارضته شعرهم. وفي فخره وحماسته، ويروون أن كثيراً مما وجد من شعره لينا ضعيفاً لم تكن نسبته له صحيحة، ومن أجل ذلك كان شعر حسان بعد الهجرة إلى فتح مكة قوياً جزلاً فصيحاً شديد الأسر ذاهباً في عمود البلاغة كما كان شعره في عهد الجاهلية، لاشتعال شاعريته، وثورة عواطفته، والتهاب مشاعره، ورغبته الصادقة في الذب عن حياض الإسلام ونضال خصوم الدين، والرد على الذين يهجون الرسول، فلما استسلم المشركون وألقوا السلاح أمام رسول الله وسكت صوت المعارضة، سكنت شاعرية حسان وهدأت، وأخذ ينظم الشعر ليناً ضعيفاً بعيداً عن الفخامة والجزالة اللتين عرف بهما في الجاهلية.

أما ألفاظ حسان فهي في الجاهلية ألفاظ الشعراء الحضريين التي لا

تسرف في الغرابة والحوشية والخشونة.. وقد كثرت في شعر حسان بعد الإسلام الألفاظ الإسلامية المحدثة التي وردت في القرآن الكريم وأحاديث رسول الله كالصلاة والصيام والزكاة والحج والإيمان وغيرها.

وما معانيه فكانت قبل الإسلام مطبوعة بطابع الجاهلية وصورة لحياتها وتفكيرها وأخلاقها وعاداتها. وكان في الإسلام يستمد معانيه من معاني القرآن والحديث، ويكثر من حكاية حجج المشركين والرد عليهم، وضرب الأمثال والموعظة والحكمة، مع الدقة والعمق وظهور حصافة الفكرة وسلامتها وصحتها ومواءمتها لروح الدين الجديد، ولذلك بدا في شعر حسان تأثير الإسلام والقرآن ويكاد هذا التأثير يفقد في شعر الحطيئة مع أنه من المخضرمين، لأن الحطيئة أسلم ثم ارتد ثم عاد إلى الإسلام على طمع وجشع ورقة دين، فلم يتملأ بروح الإسلام، بخلاف حسان الذي أسلم عن صدق وإخلاص، وأشرب قلبه حب الإسلام، وتأثر به في فعله وقوله:

فمن مظاهر تأثره بالقرآن الكريم قوله في أبي بكر الصديق:

والثانيَ اثنين في الغار المنيف وقد   طاف العدوُّ به إذ صَعَّد الجبلا

وهو من قول الله تعالى: إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار.

وقوله:

شهدتُ بإذن الله أن محمداً   رسول الذي فوق السموات من عل
وإن الذي عادى اليهود ابنَ مريم   رسول أتى من عند ذي العرش مرسل
وأن أخا الأحقاف إذ يعذلونه   يقوم بدين الله فيهم ويعدل

فهذه هي معاني القرآن الكريم، والبيت الثالث يشير فيه إلى قول الله تعالى: «واذكر أخا عاد، إذ أنذر قومه بالأحقاف، وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدو إلا الله، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم»، إشارة إلى ثمود عليه السلام.

وقوله:

فما المال والأخلاق إلا معارة   فما اسطعت من معروفها فتزود
متى ما تَقُدْ بالباطل الحق يأْبه   وإن قُدتَ بالحق الرواسي تنقد
متى ما أتيت الأمر من غير بابه   ضللت، وإن تدخل من الباب تهتدي

وهذه هي الأفكار والحصافة التي أمد القرآن الكريم بها شاعرنا حساناً وغيره من الشعراء.

وقوله:

أتهجوه ولست له بكفء؟   فشركما لخيركما الفداء

تأثر فيه بأسلوب القرآن الكريم في مثل: «وإنا وإياكم لعلى هدى أوفى ضلال مبين» «ليخرجن الأعز منها الأذل».

وقوله:

عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدى   حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

من قوله تعالى «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم».

ويقول حسان في حمزة حين استشهد يوم أحد:

فإن جنان الخلد منزله بها   وأمر الذي يقضي الأمور سريع
وقتلاكمو في النار أفضل رزقهم   حميمِ معىً في جوفها وضريع

ويقول:

ونعلم أن الله لا رب غيره   وأن كتاب الله أصبح هادياً

وهكذا ترى حساناً في تأثره بأسلوب القرآن الكريم، واقتباسه من ألفاظه ومعانيه، وتشيع شعره بروح الإسلام وكتابه الكريم.

- أغراض شعره :

وأغراض شعر حسان كثيرة متعددة ، فهو يغلب عليه في شعره الفخر والحماسة والمدح والهجاء .

ففي الجاهلية كان حسان في فخره يصف مجده ومجد قومه وأحسابهم ومآثرهم ومكانتهم بين القبائل العربية ، وكان فخره فحلاً جزلاً قوياً بعيداً في مذهب الشعر وعموده ، يشبه حسان فيه عمرو بن أم كلثوم . فلما جاء الإسلام أصبح يفتخر بإيمانه وصدق بلائه في الدفاع عن رسول الله . وحسن صحبته له ، وإن وقف لسانه وبيانه على خدمة الدين ودعاته .

وأما مدحه فكان أكثره في الجاهلية لبني غسان وللنعمان بن المنذر ، وأقله لبعض سادة قومه ، ومدائحه لآل الغساسنة وآل النعمان مثل عال في البلاغة فلما أسلم أصبح يمدح رسول الله وخلفاءه وكبار الصحابة الذين أبلوا في الدفاع عن الإسلام بلاء حسناً .

وهجاؤه كان بدؤه هذه المناقضات المتصلة التي كانت بينه وبين قيس بن الخطيم وشعراء الأوس قبل الإسلام من الأوس والخزرج ، ثم هجا خصومه وأعداء قومه . وفي الإسلام أجاد فيه حسان كل الإجادة ، ووقف هجاءه على المشركين خاصة ، ولم يكن متناول الهجو قريشاً كلها بل المشركين منها بعامة ، وأشدهم على رسول الله بخاصة ، من مثل أبي جهل وأبي لهب وأبي سفيان ، وهم من أقرب قريش نسباً إليه ، وكان هجاؤه لأحدهم ليس بالطعن في أصل نسبه وذم عشيرته بل في نفي نسبه عن نسبهم ، وأنه دعى فيهم أو لصيق أو متبني أو عبد ، ثم يذكر ما يستقبح من صفاته الخلقية ، فيصفه باللؤم وقطع الرحم والجهل وخفة الحلم والبخل والجبن والفرار عن إنقاذ الأحبة من وهدة الموت في المعارك ، وأكثر ما يذكر من ذلك في وقعة بدر وهزيمة قريش فيها ، وربما أقذع في ذلك إقذاعاً شديداً ، وكان رسول الله إذا سمع هجاءه في أعدائه يقول : لهذا أشد عليهم

من وقع النبل ؛ وكان ينصب له منبراً في المسجد ويسمع هجاءه لأعدائه ، ويقول له : اهجهم وجبريل معك .

وكان لحسان في الجاهلية غزل كثير ، حلو جميل مؤثر ، وممن تغزل بهن في شعره شعثاء وعمرة . . كما كانت له خمريات جميلة قوية ممتلئة بالمعاني الدقيقة ، فلما أسلم انصرف عن الغزل ووصف الخمر ، واسنبدل بها الحكمة ، وضرب المثل ، ووصف الغزوات الإسلامية ، والإشادة ببطولة المسلمين فيها وانتصارهم على أعدائهم وما بذلوه من تضحيات جسام إعلاء لراية الإسلام وكلمته ، ورثاء الشهداء في الغزوات ورثاء الرسول وخلفائه وأصحابه .

منزلته وآراء النقاد في شعره :

ومهما يكن من شيء فقد كان شعر حسان في الجاهلية في منزلة عالية من البلاغة والإجادة وقوة التصوير ، وكان حسان يرهب النابغة كلما قابله في بلاط الغساسنة أو المناذرة ولا يتعرض له ، ومع ذلك فلحسان من روائع القصيد ما يعد من النماذج العالية في الشعر العربي ؛ وما يقف مع بعض روائع النابغة على قدم المساواة ؛ وإذا كان النابغة يجيء في الجاهلية إماماً ومتبوعاً ، فلا على حسان أن يجيء وراءه مصلياً ومغيراً في وجوه الشعراء ، ويصفونه بأنه كان أشعر شعراء الحضر قبل الإسلام وشاعر المدينة ، ولقد أجمعت العرب على أن حساناً أشعر أهل المدر ، وهم أهل المدينة ومكة والطائف وأهل قرى البحرين من عبد القيس .

وفي الإسلام أصبح شاعر الرسول والإسلام والنبوة وشاعر اليمانية جميعاً .

وفي الإسلام أصبح شاعر الرسول والإسلام والنبوة ؛ وشاعر اليمانية جميعاً ، والنقاد يعجبون بشعر كثير لحسان ، ومن ذا الذي لا يطرب لقوله :

يُغْشَـونَ حتى ما تهِـرُّ كـلابهـم   لا يَسألون عن السـواد المقبل

أو لقوله :

وأن امرأ يمسي ويصبح سالماً   من الناس إلا ما جنى لسعيد

وهذا البيت يقول فيه حسان . قلت شعراً لم أقل مثله[1] وقال بعض أهل المدينة : ما ذكرت ببيت حسان إلا اشتهيت أن أعود في الفتوة وهو :

أهوى حديث الندمان في فلق الصبـ   ـح وصـوت المُـطَرِّبِ الغَـرِدِ

* * *

ويقول ابن سلام فيه : هو كثير الشعر جيده[2] وجعله أشعر شعراء المدينة ؛ ويقول الأصمعي : حسان أحد فحول الشعراء ، ويقول أبو عبيدة فضل حسان الشعراء بثلاثة . كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر النبي في النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الإسلام ، وقال : لو اجتمعت العرب على أن حساناً أشعر أهل المدينة وقال أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني : حسان فحل من فحول الشعراء . .

ويأخذ النقاد على حسان قوله :

فلو كان مجد يخلد اليوم واحداً   من الناس أبقى مجده اليوم مطعما

لما فيه من رجوع الضمير على متأخر في اللفظ والمعنى والحكم .

وعليه قوله :

أكرم بقوم رسـول الله شيعتهم   إذا تفـرقت الأهـواء والشيـع

وقالوا كان عليه أن يقول : أكرم بقوم هم شيعة رسول الله[3] والصحيح

---

(١) ١٠٥ الشعر والشعراء .

(٢) ٨٤ طبقات الشعراء لابن سلام . وراجع ١٠٤ الشعر والشعراء .

(٣) ٦٣ الموشح للمرزباني .

ما قاله حسان في وصف رسول الله ، فالرسول الأكرم وهو وحده شيعة لقومه ؛ ووزر لهم .

وقال حسان :

لو يَدِبُّ الحَوْلِيُّ مِنْ وَلَدِ الذَّ ... رِّ عليها لأَنْدَبَتْها الكُلُوم[1]

وفضل النقاد عليه امرىء القيس .

مِن القاصرات الطرف لو دَبَّ مُحْوِلٌ ... مِن الذَّر فوق الإِتْبِ منها لأَثَّر[2]

وذلك لأن حساناً أدى المعنى في بيت وامرأ القيس أداه في بعض البيت ، وعبر امرؤ القيس بالتأثير وهو أبلغ من قول حسان « لأندبتها الكلوم » لصدقه وعمومه وجعل امرؤ القيس التأثير موجوداً مع أن « الذر » تمر فوق القميص وهو أبلغ في المعنى .

ويقول حسان :

إذا انصرفت نفسي عن الشيء مرة ... فلستُ إليه آخر الدهر مقبلا

ولمعن بن أوس وهو شاعر مخضرم أيضاً :

إذا انصرفت نفسي عن الشر لم تكد ... إليه بوجه آخر الدهر تقبل

وحسان أبلغ في تعبيره بقوله « الشيء » ، لما يدل عليه الإبهام من ذهاب النفس في كل مذهب ؛ ولشمول الشيء للحقير والصغير والكبير .

ويقول :

ما إن مدحت محمداً بمقالتي ... لكن مدحت مقالتي بمحمد

---

(١) الذر : صغار النمل . الحولى : ما مر عليه حول . الكلوم : جمع كلم وهو الجرح .

(٢) الطرف العين ، محول : ما مضى عليه حول ، الذر : صغار النمل ، الأتب : القميص أو برد يشق تلبسه المرأة من غيركم ولا جيب ، والقاصرات الطرف : أي العفيفات أي يقصرن أزواجهن عليهن لجمالهن .

وهذا المعنى مطروق للشعراء قبل حسان وبعده ، وأبلغ ما جاء في هذا المعنى هو هذا البيت ، أنظر إلى قول المتنبي !

الـطيب أنت إذا أصابـك طيبه   والماء أنت إذا اغتسلت الغاسل

وإلى قول أبي تمام :

ولم أمـدحك تفخيمـاً لشعـري   ولـكني مـدحت بك المـديحا

فستجد تكلفاً وإغراقاً وقلة رونق وبهاء ؛ وستجد بيت حسان ينفرد بالحسن والأحسان والطبع وإشراق البيان .

وقال حسان :

بَنى العـزُّ بيتاً فـاستقـرَّ عمـاده   علينا فأَعيـا الناس أن يتحـولا

أخذه الفرزدق فقال :

إن الذي سمك السماء بنا لنا   بيتــاً دعــائمــهُ أعــز وأطــول

فقول حسان : « بنى العز بيتاً » نظيره قول الفرزْدق « إن الذي سمك السماء بني لنا بيتاً » ووصف حسان مجدهم بالاستقرار وعدم التحول بأسلوب الكناية ، ووصف الفرزدق مجدهم بأنه لا يطاوله مجد ، ومع ذلك فحسان أبلغ من الفرزدق بجزالة أسلوبه ، ووضوح بيانه ؛ وجلال معناه ، ودقة مرماه ، وزيادته على الفرزدق بقوله « فأعيا الناس أن يتحولا » .

* * *

ذكروا أن « الحطيئة » وقف على « حسان » وهو ينشد من شعره ، « فقال له حسان » ـ وهو لا يعرفه : كيف تسمع هذا الشعر يا أعرابي ؟ قال « الحطيئة » لا أرى بأساً به ! فغضب حسان وقال : اسمعوا إلى كلام هذا الأعرابي ، ما كنيتك ؟ قال : أبو مليكة ـ قال : ما كنت قط أهون على منك

حين كنيَت بامرأة ، فما اسمك ؟ قال : « الحطيئة » ، فقال « حسان » : فامض بسلام » .

ويروى أن قوم الحطيئة قالوا له وقد حضرته الوفاة : يا أبا مليكة أوص « فقال : ويل للشعراء من راوية السوء ، قالوا : أوص رحمك الله ، قال : أبلغوا الأنصار أن صاحبهم أشعر العرب حيث يقول :

يُغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل[1]

وقال عبد الملك بن مروان : وهذا أمدح بيت قالته العرب وقالوا : أنصف بيت قالته العرب . بيت حسان :

أتهجوه ولست له بند فشركما بخيركما الفداء

وخير ما نختم به ذلك البحث قول حسان في وصف شعره :

وقافية عجَّتْ بليلٍ رزينةٍ تلقيت من جو السماء نزولها
يراها الذي لا ينطق الشعر عنده ويعجز عن أمثالها أن يقولها

وقوله :

لا أسرق الشعراء ما نطقوا بل لا يوافق شعرهم شعري

وقال أبو عبيدة : فضل حسان الشعراء بثلاث : كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر النبي ﷺ في النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الإسلام ، لقد تفنّى حسان بالشعر ، فملأ به الأسماع ، وأجمعت الغرب على أنه أشعر أهل المدر وهو القائل :

تغنَّ بالشعر إما أنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار

وخير الشعر ما جادت به القريحة فيقول :

إنما الشعر لب المرء يعرضه على المجالس إن كبا وإن حمقا

(١) ٥٧ ج ٢ الأغاني .

وإن أشعــر بيت أنت قــائـله بيت يقـال إذا أنشدتـه صدقـا

ويقول الأستاذ جمعة عن أساليبه وألفاظه ومعانيه وأغراضه وعن تأثره وتأثيره بعد أن استعرض عصر حسان السياسي والإجتماعي والأدبي ومما قاله عن « الحياة الأدبية » .

٣ ـ الحياة الأدبية

١ ـ حسان والعصور الأدبية :

لا مراء في أن العصور الأدبية ترتبط بالتطور الأدبي ، الذي يخضع لمؤثرات سياسية ، أو إقليمية ، أو شخصية ، ونحوها مما حدا بالأدباء إلى أن يذهبوا مذاهب شتى في تقسيم الأدب العربي إلى فترات أو عصور : فمنهم من نظر إلى المؤثر السياسي ، فقسم العصور الأدبية إلى جاهلية وإسلامية وأموية وعباسية وغيرها ، ومنهم من نظر إلى المؤثر الإقليمي ، محتجًّا باختلاف اللهجات ، وتنوع البيئات ، فنسب الأدب إلى إقليمية العراقي أو الشامي ، أو المغربي أو المصري ، ومنهم من نظر إلى الشخص على عصره ، فنسب العصر إليه ، فقال : عصر امرىء القيس ، وعصر حسان ، وعصر الجاحظ وعصر أبي تمام ، وعصر المتنبي ، وعصر البارودي ، وعصر شوقي إلى غير ذلك من المذاهب المختلفة .

غير أن قوة عوامل الإندماج وكثرتها في عصرنا الذريّ ، تسرع إلى توحيد اللهجات ، وإذابة الفوارق بين أبناء اللغة الواحدة في مختلف الأقاليم والبيئات ، كما أن الشخصيات الأدبية الغلابة على عصرها تتأثر بالعصر وأحداثه أكثر مما تؤثر فيه ، وإذا عرضنا بقية المؤثرات الأدبية ألفينا المؤثر السياسي أقواها تأثيراً وشمولاً ، وأكثرها اتصالاً بجوانب الحياة ، وأظهرها في تحديد الفواصل ـ التي لا يمكن أن تكون ثابتة ـ بين العصور الأدبية ، فكل عصر له جذر من ماضيه ، وامتداد في العصر الذي يلية ، ويبقى هذا الإمتداد

حتى تنسج المؤثرات الجديدة نسيجها ، وتبرز عملاً أدبياً فنياً يميز نفسه ، ويحدد عصره .

لذلك اخترنا التقسيم المرتبط بأنظمة الحكم والتيارات السياسية ، والتطورات الإنسانية من العصر الجاهلي الحاضر ، ولأنه أقرب إلى الحقيقة ، وأدنى إلى الصواب ، وألصق بالحياة من غيره .

وتندرج في هذا التقسيم الذي اخترناه مرحلة أدبية تطورية ، اقتضتها الثورة الإنسانية العارمة التي انبلج بها فجر الإسلام ، تلك هي مرحلة المخضرمين ممن نشأوا في الجاهلية ، ولهم في الإسلام حياة ونشاط أدبي ملحوظ .

ولقد كان حسان بن ثابت من الشعراء المعمرين الذين عاصروا الجاهلية شطر حياتهم الطويلة ، وعاصروا الإسلام شطرها الأخير ، وتأثرت أشعاره بشطري حياته ، فبدت في صورتين فنيتين مختلفتين : إحداهما جاهلية والأخرى إسلامية .

وإذا كان الأدباء قد اختلفت مذاهبهم في تمييز المخضرم من الشعراء ، فإنهم قد اتفقوا جميعاً على أن حسان بن ثابت يعد بحق من طبقة الشعراء المخضرمين الذين أسهموا في بناء الحياة الأدبية بشعر جاهلي في أخريات الجاهلية وبشعر إسلامي في فجر الإسلام . ولا مناص هنا في صحبتنا لحسان من التعرض بإيجاز لبحوث أدبية ، تتصل بحسان وعصره ، ولم تزل تشغل النقاد ، والأدباء ، كالمخضرمين ، والشعر والإسلام ، والإسلام والهجاء .

ب ـ المخضرمون : (1)

يسلك اللغويون وبعض الأدباء في التعريف بالشاعر المخضرم مسلكاً

(1) ١ ـ جاء في خزانة الأدب للبغدادي ص ٢٤٥ ـ المخضرَم وقيل المخضرِم ـ قال صاحب=

زمنيًّا فيرون أنه كل من أدرك الجاهلية والإسلام . ويرى ألبعض الآخر من الأدباء ، أن الوحدة الفنية في شعر الشاعر هي السمة التي تربطه بعصره المتأثر به ، وتشده إليه ، وإن عاش في عصر غير عصره الفني . وترجع الدكتورة بنت الشاطىء بالخضرمة إلى أخريات الجاهلية ، وتنعت بها المرهصين بالدعوة الجديدة ممن شاخوا في الجاهلية ، ولم يدركوا الإسلام ، فتقول بعد مقدمة طويلة في الخضرمة « كنت فيما مضى أحسب أن

القاموس : هو الماضي عمره في الجاهلية ونصفه في الإسلام ، وقيل : من أدركهما . وهذان القولان يعمان الشاعر وغيره ، وقيل : الشاعر الذي أدركهما ، وهذا هو المشهور . . . ثم توسع حتى أطلق على كل من أدرك دولتين كرؤية بن العجاج وحماد عجرد ، فإنهما أدركا دولة بني أمية ودولة بني العباس . وقال السيوطي في شرح التقريب : المخضرم في اصطلاح أهل الحديث هو الذي أدرك الجاهلية وزمن النبي ﷺ ولم يره . وقال ابن رشيق في العمدة : قال أبو الحسن الأخفش : ماء خضرم كزبرج إذا تناهى في الكثرة والسعة ، فمنه سمي الرجل الذي شهد الجاهلية والإسلام مخضرماً ، كأنه استوفى الأمرين . قال : ويقال أذن مخضرمة إذا كانت مقطوعة ، فكأنه انقطع عن الجاهلية إلى الإسلام . . . وحكى ابن قتيبة عن عبد الرحمن عن عمه (الأصمعي) قال : أسلم قوم في الجاهلية على إبل قطعوا آذانها فسمي كل من أدرك الجاهلية والإسلام مخضرماً ، وزعم أنه لا يكون مخضرماً حتى يكون إسلامه بعد وفاة النبي ، وهذا عندي خطأ ، لأن النابغة الجعدي ولبيداً قد وقع عليهما هذا الإسم . . . وحكى علي بن الحسن كراع : شاعر محضرم بحاء غير معجمة مأخوذ من الحضرمة وهي الخلط لأنه خلط الجاهلية والإسلام (محضرَم) ، وقال ابن خلكان (محضرم) .

ب ـ جاء في تاريخ آداب العرب للرافعي ٣ /٥٣ : يقسمون الشعراء باعتبار عصورهم إلى أربع طبقات : جاهلي قديم ، ومخضرم ، وهو الذي أدرك الجاهلية والإسلام ، وإسلامي ، ومحدث . قال ابن رشيق : ثم صار المحدثون طبقات : أولى وثانية مع التدريج وهكذا في الهبوط ، ويسمى المحدثون بالمولدين أيضاً ، وبعضهم يطلق هذا اللقب على الإسلاميين ويخصه بهم . وأصل المخضرم عندهم من أدرك الجاهلية والإسلام ، ثم أطلقوه على هذه الطبقة فقالوا : شاعر مخضرم ، قال ابن بري : أكثر أهل اللغة على أنه مخضرم (بكسر الراء) لأن الجاهلية لما دخلوا في الإسلام خضرموا آذان إبلهم : قطعوا أطرافها ، (وكان أهل الجاهلية يخضرمون نعمهم ، فلما جاء الإسلام أمروا أن يخضرموا من غير الموضع الذي يخضرم فيه أهل الجاهلية) لتكون علامة لإسلامهم إن أغير عليها أو حوربوا ، وأما من قال مخضرم « بفتح الراء » فتأويله عنده أنه قطع عن الكفر إلى الإسلام (تاج العروس ٧ /٢٨) . وأشهر المخضرمين لبيد وحسان والحطيئة والنابغة الجعدي ، والخنساء .

جـ ـ وجاء في تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ص ٣٦ : إذا كان علماء العرب

في الإمكان تمييز ثلاث فئات في شعراء الجيل الإسلامي الأول :[١]

الأولى : لمن أدركوا الإسلام بعد أن نضجت موهبتهم ، واكتمل فنهم ، وفات أوان تأثرهم ، وهؤلاء اعتبرتهم : مخضرمين زمناً ، جاهليين فناً ، مثل لبيد وأمية بن أبي الصلت والخنساء .

الثانية : لمن أدركوا الإسلام صغاراً ، ولم تكتمل موهبتهم وهم المخضرمون زمناً ، الإسلاميون فنًّا .

الثالثة : لمن أدركوا الجاهلية والإسلام ، وعاشوا فيهما على السواء ، وقالوا الشعر في كل منهما ، وهم المخضرمون زمناً وفناً ، كحسان بن ثابت وكعب بن زهير والحطيئة[٢] .

لكني أوثر اليوم أن أعدل عن هذا التقسيم الذي يميز كل صنف من المخضرمين على حده ، بعد أن تابعت الدرس ، فأدركت أن الذين شاخوا

= يميزون في تاريخ شعرهم بين عصرين ، عصر الجاهلية والوثنية ، وعصر الإسلام ، فهم لا يريدون بذلك أن يغضوا من شأن العصر الأول تأثراً منهم بالنظرة الدينية ، ولكنهم - على خلاف ذلك - ينظرون إلى ممثلي ذلك العصر الأول على أنهم نماذج لا يلحق شأوها ، بل أحياناً يذهبون بعيداً في تدقيقهم إلى حد التهوين من قيمة شاعر لا يمكن إنكار تفوقه لمجرد أن ولادته كانت بعد ظهور الإسلام . ومن ثم نشأت عند علماء العربية طبقة وسط من الشعراء هي طبقة المخضرمين ، أي الذين قضوا شبيبتهم على الأقل في زمن الجاهلية .

د - ويرى الأصمعي غير ما تقدم أنها من خضرم عطيته إذا قطعها - فسمى الشعراء المخضرمين لأن مرتبتهم في الشعر نقصت في الإسلام .

هـ - قال أستاذنا الشيخ أحمد الإسكندري في كتابه الوسيط : من معاني المخضرم الأسود الذي أبوه أبيض ، ولعل تسمية الشاعر الذي أدرك الجاهلية والإسلام أخذ من هذا .

و - قال صاحب النهاية : وأصل الخضرمة أن تجعل الشيء بين بين ، فإذا قطع بعض الأذن فهي بين الوافرة والناقصة .

قال : وكان أهل الجاهلية يخضرمون نعمهم فلما جاء الإسلام أمرهم النبي ﷺ أن يخضرموا غير الموضع الذي يخضرم منه أهل الجاهلية . قال : ومنه قيل لكل من أدرك الجاهلية والإسلام مخضرم ، لأنه أدرك الخضرمتين .

(١) قيم جديدة للأدب العربي .

(٢) الحطيئة مخضرم زمناً وليس بمخضرم فناً ، لغلبة الصبغة الجاهلية على شعره ، لأنه لم يتأثر بالإسلام .

في الجاهلية ، قد عاشوا في فترة الترقب والإرهاص ، فبانت في شعرهم ملامح من الحياة الجديدة قبل أن يدركوها ، على ما رأينا في شعر لبيد وأمية .

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الآخرين ممن أدركوا الإسلام ، وتأثروا به ، وقالوا الشعر بعد المبعث ، فإنهم لم ينجوا تماماً من تأثر بالجاهلية التي غبرت .

والنظرة الناقدة لا يخطئها أن تلمح إسلاميًّا في شعر الذين لم يسلموا منهم كما لا يخطئها أن تلمح نزعة جاهلية في شعر الذين أسلموا وخاضوا المعركة بلسانهم إلى جانب الرسول ﷺ .

وبعد أن ضربت الدكتورة مثالاً للأثر الإسلامي في شعر الذين لم يسلموا بأبيات لعبدالله بن الزبعري في أحد ، قالت : « كذلك لم يحل إسلام حسان ومكانه من النبي الكريم ، دون نزعة جاهلية في شعره ، فلقد جاء في مدحته الهزيمة للرسول بأبيات في الغزل والخمريات على مألوف الجاهلية ، برغم كراهة الإسلام لهذا الصنف من الشعر ، وهو ملحظ لم يفت أبا العلاء المعري حين جاء بحسان بين شعراء الجنة ليسأله على لسان ابن القارح عن أبياته :[1]

كأن سبيئة من بيت رأس ... يكون مزاجه عسل وماء

إلى :

.... فهن لطيب الراح الفداء[2]

ثم يقول له منكراً : ويحك : ما استحييت أن تذكر مثل هذا في مدحتك رسول الله) ثم تمضي الدكتورة في استشهادها وتحليلها لما تستشهد

(١) الأرجح أن هذه الأبيات من المنحول ، أو من إنشاد حسان في جاهليته ، إرجع إليها وإلى تحليلنا لها وتعليقنا عليها في صدر قصيدة (الفتح المبين) من هذا الكتاب .
(٢) رسالة الغفران ، وقيم جديدة للأدب العربي .

به ، إلى أن تجمل رأيها في قولها : « ولا تبدأ الخضرمة بظهور الإسلام ، بل تمضي بها من أخريات الجاهلية ، إلى قبيل النصف الثاني من القرن الأول للهجرة ، ملتمسين فيها ما يؤكد أن الشعر العربي كان مع الحياة ، ومستخلصين له قيمة جديدة تنفي أنه كان يمعزل عن الأحداث الكبار ، أو أنه أنبت فجأة من ماضيه الطويل »[1] .

وهذا الرأي محاولة مجتهدة في الرجوع بفن المخضرمين إلى بعض من لم يدركوا الإسلام من الجاهليين ، لما ظهر في أشعارهم من إرهاص بالدعوة الإسلامية المرتقبة ، والحق أن ذلك الإرهاص لا يعدو النظرة الصادقة في الحياة ، من قبيل الشعر الحكمي الذي رفع لواءه زهير بن أبي سُلمى في الجاهلية ، وكالأبيات الحكمية في قصائد من أدركوا الإسلام وأسلموا أو لم يسلموا .

أما أبيات حسان التي اعتبرتها الدكتورة ذات صبغة جاهلية ، وأنه أنشدها في إسلامه معتمدة على نص رسالة الغفران ، فقد أبنت في تحليلي لها فيما يأتي من هذا الكتاب في موضعه أنها أنشدت في الجاهلية لا في الإسلام ، أو أنها من المتحول .

ولم تكن أبيات الإرهاص بالدين الجديد في شعر الجاهليين ، ومن في حكمهم سوى فلتات لا تعطي حكماً ، وإنما تستند الأحكام الأدبية في مثل هذا إلى جمهرة شعرية تؤلف بينها وحدة فنية ، لها أصول يقينية ، يعتمد عليها في الإستنباط وإصدار القواعد والأحكام .

وإني أطمئن كثيراً إلى المسلك الوسيط الذي يجمع بين الزمنية والفنية ، فأرى أن المخضرم من الشعراء ، من أدرك الجاهلية والإسلام ، وأنشد شعراً إسلامياً متأثراً بالدين الجديد وأحداثه ، كحسان والنابغة الجعدي ، وكعب بن زهير ، أما الجاهلي الذي أدرك الإسلام ، ولم ينشد

(١) قيم جديدة للأدب العربي .

شعراً ، أو لم ينشد غير بيت كلبيد ، أو أنشد شعراً غير متأثر بالعهد الجديد ، ولا يكاد يختلف في طوابعه عن جاهليته ، كالخنساء والحطيئة وغيرها ، فإنه لا يعد من طبقة المخضرمين .

حـ - شعراء المدينة :

أشهرهم ثلاثة من الخزرج هم : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحه ، وشاعران من الأوس هما : قيس بن الخطيم وأبو قيس عامر بن الأسلت ، وكان أهل الحيين من الأوس والخزرج وثنيين مشركين .

وأشهر شعراء اليهود ، كعب بن الأشرف ، والربيع بن أبي الحقيق .

وكان بنو قريظة والنضير حلفاء للأوس ، على حين كان بنو قينقاع حلفاء للخزرج ، فإذا ما اختلف الحيان ، عاضد اليهود حلفاءها ، وناقض ابن الأشرف شاعر بني النضير حسان شاعر الخزرج .

د - شعراء مكة :

حفلت مكة إبان ظهور الإسلام بشعراء قريش ، كأبي طالب عم الرسول ، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وضرار بن الخطاب ، وعبد الله بن الزبعري ، وعمرو بن العاص ، وأبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي ، وهبيرة بن أبي وهب ، وعبد الله بن خطل ، ومقيس بن صبابة والزبير بن عبد المطلب ، ومسافر بن أبي عمرو بن أمية ، وعبد الله بن حذافة السهمي[١] وأكثر هؤلاء تعرض للرسالة والرسول بشعره .

ولقريش مكانة من البيت الحرام ، ومركز ديني جعلها قليلة الإنغماس في الشهوات بعيدة عن الغارات ، نادرة الحروب ، فافتقر شعراؤها إلى كثير من بواعث الشعر ، فلان شعرهم وكانوا أقل شعراً من شعراء المدينة ، وما

(١) طبقات فحول الشعراء ١٩٥ ، ٢١٧ .

زالت قريش كذلك حتى ظهرت الدعوة الإسلامية فهبت تقاومها بسنانها وبيانها .

هـ ـ شعراء الطائف :

شعر الطائف كالشعر المكي في القلة واللين ، لندرة الحروب ، والغارات وأشهر شعراء الطائف : أبو الصلت بن أبي ربيعة ، وابنه أمية بن أبي الصلت ، وهو أشعرهم وأبو محجن بن حبيب بن عمرو الثقفي ، وغيلان بن سلمة ، وكنانة بن عبد ياليل(١) .

و ـ المعركة الشعرية بين الإسلام والوثنية :

لما أخذ الإسلام في التغلغل بين القبائل استشاطت قريش غيظاً ، وناصبت الرسول العداء ، ووقف عمه أبو طالب ، يصارح قريشاً بأن بني هاشم لن يسلموه ، وهاجر الرسول إلى المدينة فآوى إلى ركن شديد من الأنصار ، ونصر الله رسوله ببدر وأذل القرشيين ، فهب شعراؤهم بمكة ينالون من الرسول وصحابته ، وانبرى لمناقضتهم شعراء المدينة من الخزرج ، أما شاعراً الأوس ، فلم يدركا الهجرة وحميت المعركة الشعرية بين الإسلام والوثنية ، ولم يفتأ لها لهب حتى أفاء الله على المسلمين بفتح مكة .

وفي بداية النضال التزم الشعراء غير المنتمين إلى أحد الفريقين خطة الحياد ، ولكن الحقد دفع ببعضهم إلى الإنحياز إلى قريش ، كأمية بن أبي الصلت ، وكعب بن الأشرف ، فإن كلا منهما قد رثى قتلى المشركين ببدر ، وحرضهم على الأخذ بالثأر . ودفعت شدة الضغن بابن الأشرف إلى الإرتحال إلى مكة لتحريض قريش على الإنتقام ، ثم عاد إلى موطنه يهجو المسلمين ، ويشبب بنسائهم وأمهات المؤمنين مما أدى إلى قتله في ديار قومه .

ودخلت القبائل الإسلام وانحاز شعراؤهم إلى شعراء الرسول ،

---

(١) المصدر السابق .

يمدحونه ويناضلون خصومه ، كعباس بن مرداس ، وبجير بن زهير ، وأخوه كعب .

وأسلم أبو سفيان بن الحارث على يد الرسول ، وهو في طريقه إلى فتح مكة ، وأبلى بلاء حسناً في الذود عن الرسول يوم حنين . كما أسلم ضرار بن الخطاب في العام الذي أسلم فيه أبو سفيان ، وكانت له مواقف صادقة في جهاده مع خالد ابن الوليد في فتح العراق .

ولما أمر الرسول يوم فتح مكة بقتل نفر من قريش ، ولو وجد الواحد منهم متعلقاً بأستار الكعبة ، لمبالغتهم في إيذائه وإيذاء المسلمين ، قتل ابن صبابة ، وابن خطل الذي كانت تغنيه جاريتاه بهجائه للرسول ﷺ ، وفر ابن الزبعري وهبيرة بن أبي وهب إلى نجران ، وسمع ابن الزبعري قول حسان :

لا تعدمن رجلاً أحلك بغضه نجران في عيش أحذ لئيم

فعاد إلى مكة وأسلم ، واعتذر للرسول ومدحه ، وبقي ابن هبيرة بنجران إلى أن مات مشركاً . وحذا كل من أسلم من شعراء قريش حذو ابن الزبعري . وقد ضاع أغلب شعر المشركين واليهود ، وأهمل أكثر مؤرخي الأدب ذكرهم .

ز ـ فترة فتور الشعر بعد فتح مكة :

بعد فتح مكة دخل الناس في دين الله أفواجاً ، يذعنون لنظام واحد وينعمون بحياة سعيدة بعد نضال طويل عنيف ، سكنت بعده ريح الشعر ، وفترت دواعي إثارته ، وانصرف بعض الشعراء مع المنصرفين إلى حفظ القرآن ودراسته ، ونشر دين الله والإندماج في التقدم الإنساني والوعي الإسلامي الذي صرفهم عما كانوا فيه ، ودفعهم إلى السعي به إلى بقية الأمصار للتحرير والتعمير والبناء في عهد الراشدين من الخلفاء .

وقف نمو الشعر ، وقل الإتجاه إليه ، ولم ينشده إلا البعض للفصاحة

واللسن وقد تدعو إليه بعض الأحداث ، كالفتوح ورثاء بعض الخلفاء ، وضجة الفتنة بين علي وعثمان ، وقلما قيل في المدح رغبة التكسب ، ولم يسلم المتكسب بالشعر من ازدراء المجتمع له وإسقاطه : وقد عني الراشدون بحماية الأعراض ، وصيانة المجتمع من الإبتذال كما فعل عمر مع النجاشي والحطيئة ، ولذلك ندر الهجاء في هذه الفترة .

هذا وبظهور الفتنة الكبرى ، يتحفز الشعر للوثوب ، فيقوي بعد إحياء العصبية واستفحال الحزبية بين الخوارج وأشياع على وأتباع بني أمية .

ح ـ الإسلام والهجاء :

تمكن الشعر من نفوس العرب يتأثرون به ، حتى ليرفع أقواماً ويضع آخرين ، فلا غرابة أن يكون سلاحاً من أسلحة المعركة التي دارت بين المشركين والمسلمين ، عند ظهور الإسلام .

وقد رأى النبي أن يقضي قضاء مبرماً على من عارضه من شعراء قريش وشعراء اليهود ، لأن الدّين في نفسه أعز من أن يهادن أعداءه أو يفتر عن حرب خصومه من الشعراء »[1] .

وقد ذكر الله لنبيه حال قريش في بلاغة المنطق واللدد عند الخصومة فقال : ﴿ **إذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حِداد** ﴾ وقال : ﴿ **لتنذر به قوماً لدّاً** ﴾ وقال : ﴿ **ويُشْهِدُ الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام** ﴾ وقال : ﴿ **آآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لَكَ إلاّ جدلاً بَلْ هُمْ قوم خَصِمون** ﴾ ثم ذكر خلابة ألسنتهم واستمالتهم الأسماع بحسن منطقهم فقال : ﴿ **وإن يقولوا تَسمعْ لقولهم** ﴾ ثم قال : ﴿ **ومِنَ الناسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قوله في الحياةِ الدنيا** ﴾ مع قوله : ﴿ **وإذا تَوَلّى سَعَى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل** ﴾[2] .

---

(١) الموازنة بين الشعراء للدكتور زكي مبارك .
(٢) البيان والتبيين للجاحظ ١ /٢٢ .

وهذه صفات وأحوال تدل على أن المعركة الكلامية كانت ذات خطر وعنف ، ولم يكن المسلمون بمعتدين في معركة السنان ، كما لم يكونوا بادئين في معركة اللسان ، إنما شرع القتال لدفع العدوان . ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنه لا يحب المعتدين** ﴾ .

فانتصف الإسلام من أعدائه بالسيف وعمد شعراء قريش إلى الشعر يشنون به حرباً بيانية هجائية ، يهونون فيها من شأن الرسالة والرسول فلم يكن بد من أن يبيح الإسلام لشعرائه الهجاء يدفعون به كيد أعدائهم على سبيل الإنتصار ممن ظلمهم ، قال تعالى ﴿ **لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم** ﴾ ولقد أوصى القدماء بالإحتراس من العدو ، وألا يستصغر صغير منه ، والخصم عدو ، لأنه يجاهدك بلسانه وهو أقطع سيفيه كما قال أردشير ، وقد قال حسان بن ثابت :

لساني وسيفي صارمان كلاهما . ويبلغ ما لا يبلغ السيف مذودي[1]

واشتد هجاء أعداء الرسول له فقال « ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم » فقال حسان : أنا لها وأخرج لسانه وضرب به أرنبه أنفه ، وقال : « والله ما يسرني به مقول من معد » فقال الرسول : « اهجهم فوالله لهجاؤك عليهم أشدّ من وقع السهام في غلس الظلام أهجهم وروح القدس معك »[2] .

وقد كان له ﷺ شعراء ينافحون عنه ، وكانت السابقة في ذلك لحسان ، فكان إذا أرسل لسانه لم يجدوا له دفعاً ، وإذا مسّهم بالضر لم يجد شعراؤهم نفعاً ، وإذا وضع منهم لم يستطيعوا لما وضعه رَفعاً .

إن كان في الناس سبّاقون بعدهمُ فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
لا يرفع الناس ما أوهت أكفهمُ عند الدفاع ولا يوهون ما فعلوا
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تفرقت الأهواء والشيع[3]

---

(١) نقد النثر ١٣١ . (٢) العمدة .

(٣) تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي جـ ٢ ص ٣٣ .

٢ ـ اختيار شاعر الرسول

وعن عائشة قالت : قدم رسول الله المدينة ، فهجته قريش ، وهجوا معه الأنصار ، فقال لحسان : « أهجهم ، وإني أخاف أن تصيبني معهم بهجو بني عمي » . قال : « لأسلنك منهم سل الشعرة من العجين ، ولي مقول يفري ما لا تفريه الحربة » . ثم أخرج لسانه فضرب به أنفه ، كأنه لسان شجاع[١] بطرفه شامة سوداء ، ثم ضرب به ذقنه[٢] .

ولما كان يوم الأحزاب، ، قال النبي ﷺ : « من ينجي أعراض المسلمين ؟ » قال كعب بن مالك : « أنا » . وقال ابن رواحة : « أنا » وقال حسان « أنا » . قال : « نعم ، أهجهم أنت وسيعينك عليهم روح القدس[٣] .

وروي : أن رجلاً أتى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله : إن أبا سفيان يهجوك فقال رسول الله ﷺ : « اللهم إنه هجاني ، وإني لا أقول الشعر ، فاهجه عني » . فقام إليه عبد الله بن رواحة فقال : يا رسول الله أئذن لي فيه قال : أنت القائل :

« فثبت الله ما آتاك من حسن » ؟ قال : نعم . قال : « وإياك فثبت الله » ثم قام إليه كعب بن مالك ، فقال : « أئذن لي فيه . « قال : أنت القائل : همت » قال : نعم . قال : « لست له » ، ثم قام حسان بن ثابت فقال : « يا رسول الله أئذن لي فيه » وأخرج لسانه ، وضرب به أرنبة أنفه ، وقال : « والله يا رسول الله إنه ليخيل لي أني لو وضعته على حجر لفلقه ، أو شعر لحلقه ! فقال : « أنت له ، اذهب إلى أبي بكر يخبرك بمثالب القوم ، ثم أهجهم وجبريل معك »[٤] .

---

(١) الشجاع ضرب من الجان دقيق لطيف .
(٢ ، ٣) سير أعلام النبلاء ، ٢ /٣٦٨ .
(٤) العقد الفريد ٦ /١٢ .

هذه الروايات وكثير غيرها تدل على رغبة حسان الصادقة في أن يكون شاعر الرسول كما تدل بوضوح على أن الرسول قد حقق رغبة الشاعر وهو راغب في تحقيقها ، فأقامه ﷺ شاعراً للنبوة ، وأذن له في هجاء شعراء قريش ، وبهذا أشبع حسان رغبته وأرضى نفسه وعقيدته ومجتمعه ، فإن نفسه التي مارست شعر النضال القبلي وتعلقت به لتجيش بالشعر تنشده في ميدان النضال الإسلامي ، وإن عقيدته التي آمنت بالإسلام ديناً ، لا يرضيها في تدعيم هذا الإيمان إلا أن يذود صاحبها عنه باللسان إذا ما سلبته الشيخوخة أو العلة الذود بالسنان ، وإن مجتمعه الذي أنصت إليه طويلاً في جاهليته ليتلهفُ إلى سماع ما تَفتقُ عنه قريحته الشعرية في إسلامه .

ولقد كان حسان شاعر الأنصار (الأوس والخزرج) في الجاهلية ، فلم لا يكون شاعرهم في الإسلام . . إنه لخليق بأن يكون لهم وللدعوة الإسلامية شاعراً ، بعد أن جمع الإسلام شتات العرب ، وآخى بين المهاجرين والأنصار ، لذلك كانت حكمة النبوة بالغة في اختيار شاعر مؤمن برسالته وشاعريته ، مرتكز على شعبية في مجتمعه ، وخبرة في فنه عركَ الحياة في جاهليتها وإسلامها وبواديها وحاضرها ، وتأثر شعره بالحياة الحضرية وبالإحتكاك بمن رحل إليهم من المناذرة والغساسنة ، بل إن له لتجربة فنية ناجحة في الهجاء الذي مارسه وتمرس به منذ لَهج لسانه بالشعر .

لساني وسيفي صارمان كلاهما ويبلغ ما لا يبلغ السيف مذودي

وأبرز صفة امتاز بها حسان ، وحرص على إظهارها للرسول ، ما في لسانه من طول فالعرب كانوا يمتدحون بطول اللسان[١] ، ويعدونه من أمارات البيان وكانوا يعرفون للإكثار من الشعر صفة طبيعية ، وهي قرع روثة[٢] الأنف بطرف اللسان . كأن اللسان إذا طال كان ذلك أدعى إلى رقته ولينه ومؤاتاته

---

(١) نقد النثر ١١١ .
(٢) أرنبته أو طرفه .

على التغليب ، فيبعث من الصغر على الإرتياض للكلام ، والحمل في شعابه وفنونه ولا نعرف أصل هذه الصفة ، ولا تاريخها فبهم ولكن ذكر الجاحظ في البيان : أن النبي ﷺ قال لحسان بن ثابت : « ما بقي من لسانك ؟ » فأخرج لسانه حتى قرع بطرفه طرف أنفه ، ثم قال : « والله إني لو وضعته على صخر لفلقه ، أو على شعر لحلقه ، وما يسرني به مقول من معد ! » . فهذا يدل على أن الصفة كانت معروفة فبهم[١] ، لهذا اطمأن رسول الله إلى شاعر من أنصاره ومن بني النجار أخواله ، وهو أشعر أهل يثرب[٢] ، وله قدرة على الإرتجال ، وفيه شاعرية يمنية ، وإن قوماً ليرون تقدمه الشعر لليمن في الجاهلية بامرىء القيس ، وفي الإسلام بحسان بن ثابت[٣] .

٣ ـ تأثره وتأثيره

طالت الحياة بحسان ، وتكاثرت عليه العوامل التي تأثر بها ، فلقد نسج على منوال من سبقوه أو عاصروه من الشعراء في الوزن والقافية ، وتعدد الأغراض في القصيدة الواحدة ، والإبتداء بالنسيب في كثير من القصائد ، وأنصت إلى شعر فحول شعراء الجاهلية ولا سيما حكم زهير ، واعتذارات النابغة ، وأهاجي الحطيئة ، وظهر أثر ذلك في شعره . قال أمرؤ القيس :

من القاصرات الطرف لو دب محول ... من الذر فوق الإتب منها لأثرا

ومنه قول حسان :

لو يدب الحولي من ولد الذر ... ر عليها لأندبتها الكلوم

ويقول النابغة معتذراً :

إن كنت قلت الذي بلغت معتمداً ... إذاً فلا رفعت سوطي إلى يدي

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ٣ /٣١ .
(٢) الأغاني ٤ /١٣٧ .
(٣) تاريخ آداب العرب للرافعي ٣ /٧ .

فيقول حسان معتذراً :

فإن كنت قد قلت الذيِ قد زعمتم ... فلا رفعت سوطي إلى أناملي

ويقول عمرو بن الإطنابة :

والخالطين فقيرهم بغنيهم ... والباذلين عطاءهم للسائل

فيأخذه منه حسان ويقول :

والخالطين غنيهم بفقيرهم ... والمنعمين على الفقير المرمل

وهذا أقبح ما يكون من الأخذ ، وليس هو من التوارد الذي يذكرونه ، لأن ابن الإطنابة من الأوس وحسان من الأنصار وهما من قبيلة واحدة ، وكان ابن الإطنابة ، أقدم من حسان ، فلذلك قلنا أخذه منه أخذاً[1] .

وقال حسان :

ديار التي كادت ونحن على منى ... تحل بنا لولا نجاء الرواحل

ومنه قول قيس بن الخطيم :

فتلك التي كادت ونحن على منى ... تحل بنا لولا نجاء الركائب

وقال أبو قيس بن الأسلت لما أنكرته امرأته ، بعد أن شحب وتغير في الحرب :

أعددت للأعداء موضونة ... فضفاضة كالنِّهْي بالقاع

أحفزها عني بذي رونق ... مهند كالملح قطاع

وقال حسان :

لقد غدوت أمام القوم منتطقاً ... بصارم مثل لون الملح قطاع

تحفز عني نجادَ السيف سابغةٌ ... فضفاضةٌ مثل لون النهى بالقاع

(١) الأشباه والنظائر ١ / ١٩ ، ٢٠ .

وقال حسان :

قفاك أحسن من وجهه   وأمك خير من المنذر

أخذه ابن أبي كريمة فقال :

قفاه وجه والذي وجهه   مثل قفاه يشبه الشمسا

فهجن المعنى بتعقيد مخارج الألفاظ ، وأخذه الحسن بن هانىء فأوضحه ، وسهله حيث قال[1] :

بأبي أنت من غزال غرير   بز حسن الوجوه حسن قفاكا

ويعيش حسان في مجتمع مدني متحضر يضم أخلاطاً من اليهود والأوس والخزرج ، وهم لا يصبرون على وفاق ، ويتنقل بين حواضر الغساسنة والمناذرة ، مارًّا ببوادي الحجاز ، فيعرك بيئة عصره وتعركه ، وتملي عليه حضارتها ودياناتها وثقافة قومه اليمنيين ، ويلتقي بالعشراء في أسواق العرب ، ويلتحم بهم في معارك الأوس والخزرج فيتأثر بهم ، ويؤثر فيهم ، ويفتح باب النقائض الشعرية لشعراء بني أمية . ويتهيأ لقول الشعر ، ويستعين عليه بكل هذه المؤثرات ، فتسرع نفسه إلى الإستجابة إليها والتأثر بها ، لما فطرت عليه من طبع شاعري عريق متأثر بآبائه وأجداده ، مؤثر في أبنائه وأحفاده .

وتلفه الدعوة الإسلامية في أحداثها الكبرى ، فيستلهمها ، وتقوي روحه فيستلهم السماء ، عندما يصبح شاعر الرسول المؤيد بروح القدس ، ويتغنى بشعر إسلامي يسجل فترة حاسمة من فترات الإنسانية المنتصرة على الوثنية المندحرة .

ويستعين بأبي بكر في معرفة أنساب العرب وأخبارهم ، ويستمد من الشريعة والقرآن والحديث صيغاً وألفاظاً وأفكاراً جديدة تضفي على شعره

(١) العقد الفريد ١ /٢٠٨ .

عذوبة وصفاء ، ومن ذلك التعريض للإنصاف في قوله تعالى[1] : ﴿ **وإنا وإيَّاكُمْ لعلَى هُدى أو في ضَلال مُبين** ﴾ منه قول حسان :

أتهجوه ولست له بكفء   فشركما لخيركما الفداء

وفي وقعة الأحزاب يقول تعالى : ﴿ **وردَّ اللَّهُ الَّذينَ كَفروا بغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً ، وَكَفَى الله المُؤمِنِينَ القِتال** ﴾ . فيقول حسان :

وغدوا علينا قادرين بأيدهم   ردُّوا بغيظهم على الأعقاب
فكفى الإله المؤمنين قتالهم   وأثابهم في الأجر خير ثواب

ويتلو حسان قوله تعالى : ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى والْبَصِيرُ ، أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ والنُّور** ﴾ . فلا يلبث أن يقول :

وهل يستوي ضلال قوم تسفهوا   عمي وهداة يهتدون بمهتد

وسبق حسان الشعراء في المدائح النبوية وتأثروا به ، وما يزال يفضلهم بقوله :

ما إن مدحت محمداً بمقالتي   لكن مدحت مقالتي بمحمد

ومنه قول أبي تمام[2] :

ولم أمدحك تفخيماً لشعري   ولكني مدحت بك المديحا

ومنه قول المتنبي :

الطيب أنت إذا أصابك طيبه   والماء أنت إذا اغتسلت الغاسل

ويقول شوقي :

أبا الزهراء قد جاوزت قدري   بمدحك بيد أن لي انتساباً

---

(١) نقد النثر لقدامة بن جعفر ٦١ .
(٢) المثل السائر .

مدحت المالكين فزدت قدراً　　فحين مدحتك اقتدت السحابا

ويقول :

ما جئت بابك مادحاً بل داعياً　　ومن المديح تضرع ودعاء

وهكذا يترك حسان في مدائحه للشعراء ما يحلو لهم ترديده والترنم به كلما ذكروا الرسول في شعرهم ، ومن الصيغ الإسلامية الماثلة في مدائح حسان النبوية ، وما زالت تتردد في مدائح الشعراء ، ما تأثر فيه بقول الله عز وجل ﴿ **إِنَّ اللهوَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّموا تَسْلِيماً** ﴾ . قال :

صلى الإله ومن يحف بعرشه　　والطيبون على المبارك أحمد[١]

ومنه قول شوقي :

صلى عليك الله ما صحب الدجى　　حاد وحنت بالفلا وجناء

وقوله :

يا رب صل وسلم ما أردت على　　نزيل عرشك خير الرسل كلهم

ولشعره آثار اجتماعية منها : أن بني عبد المدان كانوا يفخرون بطول أجسامهم وقديم شرفهم حتى قال فيهم حسان :

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ　　جسم البغال وأحلام العصافير

فقالوا له ، والله يا أبا الوليد : لقد تركتنا ونحن نستحي من ذكر أجسامنا بعد أن كنا نفخر بها . . فقال لهم : سأصلح منكم ما أفسدت . وقال فيهم :

وقد كنا نقول إذا رأينا　　لذي جسم يعد وذي بيان
كأنك أيها المعطي لساناً　　وجسماً من بني عبد المدان

---

(١) العقد الفريد ٦ /١٥٣ .

وهرب ابن الزبعري من النبي يوم فتح مكة يتخبط ، فقال حسان أبياتا منها :

بليت قناتك في الحروب فألفيت خمانة جوفاء ذات وصوم[1]

سمعها ابن الزبعري فرجع إلى الرسول وأسلم ومدحه .

ولما فر الحارث بن هشام يوم بدر عيره حسان بأبيات منها ·

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولجام

سمعها الحارث فاعتذر عن هربه بأبيات منها :

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى علوا فرسي بأشقر مزبد[2]

وقال بعض أهل المدينة : ما ذكرت بيت حسان إلا عدت في الفتوة (وهو قوله) :

أهوي حديث الندمان في فلق الصبح وصوت المغرد الغرد[3]

ولما قال للحارث بن عوف بن أبي حارثة المري :

وأمانة المري حيث لقيته مثل الزجاجة صدعها لم يجبر

قال الحارث : يا محمد أجرني من شعر حسان ، فوالله لو مزج به ماء البحر مزجه[4] .

---

(١) خمانة : رخوة رديئة . الوصوم : العيوب .
(٢) الأشقر المزبد : الدم .
(٣) الشعر والشعراء ١ /٢٦٦ .
(٤) طبقات فحول الشعراء ١٨٣ .

حسان بن ثابت

من شعره في الجاهلية

قال في مدح آل غسان من قصيدة أولها:

أسألتَ رسمَ الدار أمْ لم تسألِ   بين الجوابي فالبُضَيْع فحوْمَلِ

***

١) لله دَرُّ عِصابةٍ نادَمْتُهُم   يوماً بجِلِّقَ في الزمانِ الأوَّلِ
٢) يمشون في الحُلَلِ المُضاعَفِ نسجُها   مَشْيَ الجِمال إلى الجمال البُزَّلِ
٣) الضَّارِبُون الكَبْشَ يُبْرُقُ بَيْضُه   ضَرْباً يَطيحُ له بَنانُ المَفْصِلِ
٤) والخالِطون فقيرَهم بغنيِّهم   والمُنْعمون على الضعيف المُرمِلِ
٥) أولادُ جَفنةَ حولَ قبر أبيهمُ   قبرِ ابن ماريةَ الكريم المُفْضِلِ
٦) يُغْشَوْنَ حتى ما تهِرُّ كلابُهم   لا يَسألون عن السَّوادِ المُقبل
٧) يَسقون مَن وَرَدَ البَريصَ علَيهم   بَردَى يُصفَّق بالرحيق السلسل
٨) بيضُ الوجوه كريمةٌ أحْسابُهم   شُمُّ الأنوفِ من الطراز الأوَّلِ
٩) فلبثْتُ أزْماناً طِوالا فيهمُ   ثم ادَّكَرْتُ كأنني لم أفعَلِ
١٠) أوَما ترى رأسِي تغيَّرَ لونُه   شَمَطاً فأصبح كالثَّغام المُحوِلِ
١١) ولقد يراني مُوعِدِيَّ كأنني   في قصْرِ دُومة أو سواءِ الهيكل
١٢) ولقد شربْتُ الخمرَ في حانُوتها   صَهْباءَ صافيةً كطعمِ الفُلْفُلِ
١٣) يَسْعى عليَّ بكأسِها مُتَنَطِّفٌ   فيُعِلُّني منها وَلو لم أنْهَلِ

١٤) إن التي ناوَلْتَني فَرَدَدتُهـا   قُتِلَتْ قُتِلْتَ فهاتِهـا لم تُقْتَـلِ
١٥) كلْتاهُما حَلَبُ العَصيرِ فعاطِني   بـزُجاجـةٍ أَرْخـاهـمـا لِلْمِفْصَـلِ
١٦) ولقد تُقَلِّدُنا العشيرةُ أَمرَها   ونَسـودُ يَـومَ النـائبـاتِ ونَعْتلِي
١٧) ويَسود سيِّدُنا جحاجِحَ سادةً   ويُصيبُ قـائلُنا سـواءَ المَفْصِلِ
١٨) ونُحاولُ الأمْرَ المُهِمَّ خَطابَةً   فيهم ونفْصِلُ كلَّ أَمْـرٍ مُعْضِلِ
١٩) وتزُور أبْوابَ المُلوكِ رِكابُنا   ومتى نُحَكَّمْ في البريَّةِ نَعْـدِلِ

الشرح

(١) أصل الدراللبن ولله در فلان كلمة مدح يراد بها نسبته إلى الله في العلو والشرف والعصابة الجماعة من الناس والطير وغيرها ونادمتهم جالستهم وحادثتهم أو شاربتهم المدام وجلق بكسر اللام وفتحها مشددة مدينة دمشق يذكر زمانه الأول وأيامه الخوالي التي قضاها في منادمة آل غسان ذوي المجد والشرف والسؤدد.

(٢) الحلل جمع حلة ولا تكون الحلة إلا من ثوبين أو ثوب له بطانة، ومن المجاز لبس المحارب حلته أي بزته وسلاحه والبزل جمع بازل يقال جمل بازل وناقة بزول ويجمع بازل أيضاً على بزل بضمتين ويخفف بتسكين عينه فيقال بزل ويجمع أيضاً على بوازل والبازل ما بلغت سنه التاسعة وهي سن القوة والنشاط والمعنى أن آل غسان إذا خرجوا في حرب وطعان خرجوا وقد لبسوا حللهم وشِكَتهم ودروعهم القوية المضاعفة يتهادون تهادي الجمال البوازل. والبزل. وصف للجمال الأولى وحذف من الثانية لدلالة الأول عليه والمعنى مشي الجمال البزل إلى الجمال البزل.

(٣) من معاني الكبش سيد القوم وقائدهم يقال هو كبش كتيبة وهم كباش الكتائب قال:

وَإِنَّا لمِمَّا نَضْرِبُ الكبش ضَرْبةً   عَلَى رأْسِه تُلْقِي اللسَانَ منَ الفمِ

والبَيض الحديد يلبسه الرجل في الحرب جمع بيضة وهي الخوذة

يطيح ينفصل والبنان جمع بنانة وهي أطراف الأصابع يصف آل جفنة بأنهم يحسنون الضرب والطعن وأنهم يضربون سيد القوم ويحملون عليه وقد لمعت المغافر عليه وبرقت لا يرهبهم ذلك ولا يفزعهم وهم إذا ضربوا لم يخطئوا بحيث تطيح من ضربهم أطراف الأصابع وغيرها من المفاصل ويروى الضاربين على تقدير أمدح الضاربين.

(٤) المرمل الفقير المحتاج رجل أرمل وامرأة أرملة فقيرة محتاجة وقال الزمخشري نقلا عن كتاب العين. لا يقال شيخ أرمل إلا أن يشاء شاعر في تمليح كلامه كقول جرير:

هذي الأرَامِلُ قد قضَّيتَ حاجتَها   فمَنْ لحاجةِ هَذَا الأرْمَـلِ الذَّكرِ؟

وأصل أرمل بمعنى افتقر وفنى زاده من الرمل كأدقع من الدقعاء وهي التراب والمعنى أنهم يشركون فقراءهم مع أغنيائهم في أموالهم وأنهم ينعمون على الضعيف المحتاج منهم يصفهم بالكرم والسماحة والبذل.

(٥) كنى عن استقرارهم وأنهم لا يتحولون عن أماكنهم كغيرهم بقوله «حول قبر أبيهم» يعني أنهم أهل إقامة ومكث لا أهل حَل وترحال. وفي ذلك وصفهم بالحضارة والملك والنعيم.

(٦) هرير الكلاب صوتها دون نباحها من قلة صبرها على البرد والسواد الشخص، والمعنى أنه لكثرة ما يطرقهم الطارقون ليلاً قد اعتادت كلابهم الناس فهي لا تنبحهم ولا تهرهم ثم إنهم لا يسألون عن شخص مقبل عليهم لفرط كرمهم وشجاعتهم وفي هذا المعنى يقول غيره:

وكـلبُـك آنسُ بـالـزائـريـن   مـن الأُمِّ بـالإبـنـةِ الـزائـرة

وأحسن منهما قول الآخر وقد زاد عليهما:

يكادُ إذا ما أبصرَ الضيفَ مُقبِلاً   يكلِّمـهُ من حبِّـهِ وهـو أعْجَمُ

(٧) البريص موضع بدمشق بردى كجمزى نهر عظيم بدمشق والمراد ماء بردى ويصفق يخلط ويمزج. الرحيق الخمر الخالصة تقول يا شارب الرحيق

أبشر بعذاب الحريق. يقال خمر سلسل لينة، ومعنى البيت واضح.

(٨) الأحساب جمع حسب وهو ما يعد من مفاخر الآباء، والشمم ارتفاع قصبة الأنف وحسنها وشم جمع أشم والأشم السيد ذو الأنفة فشم الأنوف كناية عن أنهم سادة ويقابل هذا فطس الأنوف كناية عن أنهم عبيد والطراز كلمة فارسية معناها التقدير المستوى والمعنى أن هؤلاء القوم ذوو حسب وشرف. وفي عرنينهم شمم وأنفة وهم الصفوة المختارة والطراز العالي.

(٩) ادكرت أصلها إذ تكرت افتعل من الذكر ثم أبدلت التاء دالا وأدغمت الذال في الدال فصار ادكرت يعني أنه أمسى فيهم زمناً طويلاً مكرماً مسوّدا ثم تذكر هذه الأيام الخوالي فكأنها لم تكن ندما على ما صار إليه من تضييع وإهمال وجزعاً على ما غاب عنه من إعزاز وإكرام.

(١٠) الشمط محركة بياض الرأس يخالط سواده وبابه فرح والثّغام جمع ثغامة يقال كأن رأسه ثغامة وهي شجرة بيضاء الزهر والثمر كإن جماعتها هامة شيخ ومن المجاز أثغم رأس الرجل ابيض والمحول الذي أتى عليه حول يحكى عما أصابه من شيب رأسه الذي يشبه الثغام المحول في بياضه ويروى إما ترى رأسي وفيه عدم التوكيد بعد إن المدغمة في ما وإنه لقريب من الواجب كما أن فيه حذف جواب الشرط.

(١١، ١٢) الحانوت مكان بيع الخمر والصهباء الخمر أو المعصورة من عنب أبيض اسم لها كالعلم والمعنى ربما يتوعدني من يتوعدني لأنه يتخيلني في قصر دومة أو في وسط الهيكل من قصور الغساسنة فيغضب عليّ أن كنت أثيراً عندهم كما قال النابغة. أحكم في أموالهم وأقرب. وقد كانت المنافسة بين المناذرة والغساسنة على أشدها ثم يفخر بأنه كان يشرب الخمر الصافية في أماكنها في هذه القصور وكان يجد لها من اللذع ما يشبه طعم الفلفل.

(١٣) متنطف من قولهم رأيت في آذائهن النطف وهي القرطة الواحدة نطفة وأصلها اللؤلؤة التي صفا ماؤها تعلقها الجارية في أذنها ووصيفة منطفة ويعلني يسقيني منها وأصل العلل الشرب الثاني والأول النهل ولذلك يقال شرب عللا بعد نهل ومن معاني النهل العطش وهو المراد هنا والمعنى أن الذي يدير كأس الخمر غلام يعلق في أذنه النطف يسقيني منها ولو لم أكن عطشان.

(١٤) قتل الخمر مزجها بالماء ويقال شجّها أيضاً خلطها بالماء والمعنى يدعو عليه بالقتل والضياع لأنه سقاه وناوله كأساً من الخمر ممزوجة بالماء فخفت حدتها وسكنت سورتها فهو يطلب منه أن يعاطيه أخرى غير ممزوجة لتكون أشد لعباً بالرأس وأمعن في السكر والعربدة.

(١٥) الحلب المحلوب وعاطاه ناوله والمفصل كمنبر اللسان والمعنى أن كلا من الكأس الممزوجة وغير الممزوجة ناتج من عصير العنب ولكني أريد أن تناولني أشدهما إرخاءً للسان وإثقالاً له عن الكلام وهي الخمر الصرف غير المقتولة.

(١٦) أصل التقليد من قلدته السيف ألقيت حمالته في عنقه فتقلد ومن المجاز قلد العمل فتقلده أي كلف به. وألقيت إليه مقاليد الأمور. والنائبات التي تنوب الإنسان وتصيبه في حياته أي يوم الشدائد ونعتلي من العلو. يفخر بقومه الأدنين أنهم كانوا صدور عشيرة والمقدمين فيهم ألقيت إليهم مقاليد الأمور فكشفوا عن الناس ما نابهم في حياتهم، وعلوا مكانة في قومهم.

(١٧) الجحاجح جمع جحجح وجحجاح ويقال جحجاحة وجحاجيح. سواء الشيء وصفه والمفصل كمجلس ما يفصل بين الحق والباطل. يقول إن سادتهم يعلون سادة غيرهم فيسودونهم كما انهم يصيبون إذا تكلموا مقاطع الحق ومفاصله لا يخطئونها كأنهم أهل رأي ومشورة.

(١٨) به داء عضال أعيا الأطباء وأعضلهم. وأعضل الأمر اشتد ونزلت

بهم المعضلات الشدائد وتزوج ذو الأصبع العدواني فأتى حيه يسألهم مهرها فمنعوه فقال:

واحـــدةٌ أعــضـلَكــم أمــرُهــا فكيـف لَــو دُرْتُ عَلَى أربــع

وفلان عضْلة من العُضَل داهية من الدواهي وعضَّلت على فلان ضيقت عليه أمره وحلت بينه وبين ما يريد يقول نحن الذين نخطب في مهام الأمور وشدائد الحوادث فنفصل في المعضلات ونحل المشكلات.

(١٩) الركاب ككتاب الإبل واحدتها راحلة. يقول إننا من زوار الملوك والمقربين إليهم، وإذا وكل إلينا أمر الرعية قمنا فيهم بالمعدلة ولم نظلم

بدر وأهل القليب

كانت غزوة بدر أول وقعة كبرى في النزاع بين «مكة» و«المدينة» قتل فيها كثيرون من سادة قريش. فأمر رسول الله بجثث القتلى فطرحت في القليب، ثم وقف عليهم قائلا: «يا أهل القليب! بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم. كذبتموني وصدقني الناس، واخرجتموني وآواني الناس. وقاتلتموني ونصرني الناس» ثم قال: «هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ فاني قد وجدت ما وعدني ربي حقا» فقال له اصحابه: يا رسول الله أتكلم قوماً موتى! فقال لهم: «لقد علموا ان ما وعدهم ربهم حق» وفي هذه المناسبة اخذت حسان نشوة النصر، فأنشد أبياتاً يبدو فيها التأثر والسهولة والوضوح والإرتجال، بدأها بمناجاة قصيرة لديار زينب الدارسة الخاوية، زجر نفسه بعدها ليدع التذكر الى الأخبار بما لا يعتريه عيب، ولا يشوبه كذب، بما صنع المليك في المشركين ببدر، ثم يفخر بمؤازرة الأنصار للنبي. ومما قاله:

من شعره في الإسلام

قال في انتصار المسلمين على المشركين في يوم بدر:

عَــرفتُ دِيـارَ زَينبَ بــالكَثيب كخطِّ الوَحْيِ في الوَرَقِ القَشِيبِ[1]

تَداوَلُها الرِّياحُ وكلُّ جَوْنٍ من الوَسْمِيِّ مُنْهَمِرٍ سَكُوبِ(٢)
فأمسَى رَبْعُها خَلَقاً وأمْسَتْ يَبَاباً عَدَ ساكِنِها الحَبِيبِ(٣)
فَدَعْ عَنْكَ التّذَكُّرَ كلَّ يومٍ ورُدَّ حَرارةَ الصَّدرِ الكئيبِ(٤)
وخَبِّر بالّذِي لا عَيبَ فِيه بِصدْقٍ غيرِ إخْبارِ الكَذُوبِ(٥)
بِمَا صَنَع الإلٰه غَدَاةَ بدرٍ لَنَا فِي المُشْرِكِينَ مِنَ النَّصِيبِ(٦)
غَداةَ كأَنَّ جَمْعَهُمُ حِراءٌ بَدَتْ أَرْكانُهُ جُنْحَ الْغُروبِ(٧)
فَلاقَيْنَاهُمُ مِنَّا بجَمْعٍ كَاسِدْ الغَابِ مُرْدَانٍ وَشِيبِ(٨)
أَمَامَ مُحمَّدٍ قَد وَازَرُوهُ علَى الأعْدَاءِ فِي لفْحِ الحُرُوبِ(٩)
بِأَيْدِيهِمْ صَوَارِمُ مُرهَفاتٌ وكُلُّ مجرَّبٍ خَاظِي الكُعُوبِ(١٠)
بَنُوا الأوسِ الغَطَارِفُ وَزَارَتْها بُنوا النَّجَّارِ في الدِّينِ الصَّلِيبِ(١١)
فَغَادَرْنَا أبَا جَهْلٍ صَرِيعاً وعُتْبَةَ قَدْ تَرَكْنَا بالجَبُوبِ(١٢)
وشَيْبَةَ قَدْ تَركْنَا في رِجَالٍ ذَوِي نَسَبٍ إذا نُسِبُوا حَسِيبِ(١٣)
يُنَادِيهِمْ رَسُولُ الله لَما قَذَفْنَاهُمْ كَبَاكِبَ في القَلِيبِ(١٤)
أَلَمْ تَجِدُوا كَلَامِي كانَ حقّاً وَأَمْرُ الله يَأْخُذُ بالقُلُوبِ(١٥)
فَما نَطَقُوا وَلَوْ نَطَقُوا لَقَالُوا أَصَبْتَ وكنْتَ ذَا رَأْيٍ مُصِيبِ(١٦)

الشرح

(١) الكثيب التل من الرمل. والقشيب الجديد وتشبيه الديار الدوارس بخط الوحي وخط الزبور في مصاحف الرهبان معروف عند الشعراء وقريب من هذا قول لبيد في معلقته:

وجَلا السُّيولُ عن الطُّلُولِ كأنَّها زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَها أقْلامُهَا

ولم يدع الشاعر عاداته وهجيراه في بدء شعره بالغزل وإن كان لم يقصد إليه إلا تقليداً واتباعاً.

(٢) تداولها تتناوب عليها وهو محذوف إحدى التاءين والأصل تتداولها والجون السحاب الأسود المليء بالماء والوسمي مطر الربيع توسم طلب كلأ

الوسمى والأرض موسومة ويسمى المطر الثاني ولياً بسكون اللام وليت الأرض بالبناء للمفعول فهي موْلِيّة أصابها الولى وهو المطر بعد المطر وانهمر الماء مطاوع همره بمعنى صبه فانصب وسكوب وساكب وسكب وسيكب بمعنى منسكب ، سكب الماء صبه ومطاوعه انسكب والمعنى أن ديار زينب انتابتها الرياح وتداولتها كما تداولها المطر بمائه المنهمر المنسكب حتى تغيرت وعفت آثارها .

(٣) الربع الدار والمحلة والمنزل والخلق بفتح اللام القديم البالي. خلق الثوب من باب نصر وكرم وسمع ؛ خلوقة وخلقا محركة بلى والخلق يقال للمذكر والمؤنث والجمع خُلقان واليباب الخراب يقول: إن هذه الديار بعد أن تحمل عنها ساكنوها أصبحت خراباً تستوحش منها النفس بعد أن كان الأنس يملأ رحابها بساكنها الحبيب.

(٤) الكئيب الحزين والكآبة الغم وسوء الحال وفعله من باب سمع وهو كئب وكئيب واكتأب فهو مكتئب. يخاطب نفسه ويقول لها: دعى اشتغالك بزينب وديار زينب واتركي التذكر ومايجره لك من الكآبة والحزن وأعيدي لهذا القلب الحزين حرارته التي ذهب بها الفكر وهذا انتقال منه إلى غرضه وهو الحديث عن غزوة بدر وبلاء المسلمين فيها وترى الشاعر لم يتأت لهذا الانتقال ولم يترفق وإنما قال دع عنك.

(٥) يقول دع هذا التذكر إلى الحديث عن الأمجاد التي يجدر ذكرها وتطمئن النفس الى طول الحديث عنها لأنه حديث الصدق وليس حديث الكذب والبهتان

(٧) غداة بدر يوم بدر وتشبهه جمعهم بحراء الجبل لعظمهم وكثرتهم وجنح الغروب بضم الجيم وكسرها الطائفة منه يقصد أن يفتخر بأن الله نصرهم وأعانهم على المشركين يوم بدر ففازوا بأوفر نصيب من العزة

والغلب ولم تجد قريشا كثرتهم وتوافر عددهم وعظم جمعهم الذي يبدو عند الغروب كأنه جبل حراء.

(٨) مردان جمع مرد ومرد جمع أمرد فهو جمع الجمع كسودان وسود وأسود والأمرد الشاب الذي طر شاربه ولم تنبت لحيته يقال طر الشارب نبت والشيب جمع أشيب وهو ذو الشعر الأبيض وليس له فعلاء فلا يقال شيباء وقد كسرت فاؤه في الجمع لمناسبة الياء وقصد التخفيف يقال قوم شيب وشيب كسكر وشيب كعتق ومردان وشيب بدل من جمع والأسد جمع أسد.

(٩) وازروه أعانوه وقووه والأصل آزروه قال ابن سيدة ومن هنا ذهب بعضهم إلى أن الواو في وزير بدل من الهمزة وليس هذا بقياس لأنه يمكن أن يكون الوزير من الوزر وهو الحمل لأنه يحمل عن الملك ووزير بمعنى موازر كجليس بمعنى مجالس يقال وازره على الأمر وآزره عليه، يقال لفحه بالسيف ضربه ولفحت النار أحرقت بحرها يريد أن أصحاب محمد ﷺ قد أعانوه على المشركين واحتملوا حر الحرب وسعيرها.

(١٠) الصوارم جمع صارم وهو السيف القاطع والصارم أيضاً الشجاع الماضي في الأمور ومرهفات جمع مرهف رهف السيف كمنع وأرهفه رققه. خظا لحمه خظوا وخظى كرضى اكتنز فرس خظ بظ وامرأة خظية بظية من الأتباع والكعوب جمع كعب وهو ما بين الأنبوبتين من القصب ولعل الشاعر يقصد أنه كان مع المسلمين في هذه الوقعة كل رمح مجرب مدمج الكعوب غير بارزها، وفي كلمة خاظي غرابة واضحة.

(١١) الغطارف جمع غطريف بكسر الغين وهو السيد الشريف والسخي السري ويجمع غطريف أيضاً على غطارفة وغطاريف كما يجمع مفتاح على مفاتح ومفاتيح وبنو الأوس وبنو النجار الأنصار والصليب الشديد كالصلب بضم الصاد وأخطأ من فتحها وقد أنث الشاعر الفعل وهو مسند إلى

الملحق بجمع المذكر السالم وهون ذلك الفصل كما في قوله تعالى «آمنت به بنو اسرائيل» يقصد أن بني الأوس وبني النجار تعاونوا على خذلان المشركين بفضل صلابة دينهم وشدته وقوة إيمانهم.

(١٢، ١٣) صريع كأمير مصروع أي مطروح فوق الأرض والجمع صرعى وغادر الشيء وأغدره تركه وسميت الذؤابات غدائر لأنها تركت كما سميت القطعة من الماء يغادرها السيل غديراً، وعتبة هو عتبة بن ربيعة، والجبوب بفتح الجيم وجه الأرض وشيبة هو شيبة بن ربيعة أخو عتبة، نسب حسيب شريف كريم وهذا إنصاف من الشاعر لعدوه.

(١٤، ١٥، ١٦) كباكب جمع كبكبة وهي الجماعة الكثيرة، والقليب البئر ويقصد حسان بمناداة رسول الله ﷺ لهؤلاء ما رواه مسلم عن أنس ابن مالك أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثاً ثم قام عليهم فناداهم فقال يا أبا جهل بن هشام. يا أمية بن خلف. يا عتبة بن ربيعة. يا شيبة بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا، فسمع عمر قول النبي فقال «يا رسول الله كيف يسمعون؟ وأنى يجيبون وقد جيفوا» قال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا» ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا في القليب قليب بدر.

(ملاحظات على قصيدتي حسان)

يبدو للناظر في القصيدتين والدارس لهما فرق كبير بينهما من جهة القوة الشعرية وسلامة الأسلوب وروح الشاعر فحسان في قصيدته الجاهلية شاعر فحل قوي الروح شديد التأثير عالي الأسلوب ناصع البيان صافي الذهن واتته الرغبة الملحة في مدح آل جفنة ووازرته النزعة الشديدة إلى الجري في مضمار الشعراء في هذا الباب والسبق فيه حتى لا يتخلف عنهم ولا يقعد دونهم فهو ضريع النابغة والأعشى وغيرهما في مديحهم محلق معهم طائر في مطارهم على حين تراه في قصيدته الإسلامية فاتر الإحساس خامد الشعور

متهافت الأسلوب ضعيف الانتقال من غرض إلى غرض وإن كان ذلك سمة الشعر الجاهلي عامة استمع الى قوله «فدع عنك التذكر كل يوم» «وخبر بالذي لا عيب فيه» «بصدق غير إخبار الكذوب» «منهمر سكوب» «خاظي الكعوب» «في الدين الصليب» «وعتبة قد تركنا في الجبوب» «ذوي نسب إذا نسبوا حسيب» ثم انظر أخيراً إلى أبياته الأخيرة في قصيدته فإنك تراه قد حاول فيها أن يأتي بالألفاظ التي نطق بها رسول الله ﷺ ما أمكنه مما جعله حاكياً أكثر منه شاعراً ينفعل بالأحداث فيصف أثرها في نفسه ويضفي عليها من إحساسه ذلك كله وغيره يدلنا على أن طبيعة حسان الشعرية كانت في الجاهلية قوية عارمة ذات روح شاعر حساس وعلى النقيض من ذلك كانت في الإسلام ضعيفة فاترة خامدة فخصائص شعره: عبارة جزلة ولفظ ضخم في الجاهلية وأسلوب سهل ولفظ لين في الإسلام ولذلك قال بعض النقاد: إن حسان في الإسلام دونه في الجاهلية لما رأى من هذا الفرق والحق أنه كان لحسان بعض العذر في ذلك لأن معاني الإسلام جديدة عليه ليست هي تلك المعاني التي ألفها في الجاهلية وسمّع كثيراً من نماذجها في شعر أمثاله ثم إن موضوعات الشعر كانت في الجاهلية مما يساعد على ثورة الشعر وفراهته من وصف خمر وهجاء ومدح للرغبة والرهبة وفخر بالنسب والشجاعة وكل ذلك مما يقوي فيه الشعر ويشتد قال الأصمعي: الشعر نكد يقوى في الشر ويشتد فاذا دخل في الخير ضعف ولان. هذا حسان فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره، ولعل أقوى شعره في الإسلام ذلك الشعر الذي دافع به عن رسول الله ﷺ وهجا به قريشاً، هذا وقد يكون لكبر سنه في الإسلام ومزايلة سورة الشباب وقوته شأن في ضعف شعره في الإسلام أيضاً ومن حكم حسان على نفسه أنه قيل له لان شعرك أو هرم في الإسلام؟ فقال للقائل: يا أبن أخي: إن الإسلام يحجز عن الكذب.

عام الوفود ـ وفد بني تميم ـ شعر الإرتجال
حسان والزبرقان

كان العام التاسع من الهجرة عام الوفود ، يدخلون في دين الله أفواجاً ، ومن بينهم وفد بني تميم وكان عليه عطارد بن حاجب بن زرارة ومعه أشرافهم كالأقرع بن حابس ، والزبرقان بن بدر ، وعمرو بن الأهتم ، وقيس بن عاصم ، وقيس بن الحارث ، ونعيم بن زيد ، وعيينة بن حصن الفزاري ، وأضرابهم ، أقبلوا حتى دخلوا مسجد الرسول ونادوا من وراء حجراته ، أن اخرج إلينا يا محمد ، فتأذى من صياحهم ، وخرج إليهم ، فقالوا يا محمد : جئناك نفاخرك فاذن لشاعرنا وخطيبنا ، قال : قد أذنت لخطيبكم فليقل ، فقام عطارد بن حاجب فخطب ثم جلس ، فقال الرسول لثابت بن قيس بن الشماسي : قم فأجب الرجل في خطبته ، فقام ثابت فخطب ، ثم أنشد الشاعر التميمي الزبرقان بن بدر قصيدة مطلعها :

نحن الكـرام فلا حي يعـادلنـا   منا الملوك وفينا يقسم الربع(1)

وكان حسان غائباً ، فبعث إليه الرسول . قال حسان : جاءني رسوله فأخبرني أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم ، فخرجت إلى الرسول وأنا أقول :

(1) فينا يقسم الربع : نصيبهم من الغنيمة ربعها وهو المرباع الذي يختص به الرئيس في الغزو كعادة الجاهلية .

منعنا رسول الله إذ حل وسطنا على أنف راض من معد وراغم[١]
منعناه لما حل بين بيوتنا بأسيافنا من كل باغ وظالم

قال : فلما انتهيت إلى رسول الله ﷺ ، وقام شاعر القوم فقال ما قال ، عرضت في قوله ، وقلت على نحو ما قال . فلما فرغ الزبرقان قال الرسول لحسان : قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال ، فقام حسان وارتجل أبياتاً من جيد شعر الإرتجال وكأنما أوحى إليه بهذا الشعر السياسي العذب الرصين :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع[٢]
يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا
قوم إذا حاربوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمُ أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا[٣]
سجية تلك منهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع[٤]

---

(١) هذان البيتان من أبيات شبيهة بالميمية التي رد بها حسان على ميمية الزبرقان ، فقد عرف أمر الزبرقان وعرف ما أنشد ، فأخذ يرتجل على نسق ما عرف روى ابن هشام أن الزبرقان حين قدم على النبي قال أبياتاً منها :

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا إذا احتفلوا عند احتضار المواسم
بأنا فروع الناس في كل موطن وأن ليس في أرض الحجاز كدارم

فرد عليه حسان بأبيات منها :

هل المجد إلا السؤدد العود والندى وجاه الملوك واحتمال العظائم
نصرنا وآوينا النبي محمداً على أنف راض من معد وراغم
بحي حريد أصله وذماره بجابية الجولان وسط الأعاجم
نصرناه لما حل وسط رحالنا وطبنا له نفساً بفيء المغانم

إلى أن يقول :

بني دارم لا تفخروا إن فخركم يعود وبالا عند ذكر المكارم

ثم يقول :

فلا تجعلوا لله ندا وأسلموا ولا تلبسوا زيا كزي الأعاجم
وإلا أبحناكم وسقنا نساءكم بصم القنا والمقربات الصلادم

(٢) الذوائب : الأعالي والمراد السادة . فهر بن غالب إليه تنسب قريش . والمراد بإخوتهم الأنصار .

(٣) الأشياع : الأتباع .

(٤) السجية : الغريزة . الخلائق : الطبائع . البدع : المستحدثات .

لا يرقع الناس ما أوهت أكُفُّهُمُ ... عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا(١)
إن كان في الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سَبْقِهِمْ تَبَعُ
ولا يضِنُّون عن مولًى بفَضْلِهُمُ ... ولا يصيبهم في مطْمَعٍ طَبَعُ(٢)
لا يجهلون وإن حاولت جهلهم ... في فضل أحلامهم عن ذاك متسع(٣)
أعِفَّة ذكرت في الوحي عفتهم ... لا يَطْبَعون ولا يُرْدِيهمُ الطمَعُ(٤)

إلى أن يقول :

خذ منهم ما أتى عفواً إذا غضبوا ... ولا يكن همك الأمر الذي منعوا
فإن في حربهم - فاترك عداوتهم - ... شرًّا يخاض عليه السُّمُّ والسَّلَعُ(٥)
نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها ... إذا الزعانف من أظفارها خشعوا(٦)
لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خور ولا جُزُعُ(٧)
كأنهم في الوغي والموت مكتنع ... أسد ببيشة في أرساغها فدع(٨)
إذا نَصَبْنا لقوم لا نَدِبُّ لَهُم ... كما يدب إلى الوَحْشِيَّة الذُّرُعُ(٩)
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم ... إذا تفرقت الأهواءُ والشيعُ
أهْدَى لُهُمْ مِدَحِي قلبٌ يُوَازِرَهُ ... فيما يحب لسانٌ حائكٌ صَنَعُ

(١) لا يرقع الناس : لا يصلح الناس . أوهت : أفسدت .
(٢) لا يضنون : لا يبخلون . المولي : المراد به هنا الموالي أو الحليف . الطبع : العيب والدنس .
(٣) الجهل : السفاهة والحمق . الأحلام : العقول .
(٤) لا يطبعون : لا يفعلون ما يعيب أو يدنس .
(٥) السلع : شجر مر . وفي رواية الصاب والسلع . : وهما ضربان من الشجر ممران .
(٦) الزعانف من الناس : من لا خير فيهم .
(٧) الخور : الضعفاء . الجزع : نقيض الصبر .
(٨) مكتنع : دان قريب . بيشة : موضع تنسب إليه الأسود . فدع : عوج وميل .
(٩) لا نختل الأعداء في القتال كما تختل الوحشية في الصيد . الذرع : ما يستتر به من بعير أو نحوه عند الإقتراب من الوحشية لضربها . والذريعة : جمل يختل به الصيد يمشي الصياد بجانبه متخفياً به حتى يصيب الصيد . وهذا الجمل يترك مع الوحش مدة حتى تألفه .
(١٠) الشيعة :لفظ يطلق على المفرد وغير المفرد والمذكر والمؤنث على السواء . والمقصود بشيعتهم هنا ناصرهم .
(١١) صنع : صانع حاذق .

فـإنهم أُفضـل الأحيـاء كلهم إن جد بالناس جِدُّ القول أو شَمَعوا[٩]

فلما فرغ حسان من قوله قال الأقرع بن حابس : وأبي إن هذا الرجل لمؤتي[١] له لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أحلى[٢] من أصواتنا ، فلما فرغ القوم أسلموا وجوزهم[٣] رسول الله ﷺ ، فأحسن جوائزهم .

وفي هؤلاء نزل قوله تعالى في سورة الحجرات ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُون . . . . الآيات** ﴾ .

---

(٩) شمعوا ضحكوا : ومزحوا .
(١) لمؤتى له : لموفق .
(٢) وفي رواية أعلى .
(٣) جوزهم : أعطاهم .

منتخبات من شعر حسّان

١ ـ شاعر السياسة والتاريخ

الفتح المبين :

قصيدة الفتح المبين ـ كما أسميها ـ من غرر قصائد حسان التي جرى فيها كثير من الأدباء وراء ما وهم فيه ابن هشام من أنها قيلت يوم الفتح ، ويقصد بالفتح « فتح مكة » .

والحق أنها قيلت قبل فتح مكة ، لأنها تعرضت لهجاء « أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم » ، الذي أسلم قبيل فتح مكة ، والرسول في طريقه إليها « بنبق العقاب » فيما بين مكة والمدينة .

جاهلية إسلامية :

والقصيدة من الناحية الفنية تبدو ذات عنصرين متغايرين : عنصر جاهلي النزعة والصيغة ، وآخر إسلامي الغرض والطابع ، فما الذي جمع بين هذين اللونين المتباينين في قصيدة واحدة ؟ أغلب الظن أن يكون ذلك من صنع الرواة ، لا من جنوح الشاعر إلى الإبتداء بنشوة نسيب مخمورة في موقف إسلامي روحي جليل ، أو أن يكون حسان قد أنشد المقدمة في الجاهلية ، ثم بنى عليها في الإسلام . قال مصعب الزبيري : « هذه القصيدة قال حسان صدرها في الجاهلية ، وآخرها في الإسلام » . وقال :

« وهجم حسان على فتية من قومه يشربون الخمر ، فعيرهم في ذلك ، فقالوا : يا أبا الوليد ! ما أخذنا هذا إلا منك ، وإنا لنهم بتركها ، ثم يثبطنا عن ذلك قولك :

ونشــربهــا فـتتــركـنــا ملوكــا وأســداً مــا ينهـنهـنـا اللقــاء

فقال : « هذا شيء قلته في الجاهلية ، والله ما شربتها منذ أسلمت[١] » .

القسم الجاهلي

ديار وطيف وخمر :

ذهب الشاعر مذهب الجاهليين في ابتدائه بالذكريات في شعر رصين العبارة ، ضخم اللفظ محدود الصورة ، سريع اللمحة . فذكر الديار الشامية ، وديار بني الحسحاس التي تطمسها الرياح والأمطار ، وكانت لا تخلو من أنيس ، وانتقل سريعاً إلى مناجاة طيف شعثاء الحبيبة التي استبد به حبها ، فما يغمض له جفن ، ولا يخلصه دواء ، ثم أسرع مرة أخرى بالإنتقال إلى ذكر راح نفيسة معربدة ، لا يفضلها شراب ، ولا يعكر صفوها ملام ، تطغي على نفس الشارب وحسه حتى يبعد به الوهم وكاذب الخيال فيجلسه على عروش الملوك ، ويلبسه جلود الآساد .

ديار :

عَفَتْ ذَاتُ الأَصَابِعِ فَالْجِوَاءُ إِلَى عَذْرَاءَ مَنْزِلُهَا خَلاَءُ[٢]
دِيَارٌ مِنْ بَنِي الْحَسْحَاسِ قَفْرٌ تُعَفِّيهَا الرَّوَامِسُ وَالسَّمَاءُ[٣]

(١) الإستيعاب في أسماء الأصحاب .

(٢) عفت : درست . ذات الأصابع والجواء وعذراء : مواضع بالشام ، وكان حسان كثيراً ما يرد على ملوك غسان بالشام فيمدحهم ، فلذلك يذكر هذه المنازل . خلاء : بمعنى خال .

(٣) بنو الحسحاس : قوم من العرب . الروامس : الرياح تثير التراب ، وترمس الآثار وتغطيها وتسوي بها الأرض . السماء : المطر .

وَكَـانَتْ لَا يَـزَالُ بِهَـا أَنِيسٌ ... خِـلَالَ مُـرُوجِهَـا نَعَمٌ وَشَـاءُ(١)

طيف :

فَـدَعْ هَـذَا وَلَكِنْ مَنْ لِـطَيْفٍ ... يُؤَرِّقُنِي إِذَا ذَهَبَ الْعِشَـاءُ(٢)
لِـشَعْـثَـاءَ الَّتِي قَـدْ تَيَّـمَـتْـهُ ... فَلَيْسَ لِقَلْبِـهِ مِنْـهَـا شِفَـاءُ(٣)

خمر :

كَـأَنَّ سَبِيئَـةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ ... يَكُـونُ مِزَاجَهَـا عَسَـلٌ وَمَـاءُ(٤)
عَلَى أَنْيَـابِهَـا أَوْ طَعْـمَ غَضٍّ ... مِنَ التُّفَّـاحِ هَصَّـرَهُ الْجِنَـاءُ(٥)
إِذَا مَـا الأَشْرِبَـاتُ ذُكِرْنَ يَـوْماً ... فَهُنَّ لِطَيِّبِ الـرَّاحِ الْفِـدَاءُ(٦)
نُـوَلِّيهَـا الْمَـلَامَـةَ إِنْ أَلَمْنَـا ... إِذَا مَـا كَانَ مَغْثٌ أَوْ لِحَـاءُ(٧)
وَنَشْـرَبُهَـا فَـتَتْـرُكُنَـا مُلُوكـاً ... وَأُسْـداً مَـا يُنَهْنِهُنَـا اللقَـاءُ(٨)

القسم الإسلامي

جمع هذا القسم بين الفخر بشجاعة المسلمين ، والتنبؤ بفتح مكة ،

---

(١) المروج : جمع مرج وهو الأرض الواسعة ذات كلأ يرعى . نعم : إبل . شاء : غنم .
(٢) فدع هذا : أترك هذا الحديث . الطيف : خيال النائم . يؤرقني : يسهرني ويمنعني عن النوم العشاء : أول الظلام .
(٣) شعثاء : اسم المرأة التي يشبب بها حسان . تيمته : استعبدته بالحب وذللته .
(٤) السبيئة : الخمر المشتراه . بيت رأس : مكان بالأردن يحمد خمره ، ويروي خبيئة وسلافة مكان سبيئة . والخبيئة : المصونة المضنون بها لنفاستها . والسلافة : خلاصة الخمر .
(٥) غض : ناضر ناضج طري . هصره : أماله . الجناء : الجني وهو كل ثمر يقطف لنضجه وإدراكه . ويرويه السهيلي « هصره اجتناء » ويقول إن هذا البيت مصنوع لا يشبه شعر حسان ولا لفظه .
(٦) الأشربات : جمع أشربة جمع شراب وهو ما يشرب كطعام وأطعمة وأطعمات . الراح : الخمر .
(٧) نوليها الملامة : نحيل عليها اللوم . ألمنا : فعلنا ما نلام عليه . المغث : الضرب باليد . اللحاء : الملاحاة والمعارضة باللسان والسباب . يقول : إذا أتينا بما نلام عليه كالضرب أو السباب صرفنا اللوم إلى الخمر ، واعتذرنا بالسكر .
(٨) ينهنهنا : يمنعنا ويجعلنا نكف .

ومدح الرسول ، وهجاء أبي سفيان والمشركين ، في شعر بالغ الروعة ، مشرق الديباجة ، سهل اللفظ ، إسلامي المناسبة والمذهب ، رائع الصورة ، صادق اللهجة ، فلا مغالاة ولا إفحاش ولا قصور واضح التأثر بالقرآن والدعوة الإسلامية ، يشيد فيه الشاعر ببسالة المسلمين وقوة خيولهم التي تثير النقع ، وتسرع العدو ، حين تطلع على المشركين من كداء ، تباري أسنة الرماح . الظماء إلى الدماء .

ويحذر المشركين من الوقوف في سبيل المسلمين يصدونهم عن المسجد الحرام ، وأداء العمرة ، وإلا تعرضوا ليوم كريه ينصر الله فيه جنده ، ويعز عبده .

ويمدح النبي المؤيد بروح القدس ، الذي جاء بالحق المصدق وهم يكذبون ، كما يفخر بالأنصار الأقوياء على دفع الهجاء ، وملاقاة الأعداء ، فهم أرباب بيان ، وفرسان طعان .

ويؤيد الشاعر الأنصاري فخره بهجاء مرير مفحم ، في رسالة إلى أبي سفيان شاعر قريش ، يبين له فيها أن سيوف المسلمين تركته ذليلاً ، كما تركت بني عبد الدار في حماية الإماء ، وما كان لأبي سفيان الذليل أن يهجو محمداً الرسول الأبي المبارك الوفي الأمين ، الذي لا يضره هجاء قريش ، ولا يسره مدحهم .

ويختم حسان أبياته بالفخر بصرامة لسانه ، وفصاحة شعره ، وكأنما أراد أن يقول : إن ما سقته من الشعر لا يسمى إليه ، ولا ينقضه هجاء .

تنبؤ بفتح مكة : -

عَـدِمْنَـا خَيْلَنَـا إِنْ لَمْ تَـرَوْهَــا   تُثِيـرُ النَّقْعَ مَـوْعِـدُهَـا كَـدَاءُ[1]

(١) النقع : الغبار . كداء : الثنية العليا بمكة التي في أصلها المقبرة وهي المعلي ، أو اسم طريق الجبل في مدخل مكة ، ومنه دخل الزبير بن العوام يوم فتح مكة ، وفي الحديث أن النبي عليه السلام دخل مكة عام الفتح من كداء .

يُبَـارِينَ الأَعِنَّـةَ مُصْعِـدَاتٍ ... عَلَى أَكْتَافِها الأَسَلُ الظِّمَـاءُ(٢)
تَـظَلُّ جِيَـادُنَـا مُتَـمَـطِّرَاتٍ ... تُلَطِّمُهُنَّ بِـالْخُمُـرِ النِّسَـاءُ(٣)
فَإِمَّـا تُعْـرِضُـوا عَنَّـا اعْتَمَـرْنَـا ... وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغِطَاءُ(٤)
وَإِلَّا فَـاصْبِـرُوا لِجِـلَادِ يَـوْمٍ ... يُعِـزُّ اللَّهُ فِيـهِ مَنْ يَشَـاءُ(١)

مدح وفخر :

وَجِبْـرِيـلٌ أَمِينُ اللَّهِ فِيـنَـا ... وَرُوحُ الْقُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ(٢)
وَقَـالَ اللَّهُ قَـدْ أَرْسَلْتُ عَبْـداً ... يَقُـولُ الْحَقَّ إِنْ نَفعَ الْبَـلَاءُ(٣)
شَهِـدْتُ بِـهِ وَقَـوْمِي صَـدِّقُـوهُ ... فَقُلْتُمْ مَـا نُجِيبُ وَمَـا نَشَـاءُ(٤)
وَقَـالَ اللَّهُ قَـدْ سَيَّـرْتُ جُنْـداً ... هُمُ الأَنْصَـارُ عُرْضَتُهَـا اللِّقَاءُ(٥)
لَنَـا فِي كُـلِّ يَـوْمٍ مِنْ مَعَـدٍّ ... سِبَـابٌ أَوْ قِتَـالٌ أَوْ هِجَـاءُ(٦)
فَنُحْكِمُ بِـالْقَـوَافِي مَنْ هَجَـانَـا ... وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدِّمَـاءُ(٧)

---

(٢) الأعنة : جمع عنان كلجام لفظاً ومعنى . يبارين الأعنة : يسابقنها في اللين وسرعة الإنقياد مصعدات : ذاهبات صعداً . الأسل : الرماح . الظماء : العطاش . وفي رواية : « ينازعن الأسنة مصغيات » . مصغيات : مائلات . ومعنى منازعتها أو مباراتها الأسنة : أن يضجع الفرسان أرماحهم إزاء أعناق الجياد ، فترى أسنتها المائلة فتسرع ظناً منها أن الأسنة تسابقها .

(٣) متمطرات : مسرعات متسابقات . تلطمهن بالخمر النساء : تضرب النساء وجوه الخيل يخمرهن ليرددنها عند فرار رجالهن وفي هذا الخزي والعار . أو المعنى : تنفض النساء بخمرهن ما على الخيل من غبار إكراماً لها بعد الإنتصار ، بالخمر : جمع خمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها . .

(٤) تعرضوا عنا : تخلوا لنا الطريق . اعتمرنا : أدينا العمرة ، وهي زيارة البيت الحرام بشروط معروفة ولا تتقيد بموعد كالحج . كان الفتح : ثبت . انكشف الغطاء : ظهر ما كان مستوراً

(١) الجلاد : التضارب بالسيوف في القتال .

(٢) روح القدس : جبريل . كفاء : نظير .

(٣) عبدا : يقصد رسولا . البلاء : الإمتحان والإختبار .

(٤) ويروي ·شهدت به فقوموا صدقوه فقلتم: لانقوم ولا نشاء . شهدت به : آمنت به وصدقت .

(٥) يروي : يسرت مكان سيرت . عرضتها : همتها وديدنها . عرضتها اللقاء : أقوياء على قتال الأعداء .

(٦) لنا : نحن الأنصار . معد : يريد قريشاً فهم من معد بن عدنان أحد أجداد النبي .

(٧) نحكم : نمنع ونقرع ، من حكمة الدابة ، أي نفحمهم ونخرسهم بالقوافي : بالقصائد تختلط الدماء : تشتد الحرب ويكثر القتل .

هجاء أبي سفيان :

أَلَا أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي ... فَأَنْتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَوَاءُ(١)
بِأَنَّ سُيُوفَنَا تَرَكَتْكَ عَبْداً ... وَعَبْدَ الدَّارِ سَادَتُهَا الإِمَاءُ(٢)
هَجَوْتَ مُحَمَّداً فَأَجَبْتُ عَنْهُ ... وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجزَاءُ(٣)
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ(٤)
هَجَوْتَ مُبَارَكاً بَرًّا حَنِيفاً ... أَمِينَ اللَّهِ شيمتُه الوفاءُ(٥)
فمن يهجو رسولَ اللَّهِ منكم ... ويمدحُه ، وينصرُه سواءُ(٦)
فَإِنَّ أَبي ووالدَه وعرضي ... لعرضِ محمدٍ منكم وِقاءُ(٧)
لِسَانِي صارمٌ لا عيبَ فيهِ ... وبحرِي لا تُكدِّرُه الدِّلَاءُ(٨)

وفي كتاب « نسمات من عبير الأدب » للدكتور محمد سرحان يقول حسان في الفخر :

لك الخير غضى اللوم عني فإنني ... أحبُّ من الأخلاق ما كان أجملا

---

(١) مجوف : جبان لا قلب له . نخب : فارغ ليس به شيء . هواء : منزوع القلب خوفاً ورعباً .
ويروي الشطر الثاني « مغلغلة فقد برح الخفاء » والمغلغلة : الرسالة المحمولة من بلد إلى بلد . برح الخفاء : وضح الأمر .

(٢) عبدا : ذليلاً . عبد الدار : بطن من قريش كانوا أصحاب اللواء وسدنة الكعبة وأهل كثرة ، فلذلك خصهم من بين بطون قريش ومعنى سادتها الإماء ، كانوا تحت حكمها يشير إلى انحطاط أمرهم . أو أنه يشير إلى حادث اللواء يوم أحد إذ سقط من شجعانهم ولم يحمه إلا أمة من إمائهم .

(٣) رووا أن الرسول قال لحسان عند انتهائه من هذا البيت : « جزاؤك على الله الجنة يا حسان » .

(٤) الإستفهام للإنكار والتوبيخ . روي أنه لما انتهى من إنشاد هذا البيت ، قال من حضر : هذا أنصف بيت قالته العرب .

(٥) الحنيف : المائل عن الباطل إلى الحق . الشيمة : الخلق .

(٦) معنى البيت : لقد هان أمركم وعز الرسول حتى ما يضره هجاؤكم وما يسره مدحكم . وفي رواية : أمن يهجو مكان فمن يهجو على سبيل استفهام الإنكار والإبطال . ويكون المعنى : أنتم تهجون ونحن نمدح ، وهل يستوي القادحون والمادحون .

(٧) عرضي : هنا بمعنى نفسي . الوقاء : الحفظ والحماية .

(٨) صارم : سيف قاطع .

ذريني وعلمي بالأمور وشيمتي فما طائري يوماً عليك بأخيلا(١)
ألم تعلمي أني أرى البخلَ سُبةً وأبغُضُ ذا اللونين والمتنقلا
إذا انصرفت نفسي عن الشيء مرة فلست إليه آخرَ الدهر مقبلا
وإني إذا ما الهم ضاف قريتُه زَماعا ومَرقالَ العيشات عيهلا(٢)
ململمةٌ خطارةٌ لو حملتها
على السيفِ لم تعدلِ عن السيف مَعدِلا(٣)
مروعةٌ لو خَلفها صَرَّ جندبٌ رأيت لها من روعة القلب أفكلا(٤)

---

(١) الشيمة : الخلق والسجية التي جبل عليها الإنسان . والأخيل : طائر لونه خليط من بياض وسواد ، والعرب يتشاءمون به لأنه يسقط على الإبل فينكأ جراحها ومواضع الدبر منها .

والمعنى : دعيني واتركي لومي على الجود والسماحة فإن ذلك من طبعي وسجيتي ، وقد خبرت شئون الحياة وعرفت أن بذل المال يصون عرض صاحبه ويزيده رفعة وشرفا ، وإنك لتعلمين سلامة رأيي وحسن تناولي للأمور ، وأنني لم أجلب عليه يوماً شراً أو شؤماً .

(٢) ضاف : نزل ، من قولهم : ضفته ضيفاً وضيافة إذا نزلت عليه . والقرى ـ بكسر أوله وفتح ثانيه ـ ما يقدم للضيف من طعام ونحوه . والزماع ـ كسحاب وكتاب ـ المضاء والعزم . والمرقال : الناقة السريعة ، والعيهل والعيهال ـ بفتح الأول في الجميع ـ الناقة النجيبة الصلبة .

يقول الشاعر : إذا نزلت بي ملمة أو وقعت في مأزق فإنني لا أفقد صوابي وأستسلم للهم الذي نزل بي ، ولكني أحتال للأمر وأعالجه بالمضاء والحزم ، وأسلي النفس عنه بالإرتحال على ناقة سريعة نجيبة ، ثم استطرد في وصف الناقة وبيان محاسنها في البيتين التاليين .

(٣) الململمة : المجتمعة الخلق المضمومة الأعضاء . والخطارة : التي تتبختر في مشيتها وتحرك ذنبها مرحاً ونشاطاً . ولم تعدل عن السيف : لم تتهيبه وتخشه .

والمعنى : أن هذه الناقة مجتمعة قوية جريئة تحمل راكبها إلى حيث يريد ولا تفزع من شيء ولا تبالي بالأخطار والمخاوف .

(٤) مروعة : ذكية الفؤاد مرهفة الحس تفطن لأدنى الحركات . والجندب ـ بضم أوله وثالثه ، وبفتح الثالث ، وكدرهم ـ نوع من الجراد ، وصريره : صوته ، وروعة القلب : حدته ، والأفكل : الرعدة .

وظاهر معنى البيت : أن هذه الناقة ترتعد وتفزع حتى من صرير الجندب ، وفهمه على هذا الوجه يكون مناقضاً لمعنى البيت الذي قبله ـ وقد وقع شارح الديوان في هذا الخطأ مجاراة للظاهر ـ وليس الأمر كذلك ؛ وإنما المراد : أن ناقة الشاعر لقوة ذكائها وإرهاف حسها وشدة يقظتها تتنبه لكل ما يحيط بها وترشد إليه راكبها بحركة معينة فهو شبيه بقول أبي كبير الهذلي في وصف تأبط شراً بشدة الحذر واليقظة :

فإذا نبذت له الحصاة رأيته ينزو لوقعتها طمور الأخيل

وإنا لقوم ما نُسوِّد غادراً ولا ناكلاً عند الحَمالة زُمّلا(١)

ولا مانعاً للمال فيما يَنُوبه

ولا عاجزاً في الحرب جِبْساً مُغفلا(٢)

نسوِّد منا كل أشيبَ بارعٍ أغرَّ تراه بالجلال مكلّلاً(٣)

إذا ما انتدى أجنى الندى وابتنى العلا

وألفى أخا طَول من تَطولا(١)

فنحن الذرى من نسلِ آدمَ والعرا تربعَ فينا المجدُ حتى تأثلا(٢)

بنى العز بيتاً فاستقرت عماده علينا فأعيا الناسَ أن يتحولا

وإنك لن تَلقى من الناس معشراً أعزَ من الأنصار عزاً وأفضلا

لنا حَرةٌ مأطورةٌ بجبالها بنى المجد فيها بيته فتأهلا(٣)

(١) الناكل : الناكص المتلفت . والحمالة ـ كسلحبة ـ تحمل الديات والزمل بضم أوله وفتح ثانيه مشدداً ـ الضعيف الجبان .

(٢) الجبس : الغبي الثقيل ، والمغفل : الأبله .

ومعنى البيتين : أنهم يختارون قادتهم وزعماءهم من ذوي الوفاء والبذل والسماحة والشجاعة ، ولا يرضون لرياستهم غادراً ولا بخيلاً ولا جباناً ولا غبياً .

(٣) البارع : المتفوق على غيره في الشرف والسؤدد والمكارم . والمكلل : المتوج ، وهو كناية بديعة عن إتصافه بالجلال وملازمته له ، ومعنى البيت واضح .

(١) انتدى : جلس في الندوة وهي مجتمع القوم ومجلسهم ، أجني الندى : الندى : البذل والعطاء ، وأجناه : جعله جنياً شهياً طيباً كالثمر إذا أدرك ونضج ، وابتني العلا : حاز المجد والشرف والسؤدد . والطول : الفضل .

والمعنى أن سيدهم سمح كريم إذا ما جلس في مجلس بذل سني المال وجزيل العطاء ليكتسب بذلك المحامد والمكارم ، وهو في بذله وسخائه لا يدرك ولا يجاري .

(٢) الذرى : جمع ذروة ـ بالكسر والضم ـ وهي أعلى الشيء وقمته ، والعرا ، جمع عروة ، وهي ما يعتصم به ويستوثق ، وهي في الأصل مقبض الكوز والدلو ونحوهما ، وتطلق على طرف الحبل الذي يثنى ويربط به الدلو ربطاً محكماً حتى لا يسقط في البئر ، وتربع فينا المجد : نزل وأقام ، وأصل التربع الإقامة في الربيع ، والمراد هنا : الملازمة والحلول الدائم . وتأثل : تأصل وتمكن وثبت .

والمعنى : أنهم أسمى أبناء آدم محتداً وشرفاً ، وأنهم حماة الناس وملجأ الضعيف والخائف ، وأن مجدهم عتيد وشرفهم مكين .

(٣) الحرة : أرض ذات حجارة سود ، وللعرب حرار كثيرة منها حرة واقم بيثرب وهي المرادة هنا . ومأطورة : محاطة تحيط بها الجبال كأنها إطار حولها . وتأهل : اتخذ له فيها أهلاً ، وذلك كناية عن نسبته إليها واتصافه بها ، وملازمته لها .

بها النخلُ والآطام تجري خلالها جداولُ قد تعلُو رَقاقاً وجَرولا[١]
إذا جئتها ألفيت في حَجَراتها عناجيجَ قبًّا والسِوامَ المؤبلا[٢]
جعلنا لها أسيافنا ورماحنا من الجيش والأعراب كهفاً ومَعقلا
إذا جمعوا جمعاً سمونا إليهم بهنديةٍ تسقي الذُعافَ المثملا[٣]
نصرنا بها خير البرية كلها إماماً ووقَّرنا الكتاب المنزلا
نصرنا وآوينا وقَوَّمَ ضربُنا له بالسيوف مَيلَ من كان أميلا[١]
وإنك لن تلقى لنا من معنف ولا عائبٍ إلا لئيماً مضلِلا
وإلا امرأً قد ناله من سيوفنا ذبابٌ فأمسى مائلَ الشق أعزلا[٢]
فمن يأتنا أو يلقَنا عن جناية يجدْ عندنا مثوى كريماً وموئلا[٣]
نجيرُ فلا يخشى البوادرَ جارُنا ولاقى الغنى في دارنا فتمولا[٤]

---

(١) الآطام : جمع أطم ـ بضم أوله وسكون ثانيه وبضمتين ـ وهو الحصن المبني بالحجارة ، ويطلق على القصر وعلى البيت المربع المسطح ، والمراد هنا الحصون التي كان يقيم بها كثير من أهل المدينة . والجدول : النهر الصغير : ورقاق ـ كسحاب وغراب ـ الصحراء ، والأرض المستوية والجرول : أرض ذات حجارة ، وموضع من الجبل تكثر فيه الحجارة .

(٢) الحجرات : جمع حجرة ـ بفتح فسكون ـ وهي الناحية . والعناجيج : جمع عنجوج وهو الجواد من الخيل ، ويستعمل كذلك في الجيد من الإبل . والقب ـ بالضم ـ جمع أقب ، وهو الدقيق الخصر الضامر البطن . والسوام الإبل التي تطلق المرعى ، وقد يطلق على غيرها من الأنعام . والمؤبل : الكثير أو العظيم .

(٣) سمونا إليهم : خرجنا متسامين متطاولين اعتداداً بقوتنا وعزتنا . والهندية : السيوف المصنوعة في الهند وهي مشهورة بالجودة والمضاء . والذعاف : السم القاتل . والمثمل : الذي نقع طويلاً حتى صار صرفاً خالصاً . أو المثمل بالسلع ـ وهو شجر مر ، لتزداد حدته وتقوى شرته .

(١) وقوَّم ضربنا له : أي لأجله . والأميل المعوج الحائد عن الطريق السوي ، والمراد بتقويم السيوف له ردعه عن باطله وحمله على الإعتدال والإستقامة :

(٢) ذباب السيف : حده أو طرفه الأعلى ، ويطلق الذباب على الشر والشؤم كذلك : والأعزل : الضعيف ، والمنفرد عن الناس ، ومن لا سلاح معه ، وقد كني بميل الشق والعزل عن الحقد والبغض والكراهية ، لأن الحاقد إذا رأى من يحقد عليه أزور عنه ، ومال بجانبيه حتى لا يراه .

(٣) أو يلقنا عن جناية : أي يحتمي بنا خوفاً من الثأر منه عن جناية جناها . والمثوى : المنزل . والموئل : الحمى والملجأ .

(٤) البوادر : جمع بادرة ؛ وهي الحدة عند الغضب . وتطلق على الشر مطلقاً . وتمول: كثر ماله.

(شرح وتحليل ونقد)

بدأ حسان قصيدته هذه بمطلع حضري جميل تمدح فيه بحسن الشيم ومكارم الأخلاق ، ونأى عن طريق الجاهليين ومن حذا حذوهم من الإسلاميين من نعت الديار وبكاء الدمن والأطلال ، وقد كان الاعتداد بالخلق سجية في أهل القرى ، لاسيما سكان يثرب من الأوس والخزرج .

ثم مضى حسان بعد ذلك يتحدث عن سماحته وجوده ، ويصف نفسه بوفور الحكمة وصدق التجربة والخبرة بشئون الحياة ، وهو في ذلك يصطنع مذهب الأجواد المشهورين من أمثال حاتم الطائي ـ وقد أدركه في الشطر الأول من حياته ـ وتذكرنا أبياته في هذه القصيدة بقول حاتم :

ذريني ومالي إن مالك وافر   وكل امرىء جار على ما تعودا
ذريني يكن مالي لعرضي جنة   يقي المال عرضي قبل أن يتبددا

ويستطرد حسان إلى ذم البخل والرياء ، وخطل الرأي وعدم الثبات عليه ، ثم يبعث اليأس والقنوط في نفوس لائميه ، ويؤكد لهم أنه لا ينثني عن طريقته ، ولا يمكن أن يعود إلى أمر قد عافته نفسه ، وانصرف عنه فكره ، ويصف نفسه بالعزم والمضاء والتماسك أمام الأحداث والشدائد ، وأنه يقرعها بصائب رأيه ، ويصدعها ببارع حيلته ، ويتسلى عنها بالتنقل والرحلة ، ثم ينفذ إلى وصف ناقته بالنشاط والنجابة والضمور والجرأة واليقظة وحدة الفؤاد .

وينتقل الشاعر بد ذلك إلى الفخر بقومه ، وأنهم يختارون رئيسهم من ذوي المروة والسماحة والشجاعة والجلال ، لكثرة الأمجاد والشجعان فيهم . وينتهي إلى أن قومه قد بلغوا من المجد قمته ، وأنهم أفضل الناس وأعلاهم كعبا ، وأن العز قد شملهم وأحاط بهم من كل جانب ، وليس في الناس من يدانيهم سؤدداً وشرفاً .

وإذا كان حسان قد فخر بمآثره ومكارمه ومجد قومه وعزتهم فلا بد له كذلك أن يفخر ببلدته ويصف موقعها ومناعتها ومجدها ، وما بها من نخيل وحصون وجداول وخيل مسوقة وسوام مؤبل ، ويصور لنا مدى اعتزاز أهلها بها وتفانيهم في الدفاع عن حوزتها ، ويدلف إلى بلائهم في نصرة الرسول ﷺ وحسن استقبالهم له ولصحبة الأخيار ، والذب عن الإسلام ومحاربة أعدائه . ويخلص من ذلك كله إلى سمو منزلتهم ، وأنهم ليسوا ضعفاء فيعنفون ، ولا مظنة للعيب فيلامون ، ولا يشنؤهم إلا لئيم مضلل أو موتور حاقد ، وأنهم يحمون جارهم ، وينزلونه منزلاً كريماً ، ويكون له في جوارهم أمن وسلامة ونعيم وثراء .

تلك هي المعاني الإجمالية للقصيدة وهي تمثل بيئة الشاعر وحياته وخلقه ودينه ، وتصور لنا جانباً من السجايا والصفات التي يتحلى بها العربي الحضري من سماحة ومروءة وشجاعة ونجدة وحماية للجار ، وقد امتازت بالوحدة النفسية وشاعت فيها الروح الإسلامية الحضرية .

والعربي دائماً مزهو بنفسه ، معتد بمكارمه ، معتز بوطنه ، يمجد البطولة ويكبر المروءة ، ويهتف بالبذل والتضحية ، ويتغنى بالشرف والسؤدد ، ويتمدح بالخصال الحميدة ويفخر فيغلو في فخره ، ويضع نفسه وقومه في أسمى منزلة وأعلى مكانة ، ولو كان يعمل أن هناك من يفضلهم ويعلو عليهم .

وإذا كان التاريخ لم يحدثنا عن سماحة حسان وجوده ، ولم يسلكه بين الأجواد المشهورين أمثال حاتم الطائي وأوس بن حارثة الجديلي وزيد الخيل النبهاني ، فإنه لا تثريب عليه أن يمجد الفضيلة لأنها فضيلة ، وأن يتعشق الكرم ويعتد به ، وإن لم يتيسر له فعله على أوسع نطاق .

وأهل المدينة في الجملة قد عرفوا بالجود والبذل والإيثار ، وقد ضربوا المثل في ذلك حين هاجر إليهم المسلمون فأنزلوهم في ديارهم ، وقاسموهم

أموالهم ونزل بمضهم عن إحدى نسائه ليتزوجها أخوه المهاجر . ويظهر أن المؤرخين قد خصوا أجواد البادية بعنايتهم حيث يكثر الفقر والجدب ؛ وتكون الحاجة إلى البذل أشد ، وإيواء المسافر والمنقطع به الطريق من الأهمية بمكان .

وإذا كان المعروف عن حسان أنه لم يركب جواداً لغارة ، ولم ينتض سلاحاً لغزوة فليس ذلك بضائره . والشاعر العربي يؤدي رسالة سامية في الدعاية لقومه والذب عن حياضهم وأعراضهم ، وقد تكون الحاجة إليه أشد من الحاجة إلى المقاتل ، لأن الشعراء قلة في قومهم ، بينما المقاتلون كثير ، على أن الحياة العربية تقضي بأن يفني الفرد في القبيلة أو العشيرة ، وما يفعله أي فرد منهم ينسب إلى جميع الأفراد .

ولقد أجاد حسان في بناء قصيدته ، ونسجها في الجملة نسجاً بديعاً ، ورتب معانيها ترتيباً ذهنياً مسلسلاً ، ونحافيها نحو غرض عام موحد وهدف معين مقصود ، ومرجع ذلك إلى البيئة الحضرية التي نشأ فيها ، وما أفاده من أسلوب القرآن الكريم والحديث النبوي والثقافة الإسلامية ، وقد أبدع في كثير من أجزاء هذه القصيدة ، وبلغ فيها شأواً كبيراً من البهاء والرونق والجمال ، ومن أمثلة ذلك :

١ ـ حسن المطلع ورقته وبراءته من التوعر ، وملاءمته للبيئة الحضرية التي عاش فيها .

٢ ـ سهولة الألفاظ وجزالة الأساليب مع وضوح العبارة وسلامتها ، وابتداع الصور الخيالية التي تبعث في النفوس الطرب والنشوة ، فنراه يكنى عن حصافته وسلامة رأيه ، وأنه لم يجلب على أهله شقاء ولا شؤماً بقوله (فما طائري يوماً عليك بأخيلا) ـ ويبدع في الخيال حين يريد التعبير عن مضائه وعزمه وعدم ضيقه بالهم ينزل به ، بل يحتال للأمر ويتسلى عنه بالإرتحال والتنقل فيقول :

وإني إذا ما الهم ضاف قريته زماعا ومرقال العشيات عيهلا

فهو يصور الهم الطارق ضيفاً ، ويجعل قراه صلابة وتصميماً وعزماً ، وناقة تجبية يقطع بها الفلوات ، ويتجول بها في البوادي والحواضر .

واتخذ من الوقار إكليلاً يتوج به زعيم قومه وسيد عشيرته ، وجعل الندى ثمراً ، والعلا بناء في قوله : (إذا ما انتدى أجني الندى وأبتني العلا) .

ومثل قومه بالعرى يستمسك الناس بها ، وتخيل المجد مقيماً بينهم ومتربعاً فيهم ويكني بذلك عن نسبته إليهم وملازمته لهم حيث يقول :

فنحن الذرى من نسل آدم والعرى تربع فينا المجد حتى تأثلا

وأكد هذا المعنى بقوله :

بنى العز بيتاً فاستقرت عماده علينا فأعيا الناس أن يتحولا

وشبيه بذلك قوله يصف يثرب : بنى المجد فيها بيته فتأهلا .

ويكني عن الحانق المبغض بأنه مائل الشوق ، وهي كناية بديعة طريفة .

وفي القصيدة أبيات تعد من عيون الشعر ومما يتمثل به الناس كقوله :

إذا انصرفت نفسي عن الشيء مرة فلست إليه آخر الدهر مقبلا

وفي شعر معن بن أوس ـ وهو شاعر مخضرم عاش في زمن حسان بيت مماثل لهذا البيت في معناه وفي معظم ألفاظه . وهو أشد صقلاً وأقوى معنى ، وكان الرشيد يتمثل به ، وذلك قوله :

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد إليه بوجه آخر الدهر تقبل

وقد حلق في سماء الإجادة شكلاً ومضموناً في قوله :

بنى العز بيتاً فاستقرت عماده علينا فأعيا الناس أن يتحولا

وتجد له أبياتاً في هذه القصيدة من الشعر الوسط مثل قوله :

فمن يأتينا أو يلقنا عن جنايـة يجد عندنا مثوى كريما ومؤئلا

وإذا كنا قد لمسنا مواطن الجودة في القصيدة فإن فيها ما يؤخذ عليه وينقد ، ومن ذلك :

١ ـ أن معانيها قليلة إذا قيست بألفاظها ، وهذه طبيعة غالبة في شعره .

٢ ـ أنه قد غلا في فخره ، ووضع قومه في الذروة والقمة من البشر ، وزعم أنه ليس في الناس من هو أعز منهم ولا أفضل ، ونسي أن الرسول وقومه أعظم مجداً وأعز نسباً ، وما كان له أن يتجاهل ذلك .

٣ ـ أن في بعض أبياتها شيئاً من الضعف مثل قوله :

جعلنـا أسيـافنـا ورمـاحـنـا من الجيش والأعراب كهفا ومعقلا

فإن في قوله « من الجيش والأعراب » ضعفاً في التعبير لا يخفى على اللبيب الفطن ، وإن كان المعنى في جملته سليما .

ومثل قوله :

نصـرنـا وآوينـا وقـوم ضـربنـا له بالسيوف ميل من كان أميلا

وهو يريد أننا نصرنا الرسول وآوينا المهاجرين ، وقومنا بسيوفنا ميل أعدائه ، وهذا المعنى يمكن أخذه من البيت ولكن نسج القول جاء مهلهلاً حيث عبر عن هذا المعنى بأن ضربهم بالسيوف لأجل الرسول قد قوم ميل من كان مائلا منهم ، وفي ذلك ضعف بين وتوعر ظاهر .

وقال : يفاخر وفد تميم برسول الله ﷺ وأصحابه :

إن الذوائب من فهر وإخـوتهم قـد بينوا سنـة للنـاس تتبـع[١]

(١) الذوائب : جمع ذؤابة ، وذؤابة كل شيء أعلاه ، والذؤابة في الأصل : الناصية أو منبتها من الرأس ، وشعر في أعلى ناصية الفرس . والفهر في الأصل : حجر صلب بقدر ما يملأ

يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا(١)

قوم إذا حاربوا ضروا عـدوهم ... أوحاولوا النفع في أشياعهم نفعوا(٢)

سجيـة تلك فيهم غير محـدثة ... إن الخلائق ـ فاعلم ـ شرها البدع(٣)

لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم ... عند الدفاع ، ولا يوهون ما رقعوا(٤)

إن كان في الناس سباقون بعدهم ... فكـل سبق لأدنى سبقهم تبـع

ولا يضنون عن مولى بفضلهم ... ولا يصيبهم في مطمع طبع(٥)

لا يجهلون وإن حاولت جهلهم ... في فضل أحلامهم عن ذاك متسع(٦)

الكف يدق به الجوز ، وسمي به الجد الأعلى لقريش ، وهو فهر بن غالب بن النضير بن كنانة ، ولعله يريد بالذوائب من فهر الرسول ومن آمن به من بني هاشم ، وبأخوتهم المهاجرين معه من قريش ، أو يريد بالذوائب من فهر الرسول والمهاجرين ، وبإخوتهم الأنصار من أهل المدينة . وتتبع : جديرة بالإتباع لسموها وعظيم منزلتها ، وعموم نفعها .

(١) السر والسريرة : ما يكنه ويستره من مقاصد وأفكار . والسريرة ، الطوية . والتقوى : أصلها وقيا قلبت واوها تاء ، وياؤها واواً ، وتقوى الإله : طلب الوقاية من عذابه ، ثم استعملت بمعنى الصلاح والإستقامة وعدم الميل مع الهوى والشهوات ، وبالأمر الذي شرعوا : متعلق بمحذوف تقديره والعمل أو نحوه ، ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير في بها ، والمراد : يرضى بالشريعة المنزلة من السماء ، وبما شرعه الرسول وأمر به .

(٢) الأشياع : الأنصار والأتباع ، وسموا بذلك لأنهم يشيعون أمره ويديعون ذكره وفضله بين الناس .

(٣) السجية : الغريزة ، مأخوذة من سجا الشيء إذا سكن وهدأ واستقر ، والغريزة صفة ثابتة دائمة فطر عليها صاحبها فلا يستطيع عنها تحولاً ، أو تعودها والتزمها حتى تأصلت في نفسه وصارت كأنها فطرية فيه . والخلائق : جمع خليقة ، وهي الصفة التي خلق الإنسان عليها ، أو أخذ نفسه بها والتزمها فهي بمعنى السجية ، والبدع : جمع بدعة وهي الأمر المستحدث ، والمراد بالبدع هنا ما كان وليد الهوى والغرض ، ولعل مراده بغير المحدثة ما كانت قديمة فيهم توارثوها عن آبائهم وأجدادهم ، فهم شجعان أبناء شجعان وكذلك الأمر بالنسبة إلى الخلائق .

(٤) لا يرقع الناس : لا يصلحون بالرقاع . ما أوهت أكفهم : ما خرقته وشقته ، والبيت تمثيل لشجاعتهم وقوتهم وعزتهم ، أو كناية عن ذلك .

(٥) لا يضنون : لا يبخلون . والمولى : الحليف والصديق . والطبع ـ بفتح الباء ـ الخسة والدنس .

(٦) الجهل هنا : الحمق والطيش والتسرع في الغضب . والأحلام : جمع حلم ـ بكسر أوله ـ وهو الأناة والعقل .

ومعنى ذلك أنهم ـ لسعة عقولهم وقوة أخلاقهم ـ لا تطيش أحلامهم إذا استثارهم أحد ، ولا ينال الغضب من اتزانهم ورباطة جأشهم ، وتقديرهم للأمور تقديراً صحيحاً ، فهم يحلمون على الجاهل الأحمق لفرط تعلقهم ورزانتهم .

أعفة ذكرت في الوحي عفتهم ... لا يطبعون ولا يرديهم الطمع(١)
كم من صديق لهم نالوا كرامته ... ومن عدو عليهم جاهد جدعوا(٢)
أعطوا نبي الهدى والبر طاعتهم ... فما ونى نصرهم عنه ، وما نزعوا(٣)
إن قال سيروا أجدوا السير جهدهم ... أو قال : عوجوا علينا ساعة ربعوا(٤)
ما زال سيرهم حتى استقاد لهم ... أهل الصليب، ومن كانت له البيع(٥)
خذ منهم ما أتى عفوا إذا غضبوا ... ولا يكن همك الأمري الذي منعوا(٦)
فإن في حربهم - فاترك عداوتهم - ... شرا يخاض عليه الصاب والسلع(٧)
نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها ... إذا الزعانف من أظفارها خشعوا(٨)

(١) أعفة : جمع عف وعفيف ، وهو الذي يكف عما لا يحل له ولا يجمل به ، وقد أثنى الله تعالى في كتابه عليهم إذ يقول : ﴿ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً ﴾ .
لا يطبعون : لا يقعون في الخنا والدنس والخسة . ولا يرديهم الطمع : لا يهلكهم ويدفعهم إلى التهور والمغامرة ، فمعظم المصائب سببها المطامع ومحاولة الأفراد أو الجماعات السطو على ما يملكه غيرهم من مال ومتاع ، أو ديار وأوطان ، بغير حق .

(٢) العدو الجاهد في عداوته : الممعن فيها حتى يبلغ حد الفجور . وجدعوا : قطعوا وأهلكوا واستأصلوا ، والأصل في الجدع قطع الأنف ، ويكنى به عن الإذلال والإهانة .

(٣) ونى : أبطأ وتأخر . وما نزعوا : وما انصرفوا عن اتباعه ونصرته وطاعته ، أو لم يخضعوا للنوازع التي تنحرف بهم عن شرعته .

(٤) عوجوا : ألموا وأنزلوا . وربعوا : وقفوا وأقاموا ، وهو كناية عن كمال الخضوع والإستسلام ، وأصل الربع الإقامة والإستقرار في وقت الربيع حيث يكون الخصب والنماء .

(٥) انقاد واستقاد : خضع وذل وأسلم مقادته لهم ، أو أن استقاد بمعنى رغب وتطلب أن يكون تحت إمرتهم وتابعا لهم في شريعتهم لما لمسه فيها من سمو ورفعة وعدالة . وأهل الصليب : النصارى . وأصحاب البيع : اليهود .

(٦) عفوا : تفضلا وسماحا - والمعني أنهم حين يغضبون لا يستطيع أحد أن ينتزع منهم شيئاً قسراً ، وإنما يؤخذ منهم سماحاً وفضلاً .

(٧) الصاب : شجر شديد المرارة ، وعصيره شديد الإحراق ، وقيل إنه عصارة الصبر . والسلع - كجمل - شجر لا ورق له ، ولكنه ذو قضبان تتسلق الغصون ، وتلتف عليها وتتشابك ، وله ثمار مثل عناقيد العنب فإذا نضجت اسود لونها ، وشجر السلع مر كذلك وصعب الاجتياز وإن كان ثمره يحلو بعد نضجه وتأكله القرود . ويخاض عليه : يخلط ويضاف ، وذلك مبالغة في عظم الشر وشدته .

(٨) الزعنفة - بكسر الأول والثالث وفتحهما - لها معان كثيرة من بينها القبيلة القليلة العدد تحتمي بغيرها ، والسفلة من الناس ، وأسفل الثوب المتخرق ، وجناح السمكة ، وتجمع على زعانف . والمراد هنا سفلة الناس وضعفاؤهم أو ذوو الشوكة والقوة منهم ، وهذا الأخير أظهر ، وفي السمو إلى الحرب ومخالبها وأظفارها استعارات بديعة .

لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع(١)
كأنهم في الوغى والموت مكتنع ... أسد ببيشة ، في أرساغها فدع(٢)
إذا نصبنا لقوم لا ندب لهم ... كما يدب إلى الوحشية الذرع(٣)
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم ... إذا تفرقت الأهواء والشيع
أهدى لهم مدحي قلب يؤازره ... - فيما يحب - لسان حائك صنع(٤)
فإنهم أفضل الأحياء كلهم ... إن جد بالناس جد القول أو شمعوا(٥)

- تعليق ونقد -

أنشد حسان هذه القصيدة رداً على وفد تميم حين جاء رسول الله ﷺ بعد فتح مكة وفيه وجوههم وسادتهم ، وكانوا غلاظاً جفاة فنادوا الرسول من وراء الحجرات وقالوا : يا محمد جئناك لنفاخرك فأذن لخطيبنا وشاعرنا ، فأذن لهم وخطب منهم عطارد بن حاجب بن زرارة فغلا في وصف قومه ، وزعم لهم الملك والغنى ، والجاه ، والكثرة ، والمنعة ، والقوة ، والسيادة على العرب جميعاً ، فأشار الرسول إلى ثابت بن قيس الأنصاري ففاخر

(١) الخور - بفتح أوله وسكون ثانيه - المنخفض من الأرض ، وهو - بفتح الواو - الضعف والجبن ، والخور - بالضم - النساء الكثيرات الريب لضعف في عقولهن ، ولا واحد له من لفظة ، ومن الرجال . الضعفاء الجبناء ، والجازع والجزع بكسر الزاي وضمها والجزاع - كغراب - الخائف المذعور .

الوغى : الجلبة والصخب ، ويكنى بذلك عن الحرب . ويقال : اكتنع إذا حضر ودنا ، ومكتنع : دان قريب . وبيشة : مأسدة في واد بطريق اليمامة اشتهرت أسودها بقوة البطش والفتك . والرسغ - بضم أوله - موصل الوظيف من اليد والرجل ، ومفصل ما بين الساعد والكف ، وما بين الساق والرجل . والفدع : اعوجاج الرسغ ، وهو في الأسود دليل الصلابة والقوة .

(٣) نصبنا لقوم : عاديناهم وحاربناهم . لا ندب لهم : لا نخاتلهم ونذهب إلى حربهم مستترين ، وإنما نزحف إليهم ظاهرين ثقة بأنفسنا ، واعتماداً على شجاعتنا وقوتنا . والذرع بفتحتين الناقة يستتر بها رامي الصيد حتى لا يفزع لرؤيته ويفر منه ، والذرع - كفرح - الراعي المستتر بناقته ، ورواية الديوان : الذرع - بضمتين - ولعله جمع .

(٤) يؤازره : يعاونه ويسانده . والصنع - بفتحتين - والصناع : الحاذق في الصنعة .

(٥) شمع - كمنع - شمعاً بالسكون وشموعاً وشمعة : لعب ومزح ، والمراد أن فضلهم على سائر الأحياء متفق عليه من جميع الناس سواء كانوا في معرض الجد أو الهزل .

بالرسول وأتباعه من المهاجرين والأنصار ، فدمغ بحقه باطلهم ، وطامن من غروهم وكبريائهم ، وفند دعاواهم ومزاعمهم .

ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فأنشد شعراً جمع فيه المكارم والمحامد لقومه ، فأوما الرسول إلى حسان فأنشد قصيدته هذه ، وأزال الغشاوة عن أعينهم ، وجلا الصدأ الذي ران على قلوبهم ، فأسلموا وحسن إسلامهم .

ويظهر من ذلك أن حسان بن ثابت قد ارتجل هذه القصيدة دون إعداد سابق ، ويؤيد هذا الظن أنها على وزن قصيدة الزبرقان ورويها ، ويجوز أن يكون قد أضاف إليها بعد ذلك بعض الأبيات التي تمتاز بالروعة ، وتدل على الإحتفال والتحبير .

وشعر حسان في هذه القصيدة من الشعر الوسط ، وهو فيها يعلو ويهبط ، ويقوى ويضعف ، ومعانيه سطحية ضحلة ، وفيها كثير من الإعادة والتكرار ، ولكنها تعد من خير شعره ، وقد تجلت فيها وحدة الموضوع ، وطرق الشاعر فيها عدداً من المعاني التي تتفق مع الغرض العام منها ، وهي المدح والفخر بالرسول وصحابته ، فهم في السنام والذرة من قومهم ، وقد حملوا أعظم رسالة جديرة بالإتباع في تاريخ البشر ، وهي الدعوة للدين والتمكين له ، وهم قوم فطروا على الشجاعة والسماحة ، يضرون أعداءهم وينفعون أولياءهم .

ولا يستطيع أحد إعزاز من أذلوا ، ولا إذلال من أعزوا ، ولا يدانيهم أحد في سبقهم إلى المكرمات والمفاخر :

وقد امتازوا بسعة الأحلام والعفة عند المطمع ، ولو كانوا ذوي خصاصة ، وبرئوا من الخسة والجشع والدنايا ، وما يمس المرء في كرامته ومروءته ودينه .

وقد امتاز أصحاب الرسول بالإذعان لأمره ، والتفاني في طاعته ،

والمسارعة إلى تلبية ندائه ، وقد أبلوا في نصرته والمجهاد معه ، حتى ذل لهم أعداؤهم من اليهود والنصارى ، فضلاً عن المشركين وأهل الزيغ والنفاق .

وهم مع سماحتهم ولين جانبهم في السلم يشتد مراسهم عند الحرب . ولا يستطيع أحد أن ينال منهم شيئاً بالقسر والقوة ، ولا يخضعون ويضعفون إذا نيلوا في الحروب وغلبوا في بعض الوقائع ، بل يزدادون قوة ومنعة وصلابة ، ويعاودون الجهاد حتى ينتصروا ، ويمزقوا شمل أعدائهم ، وحربهم مرة صعبة المراس ، عظيمة المشقة ، ومن خير الإنسان أن يترك عدواتهم ، ويتقي حربهم ، وإلا تعرض للهلاك والدمار .

ثم هم لا يفخرون ويتيهون بالنصر ، لأن الانتصار شأنهم وديدنهم ، ولا يجبنون ويجزعون إذا هزموا ، بل هم في الحرب كالأسود الضارية التي لا ترجع عن فريستها ولو نالتها بعض السهام ، ولاعتدادهم بقوتهم وشجاعتهم لا يخاتلون في الحروب ولا يتسللون إلى الأعداء في خشية وحذر ، بل يتقدمون ظاهرين واثقين ببسالتهم وشجاعتهم ، ومؤازرة الله لهم .

ويختم حسان هذه القصيدة بمدح أتباع الرسول ، وأنهم قد فضلوا الناس جميعاً بولايته لهم ، ويهدي إليهم مدحه بلسانه وقلبه ، لأن فضلهم بين وكرامتهم واضحة ، لا يمارى فيها أحد ، ولا ينكرها إنسان ، ولو كان كارهاً لهم .

وألفاظ القصيدة من السهل المرسل ، وتمتاز بجمال النغم ؛ وحلاوة اللحن وقوة الجرس ، وأسلوبها فضفاض واسع ، ومعانيها ضئيلة بالنسبة لألفاظها .

وتشيع فيها الروح الإسلامية ومقومات البيئة الحضرية ، ومطلعها جيد رائع ، ينبىء عن الغرض منها ، ويدل عليه دلالة واضحة كأنه عنوان يشعر بالمعاني الجزئية التي تتضمنها ، وقد لمس فيه أعظم مفخرة يعتز بها البشر

في كل زمان ومكان ، ولقد أجاد حسان وبلغ الغاية في كثير من أبيات القصيدة حتى لتعد هذه الأبيات من عيون الشعر العربي عامة ، ومن ذلك قوله :

لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا
إن كان في الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

فقد بالغ في البيت الأول في مدحهم . وعبر عن عظيم قوتهم ، وأن الناس جميعاً لا يستطيعون إعزاز من أذلوا ، ولا إذلال من أعزوا ، وتأنق في الأسلوب تأنقاً بديعاً ، وصاغ المعنى في قالب تمثيلي خلاب ، وفي البيت الثاني نراه ينفي أن يدانيهم أحد في سبقهم إلى المجد والمكرمات ، فإن كل من يتعشق المجد يهفو نفسه إلى اكتساب المحامد والمكارم لا يلحقهم في أدنى مراتب مجدهم فضلاً عن عظيمها .

ومن ذلك أيضاً قوله :

لا يجهلون وإن حاولت جهلهم في فضل أحلامهم عن ذاك متسع

وقوله :

نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها إذا الزعانف من أظفارها خشعوا

وقوله :

خذ منهم ما أتى عفوا إذا غضبوا ولا يكن همك الأمر الذي منعوا

وقوله :

كأنهم في الوغى والموت مكتنع أسد بيشة في أرساغها فدع
إذا نصبنا لقوم لا ندب لهم كما يدب إلى الوحشية الذرع

على أننا نجد تكراراً في بعض معاني القصيدة مثل قوله :

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

مع قوله :

كم من صديق لهم نالوا كرامته ومن عدو عليهم جاهد جدعوا

على أنه قد أخطأه التوفيق في معنى هذين البيتين فقد أكتفي في البيت الأول بوقوع الضرر منهم على أعدائهم ، ومجرد الضرر أمر هين ، ومقام الفخر يقتضي الهلاك والإبادة ، اللهم إلا إذا كان يريد أنهم إذا حاربوا لا يقصدون النكال والإنتقام ، وإنما يكتفون بأقل ما يحقق لهم النصر والغلب لأنهم دعاة دين ورسل رحمة ، ونراه كذلك قد قيد النفع بالأشياع ولو أطلقه لكان أجدر بالمقام .

وفي البيت الثاني يقلب المعنى المراد إذ جعلهم ينالون الكرامة من أصدقائهم ، والوجه أن يعكس فيجعلهم هم مصدر الكزامة ، وأن من يصادقهم ينال كرامتهم ، اللهم إلا أن يكون المراد أنهم أكسبوه الكرامة وهو بعبد لا يعين عليه اللفظ .

ومثله قوله : (أكرم بقول رسول الله شيعتهم) وكان الأولى أن يقول (هم شيعته) ، والفرق بين المعنيين واضح .

وكرر في المعنى كذلك في قوله :

ولا يضنون عن مولى بفضلهم ولا يصيبهم في مطمع طبع

مع قوله :

أعفة ذكرت في الوحي عفتهم لا يطبعون ولا يرديهم الطمع

فإن الشطر الثاني من كلا البيتين يدور حول معنى واحد تقريباً .

وفي القصيدة بعض الحشو أو ما يقرب منه مثل قوله :

يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا

فإن قوله (وبالأمر الذي شرعوا) حشو لا معنى له ، بل ربما كان مخلاً بالأسلوب وبالمعنى ، وإن كان يمكن حمله على الوجه الذي بيناه في الشرح .

ومثل قوله :

سجيـة تلك فيهـم غير محـدثة   إن الخلائق ـ فاعلم ـ شرها البدع

إذ أن السجايا لا تكون محدثة والخلائق لا تكون مبتدعة ، اللهم إلا إذا كان يقصد من ذلك أن هذه المكارم التي مدحهم بها ليست أمراً جديداً امتازوا به ، ولكنهم توارثوها عن الآباء والأجداد ، ولكن العبارة لا تعسف في فهم المعنى ، أما أن الخلائق منها ما هو ذاتي وما هو مبتدع وأن الأخير شرها فغير مقبول ولا مستساغ ، إذ أننا لا نسلم له الخلائق منها ما هو موروث وهو خير كله ، ومنها ما هو مستحدث مبتدع ، ولم يكن لآبائهم من قبل ، أو أنه لم يكن غريزة فيهم ولكنهم ألزموا أنفسهم به حتى صار كأنه أمر غرزي ، وهو شر كله ـ إذ أن من السجايا ما هو مرذول ومن المبتدع ما هو حسن .

ومثل قوله :

فـإنهم أفضـل الأحيـاء كلهم   إن جد بالناس جد القول أو شمعوا

فإن الشطر الأخير لا لزوم له ، ولم يأت بجديد ، وإنما أتى به لتكملة البيت فحسب برغم ما فيه من فتور وضعف وإغراب .

وهذا ما يقال في نقد القصيدة ، ولكنها من جهة موضوعها ، وأنها قيلت في الرسول وأصحابه ، وفي موقف الفخر بهم ، وبيان فضلهم وامتيازهم على الناس جميعاً ، تنال عندنا قبولاً وارتياحاً ، وتهش لها النفوس وتهفو إليها الأفئدة ، والمآخذ عليها طفيفة إذا وضعنا في حسابنا أنها قيلت ارتجالاً وعفو الخاطر ، والتزم فيها وزن معين وروي خاص . وفي موقف يحمد فيه السرى ولو كان هوناً ، ويعذب فيه القول ولو لم يكن كله سحراً حلالاً .

شاعر الرثاء
في جنة الفردوس

قال يرثي الرسول ويبكيه، ويتمنى أن لو يفتديه بأمه وأبيه، ويذكر حادث الوفاة في يوم الأثنين، ويصف ما أصابه من تبلد وجزع، متعجلاً أمر الله، وقيام الساعة، ليلقى الطيب المبارك الوضاء، في جنة الفردوس.

ثم يتوجه لما أصابه، وأصاب أنصار النبي ورهطه، من ضيق واكتئاب، مواسياً لهم، ومعزياً نفسه، بأنهم ولدوه، وفيهم قبره، ينعمون بنعمته، ويستضيئون بنور هدايته، صلى عليه الله والملائكة والأخيار.

مـا بالُ عَيْنِـكَ لا تنامُ كَـأَنَّمَـا ... كُحِلَتْ مآقيها بِكُحْـلِ الأَرْمدِ(٣)
جَزَعاً عى المَهْدِيِّ أَصْبَحَ اَوِياً ... يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الحَصَى لا تَبْعُدِ(٤)
وَجْهِي يَقِيكَ التُّرْبَ لَهْفِي لَيْتَنِي ... غُيِّبْتُ قَبْلَكَ فِي بَقيعِ الْغَرْقَدِ(٥)
بِـأَبِي وَأُمِّي مَنْ شَهِدْتُ وَفَـاتَهُ ... فِي يَوْمِ الأثنين النَّبِيِّ المهتدي(٦)

(١) ما بال عينك: ما شأنها. . المآقي: جمع مأق وهو طرف العين مما يلي الأنف، وهو مجرى الدموع. الأرمد: من بعينه رمد، وهو هيجان العين وانتفاخها.
(٢) الثاوي: المقيم في قبره أي الميت. لا تبعد: دعاء معناه لا تهلك.
(٣) بقيع الغرقد: بقيع المدينة الذي يدفنون فيه موتاهم.
(٤) المشهور أنه توفي يوم الأثنين لأثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة إحدى عشرة في مثل الوقت الذي دخل فيه المدينة.

فَـظَلِلْتُ بَعْـدَ وَفَـاتِـهِ مُتَبَلِّداً   مُتَلَدداً يَـا لَيْتَنِي لَـمْ أُولَـدِ(١)
أأُقيمُ بَعْـدَكَ بِـالْمَـدِينَـةِ بَيْنَهُمْ   يَا لَيْتَني صُبِّحْتُ سَمَّ الأَسْوَدِ(٢)
أَوْ حَـلَّ أَمْرُ اللهِ فِينَـا عـاجِـلاً   فِي رَوْحَةٍ مِنْ يَوْمِنَا أَوْ فِي غَدِ(٣)
فَتَقُـومَ سَـاعتُنَـا، فَنَلْقَى طَيِّبـاً   مَحْضاً ضَرَائِبُهُ كَرِيمَ الْمَحْتِدِ(٤)
صلى الإله ومن يحف بعرشـه   والطيبون على المبارك أحمدِ(٥)

يا ثاراتِ عُثمانا..!!

تسور الثوار الدار على الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان، فقتلوه، وكان لحسان معه مؤاخاة وصحبة، فرثاه متأثراً بشعر وجداني مثير، واشتد به الحزن حتى تجاوز البكاء، واندفع يستفز المشاعر، ويثير الخواطر، للأخذ بثأر عثمان، والمطالبة بدمه فقال:

مَنْ سَرَّهُ الْمَوْتُ صِرْفاً لا مِزَاجَ لَهُ   فَلْيَأْتِ مَأْسَدَةً في دارِ عُثْمانا(٦)
مُسْتَحْقِبِي حَلَق الماذِيِّ قَدْ سَفَعَتْ   فَوْقَ الْمَخَاطِمِ بَيْضٌ زانَ أَبْدَانَا(٧)
يَا لَيْتَ شِعْري وَلَيْتَ الطَّيْرَ تُخْبِرُني   ما كان شأْنُ عَلِيٍّ وابن عفانا(١)
ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ عُنْوانُ السُّجُودِ بِهِ   يُقَـطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبيحـاً وقُرْآنـا(٢)
لَتَسْمَعَنَّ وَشِيكـاً فِي دِيـارِهِم   اللهُ أَكبـرُ يَا ثَـاراتِ عُثْمـانـا(٣)

---

(١) المتبلد: المتلهف والمقلب كفيه فهو ضد المتجلد. المتلدد: المتحير يلتفت يميناً وشمالا.
(٢) صبحت: سقيت صبحاً. الأسود: يجمع على أساود، جنس من الحيات يقال إنه أعظمها وأخبثها وأنكاها.
(٣) حل أمر الله فينا: مات الناس كلهم.
(٤) فنلقى طيبا: يقصد الرسول.. محض الضريبة: حسن السجية.
(٥) من يحف بعرشه: من يحيط به وهم الملائكة.
(٦) صرفا: خالصا. أرض مأسدة: كثيرة الأسود.
(٧) استحقب: حمل السلاح من خلف. الماذي: جيد الحديد وخالصه. حلق الماذي عدة الحرب. سفعت: أثرت. المخاطم: الأنوف. البيض فاعل سفعت: جمع بيضة وهي الخوذة الأبدان: الدروع.
(١) يروي: بل ليت شعري.
(٢) بأشمط: بأبيض. قرآنا: قراءة.
(٣) وشيكا: سريعاً. ينذرهم بقرب مجيء جيوش معاوية للانتقام.

وَقَدْ رَضيتُ بِأَهْلِ الشَّامِ زافِرَةً ... وَبِـالأَمير وبِـالإِخْوانِ إِخْـوانـا(٤)
إِنِّي لَمِنْهُمْ وَإِنْ غَابوا وَإِنْ شَهِدُوا ... حَتَّى المَمَاتِ وما سُمِّيتُ حَسَّانا(٥)
صَبْراً فِدًى لَكُمُ أُمِّي وما وَلَدَتْ ... قَدْ يَنْفَعُ الصَّبْرُ في الْمُكْرُوهِ أَحْيَانَا
شُدُّوا السُّيوفَ بِثِنْيٍ في مَناطِقِكُمْ ... حَتَّى يَحِينَ بِها في الْمَوْتِ من حانا(٦)
لَعَلَّكُمْ أَنْ تَـرَوْا يَوْمـاً بمغبـطة ... خَلِيفَةَ اللهِ فِيكُمْ كالَّذِي كانا(٧)

٨ ـ شاعر الحكم والمواعظ

خلق كريم ومجتمع سليم

لحسان في الحياة والموت، ومذاهب الإنسان، ومناهج المجتمع، نظرات صادقة تنشد السلامة والرشاد، منها الحكم والمواعظ التي أرسلها في شعره:

أَعْرِضْ عنِ الْعَوْراءِ إِنْ أُسْمِعْتَها ... واقْعُد كأَنَّك غافِلٌ لا تَسْمَعُ(٨)
وَدَعِ السُّؤالَ عَنِ الأُمورِ وَبَحْثَهَا ... فَلَرُبَّ حَافِرِ حُفْرَةٍ هُوَ يُصْـرَعُ
والْزَم مُجالَسَةَ الكِرَامِ وَفِعْلَـهُمْ ... وإذا اتَّبَعْتَ فَأَبْصِرَنْ من تَتْبَعُ
لَا تَتْبَعَنَّ غَـوَايـةً لِصَبَـابَـةٍ ... إِنَّ الغَـوَايَـةَ كُـلَّ شَـرٍّ تَجْمَـعُ
والقومُ أن نُزِروا فَزِد في نَزْرِهِمْ ... لَا تَقْعُـدَنَّ خِـلاَلَهُمْ تَتَسَمَّـعُ(١)
والشُّرْبَ لَا تُدْمِنْ وخُذْ مَعْروفَـهُ ... تُصْبِحْ صحيح الرَّأْسِ لا تَتَصَدَّعُ(٢)

---

(٤) الزافرة: الأعوان. الأمير: يقصد معاوية أو حبيب بن مسلمة الفهري الذي أرسله معاوية بجيش لنصرة عثمان.

(٥) ما سميت حسانا: ما مصدرية ظرفية أي مدة تسميتي بحسان.

(٦) يحين: يهلك. حان: لم يكن على رشاد.

(٧) مغبطة: غبطة وسرور. ويروى بمغيظة.

(٨) العوراء: الكلمة القبيحة.

(١) نزروا: استقلوا. فزد في نزرهم: أي بالنأي عنهم.

(٢) لا تدمن: لا تواظب على الشراب ولا تستغرق فيه، ولعله أراد لا تشرب. خذ معروفه: أي اشرب المقدار الذي لا يضر ولعله أراد اشرب غير المحرم.

والشُّرْبَ بِنَفْسِكَ لا تُكَلِّفْ غَيْرَها   فَبِـدَيْنِها تُجْـزَى وَعَنْهَا تَـدْفَعُ[٣]
والموتُ أَعْدادُ النفوس ولا أَرى   منه لذى هَـرَبٍ نجاةً تَنْفَـعُ[٤]

الأخلاّء

قال فيما ينبغي أن يؤاخى:

أَخــلاء الــرخــاء هُـمُ كثيــر   ولكِنْ في البــلاءِ هُـمُ قليــلُ
فـلا يغـرركَ خلةُ من تـوُاخي   فمــالـك عنـد نـائبـةٍ خليــلُ
وكــل أَخ يـقــول أنــا وفِـيٌّ   ولكِنْ ليس يفعــل ما يقــولُ
سـوى خِـلٍّ لــه حسب ودينٌ   فـذاك لما يقـول هـو الفعـولُ

(٣) دنته بما صنع: جزيته «كما تدين تدان». فبدينها تجزى: بما اعتادت فعله من خير أو شر يكون الجزاء.

(٤) الموت أعداد النفوس: مرتبط بها.

الخطابة في صدر الإسلام

ويقول د. احسان النص في كتابة القيم «الخطابة العربية في عصرها الذهبي»

تطور الخطابة في هذا العصر ودواعيه:

يقول: بمجيء الإسلام وانتشاره تعرضت الحياة العربية لانقلاب شامل وتطور بعيد المدى. كان للعرب قبل الإسلام مفاهيم ومثل عليا ومبادىء فرضتها بيئتهم الجاهلية وحياتهم القبلية، وجاء الإسلام فحمل إلى العرب مفاهيم جديدة ومثلا عليا تغاير مثل الجاهليين وجعلهم ينظرون إلى الحياة من زاوية جديدة. وقد أصبح للعرب دين توحيدي يجمع شمل الكثرة من قبائلهم، ونظام سياسي يعيشون في ظله، وتناول التطور كذلك حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والعقلية. ومن المحقق أن تاريخ العرب الطويل لم يشهد حدثاً أبرز وأبعد أثراً من ظهور الإسلام.

ولم يكن بد من أن يتأثر الأدب بالحياة الجديدة وأن يكون صدى لأحداثها واتجاهاتها. وكانت مظاهر التطور في النثر أوضح منها في الشعر، لأن الشعر فن تقليدي يترسم فيه الشاعر خطا سابقيه ويلتزم أصولا محددة، ولذلك يكون أبطأ من النثر استجابة لدواعي التطور، وهذا ما يفسر احتفاظ الشعر في العصر الإسلامي بكثير من الطوابع الجاهلية، ولا سيما في

الأسلوب. في حين إستطاع النثر مسايرة الحياة الجديدة وظهرت فيه سمات جديدة مؤذنة بتطور جاد في حياة هذا الفن. بيد أننا نلاحظ هنا أيضاً أن التطور مس الموضوعات والأغراض أكثر مما مس الأسلوب وطريقة الأداء الفنية.

وكان للخطابة بطبيعة الأمر نصيبها من هذا التطور الذي أصاب النثر. ومن المقرر أن الخطابة تزدهر إبان الأحداث كما تزدهر في ظل النظم السياسية الديمقراطية. وقد توافر لها في العصر الإسلامي من دواعي التطور والازدهار ما لم يتوافر لها مثله في العصر الجاهلي فاتجهت حثيثاً نحو الرقي ثم استكملت في عصر بني أمية ما أتيح لها أن تبلغه من ازدهار وارتقاء.

كان مجيء الإسلام إذن أبرز الأحداث التي كان لها أثرها في تطور فن الخطابة، والخطابة هي خير ما يستعين به الدعاة والأنبياء والمصلحون في الدعوة إلى مذاهبهم وعقائدهم، لكونها الوسيلة المثلى للاتصال بالجماعات والتأثير فيها واستمالتها. فاتخذها لذلك الرسول عليه السلام أداة لنشر دعوته وإقناع المشركين بصدق رسالته. ثم اتخذها بعد الهجرة أداة لإيضاح تعاليم الإسلام ووعظ المسلمين. ومن المؤسف أن جل خطب الرسول قد فقد ولم تصلنا إلا أجزاء من بعض خطبه ومنذ عهد الرسول ظهر لون من الخطابة يلقى على منابر المساجد أيام الجمع والعيدين بغية وعظ المسلمين وإرشادهم إلى ما فيه صلاحهم، وما لبث هذا الضرب من الخطابة أن أصبحت له تقاليد وأصول خاصة به.

ودعا الرسول المسلمين إلى الجهاد لنشر الدعوة الإسلامية في الأمم المجاورة للعرب فوجد ضرب آخر من الخطابة الغاية منه الحث على الجهاد في سبيل الله. وما لبثت خطبة الجهاد أن ازدهرت باتساع الفتوح الإسلامية ووجدت طبقة خاصة من الخطباء هي طبقة «القصاص» تتولى الحث على الجهاد ووجدت طبقة خاصة من الخطباء هي طبقة «القصاص» تتولى الحث

على الجهاد وتذكير المسلمين بما ينتظرهم من الثواب الكريم إذا أحسنوا البلاء في قتال المشركين.

وكان الرسول وخلفاؤه من بعده يبعثون العمال والولاة إلى الأمصار. فإذا قدم الوالي مصره قام خطيباً في الناس وبين لهم خطته التي سيسير عليها. وقد أصبحت هذه الخطبة سنة للخلفاء والولاة يستهلون بها ولايتهم.

وقضى الرسول الكريم فاختلف الناس في أمر الخلافة وتنازعها المهاجرون والأنصار، واستعان كل فريق بالخطابة في تأييد حقه فيها، فكانت خطب السقيفة أول ما عرفه العصر الإسلامي من الخطب السياسية.

وما كاد الأمر يتم لأبي بكر حتى ارتدت عن الإسلام طوائف وقبائل عديدة، وظهرت طلائع الفتن الداخلية فكان ظهورها عاملاً في تكرة الخطباء. والعرب يفعل في نفوسهم بليغ القول ما لا يفعله الحسام الماضي. فكذلك نجد الخطابة تلعب دوراً هامًّا في فتنة عثمان ثم إبان خلافة عليّ حين انقسم المسلمون مذاهب وأحزاباً كل منها يريد الخلافة لنفسه. فكان على الخطيب تأييد حزبه ودعوة القوم إلى نصرته وإلى مجاهدة خصومه. وقد حفظت لنا كتب التاريخ والأدب جل الخطب التي قيلت بصدد فتنة أصحاب الجمل، وعند احتدام الخلاف بين علي وبين معاوية ثم بين علي وبين الخوارج، وظهر في هذه الحقبة عدد كبير من الخطباء المفوهين الممتازين.

كانت هذه الأحداث الداخلية كلها عاملاً فعالاً في ازدهار الخطابة في صدر الإسلام، تضاف اليها الفتوح الخارجية التي اتسع نطاقها زمن عمر وعثمان. كما كان للحياة الحضرية الجديدة التي عرفها العرب ولقيام حكومة نظامية لها دستورها وأنظمتها، ثم اختلاط العرب بالأعاجم واتصالهم بحضارتهم، كان لهذا كله أثره في تطور الخطابة في هذا العصر واتسامها بسمات جديدة لم تعرفها من قبل.

ومن المحقق أن النظام الديموقراطي الذي كان سائداً في صدر

الإسلام قد أعان على ازدهار الخطابة في هذا العصر. وأتاح لمن يشاء أن يعتلي منصة الخطابة وأن يجهر برأيه مؤيداً أو معارضاً، محبذاً أو لائماً. وكان يباح لمن يشاء من الرعية في ذلك العصر أن يناقش الخليفة أو الوالي في شؤون الحكم والسياسة والدين وكثيراً ما كان الخليفة يتخلى عن رأيه ويأخذ برأي مخالفيه إذا رأى الحق في جانبهم. وكان الخلفاء الراشدون يطالبون الناس بمؤاخذتهم ومحاسبتهم إذا حادوا عن جادة الحق والعدالة، فأبو بكر يقول في خطبته يوم بويع: «أيها الناس، إني قد وُليتُ عَليكم، ولستُ بخيركم. فإن رأيتُموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدّدوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعا لي عليكم...»[1]. وحين قال عمر في خطبة له: «أيها الناس، إن أحسنت فأعينوني، وإن صدفتُ فقوّموني» قام رجل من أخريات المسجد فقال له: «لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوّمناك بسيوفنا»، ولم يجد عمر غضاضة في أن يقال له هذا القول، وهذه الروح الديمقراطية خليقة بأن تنهض بالخطابة وتأخذ بيدها في طريق الرقي والازدهار.

ومما أعان أيضاً على تطور الخطابة وازدهارها في هذا العصر النظام الشوري الذي كان سائداً إذ ذاك، وهو من أسس الحكم الديموقراطي السليم. وقد جاء القرآن الكريم فوضع للمسلمين دستوراً يتبعونه بقوله: «وأمرهم شُورى بينهم»[2]، وسار الرسول الكريم على خطة الشورى فكان كثيراً ما يستشير صحبه في ما يعرض له من الأمور الهامة، شأنه يوم أحد ويوم الخندق مثلا، وكذلك كان شأن خلفائه من بعده وكان عمر يقول: «لا خير في أمر أبرم من غير شورى». وإبان الأحداث الهامة كانت تنعقد مجالس شورية يتبادل القوم فيها الرأي ويقوم الخطباء مدلين بآرائهم في هذا الشأن. من ذلك أنه لما كانت فتنة أصحاب الجمل انعقد في الكوفة مجلس للشورى خطب

---

(١) تاريخ الطبري ٢/٤٥٠.
(٢) الشورى آية ٣٧.

فيه عدد من الخطباء بعضهم يدعو إلى عدم المشاركة في الفتنة كأبي موسى الأشعري وآخرون يدعون إلى نصرة علي وقتال أصحاب الجمل كالقعقاع بن عمرو[1]. ومن ذلك أن عليًّا لما أراد المسير إلى الشام لقتال معاوية جمع أصحابه واستشارهم في الأمر.. وهذه المجالس الشورية قد أفسحت دون ريب المجال لارتقاء الخطابة وازدهارها.

ولئن كان للإسلام اليد الطولى في تطور الخطابة في هذا العصر فإن القرآن الكريم أيضاً يعتبر في طليعة الدواعي إلى تطور الخطابة وارتقائها في العصر الإسلامي وفي العصور التي تلته، وكان أثره شاملاً يتناول موضوعات الخطابة كما يتناول أفكارها ومعانيها وأسلوبها.

(١) تاريخ الطبري ٣/٣٩٣.

أقسام الخطابة في صدر الإسلام

في هذا العصر قضي على بعض ضروب الخطابة التي كانت معروفة في العصر الجاهلي لزوال دواعيها، ووجدت ضروب جديدة اقتضتها البيئة الجديدة. ومن ألوان الخطابة التي قضى عليها الإسلام المنافرات والمفاخرات لاتصالها بطبيعة الحياة الجاهلية والروح القائمة على العصبية القبلية والتنافر والتفاخر بالأنساب والمآثر. وقد جاء الإسلام فحارب هذه الروح الجاهلية التي كانت سبباً في كثير مما كان يقع بين القبائل من حروب ووقائع متصلة ونهى عن التفاخر بالأحساب والتنابز بالألقاب.

بيد أنّ هذه المفاخرات لم تنقرض تماماً بمجيء الإسلام، وقد عادت إلى الظهور ولكن في صور أخرى. حدثت مثلا بعض المفاخرات في مجالس الرسول حين كانت تقدم عليه وفود القبائل، من ذلك مفاخرة بني تميم للرسول حين قدم عليه وفدهم، وكان خطيبهم عطارد بن حاجب بن زرارة وشاعرهم الزبرقان بن بدر، وقد رد عليهما من الأنصار خطيبهم ثابت بن قيس بن الشماس وشاعرهم حسان بن ثابت، وانتهت المفاخرة باعتناق وفد تميم الإسلام[1].

والخطب التي ألقيت في سقيفة بني ساعدة عقب وفاة الرسول والتي

(١) الطبري ٢/٣٧٨.

دارت حول حق كل من المهاجرين والأنصار في الخلافة لم تخل من بعض ما كنا نجده في المفاخرات الجاهلية من التنويه بالمآثر وتعداد المناقب مختلطاً بالمعاني الإسلامية، يقول أبو بكر مثلا: «نحن المهاجرون، أول الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً، وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوهاً، وأكثر الناس ولادة في العرب. . .» فيجيبه الحُباب بن المنذر بقوله: «يا معشر الأنصار، املِكوا عليكم أمركم، فإن الناس في فيئكم وفي ظلكم، ولن يجترىء على خلافكم، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم، أنتم أهل العز والثروة، وأولو العدد والمنعة والتجربة وذوو البأس والنجدة . . .»[٢] .

ومثل ذلك يقال في النزاع بين بني هاشم وبني أمية، وقد اشتد بعد مقتل عثمان، وكان هذا النزاع يتخذ أحياناً صورة المفاخرات القديمة، ونجد أمثلة لهذا الضرب في الخطب التي قيلت بصدد النزاع بين علي ومعاوية.

ومن الأنواع التي انقرضت في هذا العصر سجع الكهان وذلك لاتصاله بالوثنية التي قضى عليها الإسلام. وقد ظهر في هذا العصر ضرب من السجع قصد به محاكاة القرآن الكريم، وهو هذا السجع الذي جرى على ألسنة المتنبئين والدعاة أمثال مسيلمة الكذاب وسجاح التميمية والأسود العنسي وطليحة الأسدي، ومن سجع مسيلمة قوله: «سمع الله لمن سمع، وأطمعه الخير إذ طمع، ولا زال أمره في كل ما سرّ نفسه يجتمع، رآكم ربكم فحياكم، ومن وحشة خلاْكم، ويوم دينه أنجاكم، فأحياكم علينا من صلوات معشرٍ أبرار، لا أشقياء ولا فجّار، يقومون الليل ويصومون النهار، لربكم الكبار، رب الغيوم والأمطار. . .»[٢].

وأنواع الخطابة التي نجدها في هذا العصر هي التالية:

---

(٢) تاريخ الطبري ٢/٤٥٧.

(١) تاريخ الطبري ٢ /٤٩٨ .

١ ـ خطب الجهاد والحض على القتال

وقد عرف الجاهليون الخطب التي تحض على القتال، وكانت بواعث هذا القتال ما يقوم بين القبائل من نزاع على موارد العيش وتنازع على الرياسة والشرف. فلما جاء الإسلام وقامت الفتوح احتيج الى خطباء يحثون المسلمين على الجهاد في سبيل الله لنشر الدعوة الإسلامية ويرغبونهم في قتال المشركين ابتغاء ثواب من الله عظيم. وكان الخلفاء الراشدون والولاة والقواد كثيراً ما يخطبون في الحض على الجهاد، مثال ذلك قول أبي بكر من خطبة له قالها حين ندب الناس لفتح الشام: «ألا وإن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله، لَما ينبغي للمسلم أن يحب أن يُخَصَّ به، هي التجارة التي دل الله عليها، ونجّى بها من الخزي، وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة»[٢]. وقول عمر من خطبته يوم ندب الناس لفتح بلاد فارس: «إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النُّجْعة، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك. أين الطُّراء المهاجرون عن موعد الله. سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها فإنه قال: ليظهره على الدين كلّه، والله مُظهرٌ دينه، ومعز ناصره، ومولى أهله مواريث الأمم...»[١].

ثم نجد طائفة من الخطباء يتولون أمر الحض على الجهاد ويرافقون المسلمين في غزواتهم وفتوحهم وهم الذين عرفوا بـ «القصاص» وقد أصبح لهم شأن كبير في العصر الأموي.

وحين انقسم المسلمون على أنفسهم وافترقوا طوائف وشيعاً كان خطباء كل فرقة يحضون أنصارهم على قتال مخالفيهم مظهرين لهم أن الله في جانبهم وأنهم وحدهم على حق وخصومهم على باطل، وكانوا يعدون قتال مخالفيهم جهاداً في سبيل الله.

---

(٢) تاريخ الطبري ٢ /٥٨٨ .

(١) تاريخ الطبري ٢ /٥٨٨ . والنجعة : طلب الكلأ ، والطراء ج طارىء وهو الغريب المهاجر .

٢ ـ خطب الإملاك (النكاح)

وقد ذكرنا أن من سننها أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب ويروي الهيثم بن عدّى أن الخطباء لم يكونوا يخطبون قعوداً إلا في خطبة النكاح(٢). ويبدو أن هذه الخطبة كانت تكلف الخطيب عنتاً ومشقة فقد روى عن عمر قوله: «ما يتصعّدُني كلام كما تتصعّدني خُطبة النكاح»(٣). ومن أمثلة هذه الخطب أن بلالاً خطب على أخيه امرأة من قريش فقال: «نحن من قد عرفتم، كنا عبدين فأعتقنا الله، وكنا ضالّين فهدانا الله، وفقيرين فأغنانا الله. وأنا أخطب على أخي خالد فلانة، فإن تُنكحوه فالحمد لله، وإن تردّوه فالله أكبر»(٤).

٣ ـ خطب المحافل والوفود

هذه الخطب عرفت في العصر الجاهلي، ولما جاء الإسلام كثرت المناسبات الداعية إليها، فكانت وفود القبائل تقدم على الرسول وخلفائه ويخطب خطباؤها بين أيديهم لتفاخر أو لتعلن إسلامها وخضوعها أو لتعرض لهم شأناً من شؤونها أو للتهنئة أو التعزية، وكثيراً ما يكون الخطيب رئيس القوم كالأحنف بن قيس زعيم تميم البصرة وخطيبها في المحافل. وكانوا يسمون الخطب التي تلقى في مجالس الخلفاء والولاة «خطب بين السماطين». وفي هذه الخطب يستحسن ابن المقفع «الإكثار في غير خطل، والإطالة في غير إملال»(١)، كما كانوا يستحسنون أن تشتمل خطب المحافل على آي من القرآن الكريم(٢).

---

(٢) البيان والتبيين ٢/٦٣١.

(٣) البيان والتبيين ١/١١٨ يتصعدني: يشق علي.

(٤) نفس المصدر ١/١١٧.

(١) البيان والتبيين ١/١١٦.

(٢) المصدر السابق ١/١١٨.

٤ ـ الخطب الدينية

عرف الجاهليون ضرباً من الخطابة يقصد به الوعظ كخطبة قس. وقد كثرت هذه الخطب في صدر الإسلام حتى أصبح الطابع الغالب على الخطب فيه هو الطابع الديني، وجل الخطب المأثورة عن الرسول عليه السلام وعن الخلفاء الراشدين والولاة في هذا العصر كانت تدور حول هداية المسلمين ووعظهم وإرشادهم إلى ما فيه خيرهم وتبصيرهم بأمور دينهم. ولا عجب في أن تكون جل خطب هذا العصر دينية فقد كان الناس حديثي عهد بدين جديد فهم مفتقرون إلى من يوضح لهم أحكامه وشرائعه ويسدد خطاهم إذا ضلوا سواء السبيل، فقام الرسول وخلفاؤه والولاة بهذا الأمر، وخطبة الوداع التي قالها الرسول قبيل وفاته خير نموذج لخطب التشريع الديني. وقد وجدت منذ ذلك العصر الخطب التي تلقى أيام الجمع والعيدين، وما لبثت أن أصبحت لها تقاليد وأصول خاصة بها، واحتلت الخطابة الدينية ذرا المنابر وأبهاء المساجد. وقذ ذكر لنا أن أول من عمل المنبر تميم الداري، عمله للنبي عليه السلام وكان قد رأى منابر الكنائس بالشام[١]. وقد حاول المستشرق بِكِر أن يوج صلة بين المنبر الإسلامي وبين مقعد القاضي في الجاهلية[٢]، ولكن الثابت أن النبي كان يخطب قائماً ثم أشير عليه باتخاذ المنبر فصنع له من ثلاث درجات[٣]. وذكروا أن أبا رافع مولى رسول الله هو الذي عمل له منبره من أثل الغابة[٤].

ولخطب الجمعة والعيدين أصول مقررة، فالخطبة في الجمعة تسبق الصلاة والصلاة تسبقها في غيرها. ويجب في خطبة الجمعة أن يحمد الخطيب الله تعالى ويصلي على النبي. وخطبة الجمعة خطبتان وينبغي أن

(١) صبح الأعشى ١/٤٢١.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية المترجمة ٨/٣٧٠.
(٣) يدل هذا الحديث ٢٢٣٦ من مسند الإمام احمد بن حنبل.
(٤) أنساب الأشراف ١/٤٧٧.

يقرأ الخطيب في الأولى شيئاً من القرآن ، وسنتها أن يقف الخطيب على منبر أو موضع عال وأن يسلم على الناس إذا أقبل عليهم وأن يعتمد على قوس أو سيف أو عصا وأن يقصر الخطبة عملاً بقول الرسول : « أطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة »[1] . وتقترن الحمدلة بالشهادة وقد روي عن الرسول قوله : « الخطبة التي ليس فيها شهادة كاليد الجذماء »[2] . وخطبة العيد خطبتان أيضاً يستفتح الخطيب الأولى بتسع تكبيرات والثانية بسبع تكبيرات ، ويجوز أن يخطب قاعداً . ويروي ابن قتيبة أنه تتبع خطب الرسول فوجد أوائل أكثرها : « الحمد لله نحمده ونستعينه ونؤمن به ونتوكل عليه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، ومن يَهده الله فلا مُضلّ له ومن يُضلل الله فلا هاديَ له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » . ووجد كل خطبة مفتاحها الحمد إلا خطبة العيد فإن أغلب مفتاحها التكبير[3] .

٥ ـ المناظرات :

أوجد اختلاف المسلمين في شأن الخلافة وأحكام الدين ، ولا سيما منذ عهد عليّ ، ضرباً من الخطابة يقوم على المناظرة والجدل . ولم يكن اعتماد المتناظرين في جدلهم على المنطق اليوناني ، فإن هذا اللون من الجدل المنطقي لم يظهر إلا في أواخر العصر الأموي حين ظهرت طائفة المنكلمين وأصحاب المذاهب الإسلامية المتأثرة بالفلسفة اليونانية . أما في صدر الإسلام فكان عماد المتناظرين على نصوص القرآن الكريم في المرتبة الأولى ، وربما رجعوا أحياناً إلى الحديث النبوي . ولم تكن جميع الطوائف متفقة في فهم الآيات القرآنية وتأويلها فكان هذا من دواعي اختلافهم أيضاً وافتراقهم إلى مذاهب وفرق . فكانت هذه الفرق كثيراً ما تتناظر في شئون

---

(١) صحيح مسلم كتاب الجمعة الحديث ٤٧ .

(٢) مسند بن حنبل ٢ /٣٤٣ز

(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة ٢ /٢٣١ .

السياسة والدين . من ذلك مثلاً المناظرات التي قامت بين علي وأنصاره من جانب وبين الخوارج من جانب آخر ، وكانت مسألة التحكيم نقطة الخلاف في هذه المناظرات ، وقد ناظر الخوارج علي وابن عباس في شأنها أكثر من مرة واستطاعا إفحامهم بمنطقهما وحججهما[1] .

٦ ـ الخطب السياسية :

أصبح للعرب في هذا العصر دولة منظمة دينها الإسلام ودستورها القرآن ، تخضع لحاكم واحد يسوس أمورها ويصرف شئونها ويشرع لها النظم ويبعث الولاة والعمال إلى الأمصار ، وكان هذا الحاكم يستهل حكمه بخطبة يوضح فيها الخطة التي سينتهجها في سياسة أمور الرعية ، وكذلك كان يصنع الولاة في أمصارهم . فكانت هذه الخطب الصورة الأولى للخطابة السياسية عند العرب .

وحين اختلف المسلمون إثر وفاة الرسول عليه السلام حول الخلافة : كيف تكون ولمن تكون ، نشطت الخطابة السياسية ، وكانت خطب السقيفة باكورة الخطب السياسية التي تتعرض لشئون الحكم والخلافة وولاية أمور المسلمين ، ثم كثرت هذه الخطب حين ظهرت حركة الردة وبعد مقتل عمر ثم حين افترقت كلمة المسلمين إبان عهدي عثمان وعلي ، وانقسموا أحزاباً وطوائف يدعى كل منها أنه صاحب الحق بالخلافة ، وكانت المعاني السياسية تختلط في هذه الخطب بالمعاني الدينية لشدة ارتباط السياسة بالدين عصرئذ . وعلى الإجمال كان الطابع الديني في خطب صدر الإسلام هو الغالب ثم انعكس الأمر في العصر الأموي فغلب على الخطابة فيه الطابع السياسي .

٧ ـ الوصايا :

من ألوان الخطابة في هذا العصر الوصايا التي كان الآباء يوصون بها

(١) نجد أمثلة لهذه المناظرات في تاريخ الطبري ٤/٥٢ .

أبناءهم قبيل وفاتهم وما كان يوصي به الخلفاء والولاة رعيتهم أو من يلون الأمر بعدهم ، وما كانوا يوصون به قادة الجيوش حين يوجهونهم إلى قتال عدو . وكان عمر بن الخطاب يعني بإطالة وصاياه ومن أشهرها وصيته للخليفة من بعده ، ووصية أبي بكر لخالد بن الوليد نموذج للوصايا الحربية ، ومنها يقول : « سِر على بركة الله ، فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً عن الحملة ، فإني لا آمنُ عليك الجولة ، واستظهر بالزاد ، وسِر بالأدلّاء ، ولا تقاتل بمجروح ، فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البَيات فإن في العرب غِرّة ، وأقلِل من الكلام فإنما لك ما وعي عنك ، واقبل من الناس علانيتهم ، وكِلهم إلى الله في سرائرهم ، وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه[1] » .

* * *

(١) العقد الفريد ١/١٥٢.

خصائص الخطابة في صدر الإسلام

في هذا العصر نستطيع أن نطمئن إلى صحة جل الخطب التي انتهت إلينا ، وعلى الرغم من الشك الذي أحاط بما روي لعلي بن أبي طالب من خطب في كتاب « نهج البلاغة » فإن بوسعنا اختيار طائفة من خطب الإمام تكون بعيدة عن مظان الشبهات ، ونصوص الخطب المقولة في صدر الإسلام تعطينا صورة واضحة عن الخطابة في هذا العصر وتتيح لنا استخلاص خصائصها ومميزاتها .

وأول ما نلاحظه أن خصائص الخطابة في صدر الإسلام ليست كلها وليدة العصر الإسلامي ، ولا شك أن كثيراً من سمات الخطابة الجاهلية ظل بارزاً في الخطابة الإسلامية ، والظواهر الأدبية بطيئة التطور ، وقد لا ترتبط زمنيًّا بالأحداث السياسية والدينية وغيرها ، ولا بد من انقضاء وقت ما قبل أن يتاح للظواهر الأدبية التلاؤم مع الأوضاع الطارئة التي كثيراً ما تحمل طابع المفاجأة . على أننا نجد النثر مع ذلك ، أسرع تطوراً من الشعر وأكثر استجابة للمؤثرات .

فكذلك نجد خطباء العصر الإسلامي يؤثرون ، شأن خطباء العصر الجاهلي ، الإيجاز وقصر الفقرات وجزالة اللفظ وفصاحة العبارة ، ويميلون

إلى إيراد الحكم وضرب الأمثال والتمثل بالشعر ، ويجرون مع الطبع والفطرة ويكرهون التكلف وتزويق الكلام . بل إن كثيراً من عادات الخطباء في الجاهلية ظل سائداً في هذا العصر كاعتجار العمامة والوقوف على نشز ـ أو على منبر في هذا العصر ـ والإتكاء على عصا أو سيف أو قوس ، وما زالوا يستهلون خطبهم بقولهم « أما بعد » .

وحسبنا هنا أن نشير إلى ما طرأ على الخطابة من تطور في خصائصها وما نجد فيها من مميزات مستحدثة كانت ثمرة الأحداث الهامة التي ألمت ببيئة الخطابة في هذا العصر .

١ ـ مالت الخطب في هذا العصر إلى الطول أحياناً ، ولا سيما الخطب السياسية ، وإن ظل الطابع الغالب هو قصر الخطب ، وقد روي عن الرسول عليه السلام الأمر بتقصير خطب الجمعة . وجاء في وصية أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان حين وجهه لفتح الشام : « إذا وعظت جندك فأوجز ، فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً »[١] . إلا أن ما وقع بين المسلمين من اختلاف مذهبي وسياسي أوجب على الخطيب الإطالة إيضاحاً لفكرته ودفاعاً عن مذهبه وتفنيداً لأقوال خصومه . ومن الخطب الطويلة خطبة الوداع ، وخطبة عمر في أرض سواد العراق ، وطائفة من خطب عليّ .

٢ ـ ظهر في الخطابة الطابع الإسلامي فأصبح من تقاليدها أن تستهل بحمد الله وتستفتح بالتمجيد وإلا سميت « بتراء » ، وأن توشح بآيات من القرآن الكريم وتزين بالصلاة على النبي وإلا سميت « شوهاء »[٢] . وفي خطب الجمعة تقترن الحمدلة بالشهادة وإلا كانت « جذماء » . وكان الخطباء يختمون خطبتهم بنحو ما يستهلونها به من التحميد أو الدعاء كقول عمر في نهاية خطبة له : « فاحمَدوه ، عبادَ الله ، على نعمِه ، واشكروه على آلائه ،

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢/١٩٦ .

(٢) البيان والتبيين ٢/٦.

جعلنا الله وإياكم من الشاكرين »[٣] . وروي ابن عبد ربه أنه كان آخر دعاء أبي بكر الذي إذا تكلم به عرف أنه قد فرغ من خطبة الجمعة : « اللهم اجعل خير زماني آخره ، وخيرَ عملي خواتمه ، وخير أيامي يوم لقائك » وكان آخر دعاء عمر إذا فرغ من خطبته : « اللهم لا تدعني في غمرة ، ولا تأخذني في غِرّة ، ولا تجعلني مع الغافلين »[٤] .

٣ ـ ومنذ أن نزل القرآن الكريم وأعجز العرب ببلاغته أصبح معيناً للأدباء ينهلون منه ويقتبسون ، ويسعون إلى محاكاة أسلوبه . وكان أثره في النثر أبرز منه في الشعر . فكذلك نجد أثره في خطابة هذا العصر واضحاً قويًا ، سواء من حيث الأسلوب والصياغة ، أو من حيث الأفكار والمعاني ، أو من حيث الصور والأخيلة . هذا فضلاً عن إيراد آيات منه ، وتوشيح الخطبة بها . وقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين أنهم « كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل ، وفي الكلام يوم الجمع ، آي من القرآن ، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وحسن الموقع »[٥] . وتبعاً لهذا أصبح الذين لا يتحلون بالثقافة القرآنية في هذا العصر عاجزين عن إجادة الخطابة ، وقد أشار الجاحظ إلى عجز الأعراب الجفاة الذين لم يتفقهوا في الدين عن إجادة الخطابة[١] .

وعلى الجملة أضفى القرآن والإسلام على الخطابة روحاً إسلامية تباين الروح الجاهلية التي كانت تتسم بها قبل الإسلام ، ونستشف هذه الروح مثلاً في هذا المقطع من خطبة لأبي بكر : « إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أُريد به وجهه ، فأريدُوا الله بأعمالكم ، واعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعةٌ أتيتموها ، وحظٌّ ظفِرتم به ، وضرائب أدّيتموها ، وبسلف

---

(٣) العقد الفريد ٣٤/٦ .

(٤) المصدر السابق ٢٢٢/٣ .

(٥) البيان والتبيين ١٢١٨/١ .

(١) المصدر السابق ٢٣٦/٢ .

قدمتموه ، من أيام فانية لأخرى باقية ، لحين فقركم وحاجتكم . اعتبروا ، عباد الله ، بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم ، أين كانوا أمس ، وأين هم اليوم ، أين الجبارون ، أين الذين كان لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن الحروب ، قد تضعضع بهم الدهر وصاروا رميماً ، قد تركت عليهم القالات ، الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات »[٢] .

٤ ـ وكما لاحظنا ظهور أثر الصنعة في الخطابة الجاهلية نلاحظ مثل هذا الأثر في الخطابة الإسلامية ، فقد كان الخطباء في هذا العصر يحرصون في أكثر الأحيان على تزوير خطبهم وتحبيرها لتأتي خطبهم في صورة يرضون عنها ، دون جنوح إلى التكلف الممقوت . وكان للرسول عليه السلام ذوق خاص في اختيار ألفاظه وجمله ، وكان ربما لفت نظر القوم إلى التدقيق في اختيار الألفاظ ، ويدل على ذلك الحديث المروي عنه : « لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل لقست نفسي »[٣] . وكانت أحاديث الرسول تشهد بعنايته بتخير ألفاظه وصياغة عباراته ، وبأن يكون كلامه حسن الموقع ، عذب الإيقاع ، وقد شهد له البلغاء ، بروعة البيان وقوة الأداء . من ذلك ما قاله الجاحظ من أنه عليه السلام قد « استعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ، ورغب عن الهجين السوقي ، إلخ . . . »[٤] .

وكذلك كان خلفاء الرسول والخطباء في هذا العصر يعدون في غالب الأحيان خطبهم قبل إلقائها توخياً لإجادتها ، وخشية الحصر والرتج . روى الطبري في حديث السقيفة عن عمر قوله : « أتيناهم وقد كنت زَوَّيتُ كلاماً أردت أن أقوم به فيهم . . . »[١] . وروي أن عثمان صعد المنبر يوماً ليخطب

(٢) تاريخ الطبري ٢

(٣) صحيح مسلم ٤٧/٧.

(٤) البيان والتبيين ١٧/٢.

(١) تاريخ الطبري ٤٥٦/٢ وزوي الكلام : هيأه في نفسه.

فأرتج عليه فقال : « إن أبا بكر وعمر كانا يُعدَّان لهذا المقام مقالاً ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب »[1] وحين أرادوا عبد الله بن وهب الراسي على الكلام يوم عقدت له الخوارج لواء الرياسة قال : « ما أنا والرأيُ الفطير ، والكلامُ القضيب » .

فلم يكن الخطباء إذن يرسلون الكلام على عواهنه ، ولم يكن اعتلاء المنابر أمراً ميسوراً يقدم عليه من شاء ، وما أكثر من اعتراه الحصر والعي والبهر وتصبب العرق منه حين تصدى للخطابة ، وقد مضى كلام عمر في المشقة التي كان يلقاها في خطب النكاح .

فقد كان الخطباء إذن يتهيبون اعتلاء المنابر ، وكان هذا يحملهم على إعداد خطبهم ، وعلى تزوير الكلام وتحبيره ، وكان يدعوهم إلى هذا أيضاً رغبتهم في إجادة الكلام وتخير اللفظ والتأنق في التعبير ، والتماس أنجع السبل إلى التأثير في الجماهير ، وكانت صنعتهم بسيطة مقبولة ليست كصنعة العباسيين المعقدة الواضحة التكلف .

على أن من الخطباء من كان يحمل على الإرتجال أحياناً ، وكانت الفصاحة الفطرية في العرب تجعلهم يقدمون على الخطابة ابتداهاً في كثير من الأحيان دون حاجة إلى تزوير الكلام . وحين سأل معاوية أم الخير بنت الحَريش أن تروي له كلامها يوم مقتل عمار بن ياسر أجابته : « لم أكن والله زوّرته قبل ، ولا رويته بعد ، وإنما كانت كلمات نفثها لساني عند الصدمة ، فإن أحببتَ أن أحدث لك مقالاً غير ذلك فعلت »[3] .

٥ ـ وكذلك من مظاهر العناية بالصنعة في خطب هذا العصر وجود السجع في طائفة منها ، ولكنه لم يكن غالباً عليها ، وكان في خطب

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ٢٥٠ .

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٠٥

(٣) العقد الفريد ٢/ ١١٦ .

الإسلاميين أقل منه في خطب الجاهليين . وربما كان مرد ذلك إلى نهي الرسول عليه السلام عن تكلف السجع المحاكي لسجع الكهان في الجاهلية . وقد علل الجاحظ هذا النهي بقوله : « وكان الذي كره الأسجاع بعينها ، وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة ، أن كهان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون إليهم وكانوا يدعون الكهانة . . . كانوا يتكهنون ويحكمون بالاسجاع . . . فوقع النهي في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية ، ولبقيتها في صدر كثير منهم ، فلما زالت العلة ، زال التحريم »[1] . ولهذا وجدنا خلفاء الرسول والبلغاء يكرهون تكلف السجع . وقد روي عن عمر إنكاره السجع على صُحار العبدي حين وصف له بلاد مكران بقوله : « أرضٌ سهلُها جبل ، وماؤ ها وشَل ، وثمرها دقَل ، وعدوُها بطل ، وخيرها قليل ، وشرها طويل إلخ . . . » فقال له عمر : أسجّاعٌ أنت أم مُخبر[2] .

ومما صرف الخطباء أيضاً عن السجع في هذا العصر أنه كان لديهم زاد وافر من الأفكار الجديدة ، فكانوا إذا خطبوا صرفوا همهم إلى إيضاح هذه الأفكار ، فلم يحفلوا بالسجع ، وإن لم يهملوا العناية بالأسلوب . وهذا كله يحمل على الشك في طائفة من خطب عليّ ظهر فيها تكلف السجع فضلاً عن تكلف ألوان أخرى من الصنعة البديعية ، وهي ألوان لم تعرف طريقها إلى النثر العربي إلا مع العصر العباسي ، ولا سيما منذ القرن الرابع الهجري .

ومع ذلك لم تخل بعض خطب هذا العصر من السجع ، وهي التي كانت تلقي أمام الخلفاء ، وقد ذكر الجاحظ أن الخطباء كانوا يتكلمون عند الخلفاء الراشدين ، فيكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة فلا ينهونهم[3] .

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٨٩

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٢٥٧ .

(٣) البيان والتبيين ١/ ٢٩٠ .

ورأى أبو هلال العسكري أن السجع الممقوت هو المتكلف وأن الكراهية وقعت على السجع المماثل لسجع الكهان فحسب لا على السجع مطلقاً ، وقد جرى عليه كثير من كلامه عليه السلام . ثم استشهد بطائفة من الأحاديث المسجوعة المروية عن الرسول وأشار إلى أنه عليه السلام كان ربما غير الكلمة عن وجهها للموازنة بين الألفاظ كقوله : « أُعيذُه من الهامّة والسامّة ، وكل عين لامّة » وإنما أراد ملِمّة[٤] . ومثل هذا الدفاع عن السجع نجده عند ابن الأثير في المثل السائر وقد اتهم المتحاملين على السجع بعجزهم عن الإتيان به[١] .

والذي نلاحظه أن ما كان يقال في مجالس الخلفاء والولاة من العبارات القصيرة كان يحرص فيه على السجع تزييناً له ، نجد هذا السجع مثلاً في كلام صنعصعة بن صُوحان عند معاوية حين أوفده إليه عليّ فأراد معاوية أن يختبره فأخذ يسأله عن نسبه فأجابه بكلام مسجوع يفخر فيه بقومه ونسبه وعشيرته[٢] . أما في الخطب ، ولا سيما الطويلة منها ، فالسجع قليل ، وما كانوا يتكلفونه أو يطلبونه لذاته ، والتوازن في خطب هذا العصر أشيع منه . وأكثر ما نجد السجع والتوازن في خطب علي ، كقوله من خطبة له : « الحمد لله غيرَ مقنُوطٍ من رحمته ، ولا مخْلُوٍّ من نعمته ، ولا مأيوسٍ من مغفرته ، ولا مستنكف عن عبادته ، الذي لا تبرح منه رحمة ، ولا تُفْقَدُ له نِعمة ، والدنيا دار مُنى لها الفناء ، ولأهلها منها الجلاء . . . »[٣] .

٦ ـ وقد ظهرت في أسلوب الخطابة الإسلامية السمات التي يتميز بها الأسلوب الخطابي عامة والناجمة عن قوة العاطفة وشدة إيمان الخطيب بما يقول وحرصه على إقناع المخاطبين برأيه واستمالتهم إليه وتقرير الفكرة في

---

(٤) كتاب الصناعتين للعسكري ص ٢٦١ .
(١) المثل السائر لابن الأثير ١/١١٤ .
(٢) أمالي القالي ٢/٢٣٠
(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد مجلد ١/٢٧٢ .

نفوسهم ، كاللجوء إلى أساليب التوكيد المختلفة من تكرار وقسم واستعانة بأدوات التوكيد . نجد مثلاً في خطبة الوداع تكرار عبارة « ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد » . ومن أمثلة الأسلوب التوكيدي قول الحباب بن المنذر في خطبته يوم السقيفة : « أما والله لئن شئتم لنعيدنَّها جذعة » ، وقول عليّ في خطبة له يستنفر بها قومه لقتال معاوية : « أما والله لئن ظهروا عليكم بعدي لتجدُنّهم أرباب سوء ، كأنهم والله قد شاركوكم في بلادكم إلخ . . » .

ومن هذه السمات أيضاً الجنوح إلى الأسلوب الإنشائي المعتمد على الإستفهام والتعجب والدعاء ونحو ذلك ، ومثال هذا الأسلوب قول علي من خطبة له :

« أيَّ دارٍ بعد داركم تمنَعون ، ومع أيِّ إمامٍ بعدي تقاتلون . ما بالُكم ؟ ما دواؤكم ؟ ما طِبُّكم ؟ ألقوم رجال أمثالكم ؟ أقوالاً بغير علم ، وغفلة من غير ورع ، وطمعاً في غير حق »(٤) .

٧ ـ من حيث الأفكار ثمة فارق جلي بين الخطابة الجاهلية وخطابة هذا العصر ، فإن الإسلام قد وجه الفكر العربي وجهة جديدة وأوجد له مثلاً وقيماً ومفاهيم جديدة تغاير ما عرف في العصر الجاهلي ، كما أوجد له آفاقاً رحبة ينطلق فيها وحثه على طلب المعرفة ، ولما قامت الفتوح الإسلامية اتصل العرب بأمم أخرى لها حضارتها وثقافتها فاتسعت آفاقهم وخصبت معارفهم . فلا غرو أن وجدنا الناحية الفكرية في الخطابة الإسلامية أغنى وأخصب منها في خطابة الجاهليين ، ومع هذا الغني نلمس شيئاً من الدقة والتسلسل في إيراد الأفكار ، والعناية بإيراد الحجج والأدلة وتفنيد أقوال الخصوم . وكانت خطابة هذا العصر ميداناً للأفكار الإسلامية والمعاني الدينية حتى كاد الطابع الديني يغلب عليها ويستأثر بها ، إلا أنها أفسحت صدرها ، إلى جانب ذلك ، للأفكار السياسية والإجتماعية التي كانت صدى لما حفل به العصر

(٤) نهج البلاغة ١ / ٣٩.

الإسلامي من أحداث وفتن وفتوح واحتكاك مباشر بسكان البلاد المفتوحة ، والتي كانت كذلك ثمرة التطور السياسي والإجتماعي الذي ألم بحياة العرب في هذا العصر .

أما ما نجده في بعض خطب هذا العصر من جدل ونزوع إلى استخدام المنطق بمعناه البسيط من حيث ترتيب المقدمات واستخلاص النتائج ، فقد كان وليد التطور الفكري الذي اقتضته الحياة الجديدة ، وأخذ العرب بأسباب الحضارة شيئاً فشيئاً ، واختلافهم بصدد الخلافة ومحاولة كل فريق الإستدلال على أنه أحق بها من سواه ، وتأثر المسلمين بالأسلوب القرآني الذي كان يلجأ أحياناً إلى البرهنة العقلية والإستدلال المنطقي . ومثال هذا الإتجاه الجدلي خطبة معاوية التي أجاب بها الوفد الذي أرسله إليه عليّ يدعوه لمبايعته قال :

« أما بعد ، فإنكم دعوتُم إلى الطاعة والجماعة . فأما الجماعة التي دعوتم إليها فمعنا هي ، وأما الطاعة لصاحبكم فإنّا لا نراها . إن صاحبكم قتل خليفتنا ، وفرّق جماعتنا ، وآوى ثأرنا وقتلتنا . وصاحبكم يزعمُ أنه لم يقتله : فنحن لا نرد ذلك عليه ، أرأيتم قتلة صاحبنا ، ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبِكم . فليدفَعْهم إلينا فلنقتلْهُم به ، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة »[1] .

منزلة الخطيب الإسلامي

ارتقت منزلة الخطيب في هذا العصر تبعاً لارتقاء منزلة الخطابة فيه ، ولاحتياج الفرق المتنازعة إلى خطباء يدعون إلى آرائها ويدحضون أقوال خصومها . ولعل حياة العرب القبلية في العصر الجاهلي كانت تجعل حاجتهم إلى الشاعر تفوق حاجتهم إلى الخطيب . أما في هذا العصر فقد كانت الحاجة إلى الخطابة تعدل أو تفوق الحاجة إلى الشعر ، لاحتياج القوم

(١) تاريخ الطبري ٣/٤.

إلى الجدل والإقناع العقلي وإيراد الأدلة والبراهين والخطابة هي التي تصلح لهذه الأمور وتضطلع بها . وهذا يفسر لنا كثرة عدد الخطباء في هذا العصر وعلو منزلتهم ، وكثيراً ما كانت براعة الخطيب سبباً في قيام فتنة أو استمالة جماعة أو إطفاء نار الحرب . نعلم مثلاً ما كان من شأن الخطابة إبان الإختلاف بين عليّ وبين معاوية ، وبين عليّ وبين الخوارج . وقد ظهر في شيعة عليّ خطيبات مفوهات كان لهن شأن كبير في تحريض أنصاره على القتال وفي إذكاء وقد الحماسة في نفوسهم ، يشهد على ذلك قول معاوية مخاطباً عكرشة بنت الأطرش وقد دخلت عليه بعد أن صارت الخلافة إليه : « فكأني أراك على عصاك هذه ، وقد انكفأ عليك العسكران ، يقولون : هذه عكرشة بنتُ الأطرش بن رَواحة فإنْ كِدتِ لتفلّين أهلَ الشأم لولا قدرُ الله »[1] . وبقوة المنطق وبراعة البيان استطاع عليّ وابن عباس إقناع الخوارج بخطئهم حين خرجوا على عليّ في أول أمرهم فعادوا إلى الكوفة . ومجالس المناظرة بين شيعة عليّ وأنصار معاوية كانت ميداناً يتبارى فيه الخطباء ويبرهنون على مقدرتهم البيانية وبراعتهم الخطابية . وكان لا بد للخليفة والوالي القائد من أن يكون خطيباً مفوهاً وإلا طعن في كفاءته لتولي الأمر ، كل هذا يدل على علو مكانة الخطيب وعظم شأنه في هذا العصر .

* * *

---

(١) العقد الفريد ٢/١١١.

أشهر الخطباء في هذا العصر

كثر عدد الخطباء في هذا العصر كثرة ملحوظة وفي مقدمتهم محمد عليه السلام ، وقد أفاض البلغاء في الإشادة ببلاغته وفصاحته وجعلوا كلامه بعد كلام الله عز وجل . وكان الخلفاء الراشدون : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، كلهم خطباء مفوهين وكان علي أخطبهم وقد وصف كلامه بأنه « دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق » . ومن الخطباء الذين كان يستعين بهم الرسول ثابت بن قيس بن الشمَّاس الأنصاري ،وهو الذي رد على خطيب وفد تميم عطارد بن حاجب بن زُرارة ، وذكر الجاحظ أنه كان خطيب رسول الله ﷺ لا يدفع ذلك أحد[1] . ومن خطباء الأنصار أيضاً سعد بن الربيع ، وهو الذي اعترضت ابنته النبي عليه السلام فسألها : من أنت ؟ فأجابت : ابنة الخطيب النقيب الشهيد سعد بن الربيع[2] . ومنهم أيضاً سعد بن عبادة سيد الخزرج، والحباب بن المنذر خطيب يوم السقيفة ، وبشر بن عمرو بن محْصَن وهو أبو عمرة الخطيب ، وبشير ابن سعد وهو أبو النعمان بن بشير ، وكان ممن انحازوا إلى رأي المهاجرين يوم السقيفة[3] . ومن

(١) البيان والتبيين ١/٢٠١.

(٢) المصدر السابق ١/٣٦٠

(٣) تاريخ الطبري ٢/٥٤٤.

الخطباء الذين وفدوا على الرسول عليه السلام طهفة بن أبي زهير النهدي وظبيان بن حدادِ ، وقد وفد على الرسول في سراة مذحج وخطب عنده خطبة طويلة[1] .

واشتهر بالخطابة عدد من أصحاب الرسول منهم عبد الرحمن بن عوف ، والزبير ابن العوام وابنه عبد الله ، وعبد الله بن مسعود ، وطلحة بن عبيد الله . وكانت عائشة زوج الرسول خطيبة مجيدة .

واشتهر من قواد الجيش والمقاتلين خالد بن الوليد ، والنعمان بن مُقرّن ، والمغيرة بن زرارة والمغيرة بن شُعبة ، وعُتبة بن غَزوان ، ورِبْعي بن عامر ، وسعد بن أبي وقاص .

وكان في شيعة عليّ عدد جم من الخطباء منهم عبد الله بن عباس ، والأشتر النخعي ، وعمّار بن ياسر ، وعديّ بن حاتم الطائي ، وبشير بن عمرو ، ويزيد بن قيس الأرحبي ، وهاشم بن عتُبة بن أبي وقاص ، والقَعقاع بن عمرو ، وزُمر بن زيد سيد بني أسد ، وجَرير بن عبد الله البَجَليّ ، وعبد الله بن بديل بن ورَقاء الخُزاعي ، وعمرو بن الحَمِق ، والأشعث بن قيس . ومن أنصاره بنو صوُحان : صعصعة ، وسَيحان ، وزيد ، وصعصعة أشهرهم ، وقد أوفده علي إلى معاوية وأعجب هذا بفصاحته وحضور بديهته فقال فيه : « لشيء ما سوده قومه ، وددتُ أني من صلبه»[2] . وكان في جماعته خطيبات مبينات منهن عكاشة بنت الأطرش ، وأم الخير بنت الحَرِيش ، والزرقاء بنت عديّ .

وممن كان ينصر معاوية وبني أمية من الخطباء عمرو بن العاص السهمي ، ومنهم سعيدُ بن العاص بن سعيد ، وحبيب بن مسلمة الفِهري ، وذو الكَلاع الحِميري ، وهو ممن حرّض على قتال علي[3] ، ويزيد بن أسد

(١) العقد الفريد ٢ / ٣٦.
(٢) صبح الأعشى ١ / ٢٥٤.
(٣) شرح ابن أبي الحديد ١ / ٤٨٤.

البجلي وكان يحرض أهل الشام على القتال يوم صفين .

من خطباء الخوارج في هذه الحقبة عبد الله بن وَهب الراسبي ، وابن الكوّاء ، وشريح بن أوفي العبسي ، والحُرقوص بن زهير ، وزيد بن حصين الطائي .

ومن الخطباء الوعاظ مُسلم بن جنْدُبَ قاضي مسجد النبي ، وأبو موسى الأشعري .

وكان لقبيلة عبد القيس ـ وهي من ربيعة ـ شهرة في الخطابة وفي كثرة عدد الخطباء[3] ، وكان منهم آل صوحان الذين ذكرتهم في جماعة علي ، ومنهم صُحار بن عيّاش العبدي ، وكان من شيعة عثمان ، وهو الذي سأله معاوية عما عرف به قومه من فصاحة ولسن فأجاب : « شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا » . ومنهم آل رقبة الذين نبغ فيهم خطباء مفوهون في عصر بني أمية .

وكان ينافس قبيلة عبد القيس في الشهرة الخطابية قبيلة تميم وكان من خطبائها المشهورين في هذا العصر عَمرو بن الأهتم ، وهو من مخضرمي الجاهلية والإسلام ، وكان يدعى المكحّل لجماله ، وكان من الشعراء الممتازين فضلا عن براعته الخطابية وقد شبه شعره بالحلل المنشرة ، ويقول الجاحظ إنه لم يكن في بادية العرب في زمانه أخطب منه[1] ؛ وهو الذي قال الرسول حين سمع كلامه : « إن من البيان لسحراً »[2] . ومنهم عطارد بن حاجب بن زرارة ، وكان خطيب بني تميم حين وفدت على الرسول في السنة التاسعة للهجرة[3] .

---

(٣) البيان ١/٩٧.

(١) البيان والتبيين ١/٣٥١.

(٢) البيان ١/٥٣.

(٣) الطبري ٢/٣٧٨.

خُطبة الوداع

خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس : إسمعوا قولي أبين لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا .

أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد . فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب[١] ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية[٢] ، والعمد قود[٣] ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ، ولكنه

---

(١) كان عامر مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل .

(٢) المآثر : جمع مأثرة ـ بفتح الثاء وضمها ـ وهي المفخرة الموروثة عن الآباء . والسدانة ـ بفتح الأول ـ خدمة الكعبة ، والسقاية : سقي الحجيج الماء .

(٣) القود ـ بفتح الواو ـ القصاص .

رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

وبعد أن تحدث عن النسيء والأشهر الحرم قال :

أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقاً ، وإن لكم عليهن حقاً ، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن[١] وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان[٢] لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة ولا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، فلا ترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده ـ كتاب الله ـ ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم ، قال : فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

أيها الناس : إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، ولا تجوز لوارث وصية في أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر[١] ، من دعي إلى غير أبيه ، أو انتسب إلى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً[٢] ، والسلام عليكم ورحمة الله .

(١) العضل : التضييق والشدة .
(٢) عوان : جمع عانية وهي الأسيرة ، والكلام على التشبيه .
(١) العاهر من النساء : الفاجرة الزانية ـ والمعنى أن الولد ينسب إلى زوج المرأة ما دامت قد حملت به وهي في فراشه . فإن ثبت زناها رجمت بالحجارة حتى تموت .
(٢) الصرف : التوبة والاحتيال . والعدل : الإستقامة واتباع الحق .

أبو بكر الصديق

يخطب في يوم السقيفة[٣] فيقول :

أيها الناس : نحن المهاجرون وأول الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً[٤] ، وأحسنهم وجوهاً[٥] وأكثر الناس ولادة في العرب ، وأمسهم رحماً برسول الله ﷺ ، أسلمنا قبلكم ، وقدمنا في القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار . والذين اتبعوهم بإحسان** ﴾ فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، إخواننا في الدين ، وشركاؤنا في الفيء وأنصارنا على العدو ، آويتم وواسيتم ، فجزاكم الله خيراً ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش ، فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله .

الفاروق

يخطب وقد بايعه الناس الخلافة فيقول :

أيها الناس : إني داع فأمنوا ، اللهم إني غليظ فليني لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقني الغلظة والشدة على أعدائك ، وأهل الدعارة والنفاق[١] ، من غير ظلم مني لهم ، ولا اعتداء عليهم ، اللهم إني شحيح فسخني[٢] ، في نوائب المعروف ، قصداً من غير

---

(٣) السقيفة : المكان المظلل بسقف . والمراد سقيفة بني ساعدة بالمدينة وقد اجتمع فيها المسلمون بعد وفاة الرسول لاختيار خليفته : وكادت الفتنة تندلع بين المهاجرين والأنصار فاطفأها أبو بكر بحكمته .

(٤) أوسطهم داراً : خيرهم وأفضلهم .

(٥) وأحسنهم وجوها : ليس المراد بحسن الوجوه جمالها ، وإنما ذلك كناية عن السماحة والبشر والانطلاق وحسن استقبال الناس ومعاملتهم .

(١) الدعر ـ بالتحريك ـ والدعارة : الفساد والفسق والخبث .

(٢) السخاء : الجود والسماحة . وسخني : اجعلني جواداً سمحاً .

سرف ولا تبذير . ولا رياء ولا سمعة . واجعلني أبتغي بذلك وجهك والدار الآخرة ، اللهم ارزقني خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين ، اللهم إني كثير الغفلة والنسيان فألهمني ذكرك على كل حال ، وذكر الموت في كل حين ، اللهم إني ضعيف عن العمل بطاعتك فارزقني النشاط فيها . والقوة عليها بالنية الحسنة التي لا تكون إلا بعزتك وتوفيقك ، اللهم ثبتني باليقين والبر والتقوى ، وذكر المقام بين يديك والحياء منك ، وارزقني الخشوع فيما يرضيك عني ، والمحاسبة لنفسي ، واجتناب السيئات ، والحذر من الشبهات . اللهم ارزقني التفكير والتدبر لما يتلوه لساني من كتابك ، والفهم له ، والمعرفة بمعانيه ، والنظر في عجائبه ، والعمل بذلك ما بقيت إنك على كل شيء قدير .

عثمان بن عفان

يخطب في الناس حين ظهرت بوادر الثورة على سياسته . قال :

إن لكل شيء آفة(١) ، وإن لكل نعمة عاهة ، وإن آفة هذه الأمة ، وعاهة هذه النعمة ، عيابون ظنانون ، يظهرون لكم ما تحبون ، ويسرون ما تكرهون ، يقولون لكم وتقولون ، طغام مثل النعام(٢) ، يتبعون أول ناعق ، أحب مواردهم إليهم النازح(٣) . لقد أقررتم لابن الخطاب بأكثر مما نقمتم علي ، ولكن وقمكم وقمعكم(٤) ، وزجركم رجز النعام المخزمة(٥) ، والله : إني لأقرب ناصراً ، وأعز نفراً ، وأقمن إذا قلت : هلم : أن تجاب دعوتي

---

(١) الآفة : العيب والمرض .

(٢) الطغام ـ كسحاب ـ أوغاد الناس وسفلتهم .

(٣) نزحت البئر : نفد ماؤها أو قل ، والمعنى : أنهم يتهافتون على التافة الحقير ، ويتركون العظائم والمعالي .

(٤) وقمه ـ كوعده ـ قهره وأذله ورده أقبح الرد . وقمعه : ضربه بالمقمعة ـ كمكنسة ـ وهي عود من حديد يضرب به رأس الفيل . وخشبة يضرب به الإنسان على رأسه .

(٥) خزم البعير : ثقب جانب أنفه وجعل فيه حبلاً يقاد منه ويذلل ، وخزمه : ـ بالتشديد ـ كذلك ، والنعام مخزمة لأن وترات أنوافها مثقوبة .

من عمر[1] ، هل تفقدون من حقوقكم شيئاً ؟ فمالي لا أفعل في الحق ما أشاء ؟ إذن فلم كنت إماماً ؟

علي بن أبي طالب

يخطب الناس في يوم من أيام صفين ، قال :

معاشر المسلمين : استشعروا الخشية ، وتجلببوا السكينة[2] ، وعضوا على النواجذ[3] ، فإنه أنبى للسيوف عن الهام[4] ، وأكملوا اللأمة[5] ، وقلقلوا السيوف في أغمادها قبل سلها[6] ، والحظوا الخزر[7] ، واطعنوا الشزر[8] ، ونافحوا بالظبا[1] ، وصلوا السيوف بالخطا[2] ، واعلموا أنكم بعين الله[3] ، ومع ابن عم رسول الله ﷺ ، فعاودوا الكر[4] ، واستحيوا من الفر[5] . فإنه عار في الأعقاب ، ونار يوم الحساب ، وطيبوا عن أنفسكم نفساً ، وامشوا إلى الموت مشياً سجحاً[6] ، وعليكم بهذا السواد

(١) أقمن : أخلق وأجدر . وهلم : اسم فعل بمعنى تعال ، وهي مركبة في الأصل من ها التنبيه ولم يمعنى ضم ، أي ضم نفسك إلينا .

(٢) تجلببوا : لبسوا الجلباب ، وتجلببوا السكينة : لزموها وتحلوا بها .

(٣) النواجذ : الأضراس ، أو أقصاها ، أو الأنياب ، واحدها ناجذ . وعض على ناجذه : كناية عن الحكمة والتعقل .

(٤) نبا السيف : كل ولم يصب . والهام : جمع هامة وهي الرأس .

(٥) اللأمة : الدرع . والمراد هنا عدة الحرب .

(٦) غمد السيف : جفنه . وسل السيف : نزعه من غمده .

(٧) الخزر : النظر . ومعنى الحظوا النظر : انظروا بمؤخر العين ، وهو كناية عن شدة اليقظة .

(٨) الشزر : الشدة والغضب ، ومعنى اطعنوا الشزر : اطعنوا بقوة وشدة كما يطعن الغضبان المحنق .

(١) نافحوا : كافحوا وقاتلوا . والظبا ـ كهدى ـ جمع ظبة ـ كثبة ـ وهي حد السيف أو السنان أو نحوهما .

(٢) صلوا السيوف بالخطا : أي تقدموا عند الطعن حتى تقاربوا الأعداء فتنالهم سيوفكم .

(٣) بعين الله : أي موضع رعايته وعونه .

(٤) الكر : الهجوم والإقدام .

(٥) الفر : الفرار والرجوع .

(٦) طيبوا عن أنفسكم نفساً : أقدموا مسرورين إذا استشهدتم . وسجحا بضمتين ـ مشياً ليناً سهلاً .

الأعظم[٧] ، والرواق المطنب[٨] ، فأضربوا ثبجة[٩] ، فإن الشيطان كامن في كسره[١٠] ، قد قدم للوثبة يداً ، وأخر للنكوص رجلاً فصمدا صمداً[١١] حتى ينجلي لكم عمود الحق وأنتم الأعلون ، والله معكم ولن يتركم أعمالكم[١٢] .

معاوية بن أبي سفيان

يخطب بالمدينة في عام الجماعة ، قال :

أما بعد : فإني والله ما وليتها[١] بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتي ، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة[٢] . لقد رضت[٣] لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة ، وأردتها[٤] على عمل عمر ، فنفرت من ذلك نفراً شديداً ، وأردتها على سنيات[٥] عثمان فأبت علي ، فسلكت بها طريقاً لي ولكن فيه منفعة ، مؤاكلة حسنة ، ومشاربة جميلة ، فإن لم تجدوني خيركم فإني خير لكم ولاية ، والله : لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك دبر أذني[٦] ، وتحت قدمي ، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فأقبلوا مني بعضه فإن أتاكم

---

(٧) السواد : العدد الكثير . وسواد الناس : عامتهم .
(٨) الرواق ـ بضم أوله وكسره ـ الفسطاط وهو السرداق أو مجتمع الحي من الناس ، والمطنب ـ كمعظم ـ المشدود بالحبال والأوتاد .
(٩) الثبج ـ محركة ـ وسط الشيء ومعظمه .
(١٠) الكسر : جانب البيت والشقة السفلى من الخباء ، وما تكسر وتثنى على الأرض منها .
(١١) الصمد ـ بفتح فسكون ـ الضرب والطعن والقصد والصبر على القتال .
(١٢) وتره عمله ـ كوعده ـ نقصه ما يستحقه عليه من الجزاء .
(١) ما وليتها : يعني الخلافة .
(٢) جالد فلان فلاناً : ضاربه وقاتله ، وأصل المجالدة أن يحاول كل إصابة جلد الآخر .
(٣) رضت نفسي : حاولت ترويضها وتذليلها ، وأصله من راض المهر إذا أراد تذليله وتهذيبه .
(٤) أردتها : حاولت حملها .
(٥) سنيات عثمان ـ بصيغة التصغير : أي السنوات الست الأولى من حكمه ، والتصغير للتعظيم .
(٦) دبر أذني : وراءها ، وهو كناية عن عدم الاهتمام بالقول والمحاسبة عليه .

مني خير فاقبلوه ، فإن السيل إذا جاد أثرى[٧] ، وإن قل أغنى[٨] ، وإياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة ، وتكدر النعمة .

---

(٧) أثرى : نمى المال وجلب الغنى والثراء .
(٨) أغنى : كفي الحاجة وأغنى عن المسألة .

الكتابة في صدر الإسلام

وجاء في كتاب «العصر الاسلامي» للدكتور شوقي ضيف ان الاسلام نّوه بالكتابة وفَضْلها منذ أول آية نزلت على الرسول ﷺ، فقال جَلَّ شأنه: ﴿إقرأ باسم ربِّك الذي خلق، خَلَقَ الإنسان من عَلَقٍ، اقرأ وربُّك الأكرم الذي علَّم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾. ومن تمام هذا التنويه القَسم بالقلم في قوله تعالى: ﴿ن والقلم وما يَسْطرون﴾ وبالكتاب في قوله سبحانه: ﴿والطُّور وكتاب مسطور في رَقٍّ منشور﴾. وتتردَّد في القرآن كلمات اللوح والقرطاس والصحف في مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿بل هو قرآن مجيد في لَوْح محفوظ﴾، وقوله: ﴿قُلْ من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيسَ﴾ وقوله: ﴿رسولٌ من الله يتلو صُحُفاً مطهّرة﴾.

وعمل الرسول عليه السلام جاهداً على نشر الكتابة بين أصحابه، حتى لنراه يجعل فداء بعض أسرى قريش ممن حذقوا الكتابة عشرةً من صبيان المدينة(١)، وقد حَثَّ القرآن على استخدامها في المعاملات، يقول عَزَّ سلطانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تَدَاينتم بدين إلى أجلٍ مسمًّى فاكتبوه وليكتبْ بينكم كاتبٌ بالعدل ولا يأبَ كاتبٌ أن يكتُبَ كما عَلَّمه الله فليكتبْ

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ ق ١ ص ١٤ .

وليُمْلِل الذي عليه الحقُّ﴾ ومن غير شك كانت هي الوسيلة إلى نشر القرآن وتعلمه، فقد كان الصحابة يكتبونه، حتى يتحفَّظوه.

وكان هناك جماعة من الكتَّاب يكتبون آياته ـ كما قدَّمنا ـ بين يدي الرسول من مثل عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وأُبَيّ بن كعب وزيد ابن ثابت. وكان يكتب له في حوائجه خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية ابن أبي سفيان. وكان يكتب ما بين الناس المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير، كما كان يكتب بينهم في قبائلهم ومياههم عبد الله بن الأرقم والعلاء بن عقبة الحَضْرمي. وكان حنظلة بن الربيع يخلف كل كاتب من كتّاب الرسول إذا غاب، فغلب عليه لقبُ الكاتب[1].

ومعنى ذلك كله أن الكتابة أخذت منذ هذا العصر تُسْتَخْدَم على نطاق واسع لا في كتابة القرآن فحسب، بل في كتابة كل ما يهمُّ المسلمين في معاملاتهم وعقودهم. وكان الرسول عليه السلام يستخدمها في جميع مواثيقه وعهوده، وكذلك كان الخلفاء الراشدون من بعده، وتكتظ كتب الحديث والتاريخ والأدب بهذه العهود والموا ثيق، سواء منها ما كان على لسان الرسول وما كان على لسان خلفائه. وقد استطاع محمد حميد الله الحيدر آبادي أن يجمع طائفة ضخمة منها سماها «مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة» وقد قدم لها ببحث عن مقدار الثقة بها، وجمهورُها مما لا يَرْقى إليه الشك. وهي تفتتح بالكتاب الذي كتبه الرسول حين نزل المدينة بين المهاجرين والأنصار واليهود المقيمين بها . ونقف قليلا عند هذا الكتاب لنبين أهمية هذه الوثائق ومدى تطويرها للنثر الكتابي عند العرب، فقد أخذ هذا النثر يحمل تشريع دولة الإسلام الجديدة وما يُطْوَى فيه من تعاليم الدين الحنيف وحدوده وفرائضه. وأول ما يلقانا في هذا الكتاب أن جميع أهل يثرب: «أمة واحدة من دون الناس» وهي امة لا ترتبط بروابط

(١) الوزراء والكتاب للجهشاري (طبعة الحلبي) ص ١٢ .

النسب المعروفة في القبيلة وإنما ترتبط بروابط الدين. وعلى هذه الأمة أن تتعاون ضد كل من يَبْغي عليها منها أو من غيرها، وأن تكفل في داخلها مبادىء السلام كما تكفل حماية الجار ونصرة المظلوم. ومن تبعها من غير دينها له النصرة والأسوة إلا من ظلم وأثم. وهي أمة يعلوها سلطان الله الذي يُرَدُّ إليه وإلى رسوله كل اختلاف وكل حدث أو اشتجار يُخاف شرُّه.

والكتاب بذلك كله يرينا تكوين الجماعة الإسلامية والعلاقات التي تربط بين أفرادها، وهو يوضِّح هذه العلاقات في داخل العشائر كدفع الدِّية والولاء، كما يوضح العلاقات بين أعضاء الجماعة الكبرى التي يُشْرف عليها الله ورسوله، وهي علاقات وثَّقتها روابط الدين توثيقاً شديداً، بحيث أضبح كل ما يدعو إلى اشتجار مردُّه إلى هذا الدستور الديني الجديد، الذي يُلْغي الفوارق القبلية، ويقيم العدل والمساواة، ولا يدع للناس حق الأخذ بالثأر، بل يرده إلى الله ورسوله، فلا ثأر يجر ثأراً بل عقاب عادل بالمثل في القتل وغير القتل.

ونمضي في تلك الوثائق فنقرأ المعاهدة التي كتبها الرسول بينه وبين قريش عام الحُدَيْبية[1] والتي نَصَّت على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، ذمة لا تنكث «وأنه من أحبَّ أن يدخل في عقد محمد وعَهْده دخله ومن أحبّ أن يدخل في عَقْد قريش وعَهْدهم دخَل فيه». ونقرأ بعد ذلك كتابه إلى يهود خيبر ثم قسمة أموالها. وتتوالى كتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والتصديق برسالته، وممن دعاه النجاشي ملك الحبشة وهرقل ملك الروم والمقوقس صاحب مصر. وكما يكتب إلى الملوك يكتب إلى أساقفة الشام وأمرائها وولاة شرقي الجزيرة من قِبل كسرى، وكذلك جنوبيها. وقد يكتب إلى القبائل نفسها. وتلقانا معاهدته مع أهل نجران[2]، وفيها يبيِّن ما

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٣ .

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ص ٨٠ .

عليهم من خراج ثم يقول: «ولنجران وحاشيتها جوارُ الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبَيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير. ولا يُغيَّر أُسقف من أسقفيَّته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته. وليس عليهم دية ولا دم جاهلية. . . ومن سأل منهم حقّاً فبينهم النّصف غير ظالمين ولا مظلومين». وعلى هدى هذا الكتاب كانت كتب أبي بكر وعمر التي كتباها إلى أهل البلاد المفتوحة. وتلقانا بعد ذلك عهوده إلى الأمراء الذين أبقاهم على إماراتهم في القبائل وفي اليمن، كما تلقانا عهوده إلى من كان يُرْسل بهم لتعليم الناس في آفاق الجزيرة شؤونَ دينهم، وما ينبغي أن يأخذوه منهم من الزكاة، وقد يرسل بذلك إلى بعض أمرائهم. ومن خير ما يصوِّر هذه العهود كتابه[1] إلى عامله باليمن، وفيه يأمره بتقوى الله والأخذ بالحق وأن يعلِّم الناس القرآن ويفقههم فيه كما يعلمهم أوامر الدين ونواهيه وما فُرض عليهم من الحج إلى بيته المقدّس ومن الصلاة، وإيتاء الصدقات ويرسم له حدودها على الزروع والثمار والأنعام والأغنام وأن من زاد خيراً فهو خير له.

وعلى هذا النحو اتسعت الكتابة على عهد الرسول، إذ أصبحت تؤدِّي تعاليم الدين الحنيف، وكل ما أقامه لصلاح الجماعة الإسلامية وسعادتها، وكل ما فرضه من معان إنسانية في معاملة من يدخلون في لوائه وفي ذمة الله وعَقده.

ويتولَّى أبو بكر الصديق مقاليد خلافة الرسول، ويرتد كثير من العرب، فيجند لهم الجيوش ويبعث مع قادتها بكتاب مفتوح يدعو الناس فيه إلى الاعتصام بدين الله وأن من استجاب وكفَّ وعمل صالحاً قُبِل مِنه وأعين عليه، ومن أبى فلن يعجز الله وقوتل حتى يُقرّ بالحق. وأتبع ذلك بعهد لأمراء الأجناد ضمَّنه نفس هذه المعاني وأن يستوصوا بالمسلمين في حسن

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ١٠٤.

الصحبة ولين القول . وما زال يتراسل معهم حتى رُئِب الصدع . وتتحول الأجناد بأمرائها إلى الفتوح ، فيكتب لهم ناصحاً على نحو ما كتب لخالد بن الوليد[1] . وتلقانا له منذ هذا التاريخ كتابات وعهود مختلفة كان يرسل بها إلى رؤساء الأجناد في البلاد المفتوحة . وكان آخر ما كتبه عهده لعمر ، وفيه يقول : « إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب فإن بَرَّ وعَدَل فذلك علمي به ورأيي فيه ، وإن جار وبدّل فلا علم لي بالغيب . والخير أردت . ولكل امرىء ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنْقلب ينقلبون » .

وَوَلِي عمر ، فتمت في عهده فتوح إيران والشام ومصر ، ومع كل بلد تُفْتح كان أمراء الأجناد يكتبون لأهلها العقود والعهود ، وكان عمر لا يني عن مراسلتهم في كل ما يهمّ من الأمر ، سواء فيما يتصل بالحرب وتنظيم الجيوش أو فيما يتصل بمعاملة أهل البلاد المفتوحة وما يُعطى لهم من عهود ، وعهْده لأهل إيليا (بيت المقدس) الذي أشرنا إليه في غير هذا الموضع مشهور ، وفيه يقول[2] :

« هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان : أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم ولا يُنقَص منها ولا من حيِّزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يُكرهون على دينهم ولا يضارّ أحد منهم ، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيليا أن يُعطو الجزية . . وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين » . وواضح أن عمر ترسّم في هذا العهد عهد الرسول ﷺ لنصارى نَجران . وعلى نحو ما كان يستلهم صنيع الرسول في عهوده كان يستلهم وصاياه لولاته في سياسة الناس ومعاملتهم بإحسان ، ومن خير ما أثر عنه في هذا الجانب رسالته إلى أبي موسى الأشعري واليه على البصرة ، وهي تمضي في البيان والتبيين على هذا النحو[3] :

---

(1) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٢٧ .

(2) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٦٨ .

(3) البيان والتبيين ٢/٤٨ وما بعدها .

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متّبعة ، فافهم إذا أُدلي إليك ، فإنه لا ينفع تكلُّم بحق لا نفاذ له . آس بين الناس في مجلسك ووجهك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا يخاف ضعيف من جُورك . البيِّنة على من ادَّعى ، واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرَّم حلالا أو أحل حراماً . ولا يمنعنَّك قضاءٌ قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك ، وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع عنه إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعةُ الحق خير من التمادي في الباطل . الفهم الفهمَ عندما يتلجلج في صدرك ، مما لم يبلغك في كتاب الله ولا في سنة النبي ﷺ . اعرِفِ الأمثال والأشباه ، وقِس الأمور عند ذلك ، ثم اعمد إلى أحبِّها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى . واجعل للمدعي حقا غائباً أو بينةً أمداً ينتهي إليه ، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا وجَّهت عليه القضاء ، فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العذر . المسلمون عُدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حدّ أو مجرَّباً عليه شهادة زور أو ظنيناً[١] في ولاء أو قرابة ، فإن الله قد تولى منكم السرائر ، ودرأ عنكم بالبيِّنات والأيمان . ثم إياك والقلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق ، التي يُوجب الله بها الأجْر ، ويُحسن بها الذُّخر ، فإنه من يُخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ، ولو على نفسه يَكفيه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزيَّن للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك هتك الله سِتره وأبدى فعله . والسلام عليك » .

والرسالة وثيقة مهمة فيما ينبغي أن يكون عليه الحاكم قاضياً أو غير قاض من الرفق برعيته ومعاملة جميع أفرادها على قدم المساواة . وعمر يضع فيها أسس النظر في الادعاء وفي الصلح بين المتخاصمين ، ويفتح الباب واسعا أمام من يقضي في شأن من شئون الرعية ويتبين خطأ قضائه أن يرجع فيه . وما يلبث أن يضع للحاكم الأصول التي يصدر عنها في أحكامه ، وهي

(١) ظنينا : متهماً .

الكتاب والسنة فإن لم يجد فيهما ما يُنير له الحكم اجتهد برأيه معتمدا على القياس . ويجعل للمدعي أمداً ينتهي إليه . ويقول إن الأصل في المسلم أن يكون عدْلا ، إلا أن تَنتفي عدالته فلا تصح شهادته . ويوضِّح للحاكم قاضيا أو غير قاض موقفه من الخصوم فلا يتأذّى بهم ولا يتنكر لهم . وقد ترك وصية[1] للخليفة من بعده تُعَدّ دستورا رفيعاً للحكم ، سواء فيما يتصل بحكم المسلمين أو حكم أهل الذمة وما ينبغي أن يُؤخذوا به من الرفق .

وفي الحق أننا لا نصل إلى عهد عمر حتى تصبح الكتابة جزءاً أساسياً في أعمال الدولة ، وحتى تتضمن كل تعاليمها وكل ما رسمته للمسلمين وأهل الذمة من العلاقات السياسية والاقتصادية في الخراج وقسمة الغنائم وكل ما يتصل بالأنظمة في الشعوب المفتوحة . وعمر في ذلك كله يستلهم القرآن والسنة النبوية ، ويستشير أصحابه في كل ما يأخذ من أمر ويَدع ، وهو في ثنايا ذلك يجتهد ويفتح الباب لاجتهاد أصحابه . فإذا قلنا بعد ذلك إن الكتابة رقيت في العصر رقيّاً بعيدا لم نكن مغالين . إذ وَسِعَت كل الحاجات السياسية التي جَدّت ، وكل ما أُعْطي للمسلمين المحاربين والشعوب المفتوحة من حقوق .

وقد مضى فاتحو الثغور في عهد عثمان يكتبون عهودهم لمن يغلبون عليهم أو يدخلون في طاعتهم دون حرب مقتدين بما رَسمت العهود في عهد عمر وأبي بكر ، وكان عثمان يكتب أحيانا إلى ولاته في الحرب والسلم . وخَلَفه عليٌّ فكثرت الحاجة بحكم حروبه إلى مكاتبات مختلفة بينه وبين الخارجين عليه . ومن أهم ما كُتب حينئذ وثيقة[2] التحكيم بينه وبين معاوية .

وواضح من ذلك كله أن الكتابة تطورت تطورا واسعا في هذا العصر ، فقد تعددت الموضوعات التي تناولتها والتي لم يكن للعرب بها عهد قبل

(١) البيان والتبيين ٢/ ٤٦ .
(٢) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٨١ .

الإسلام ورسالة صاحبه النبوية ، إذ أخذت تحمل مجموع النظم الجديدة التي قامت عليها دولة الإسلام العتيدة . وكان الرسول عليه السلام هو الذي ذللها لتحمل هذه النظم ، وخلفه عليها قواد الجيوش في عهودهم للبلاد المفتوحة وخلفاؤه الذين فصّلوا هذه النظم وطابقوا بينها وبين حاجات المسلمين من جهة وحاجات من غلبوا عليهم من جهة أخرى ، ولعمر من بينهم في ذلك القَدح المعلَّى إذ ساعدتْ كتبه الكثيرة في الفتوح والي الولاة على أن ينال النثر الكتابي كل ما كان ينتظره زمن الخلفاء الراشدين من تطور ونهوض .

(*) من أراد الاستزادة والافادة فليراجع كتاب « العصر الاسلامي » للدكتور شوقي ضيف فهو كتاب مفيد .

توزيع

دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان